فترة التكوين فى
حياة الصادق الأمين

خليل عبدالكريم

القاهرة ٢٠٠٤

فترة التكوين في حياة الصادق الأمين

الكتاب : فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين
المؤلف : خليل عبدالكريم
الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٠٤
الناشر : دار مصر المحروسة
المدير العام : خالد زغلول
مدير النشر والتوزيع : يحيى إسماعيل
المدير الفنى والتنفيذى : إيناس حسنى
المراجعة اللغوية : عبدالمنعم فهمى
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٥٧٠ / ٢٠٠٣

١٣ شارع قولة امتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة
تليفون - فاكس : ٣٩٦٠٥٠٠

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
مدخـــل	٩
قيـــدام	١٥
فرشة	٢٣
الفصل الأول: هذا الشاب لابد أن أباعله	٣١
الفصل الثانى: الأم الرؤوم	٧٧
الفصل الثالث: التحديق فى الهندوز	٩٥
الفصل الرابع: التفرس فى اليعسوب	١٤٥
الفصل الخامس: موجبات الاختيار	١٧٥
الفصل السادس: أطوار التجربة الكبرى	٢٣٣
أولاً: المصادر	٣٦١
ثانيا: كتب الأحاديث وشروحها	٣٦٢
ثالثا: المراجع	٣٦٢
رابعا: المعاجم والقواميس وكتب المفردات	٣٦٥

مدخل
قيدام
فرشة

أ- طية أولى

ب- طية أخرى

غــرة شــعــبــان ١٤١٩هـ ٢٠ نوفــمـــبـــر ١٩٩٨م

مدخـــل

(١)

فى وسط جزيرة العرب وغربها وبالأخص فى منطقة الحجاز وقبيل الثلث الأخير من القرن السادس الميلادى كانت كافة الظروف تستدعى «القادم الجديد» بل تلح فى طلبه وتستعجله وقد أعطينا الأحوال المادية بسائر ضروبها حظها من التحميص والبحث والدراسة فى كتابنا «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية».

أما عن الجانب التيولوجى[١] فنكتفى بتسطير ما أورده ابن هشام فى السيرة النبوية بشأنه:

- قال ابن إسحق: وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا فى كتبهم من صفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع إذ كانت هى لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالاً حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها [٢].

وكانت آنذاك فى قرية القداسة ـ مكة ـ فئة مع قدر معلوم من التجاوز يمكن أن نطلق عليها الأنتلجنتسيا [٣] هى أكثر أهلها تشبعاً بفكرة القادم الجديد أو النبى المنتظر وأعظمها تشوقاً إليه وأشدها تشوقاً إلى ظهوره.

ومن بين تلك الفئة السيدة خديجة بنت خويلد التى تجيد القراءة والكتابة وهذا ما سنطرح فى أوانه أدلة الثبوت عليه وهى من رهط أسد بن عبدالعزى «من قريش» الذى ظهرت فيه النصرانية[٤]. وتعمق فى دراستها بعض بنيه حتى وصل إلى رتب منيفة فيها مثل ورقة بن نوفل «القس» وعثمان بن الحويرث «البطرك» وقتيلة أو أم قتال أخت ورقة «الكاهنة» والثلاثة هم أبناء عمومة

خديجة وارتفعت العلاقة بينهم «خاصة القس والكاهنة» وبينها إلى مستوي الحميمية المقرونة بالاختلاط.

وحظيت خديجة قبل الإسلام بألقاب ذات نكهة دينية لا تخفى على ذى اللب ولا تستبهم على الفطن ولا تستغلق على الأريب فهى: «سيدة نساء قريش» أو «سيدة قريش» وهذا للتو لا على التراخى يستحضر إلى ذاكرتك ما وصفت به مريم بنت عمران فى الإسلام: «سيدة نساء العالمين» وسيأتى فى ثنايا البحوث أو الدراسات القوادم أن محمداً كثيراً ما كان يقرن بين السيدتين: «سيدة نساء العالمين» و«سيدة نساء قريش أو سيدة قريش»، يقرن بينهما فى المقام والدرجة فى منازل جنة عدن ولم يأت ذلك اعتباطاً أو عفو خاطر فاحاشا أن يفعل محمد ذلك.

ومن الألقاب التى حلت جيدها «=الطاهرة» وهو لقب تفوح منه أيضاً رائحة مسك دينى أو لاهوتى ويذكرك بلقب تحمله مريم أم المسيح لدى النصارى وهو «معدن الطهر والجود والبركات» وفى القرآن عنها: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ [٥].

وليس مصادفة إضفاء ذلك اللقب على خديجة بل لعلة كامنة «أو مكنونة» وإلا فلماذا لم تلقب بالشريفة أو الكريمة أو العفيفة مع أنها تحوزها بجدارة؟ ولماذا هى دون غيرها فازت بهذا اللقب ولم ينفح لامرأة خلافها إن قبل الإسلام أو بعده [٦]؟

وفى المسيحية يبدأ التطهير من الداخل أى من القلب وناشد ابن مريم تبعه أن يحبوا بشدة بعضهم بعضا من قلب طاهر[٧].

خلاصة القول إذن أن لقب الطاهرة تضمخ بعبق دينى أو لاهتوى نفاذ، وأن من المستحيل أن تجىء إضافته في حق خديجة مصادفة أو خبط عشواء.

إن اللقبين «سيدة نساء قريش والطاهرة» لهما دالة لا تغيب عن ذهن الذكى اللوذعى، أو ذلك الذى يقرأ سيرة محمد بعقل يقظ وعين مفتوحة وبصيرة ثاقبة ولب واع وهذا ما نادينا ولازلنا ننادى به.

إذن فاز بنو أسد بسهم وفير من بين فروع قريش بصفة الأنتلجنتسيا فكانت من بينهم القس «ورقة بن نوفل» والبطرك «عثمان بن الحويرث» والكاهنة «قتيلة أو أم قتال بنت نوفل» والطاهرة وسيدة نساء قريش «خديجة بنت خويلد».

بيد أن الذى لا ريب فيه ولا يختلف بشأنه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان أن خديجة فلجت على الثلاثة الآخرين وبزتهم لأنها امتازت عليهم بخصال وملكات نفسية افتقروا إليها، يأتى فى مقدمتها استشراف المستقبل والفراسة التى لا تخيب وموهبة الإلهام الصادق وغريزة اختيار المجلى «السابق والفائز» والرهان عليه، والصبر العرّى عن الضروب «الذى لا مثيل له ولا حتي شبيه» للوصول إلى

الهدف وتحقيق الغاية والحصول على المنية.

فالطاهرة من دونهم لم تنتظر القادم الجديد فحسب، بل فلّت مجتمع مكة وخاصة شبابه ودققت النظر فى قوادمه وخوافيه وحدقت فى حناياه ولم تتعجل أو تتسرع وصبرت سنوات طولة قاربت الربع قرن حتى اهتدت إليه: إلى القادم الجديد وبمعني أدق إلى من يصلح لذلك، وهنا ضربت عرض الحائط بالتقاليد الرواسخ رسوخ الجبال بل وحطمتها فقدمت نفسها إليه ومدت هى يدها إليه ولم تعبأ بفارق السن والمال حتى إذا تشيأ الحلم على الأرض وتحول إلي واقع انتقلت من مرحلة الفرز والتجنيب والسبر والاختبار إلى مرحلة الإعداد والشحن والإمداد والتعبئة والتهيئة واستغرقت تلك المرحلة من عمرها المبارك «خمس عشرة سنة» قدمت فيها تضحيات جسيمة من المال والنفس والبدن حتى أثمرت الشجرة وطرحت أكلها الحلو وآن للطاهرة أن تعلم لأهل مكة: هاكم «القادم الجديد» الذى طال انتظاركم له وشوقكم إليه.

(٢)

أما ورقة بن نوفل أو القس فلم يكن دوره هامشياً أو جانبيًا كما قد يتبادر إلى الذهن، صحيح أن ابنة عمه قد استعملته كأحد العوامل الفاعلة فى تحقيق الهدف الذى تغيّته بيد أن ذلك لا يعنى أنه كان ألعوبة فى يدها، إذ من المستحيل تصور ذلك لأنه الأستاذ والمرشد والمستشار والمرجعية وكان بجوارها خطوة وراء خطوة ومرحلة إثر مرحلة ولكنه على نقيض سيدة قريش كان متسرعاً عجولاً وكثيراً ما كان يصرح متى يا خديجة.. لقد طال صبرى.. إلخ، إنما هى لرجاحة عقلها أدركت أن مثل هذا العمل يحتاج إلى وقت ممدود لأن التجارب الخطيرة تستنفر قدراً وفيراً من الحشد الذى يستغرق زمناً وسيعاً وأن العجلة تفسدها ولو أنها طاوعت أستاذها ومرشدها لقدر لها الإخفاق ولما نجحت ذلك النجاح الذى لم يكن يخطر على بال أحد.

ولكن والحق يقال فإننا نلتمس العذر للقس فقد غدا فى أواخر فترة التأسيس وإبان الإعداد وزمن التكوين شيخاً كبيراً فقد بصره ولذا فإنه قد توفى بعد أعوام قلائل - قيل إنها لم تزد على ثلاثة - بعد الإعلان عن نجاح التجربة ورفع الستار عن القادم الجديد وكان القس يتمنى لو كان جذعاً آنذاك لينصر الله نصراً مؤزراً لا يعلمه إلا هو، ولكن ما هو دور القس الذى نفينا عنه الهامشية والجانبية؟

كان ورقة بن نوفل واحدا من أهم شخصيات تيار الحنيفية الذين رفضوا التعددية الإلهية وآمنوا بالتوحيد أو بوحدانية الله بيد أنه اختار النصرانية وقرأ التوراة والإنجيل وتبحر فى علوم الكتاب، ولم يكتف بذلك بل خطا خطوة فاذة وهو تعلم اللغة العبرية أو اللسان العبرانى مما أتاح له نقل أجزاء عديدة من

التوراة والإنجيل الأمر الذى أتاح لمن يقرأون ويكتبون، قراءتها واستظهارها، ولاشك أن الذاكرة الحافظة كانت لدى أفراد ذلك المجتمع قوية أشد ما تكون القوة وقد طالعنا فى ذلك أخباراً معجبة فعبدالله بن عباس بن عبدالمطلب كان يحفظ القصيدة الطويلة غب «بعد» ما تلقى عليه مرة واحدة، وما لنا نذهب بعيداً فالمسلمون الأوائل حفظوا سور وآيات القرآن بعد سماعها من محمد على الفور وهناك حديث ذو دلالة عميقة يصفهم فى هذه الخصوصية بأنهم «أناجيلهم فى صدورهم» فإذا كان النصارى قد دونوا إنجيلهم فإن صحبه قد استودعوا صدورهم القرآن.

بعد هذه الاستطرادة نعود إلى السياقة:

خديجة هى ابنة عم ورقة وعلى صلة وثقى به وهناك اختلاط وزيارات متبادلة وكانت تقرأ وتكتب فهى ومن باب اليقين قد استوعبت تلك الأسفار التى نقلها القس من العبرانية إلى العربية من التوراة والإنجيل وحفظتها واختزنتها فى ذاكرتها، تلك كانت واحدة.

أما الأخرى ففى ليالى مكة الطويلة فإن عقد جلسات ممتدة يشكل ورقة أحد أطرافها أمر محتوم وفيها كان يطرح ما ورد بالتوراة من أخبار وقصص ونوازل بداية بالخلق والتكوين وآدم وحواء والشيطان والشجرة والحية ومروراً بقصص أنبياء بنى إسرائيل وفى مقدمتهم قصة موسى ثم حكاية فرعون وبنى إسرائيل وما جاء بالإنجيل عن عيسى وولادته الفريدة ومعجزاته المدهشة ونحن نرجّح أن تلك الجلسات الطوال كانت من أهم مكونات فترة التأسيس وأنها أفادت فوائد لا تقدر بعد إعلان نجاح التجربة.

بخلاف ذلك.

فإننا نستطيع أن نقول إن ظهور القس فى مسيرة التجربة بدأ مبكراً فما إن عزمت أم هند «خديجة» على الزواج بمحمد حتى بارك هذا الاختيار وتحمس له إذ تنقل إلينا بعض كتب السيرة المحمدية ذات الوزن الثقيل والمقام المحمود أن ورقة كان حريصًا على حضور مجلس العقد وما إن انتهى أبوطالب عم محمد من إلقاء خطبته التى أبدى فيها الرغبة فى مصاهرة بنى أسد فى خديجة زوجًا لمحمد؛ حتى انبرى ورقة وتكلم مبديًا الموافقة رغم وجود عمها عمرو بن أسد الذى كان يعتبر وليّها فى عقدة النكاح الأمر الذى لفت انتباه أبى طالب وأفصح عن ضرورة سماع رأى العم والولى.

هل كان القس يخشى أن يرفض العم والولىّ أو حتى يتردد ويتلجلج لأنه بمقاييس ذلك الزمان كان من حقه أنه يرفض إذ إن هناك روايات تنص على رفض أبيها خويلد بن أسد بل وتفوهه بعبارات سقيمة فى حق محمد ـ الأمر الذى كان سوف يثير حفيظة بنى هاشم ويثورون لكرامتهم وينصرفون وبذلك

يفسد التدبير الذى نسجت خيوطه السيدة خديجة وصدّق عليه ابن العم ورقة ومعلوم أن ذلك كان بداية الشوط.

لا نستطيع أن نصدر حكماً قاطعاً فى هذه الخصوصية بيد أن الذى ندريه على وجه اليقين أن القس كشف عن حماس بيّن فى إتمام الزواج بعد أن اقتنع بصواب بنت عمه أم هند فى اختيار محمد زوجًا من بين شباب ورجال قريش.

بعد ذلك ثابر القس فى مد يد العون الذي لا يقدر لسيدة نساء قريش فى اجتياز مراحل الإعداد والتهيئة والحشد بكافة ضروبها: من الإتاحة لها بالاطلاع على الأسفار المترجمة إلى اللسان العربى ولا نستبعد السماح لها بأخذها إلى دارها.. إلى جلسات المذاكرة والمدارسة والمحاضرة والنقاش والحوار...

وقد أخبرتنا كتب السيرة أن القس سافر إلى الشام وقابل الأحبار والقسس والرهبان والبطارقة وناظرهم ووعى ما لديهم من أفكار ونظريات ولذلك قيل عن ورقة إنه قد استحكم فى علم الكتاب، ومن غيره كان يصلح أن يغدو موجهاً ومرشداً ومعلمًا؟

ونظراً لتلك الصلة الوثقى فقد كان على إحاطة تامة بأدوار الترقى والصعود من درجة إلى درجة ولا بأس من تقديم النصيحة وطرح المشورة وإعطاء الرأى السديد ونفح الفكرة الحكيمة. إذن هو كان على علم دقيق بمجريات التجربة وتفصيلات مسيرتها ودقائق خطواتها ـ إنما الذى كان يعيبه أنه كان عجولا يتسرع قطف الثمرة قبل نضجها بل قبل بدّوها بعكس الطاهرة فقد كانت متأنية رفيقة صبورة لأنها كانت على ثقة تامة ويقين كامل بحسن اختيارها وصواب نظرتها ونفاذ بصيرتها، وأخيراً نجحت وفازت وتكللت مساعيها التى سلخت من عمرها المبارك خمسة عشر عاماً والتى كلفتها ما لا يحصيه إلا الله وحده من الجهد والمال والمعاناة توجت بالنصر الساحق إذ ما فتئ وجود «القادم الجديد» أن غدا حقيقة بعد أن كان حلمًا.

وفرح القس ـ ساعتذاك ـ فرحًا طاغيًا أخرجه عن وقار الشيخوخة ومرق به عن موجباتها وفاه بعبارات تنم عن ذلك.

تلك التجربة المدهشة التي قادتها وخاضتها الطاهرة بتمكن وإقتدار يعزان على المثيل والتى ظاهرها فيها القس ورقة بأستاذية ومهارة فائقتين، تدفعنا إلى ضرورة دراستها دراسة موضوعية عبر مسيرة هاتين الشخصيتين اللتين تنالان منا كل إجلال وتقدير.

قيـــدام

نحن نؤمن أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب لم يطالع صحيفة أيا كانت المادة المصنوعة منها ولم يمسك قلما ولم يخط بيمينه كلمة ولا حرفًا، ومع تقديرنا للبُحّاث الذين أجهدوا أنفسهم لإثبات أنه لم يكن أميًا بل كان يعرف القراءة والكتابة فإننا نرى أن ما طرحوه لا يعدو أن يكون قرائن لا ترقى إلى رتبة الأدلة.

ونصدق ما جاء بالقرآن من أنه كان أميًا وما ورد فى العديد من الآيات التى تقطع بذلك منها ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ [٨]، ﴿ **وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ** ﴾[٩]، ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾[١٠].

١ـ أما ما يدعيه بعض المستشرقين إن من الفرنجة أو من الصقالبة أن المقصود بكلمة «الأمى» التى ذكرت فى القرآن وصفاً لمحمد أنه «الأممى» أى من قوم لا يدينون بالكتاب المقدس «**اليهود والنصارى**» ويعبدون الأوثان وغير موحدين ولا يوجد لديهم كتاب أو أنبياء أو رسل فهذا مردود عليه بأن القرآن لم يكن يعجزه أن يقول ـ على سبيل المثال: «**هو الذى أرسل فى الأمميين رسولاً منهم**»، «**وقل للذين أوتوا الكتاب والأممين**»، «**والنبى الأممى**» وهكذا .

ذلك أن اللغة العربية تطلق على من لا يعرف القراءة والكتابة أمى وقيل فيه عدد من التفسيرات أبسطها أن الأمى حاله كحال من ولدته أمه «الأمية = مصدر صناعى بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة» [١١]. وفى مفردات غريب القرآن: «الأمى هو الذى لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حُمل ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾»[١٢]. ثم يستمر الأصفهانى فى تأكيد ذلك فيقول:

«منه قوله تعالى: ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى** ﴾ أى إلا أن يتلى عليهم. قال الفراء: هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب و«النبى الأمى الذين يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل» قيل منسوبًا إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم.. وقيل سمى بذلك لأنه لم يكتب ولم يقرأ من كتاب

وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله له»[١٣].

وفى هذا غنية (بضم الغين وكسرها) لأننا لسنا بصدد كتابة بحث فى هذه النقطة.

وما نقلناه عن الراغب فيه رد كاف على مزاعم أولئك المستشرقين الذين صرحوا بأن العلة الكامنة وراء ادعاء المسلمين أمية محمد هو إثبات معجزة القرآن إذ كيف يتأتى لأمى أن يورد فيه ما حواه من قصص الخلق والتكوين وآدم وحواء وإبليس والحية والطوفان والأنبياء والرسل بخلاف العقائد والعبادات المواعظ والرقائق والأخلاقيات والحدود والحكم والشرائع... إلخ؟ إذن لابد أن هذا القرآن منزل من عند الله سبحانه وتعالى، والذى نراه أن هذا المنزل يؤكد فسولة رأى أولئك النفر من المستشرقين وضيق أفقهم وعطن فكرهم وفساد نظرتهم ووهن ذهنهم وضعف قريحتهم وسوء استنباطهم واعوجاج استقرائهم وأنهم قرأوا سيرة محمد قراءة عجلى وطالعوها مطالعة نزقة ولم يمعنوا النظر فيها ولم يدققوا التحديق فيها ولم يفلوا قوادمها ولم يبحثوا فى خوافيها، مع أن المشهور عنهم العكس.

ولو أنهم قرأوها «= سيرة محمد» قراءة مستأنية وطالعوها مطالعة صبورة ودرسوها على ريث ولبدوا «=أقاموا ولزقوا» بين صفحاتها ولم يفروها[١٤] لما كانت بهم حاجة لطرح تلك الفكرة الخائبة فإن الأمر أهون من ذلك ولا يحتاج إلى هذا التمحل ولا يستدعى ذلك التكلف ولا يستنفر ذلك الاصطناع كما سوف يلمس القارئ بحواسه قبل أن يدركه بعقله ويرى ببصره قبل أن ينفذ إليه ببصيرته وسيتبين بوجدانه قبل أن يفقه بوعيه.

٢ـ سبق صناديد مكة أولئك المستشرقين الذين ذكرناهم بفكرة لا تقل ركا وتنافسها في السخف وتباريها فى الضعف وهى أن محمداً تعلم القرآن من قيْن «حداد» بمكة يسمى **بلعام** وفى رواية من عبدين صقليين أحدهما يسمى **يسار** والآخر **جبر** وثلاثتهم من النصارى ولقد سجل القرآن تلك الأحدوثة[١٥] وقد أورد السيوطى بشأنها روايتين:

● أخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان أعجمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾[١٦].

● «وأخرج ابن أبى حاتم من طريق حصين عن عبدالله بن مسلم الحضرمى قال: كان لنا عبدان أحدهما يقال له يسار والآخر جبر وكانا صقليين فكانا

يقرآن كتبهما ويعلمان علمهما وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيستمع قراءتهما فقالوا: إنما يتعلم منهما فنزلت الآية...»[١٧].

هذه الحكاية أو هاتان الحكايتان تحملان فى طياتهما أدلة عوارهما فـ:

أ- من المستقر عليه لدى الباحثين فى تاريخ منطقة الحجاز فى ذلك الإبان أن العبيد النصارى الذين كانوا فى مكة علمهم بـ«الكتاب» كان مهزولاً وكانت لدى بعضهم وريقات من الإنجيل لا تسمن ولا تغنى من جوع وبالتالى فمن المحال أن يغذوا محمدا بذلك الكم الوفير من المعلومات والقصص... إلخ وحتى ولو فرض أنه كان لديهم إصحاحات من التوراة فينسحب عليها ذات الحكم.

ب- أن الغالبية العظمى من أولئك العُبدان النصارى كانوا أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وفاقد الشىء لا يعطيه.

جـ- أولئك العبيد كان فى لهجتهم أو لغتهم عُجمة وفى لسانهم حُكلة مما يجعلهم عاجزين أو معوقين عن نقل ما لديهم من علم، هذا مع التسليم الجدلى البحت بأنهم يحوزون علماً.

وحقيقة أن محمداً بما أوتى من فصاحة ورزق من بلاغة ونفح من لسن ومنح من ذرابة كان فى مقدوره ترجمة ما يتلقاه منهم إلى اللسان العربى المبين بيد أن المشكلة تكمن فى البداية وهى صعوبة أو عسر توصيل ما عندهم من معارف إلى محمد وهذا مشاهد فيمن يريد أن يشرح وجهة نظره بلغة لا يجيدها فيعسر عليه ذلك.

د- المدة التى كان يمكثها محمد مع بلعام أو يسار أو جبر حتى ولو كان هؤلاء يجيدون الحديث باللغة العربية لا تتيح لهم أن يمدوه بهذا الفيض الزاخر من المعارف، ولم تنقل لنا إحدى الروايتين أو كلتاهما أن محمدا كان دائم اللبُاث عندهم أو كان كثير اللزام لهم أو كان طويل المكث لديهم يقضى معهم الليالى الطوال أو يعقد معهم الجلسات المادّة أو يمضى معهم اللقاءات الوسيعة أو ينفق لديهم وقتا فى المقابلات الفسيحة.

وترتيبًا عليه فإن تلك القعدات الخاطفة يستحيل فى ميزان المنطق أن تطرح هذا المحصول الثرى من العلم الذى تحتويه سور وآيات القرآن على الأقل المكية منه.

إذن ترهات أئمة «**الكفر فى مكة**» زمن محمد وشطحات بعض المستشرقين «فرنجة وصقالبة» التى عرضناها آنفا لا تعدو أن تكون محاولات متهالكة لتفسير ما جاء بالقرآن العظيم وانضوائه على هذه الروائع فى كل الأغراض وبداهة هم ينسبونه إلى محمد وبالتالى يقدمونها «**الترهات والشطحات**» كتعليل

لصدوره أى القرآن الكريم منه وقد قمنا بتفنيدها جميعها وكشف زيفها ورفع الحجاب عن فسادها وتبيين تهافتها والإفصاح عن وهنها وتوضيح ركاكتها وتوصيف هزالها ونحن على يقين أن القارئ بعد أن طالع ما سطرناه بشأنها ألقاها جانباً وأعرض ونأى عنها بل ضرب بها عرض الحائط بعد أن فقدت فى نظره كل قيمة وافتقرت لأى قدر من الثمانة.

٣- وهذا الكتاب يقدم رؤية جديدة نزعم أنها غير مسبوقة لحل هذا اللغز الذى «**ملأ الدنيا وشغل الناس**» وقد التزمنا فيها «الرؤية» بالمنهج الأثير لدينا والذى غلب على مؤلفاتنا الأخيرة وهو المنهج التاريخى.

فقد بدأنا مع محمد قبل أن يلتقى أبوه بأمه ثم وهو جنين فى بطن أمه ثم صاحبناه ليلة مولده ثم وهو مولود ثم طفل ثم صبى ثم شاب حتى التقطته «**سيدة قريش**» بعد أن توسمت فيه بفراسة يعز مثلها أنه هو «القادم المنتظر» الذى طال شوق أصحاب جميع الملل وكل الأديان والمعتقدات وسائر النحل إليه وعلى رأسهم سدنة الأصنام والكهان والرهبان والأحبار ثم قيامها بمعونة سخية من ابن عمها «القس» الذى استحكم فن «علم الكتاب» بدور لا نجد له فى تاريخ الأديان مجرد شبيه. ملحمة خالدة سلخت من عمر الطاهرة والقس عقدا ونصف عقد من الزمان فى الإعداد والتصنيع والتهيئة والتأهيل حتى طرح ذلك العمل الصبور الدؤوب المتأنى المخطط والمرسوم بدقة متناهية ثمرته الناضجة. وحدثت واقعة «**غار حراء**» بصورة فاذة معجبة أدهشت حتى فاعليها «بفتح اللام»: سيدة نساء قريش وورقة لأنها جاءت بصورة لم تكن تخطر لهما على بال ولم يحلما بها قط.

ولاشك أن هذا النجاح الكبير والفلج الفريد والفوز المبين يؤوب بنسبة كبيرة إلى موضوع التجربة نفسه فقد كان عبقريا لا يفرى فريه أحد ذلك أن سيرته الذاتية وخبراته الشخصية وملكاته العقلية والنفسية واللسانية كانت ركائز أساسية فى فلاح التجربة.

ولم يسيطر هدف هذه الدراسة علينا ونحن نبحث وننقب وننقر ونحفر بل العكس هو الصحيح فقد كنا نقاوم هذا الفرض ونعارضه بل ونغربه وننفيه بيد أنه بسلوك منهج البدء بالشك ثم السير والتقسيم والاختبار والامتحان والاستنباط والاستقراء ولكل منها كما هو معلوم أدواته الخاصة، وبصبر ودأب عبر قراءة العشرات من المصادر «الكتب التراثية» والمراجع «الكتب الحديثة» واللسوق بين صفحاتها والمكوث الطويل بين دفتيها.. غب هذا الجهد المضنى والمشقة البالغة والمعاناة الشديدة.. بدأ الهدف يظهر وخطوة إثر خطوة طفقت ملامحه تبدو وقسماته تبين حتى اشتد عوده واستوى على ساقيه بالأيأه[١٨] التى يطالعها القارئ.

ونحن لا نزعم أن غاية الكتاب هى الحقيقة المطلقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها إنما هى جهد متواضع لفتح مغلاق طالما أرق الكثيرين رفع مرتاجه «أى فتحه».

ثم نورد ملحوظة نذهب إلى أنها على درجة كبيرة من الأهمية والخطر وهى أنه مهما كانت الجهود التي بذلتها «الطاهرة» وعاضدها فيها ابن عمها «القس» فإنها لا تنفى عن التجربة وفى مقدمها «**حادث الغار**» جانبها الغيبى وناحيتها الميتافيزيقية إذ لا تعارض بين الأمرين بل إن كلا منهما يكمل الآخر ويدعمه.

وآمل ـ وهذا أمر متوقع ـ ألا يسىء البعض فهم هذه الدراسة ويفسرها على نحو لم يرد على خاطرنا وكنا قد طلبنا وألححنا بل ألحفنا فى الطلب بضرورة كتابة التاريخ العربى الإسلامى كتابة علمية موضوعية بديّاب الحبيب المصطفى وكررنا أن الكتابة فيه بطريقة مغايرة للكتابة التقليدية يتعين أن تقابل بأفق رحيب ونظر ثاقب وعقلانية رصينة وبصيرة واعية ونظرة هادئة بعيدة عن التشنج والعصاب ونذكر هؤلاء بأن الأمين ذاته أكد أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ونحن نأمل أن نحظى بالأجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة.

٤ـ وسوف يلاحظ القارئ أننا أخذنا بما جاء فى الكتب التراثية حجة مسلمة خاصة فيما يتعلق بالخوارق والمعجزات والمدهشات التى ارتبطت به «=أبى القاسم» من قبل ولادته ثم حمله فوضعه ورضاعته وطفولته وصباه.. إلخ مما يراه البعض حتى من بين الكتاب الإسلاميين المحدثين بعيدا عن العقلانية ومجافيا لطبائع الأمور ومضادا للمنطق وكانت البواعث الدوافع لولوج هذا الدرب ولسلوك هذا الطريق عديدة نكتفى منها بالآتى:

أ ـ أن الطعن فى هذه الأخبار يعطى خصومنا فى الرأى سلاحاً ـ ولو أنه مغلول ـ أننا نطعن فى الأحاديث والسنة وهى المصدر الثانى للشريعة الإسلامية ووجه القل فى هذا السلاح أننا فى كل كتاباتنا دافعنا عن السنة ووصفناها بأنها «**ديوان الإسلام**» وطالبنا بقبول الأحاديث حتى المعلول منها لأنها تعكس صورة ولو تقريبية عن أحوال ذلك المجتمع المعجب.

ب ـ أن المعجزات والأعاجيب والمدهشات والمخاريق جزء من معتقدات تلك البيئة شبه المتبدية ومكون من مكونات شخصياتهم ونذهب إلى القول إن احتقارها وتجاهلها والتعالى عليها هو المسلك أو المنزع اللاعقلانى والرجل أو المرة فى ذياك الزمان الطريف والذى شاء له حسن حظه أن يسيطر بتوجهاته وأفكاره علي عقول أتباع «يد ولد آدم» لأكثر من أربعة عشر قونا ـ نعود فنقول إن الرجل أو المرأة آنذاك كان أسيرا لذلك التفكير الخرافى الأسطورى الذى يؤمن بالقوى الغيبية والكائنات اللامنظورة والعوالم المستخفية... إلخ فأنىّ لمن

يكتب عن تلك البيئة ويشخصها أن يتغاضى عن المعجزات والمدهشات والأعاجيب والمخاريق ولو فعل ذلك هل تغدو كتابته موضوعية أم العكس هو الصحيح؟

جـ - إن تلك الأعاجيب والمعجزات والمخاريق والشعبذات جزء عضوى فى البانوراما التى جهدنا جهدنا لتقديمها للقارئ عن ذلك الجو «الفضاء» الذى تشكلت فيه الأحداث التى عنينا بدراستها قدر الطاقة «عناية» مضاعفة ولا يدل هذا على أنها جاءت كاملة عرية من أى نقص.

وفى معتقدنا أننا لو أسقطنا من حسابنا تلك المعجزات والشعبذات للحق بها «الدراسة» القصور ووسمها الإهمال وركبها العجز وشابها التهاون.

د - أن الشعبذات والمخاريق استمرت تضرب المجتمع الإسلامى حتى الآن فعلى سبيل المثال نرى جمال الدين أبوالفضل الأفريقى المصرى المشهور بابن منظور الذى صنف واحدا من أشهر المعاجم والقواميس «لسان العرب» والذى ولد فى الثلث الأول من القرن السابع الهجرى، وتوفى فى أول سنة من العقد الأول من القرن الثامن الهجرى يفتتح كتابه ذاك بطب الحروف وطلمسات الكتابة «وأنه إذا تمازجت طبائع الحروف مع أفعال الكواكب المقدسة نجمت عن تمازجها أسرار.. تخرق عقول من لا يهتدى إليها»(١٩). بل إن تلك المخاريق متواصلة فى مجتمعاتنا الإسلامية «عربية وعجمية» وقد أهلّ علينا القرن الحادى والعشرون.

فكيف يتسنى غض البصر عنها إذا عزمنا على الكتابة عن هذه المجتمعات منذ فجر الإسلام حتى وقتنا هذا كتابة علمية؟!

هـ - تلك الأعاجيب وخوارق العادات حملتها لنا كتب تراثية عظيمة الاحترام وفيرة التقدير فإذا نأينا بجانبنا عنها رُمينا بالطعن فى التراث والهجوم عليه وتحقيره.. إلخ أو على أقل تقدير إهماله وتجافيه وهذه تهم يسارع كثير من الكتبة المحدثين المحسوبين على الإسلام بتوجيهها لكل من يكتب بمنهج يخالف الطريقة التقليدية الدوجماطيقية التى تيبست عقولهم عليها فلا تفرز سواها.

و- إزاء تلك الخوارق والمعجزات فإن الكتاب المحدثين «الإسلاميين» لهم موقف متناقض ومرجع تناقضه هو المنهج الانتقائى إذ إنهم فى الوقت الذى يدينون أو يستنكرون أو حتى يتجاهلون كثيراً مما حدث فى السيرة المحمدية من معجزات مثل: انفلاق البرمة التى وضع محمد تحتها غِبّ ولادته - أو الإنصات إلى الهواتف من قبل أمه أثناء حملها به ثم عند ولادتها إياه - أو سماع صوت يدل أهله على مكانه عندما فقدوه - أو تصديه وهو صبى للفحل الذى كان يقطع الطرق عندما كان فى سفر بصحبة أحد أعمامه - أو رؤية غلام خديجة ميسرة

لملكين يظللانه من حرارة الشمس أثناء سفره إلى الشام فى تجارة لها وكذلك رؤية الطاهرة إياهما هى ونسوانها لما عاد محمد إلى بيتها ليقدم لها كشف حساب عن المكاسب التى حققها فى تلك الرحلة.. إلخ.

فى حين أن «الكتبة الإسلاميين المحدثين» يصدقون بالمعجزات الأخرى مثل شق صدر محمد على أيدى ملكين عندما كان فى بادية بنى سعد فى حضانة المرضعة حليمة السعدية وبمعجزة شق القمر فى مكة أمام أبصار المشركين ومعجزة الإسراء والمعراج التى يؤكدون أنها كانت عيانية وليست منامية.. فلماذا يكفرون بالأولى ويؤمنون بالأخرى، قد يكون بين الاثنتين فرق ولكنه درجى لا نوعى فهما فى آخر المطاف يستندان معًا إلى قوى غيبية.

أليس شق البرمة أيسر من شق الصدر وما تلاه من إخراج القلب وغسله وتنقيته من العلقة السوداء ومن شق القمر فلقتين كل واحدة منهما على جبل وأيهما أقرب للتخيل تظليل الملكين له وهو يسير فى الصحراء أم الإسراء من مكة إلى القدس على الحيوان العجيب «البراق»؟

ولا يقال دفعًا لذلك إن الأخيرة وردت فى القرآن المجيد ذلك: أن شق القمر من الممكن تأويله تأويلات أخرى لا تعنى حدوث معجزة الشق حالاً وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنه سوف يحدث فى الآخرة.

كذلك الإسراء والمعراج لم ينص القرآن الكريم على أنهما حدثا عيانًا لا منامًا دعك من الاستناد إلى كلمة «عبده» فى الآية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ لأن هذا تمحل فى التفسير فهذه اللفظة كانت تقرؤها عائشة بنت أبى بكر ومع ذلك ذهبت إلى أن الإسراء والمعراج حدثا فى المنام وهى «عائشة» أعلم بما لا يقاس من المتحذلقين الذين يؤكدون أنهما حدثا عيانا بحجة واهية هى كلمة «عبده» والتى يدلون بها بصورة استعراضية فيها المزيد من النرجسية كأنما قدموا كشفًا باهراً مثل تفتيت الذرة وما أدركوا أنه ساذج وعبيط وأنه أقل قيمة من تكسير الجرة.

هذه واحدة.

أما الأخرى:

فإن عددًا لا يستهان به من المعجزات الأولى وردت فى بعض كتب الصحاح الستة التى تلقتها الأمة الإسلامية بمنتهى الاحترام ألا يعنى عدم الاعتراف بها طعناً مستتراً فى هذه الكتب المجمع على تقديرها وكدت أكتب تقديسها وفيم إذن نعيهم على الآخرين طعنهم فى السنة المصدر الثانى فى الإسلام.

أما الثالثة: ليست التفرقة بين نوعى المعجزات بإنكار النوع الأول والاعتراف

بالنوع الآخر ثم السماح لأنفسهم بالطعن الضمنى للصحاح الستة وحظر ذلك على غيرهم أليس هذا وذاك كيلاً بمكيالين وازدواجية معيبة فى المسلك الفكرى؟

وننهى هذه الفقرة بأن إيراد المعجزات التى سوف يطالعها القارئ فيما بعد لا يعيب الكتاب ولا ينزع عنه صفة العقلانية بل هو على العكس يتسق مع المنهج التاريخى الذى التزمناه فيه لأن تلك المعجزات جزء أصيل من الأحداث التى شكلت السياق التاريخى الذى أنتج تلك النازلة المفردة «واقعة غار حراء» وما أعقبها والتى نحاول فى هذا الكتاب أن نقدم تفسيراً جديدًا لحدوثها غير مسبوق آملين أن يكتب لنا التوفيق فى إقناع القارئ به.

فرشـــة

● الطية الأولى:

خـديجـة هـى التـى سـعـت للـزواج من مـحـمـد وروايات هـذا السـعـى الحـثـيث متعددة واختلف البحاث فى البواعث اختلافاً كثيـرًا بيد أن لنا رأيا فاذا فيها لا رغبة فى الفذوذ أو الإغراب أو الإدهاش ولكنه ضفيرة من نسيج الفكرة التى يتمحور أو يتمركز عليها الكتاب وسوف يكشف القارئ ذلك بنفسه.

إن زواج خديجة من محمد أثار فى حينه دهشة جميع المحيطين بهما ومن بينهم خاصة أهلها: أبوها فى مذهب من قال إنه كان حيًا وقت إتمام عقدة النكاح(٢٠) وعمها عمرو بن أسد الذى أنجز العقد وكان ولىّ خديجة فيه، بل إن الدهش لحق بنى هاشم وبنى عبدالمطلب لدرجة أن أبا طالب فرح فرحًا طاغيًا لأنه لم يتوقعه.

فخديجة سيدة قريش أو سيدة نسوان قريش ذات مكانة اجتماعية سامية وتاجرة ناجحة تملك المال الوفير بكافة أنواعه:

النقد والعروض والعبدان والإماء والعقارات ووصفها الوصافون بالجمال والوضاءة وتقدم لخطبتها العديد من وجوه قريش وأعيانها أصحاب الحسب والنسب الأغنياء وقدموا لها الأموال الطائلة كمهر أو سياق ولكنها صدتهم فرجعوا خائبين.

وفى الطرف المقابل محمد فقير مملق لا يملك شروى نقير يرعى الغنم بأجياد على قراريط(٢١) وهى عُمالة لا تليق به فهو من بنى هاشم أحد أفخاذ قريش السوامق بيد أنه فتى يفيض شبابًا وقوة وحيوية وسيمًا قسيمًا بل يعتبر مثالاً للبهاء وقد ورث ذلك من أبيه عبدالله بن عبدالمطلب الذى بمحياه الطلق أحرق قلوب نسوان القبيلة: عذارى وأيامى. وهو لا ضروب له فى حسن الخلق: الصدق فى القول والوفاء بالوعد وأداء الأمانة فاشتهر فى محيطه بـ «**الصادق**» و«**الأمين**».

ولكن الأمر فى قريش اختلف من أثر التحولات التى ضربت مجتمعها بعد ازدهار مكة كمركز تجارى يصل الجنوب بالشمال والغرب بالشرق وإثر تدفق الأموال لدى التجار والمرابين لم يعد ذلك المجتمع يعبأ بعراقة النسب ولا أصالة الحسب وغدت الثروة هى ميزان التقييم شأنه «=مجتمع مكة» شأن المجتمعات الرأسمالية.

وتفككت عرى التقاليد القبلية التى لها موازينها وموجباتها الخاصة[٢٢] ونتيجة لذلك لم يجد محمد ما يتعيش منه سوى رعى الغنم مع أنه من بطن أو فخذ أو فرع فى نظر الناس يعد من القمم العوالى والذرا الشوامخ. وعمل محمد فى رعى الأغنام قطع نياط قلوب الكثيرين ومنهم أم هند **«خديجة»** فضربوا كفًا بكف وتساءلوا متعجبين أو تعجبوا متسائلين كيف يحدث هذا؟ كيف يحترف سليل هاشم وحفيد عبدالمطلب سيد قريش منذ أعوام قلائل هذه المهنة التى هى وقف على العبدان واللصقاء والزعانف الذين يشكلون قاع المجتمع والطبقة ذات السفولة والغور.

وليست خديجة فتاة غرة طائشة ذات غفلة أو شابة مأفونة قليلة التجربة وتعوزها الخبرة وتنقصها الدربة بل هى سيدة عاقلة لبيبة حاذقة حازمة فى طور الكهولة عركت الحياة أو عركتها الحياة وأنضجت رأيها وعمقت بصيرتها صاحبة حجى موفور وحكمة بالغة كيف لا وقد تزوجت مرتين وأنجبت البنين والبنات ولها تجارة وسيعة تديرها بحنكة.

واختلف الروايات فى عمرها أو سنها عندما نكحها محمد فمن قال: **أربعون** ومن أخبر أنها **ثلاثةوأربعون** ومن أكد أنها **خمسةوأربعون**.

فكيف تقبل أن تنكح شابًا فى سن أولادها عمره واحد وعشرون أو ثلاثة وعشرون أو خمسة وعشرون وهو المشهور أو الشائع[٢٣] ونحن ننبذ بصرامة ما لمح إليه بعض كتبة السيرة المحمدية التى هى كما المسك الفائح من أن الباعث الدافع لنكاح خديجة محمدًا هو شبابه الرائع وفتوته الظاهرة وقوته الواضحة فضلاً عن قسامته ووسامته وجماله وحسنه.

وأنه إذا تقدم لخطبتها ذوو النسب والحسب والنشب «المال» فإنهم افتقروا إلى الشباب والفحالة اللذين يسبيان قلوب النسوان ويأسران عقولهن خاصة الشهلات الكهلات[٢٤]. ورغم أن هذا الرأى الفطير جمع بين السفولة والفسولة أو السفالة والفسالة فإنه لا ريب أثبت أن معرفة أولئك الكتبة بالطاهرة وشلة وعلمهم بتاريخها ضحل وإدراكهم لاتجاهاتها التيولوجية مهزول ونحيف وأعجف.

ولو أنهم أمعنوا النظر فى سيرتها المعطار وتفرسوا فى مشوارها المبروك

وحدقوا فى خطاها المبرورة قبل نكاحها لمحمد لما أقدموا على عرض هذه الفكرة الخائبة.

وإذ إن الشىء بالشىء يذكر فقد اطلعت على عدد من الكتب التى خبت وأوضعت فى الكلام عن سيدة نسوان قريش فلم أر واحدًا منها أولى حقبة ما قبل اقترانها بأبى القاسم قدرًا ولو ضئيلاً من الاهتمام كأنما تاريخ الطاهرة لم يبدأ إلا بعد تماسها بـ «**الأمين**» بديًا باستئجارها إياه ليتجر لها فى سوق حباشة أما قبل ذلك فهو من نافلة القول أو سقط المتاع.

ولو أنهم طالعوا قصة خطى عمرها المبرور بالبصيرة لا بالبصر فحسب لأجابوا على السؤال الذى حير البحاث فى الماضى والحاضر:

لماذا نكحت «المعصوم» دون غيره من فتيان قريش الذين هم مثله يفيضون شبابًا وفحالة وبهاء؟ ولماذا لم ترسل لأحدهم دسيسًا لخطبته أو لجس نبضه؟ ولماذا كما فعلت مع «سيد الخلق» لم تتقدم إلى أحد أولئك الشباب المملوئين قوة وقسامة وتقول له إننى رغبت فيك وذلك بعد أن ترملت أو طلقت من زوجها الأخير «الثانى»[٢٥]؟ ولماذا ظلت أيمًا «بلا زواج» ردحًا من الزمان قبل أن تبدى رغبتها «**للصادق المصدوق**» صراحة دون مواربة فى نكاحه ولماذا ضربت بالتقاليد والأعراف المتمكنة من النفوس والغائرة فى أعماق حنايا المجتمع عرض الحائط وأهمها اثنان:

الأول: أنها نكحت شابًا فى سن ولدها وربما أصغر، غير عابئة بأى نقد أو تجريح أو غمز أو همز.

الآخر: أنها تقدمت إليه سواء بنفسها أو بإيفاد مرسال تقول إننى رغبت فى الاقتران بك وإننى ذللت كل العقبات وسهلت كل الصعاب وأزلت كل الحواجز ورفعت كل الموانع من طريقك وليس عليك إلا أن تحضر أنت وعمومتك ستجدون كل شىء معدًا حتى الجوارى «الإماء» الرواقص فى الفرح[٢٦].

هذه الألغاز والأحاجى سوف تحلّ ونحن نمضى فى هذا الكتاب صفحة وراء صفحة فقط كل ما نرجوه من القارئ أن يطالعه بعين يقظة وبصيرة نافذة وعقل متحرر من الوهم أو الخبل الناشىء عن المقدسات الزيوف[٢٧] وبأفق وسيع لا تحده أو تحجر عليه القيود أو السدود التى تراكمت عبر السنين.. وأن يبعد عنه الأفكار السوابق بحجة أنه مسور عليها بأسوار لا يجوز القفز عليها دعك من اقتحامها وألا يهاب مما يطلق عليه سدنة الإسطير وحراس التراث «المحرمات» لأنها من صنعهم فهم الذين ابتدعوها لا أبدعوها ويعضون عليها بالنواجذ لأن مصالحهم ومنافعهم ومكاسبهم تتعلق بها وتدور حولها.

وتراهم يتوعدون كل من يقترب منها مجرد اقتراب بالويل والثبور وعظائم الأمور ويهيّجون عليه العامة ويثيرون عليه الطبقة الشعبية الواسعة العريضة المخمومة «طيبة القلوب» بشتى أنواع التهييج وكافة ضروب الإثارة حتى المنابر. كما حدث منذ قريب ضد واحد ظلوا يعدونه منهم وفى صفهم لمجرد أنه حوّم من بعيد حول إحدى تلك التى يسمونها «محرمات» وما هى كذلك واضطر صاحبهم «ولا نقول صاحبنا كما هو الدارج» إلى تبنى أحد أفكارها وهو: كل شىء قابل للنقد والتفنيد سوى «النصوص المقدسة».

● الطية الأخرى:

على إثر أن فلجت أم هند فى نكاح محمد بعد أن بذلت فى ذلك جهودًا مختلفة طفقت على الفور تنظر إليه وتعامله معاملة الأم الحنون لابنها الفرد الذى رزقت به بعد لأى، وتعاضد على ذلك أمران:

الأول: غريزى أو طبيعى أو عاطفى حسب النظر إليه فالبعض يرى أن رئمان الوالدة على ولدها هو غريزة والآخر يذهب إلى أنه طبيعة مركوزة فى المرة «المرأة» والثالث يرجح أنه أقرب إلى العاطفة. ومهما كان الأمر فإن هناك شطرًا منه وجد لدى الطاهرة نحو «الحبيب المصطفى» لأن فارق السن بينهما تراوح ما بين خمسة عشر عامًا وربع قرن «وقد رجحنا الأخير أ.هـ».

الآخر: إن معاملة سيدة قريش لبعلها كأم حنون وإشعاره بذلك دائماً وبإلحاح دفعه إلى الاقتناع بتلك الفكرة خاصة وأن أباه مات وهو جنين وفى رواية أنه ابن ثلاث سنوات، أما أمه فمن المتفق عليه أنها توفيت وهو فى السادسة من عمره المبارك وهى عائدة من يثرب إلى قرية القداسة بكة ودفنت فى الأبواء أى أنه حرم رعاية الأب وحنان الأم ودفء عاطفتها.

فما إن منحته إياه خديجة حتى تلقفها تلقف الصادى للماء البارد فى يوم قائظ، ونذكر أنه آن ذاك قد عدى العشرين بعام واحد أى أنه تخطى الصبا منذ قليل.

وحتى إذا قلنا إنه تجاوز العشرين بخمسة أعوام فإنه أيضًا قد ترسب فى نفسه شعور البنوة نحوها لأنها تكبره بربع قرن «من الزمان» أو بأقل من ذلك بعشرة أعوام.

فعلى كلا الفرضين فإن الشعور الذى ألمعنا إليه قائم ومتحقق إذ إننا بعد قليل سنجد البحاث المحدثين الذين يعتقدون بالفارق الأقل يومئون إلى أن الشعور بالبنوة لدى الأمين وعاطفة الأمومة عند الطاهرة متعينان بل متوافران فإذا تمكن هو من وجدان «سيد الخلق» غدا طلاب «بكسر الطاء» الطالب ومنية

المتمنى لدى خديجة لأن الابن غالبًا إزاء أمه يصبح على قدر كبير من المهاودة والموادعة والملاينة والمطاوعة.. بخلاف البعل فهو يقف فى وجه بعلته فى أكثر الأحيان وقفة المجادلة والمحاورة والمشاكسة والمعاندة والملاحاة، والصنف الأول من هذه الصفات هو المطلوب هنا بحزم وهو المرغوب دون سوم لأن الأمر جد كله لا هزل فيه والتجربة المقبلة خطيرة وصارمة تخلو من أقل ذرة من الهزر[٢٨]، وتناقض العبث وتنأى بجانبها تمامًا عن اللعب كيف لا والذين مروا بها «=التجربة» هم من ذوى العزم عرفوا بالحزم وركبهم الهم وملأ نفوسهم الغم ولازمهم الحزن وصادقهم الأسى لأنهم رجال بخلاف غيرهم من الناس وعلى النقيض من أمثالهم من البشر، وبدايات التجربة أصعب ما فيها وأقسى مراحلها وأثقل وأوعر درجاتها فإن لم يصر محلها أو موضوعها مطاوعًا سهلاً لينا خبتًا تعود على الموافقة وربى قبل دخوله إياها على المسالمة فلا يقدر لها النجاح ولا يكتب لها الفوز.

وسيدة قريش بأسرها كما نقلت إلينا كتب السيرة المحمدية الفانحة بالمسك حازمة رجلة فى عزمها وإرادتها[٢٩] قوية الشكيمة.

واشتغلت بالتجارة فنجحت فيها نجاحًا لم يحققه كثير من الرجال ذوى اللحى حتى إنها تملكت على الدوام شطر «نصف» القافلة المسافرة إلى الشام أو اليمن وباقى بطون وأفخاذ قريش الظواهر والبطاح كلها لها الشطر الآخر.

ومن ثم فإنها إذا خاضت تجربة أو أقدمت على مشروع أو هندزت بناءً فهى نعم الهندوز لا تسمح بأى خلل ولا ترضى بأى تجاوز ولا تقبل أى هفوة.

وبالتالى فإن من يشاركها التجربة لابد بطريق الحتم واللزوم أن يصير ضروبًا لها فى تلك النعوت شبيهًا لها فى تلك الخصائص وهى بسعة أفقها ونفاذ بصيرتها أدركت أن المبادئ «البدايات» هى المهمة وأن الأساس هو الذى عليه المعول، ومن ثم اختارت الزوج الابن لكى تتلقى منه الحب والمطاوعة معًا فيقيض للتجربة الفوز المبين وذاك ما حدث فقد فلجت «التجربة» فلجاً لم يخطر على بال أحد من أطرافها وتركت وراءها أثرًا أو آثارًا لم يحلموا بها لا فى منام ولا فى يقظة.

وعندما اختارت خديجة الزوج الابن أو الابن الزوج لم تتخير أى «زوج ابن» أو أى «ابن زوج» فهذا من المحال فى حق سيدة نسوان قريش بل اختارته بعناية دقيقة أشد الدقة وانتقته بأعمق الانتقاء إذ ظلت تلاحظه لمدة عشرين عامًا. هذا فى معتقدنا أو لمدة ربع قرن كما تذهب إليه الأغلبية دون تمحيص. لقد طفقت تتلقى أخباره قبل أن ترى عيناه الكريمتان نور الدنيا فمثلاً منذ أن حاولت عرافتان أو متكهنتان أن تغويا أباه مع بذل إغراء مالى كبير «مائة ناقة»

له ليتنقل إلى إحداهما نوره المبارك وفاتهما أنه من المحال أن يجىء إلى العالم الذى ظل ينتظر قدومه الميمون بطريق الحرام، واستمرت تتابع معجزاته منذ الحمل حتى رحلة الشام مع عبدها ميسرة وهنا تيقنت أنه هو هو وليس آتيا بعده أحد مثلما سأل المعمدان ابن مريم أأنت هو هو أم الآتى؟

فحين إذن تحركت بكل ثقلها لكى تنكحه «تتزوجه» خاصة وأن هناك أمرًا قديمًا قد صدر لها من مرجعية رفيعة المقام لكى تفعل وفعلت ونفذت الأمر وبدأت معه التجربة الفريدة التى تعد فى نظرنا من أخطر التجارب التى شهدتها العصور الوسيطة.

الهوامش

(١) يعرف توماس الأكوينى التيولوجيا أنها تلك التوجيهات الصادرة من الله والتى يعلمنا إياها لكى تقودنا إليه.

(٢) سيرة ابن هشام. الجزء الأول ص ٢١١. تحقيق د. محمد فهمى السرجانى. د.ت.ن/ المكتبة التوفيقية.

(٣) قاموس وبسترل العالم الجديد يعرف الأنتلجنتسيا: هم الناس الذين ينظر إليهم أو هم ينظرون إلى أنفسهم أنهم الطبقة أو المجموعة المثقفة.

(٤) وهى غير المسيحية وأبسط مظاهر التفرقة بينهما أن النصرانية لا تؤمن ببولس ولا تعترف به بل تتهمه بأنه هو الذى بدل دين المسيح ولذا نجد أن القرآن تحدث عن النصارى لا عن المسيحيين.

(٥) الآية ٤٢ من سورة آل عمران.

(٦) والمطهر عند النصارى هو مكان تطهر فيه النفس بعد الموت بعذاب موقوت. المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية.

(٧) القاموس الموجز للكتاب المقدس. مادة: تطهر. الطبعة الثانية ١٩٩٢م. مكتبة كنيسة الإخوة بمصر.

(٨) الأعراف: ١٥٨.

(٩) آل عمران: ٢٠.

(١٠) العنكبوت: ٤٨.

(١١) الأعراف: ١٥٧.

(١٢) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى تحقيق محمد سيد كيلانى، طبعة ١٣٨١هـ. ١٩٦١م، مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر.

(١٣) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى. مصدر سبق ذكره.

(١٤) فى قواميس اللغة: فر. أسرع.

(١٥) فى مختار الصحاح للرازى. الأحدوثة بوزن الأعجوبة. ما يتحدث به ويزيد المعجم الوسيط: أنها الكلام المضحك أو الخرافة. أ.هـ. ونضيف أن العامة فى مصر تقول: الحدوتة.

(١٦) النحل: ١٠٣.

(١٧) أسباب النزول للسيوطى. ص ص ١٠٧، ١٠٨، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، طبعة الشعب. دار االتحرير للطبع والنشر، القاهرة.

(١٨) فى القاموس المحيط الأيأة هى الهيئة.

(١٩) لسان العرب لابن منظور - باب ألقاب الحروف وطبائعها وخواصها - المجلد الأول ص ١٥، ١٦ - نقلا عن كتاب «نقد العقل العربى - إشكاليات العقل العربى» لجورج طرابيشى، ص ص١٤١، ١٤٢ - الطبعة الأولى ١٩٩٨م - دار الساقى بيروت - لبنان.

(٢٠) البعض يرى أنه توفى فى حرب الفجار أو قبلها أو فى عامها أ.هـ.

(٢١) اختلف شراح السيرة العطرة هل القيراط مساحة من الأرض كما هو عند أهل مصر أم نوع من العملة؟ أ.هـ.

(٢٢) لمزيد من المعرفة بهذه النقطة: فضلا ارجع إلى كتابنا «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية».

(٢٣) نرجح أنه فى الواحد والعشرين وهى فى الخامسة أو السادسة والأربعين أى أن الفارق بينهما فى العمر حوالى ربع قرن. أ.هـ.

(٢٤) فى القاموس المحيط للفيروز أبادى - الشهلة - المرأة النصف «بفتح النون والصاد» العاقلة. أ. هـ.

(٢٥) اختلف كتاب السيرة المحمدية الرائعة فى ترتيب زوجى سيدة قريش وهل انفصمت عرى النكاح بالموت أو الطلاق بالنسبة لكل منهما. أ.هـ.

(٢٦) «الإماء» الرواقص فى الفرح، الفرح: حفلة العرس «محدثة» من المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية. أ.هـ.

(٢٧) لا المقدسات الصحيحة التى لا يمكن لكائن مهما سما قدرة المساس بها. أ.هـ.

(٢٨) فى المعجم الوسيط: هزر الرجل هزرا أى ضحك.

(٢٩) فى الحديث كانت عائشة رضى الله عنها رجلة الرأى. أ.هـ.

الفصل الأول

هذا الشاب لابد أن أباعله

ضرورة نكاحه (هو)
أو هذا الشاب الذى (هو) لابد أن أباعله

استقر فى بؤبؤ عين يقين خديحة أن محمدًا (هو) أى القادم المنتظر الذى أظل أو أطل زمانه وتحدث عنه أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان القبائل وسدنة الأصنام والكعبات[1]، وتؤكد **د. بنت الشاطبى**: «أن التنبؤات بظهور نبى جديد حان مبعثه كان يتناقلها الرواة والسّمار على رهبان النصارى فى الشام ونجران وأحبار اليهود فى شمال الحجاز ومكة عن الخصوص والتى كانت المركز الذى تتلاقى فيه تلك الإرهاصات ثم تضيف إلى أولئك الذين يبشرون بالقادم المنتظر شعراء العرب وحكماءهم وكهانهم وأن كل هذه الإرهاصات والتنبؤات ترسبت فى وعى السيدة خديجة»[٢].

ويقول **ابن إسحق**: «وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فيما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه لما كان فى عهد أنبيائهم إليهم فيه»[٣].

وفى عجالة سريعة أن من يقرأون كتب أهل الكتاب من صفوة أهل مكة توقعوا ظهور «**القادم الجديد**» أو النبى المنتظر ومنهم السيدة خديجة فمنذ أن حملت به أمه آمنة فهى ما انفكت تذيع أخبارًا مُعجبة عن حمله وولادته ورؤى تراها وهواتف تخاطبها إلى أن وضعته بخلاف ما لمسته بعد ذلك من أمور معجزات عند ولادته.. وابنة وهب لدة لأم هند وكلاهما من قريش.

وبنو زهرة وبنو أسد من البطون السامقة ولابد أن الود بينهما موصول وأن الطاهرة هنأت أم محمد بوليدها وأن الأخيرة قصت عليها الأعاجيب التى ألمت بها فى الحمل والولادة.

• • •

ربطت سيدة قريش بين ما سمعته من بنت وهب وبين ما حدث منذ عهد قريب من فداء لزوجها عبدالله «أبى محمد» بمائة من كرائم الإبل منجاة له من الذبح وفاءً للنذر الذى صدر من والده عبدالمطلب دون روية أو تدبر وهو الشيخ

الوقور ذو العقل الوفير.

وتذكرت الطاهرة تعرض الكاهنتين أو المتكهنتين (وقيل ثلاثة) لعبدالله وطلبهما منه بجرأة غير معهودة لا فى نسوان العرب ولا فى نسوة العربان الجفاة أن يقع على أى منهما وتنفحه عددًا من الإبل مماثلاً لإبل نذر أبيه.

وكلتاهما ـ مثلها تجيد القراءة والكتابة وتقرأ كتب اليهود والنصارى، وهما ليستا من أصحاب الريب ولم تعرف عن أى منهما عهورة حتى الخثعمة الحسينة.

وأولاهما هى بنت عمها وتسمى «قتيلة أو أم قتال» وكلتاهما صرحت بأنها إنما عاينت فى جبينه نور النبوة وأنه بعد أن رفضها وضاجع زوجته انتقل إليها ذاك النور فهنيئًا لآمنة به، وأضافت أم قتال أنها أقدمت على ذلك لأنها سمعت بقرب ظهور نبى من أخيها القس ورقة.

ومن ثم فمن الحتم اللازم أن ابنة العم «نعنى خديجة» سمعته من ذات الشخص «ورقة» للصلة القوية التى تربطهما.

ولم تبلغ الطاهرة هذه «النبوة يوشك ظهور القادم المأمول» من أعلم المكيين بالتوراة والإنجيل فحسب بل تعلمت على يديه الكثير والكثير مما فيهما. فما دامت قتيلة بنت نوفل تقرأ وتكتب ومثل أخيها طالعت الكتب «نعنى المقدسة لدى أهل الكتاب ولكن بداهة أقل منه»، فإن معرفة سيدة نساء قريش بالقراءة والكتابة تغدو أثبت وأعمق خاصة وأنها «ولو أنه حدث فيما بعد» صاحبة تجارة وسيعة تستدعى إجادة القراءة والكتابة ومن ثم يصير أمر استعارتها للصحف التى ترجمها ورقة من التوراة والإنجيل «ونحن نرجّح أنه إنجيل العبرانيين» قريب الاحتمال بل إنه متشيئ.

بعد هذه الاستطرادة نؤوب إلى السياق: خديجة بعد أن ترامى إلى أذنيها هذا الكم الوفير مما حدث لأم محمد من أعاجيب أثناء حملها «**بسيدالخلق**» وعند وضعها إياه وربطت ذلك كله بما حدث لأبيه عبدالله قالت مع القائلين وعلى رأسهم الجد عبدالمطلب والأم آمنة بنت وهب إن لهذا المولود لشأنا وأى شأن.

وظلت عامًا بعد عام وسنة وراء سنة تتلقى أخبار أعاجيب محمد ومعجزاته البواهر حتى أيقنت أنه «**هو**» الموعود أو المنتظر أو المأمول الذى طال شوق الناس وحنينهم إليه، ولهذه الأعاجيب والمعجزات والخوارق والمدهشات والمضادات للنواميس الطبيعية باب مستقل ندرسها فيه ببسط لا يعرف التحجير وطلوقة لا ينالها التقليد وحل «بفتح الحاء» لا يقربه الإسار وفتح لا يجوز عليه المغلاق.

لماذا؟

لأن تلك الأمور المعجزات التى تتابعت وتوالت مع أطوار محمد منذ الولادة

حتى الشباب حازت قصب السبق وكبشت[٤] نصيب الأسد من انتباه الطاهرة إلى محمد وأنه فاذ لا مثيل له وفريد لا ضروب له ووحيد لا شبيه له وأنه دون غيره هو القادم والمنتظر والمأمول الذى بشرت به الكتب التى ترجمها ورقة إلى العربية وقرأتها عنده.

وإضافة إلى أمور أخرى منها:

أ. إنه جاء فى «الكتب» أنه قرب ظهوره وأظل زمانه ودنا إبانه وحان وقته وظهرت بشائره وتفتحت أكمامه ومن المستحيل ألا يتحقق فالعهد بهذه الكتب صدق نبوءاتها.

ب ـ خصائص محمد الرائعة ونعوته السامية وصفاته المدهشة وأخلاقه الحميدة وشمائله الكاملة.. لأن الآتى أو القادم المنتظر يتعين وبطريق الحتم واللزوم أن يغدو على هذه الشاكلة وأن يجىء على هذه الأياة وأن يصبح على هذه الصورة.

فكل الذين سبقوه هم كذلك، إذ من المحال أن يتصف «المنتظر» بأنه مهتلس العقل «مسلوبه» أو هجزع «جبان» أو ذو زعارة «شراسة» أو أفكاك أو أثيم أو كذوب أو خائن أو سيئ الخلق... إلخ.

● ● ●

ولذا نلحظ أن سيدة نساء قريش ركزت على هذا الجانب من **«البشير النذير»** فمثلاً عندما تقدمت إليه لتخطبه لنفسها ثم لتنكحه «تتزوج به» قالت له لقد رغبت فيك لأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ولما... إلخ، ولما مر بحادث الغار المدهش الذى ذكر فى قصته وهو الصادق أنه التقى بملاك الرب جبريل أول مرة أسرع إلى بيته وتلقفته بين ذراعيها وأسلمته حضنها الدفىء وقال مذعورًا لقد خشيت على نفسى فكان ردها حاسمًا: والله لن يخزيك الله أبدا: إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتعين الكل... إلخ.

هذه هى صفات جميع «الآتين» قبله كما قرأتها فى الصحائف أو الإصحاحات التى نقلها القس ورقة من اللسان العبرانى ودرسها لها وعلمها إياها فاستوعبتها وخزنتها فى ذاكرتها. إنما الذى يلفت البصر والبصيرة معا أن سيدة نساء قريش وصلت صفات «حامل لواء الحمد» الممتازة بأحقيته كيما يتحول إلى «المنتظر» الذى طال شوق الناس إليه خاصة أولئك الذين نسميهم المثقفين «الأنتلجنسيا».

كذا وضعت خصائصه العلية والعالية فى بؤرة شعورها بحسبان أنها المقياس الذى لا يخيب والميزان الذى لا يختل.

جـ ـ إن مرجعية دينية ذات مقام محمود ورتبة عالية ودرجة رفيعة لدى خديجة

أشارت عليها بأن هذا الفتى هو «المأمول» وأنه حتم لازم أن تباعله لكى تبدأ معه تجربة التأهيل والإعداد والتصنيع والتحضير والصقل والتهيئة الضرورية كيما ينتقل من فتى قرشى هاشمى إلى القادم المنتظر «**قالت خديجة لمحمد قد أخبرنى به ناصح غلامى وبحيرى الراهب أن أتزوج منذ أكثر من عشرن عاما**»[٥].

بعد أن تكاملت كل الخيوط فى يد أم هند رفعت شعار «هذا الشاب الذى **هو** لابد أن أباعله» ومن ألزم اللازم أن أنكحه بل وأسارع حتى لا تنتشه منى[٦]. إحدى عذراوات أو أيامى قريش وعلى رأسهن بنت عمه أبى طالب أو غير قريش من القبائل مثل ثقيف التي موطنها الطائف والقريبة من مكة أو جارية «فتاة غضة» من بنى النجار أخواله فى يثرب.

إن هاجس قيام شابة بكر أو ثيب «مثلها» فى بكة أو ما حولها بنشل الحبيب المصطفى[٧] ونكاحه أرّق خديجة وطيّر النوم من عينيها الاثنتين ودفعها إلى ملاحقته بهيئة تشى بالإلحاح وتقطع بالإلحاف وتؤكد الإصرار وتدل على المثابرة. إن موسوعات السيرة المحمدية المعطار أجمعت على أن الطاهرة سيدة كاملة وفيرة العقل عميقة الحجا، رزَان فطنة، لبيبة حكيمة لا تسيرها العاطفة.. إلخ.

ورغم ذلك فإن العجب يملؤك والدهش يستولى عليك والحيرة تأخذ أقطار نفسك وأنت تطالع أخبار المحاولات الدؤوب والعروض المتلاحقة كيما يوافق «**الأمين**» على المباعلة ويرضى بالنكاح ويسلم بالزواج منها.

• • •

فى موضع آخر فندنا الرأى الفطير الذى ألمح إليه فى جبن وخساسة ودهاء بعض كتبة السيرة المحدثين من أن سر اختيار خديجة لـ «**الصادق المصدوق**» هو إعجابها بشبابه وقسامته ووسامته وقوة عضلاته وفحالته وفتوته وهى الصفات التى تأخذ بلب الكهلات والشهلات مثلها[٨]، ونضيف إلى توهين هذا الرأى وتهزيله وإضعافه دليلاً آخر بخلاف ما سبق لنا أن طرحناه وهو: أن قريش الظواهر والأباطح عجّت آن ذاك بالشباب الذين يتملكون تلك الصفات ويتمتعون بذات الخصائص ومنهم من انتمى إلى بطون الذروة مثل: بنى عبدالدار وبنى مخزون وبنى أسد «رهطها» وبنى أمية وبنى زهرة ومن هؤلاء من لا يقل عن بنى هاشم مكانة فى ذياك الزمان لأن هؤلاء لم يتسنموا القمة إلا بعد ظهور أمر محمد وصيرورته «سيد ولد آدم» فلماذا لم تختر من أولئك واحداً إذا كان القصد هو التمتع بالفحولة والفتوة وقوة العضلات وطلاقة المحيا مع الوضع فى الحسبان أن من بين هؤلاء من هو أغنى من «**الأمين المأمون**» «راعى الغنم ـ الفقير ـ اليتيم». إننا نصكهم بهذه الحجة ونصدمهم بهذا البرهان ونفاجئهم بهذه القرينة فلا يملكون إجابة ويسقط فى أيديهم.

إذن انتقاء السيدة الطاهرة لمحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب لم يتم بدافع جسدى أو عاطفى بل نتيجة تمحيص وتدقيق وفحص ثم اقتناع بأنه الآتى الذى فاض كيل الصبر فى انتظاره والتشوف إليه.

وبعد قراءة مستأنية فى أمهات مؤلفات السيرة المحمدية الذكية الريح مثل الند تبين لنا أن سيدة قريش جفّ ريقها وحفيت قدماها وداخت السبع دوخات كما يقول التعبير الدارج حتى وافق «**إمام الأولين والآخرين**» على خطبتها فنكاحها. لقد ساقت إليه العديد من الأشخاص فيهم ذكور وإناث أحرار وعُبدان وموالى وأقارب وأباعد ومنهم من كلمه وألح عليه مرات عديدة مثل نفيسة بنت منية صاحبة أبرز الأسماء فى المراسيل «جمع مرسال» الذين بعثتهم إليه.

ولما أوشكت حبال صبرها أن تنقطع لم تجد مناصًا من توجيه مندوبة تمتهن عمالة «بضم العين» دينية لها فى قريش مكانة مرموقة وهى المستنشئة(٩). ولا يقال دفعًا لذلك إن أم هند كما ذكرنا حازت ثقافة دينية كتابية وعلى تماس بمن لديهم علم من الكتاب كالقس وعداس وبحيرا «سوف يأتى ذلك تفصيلاً فى موضعه» وقرأت الصحف التى عربها ابن عمها ورقة بعد أن نسخها من التوراة والإنجيل وقام هو بتعليمها إياها.

فكيف إذن يصح فى العقول أن تستعين بمستنشئة أى كاهنة «قريش»؟

والجواب على ذلك:

إن الشخص عندما يقع فى ورطة أو يتعرض لأزمة أو يجد نفسه فى زناق(١٠) أو يمسى فى مخنقة يعجز عن العثور على فكاك لها يؤم من يتوهم - ولو مجرد توهم - أنهم يساعدونه على الحل ونحن الآن فى أوائل القرن الحادى والعشرين نرى أعدادًا جمة غفيرة ممن يحملون شهادات عليا عندما ينتابهم قلق أو يلم بهم غم أو تدهمهم أزمة يفزعون إلى أضرحة أولياء الله الصالحين علهم يجدون عندها الدواء الناجع مع أنهم يسمعون من أهل السنة والجماعة أنه نوع من الشرك الخفى. هذه واحدة.

• • •

أما الأخرى فهى أنه فى العادة أن من يمارسون الكهانة والعرافة والعيافة لديهم من اللباقة واللسن والفصاحة.. ما ليس لغيرهم ومن ثم فهم أصحاب قدرة على التفهيم والإقناع والتبصير وبالتالى فإن الكاهنة أو المستنشئة التى زقتها(١١) خديجة على محمد - فى نظرها أقدر من غيرها على استخلاص موافقته على المباعلة.

أما الثالثة والأخيرة فهى أنه:

كما أن الكاهنة أو المستنشئة تتمتع فى قبيلتها بقدر من المكانة الاجتماعية وتحظى بتجلة واحترام، ولقد قرأنا فى السيرة المحمدية التى هى كالورد المتفتح

الذي ينشر شذاه فى كل اتجاه أن جده عبدالمطلب رأى رؤيا أفزعته فذهب إلى كاهنة «مستنشئة» قريش ولم يقبل يدها ـ كما يفعل سائرهم – ثم قص عليها الرؤيا فأولتها بظهور حفيد له يملك العرب والعجم والشرق والغرب.

والذى يهمنا أن تقبيل يد الكاهنة أو المستنشئة فرض واجب على القبيل «أفراد القبيلة» ومعنى ذلك أنها تتمتع بمكانة اجتماعية مرتفعة[١٢]. وبالتالى فإنها أى الكاهنة «المستنشئة» إذا قصدت أحدهم فى طلب فإنه من باب الحياء «ليس ضروريًا من باب الاعتقاد فيها أ.هـ» يجيبها إليه ويوافقها عليه. إذن طلب أم هند المعونة من مستنشئة قريش لإقناع «المعصوم» بنكاحها إياه لا مساس له بعقيدتها وليس شرطًا أنها غدت من شيعتها.

وأخيرًا فإن هذا التحرك من جانب سيدة قريش ـ التى لا ترد لها الكاهنة المستنشئة رغبة ولا تخيّب لها رجاء ـ يدل وحده على أن خديجة أعيتها الحيل، وضربتها الحيرة وعمتها اللخمة[١٣]. وشملها التردد والعجز وأسقط فى يدها فلم تجد مناصًا من أن تؤم الكاهنة لتحصل منها بما تتمتع به من موقع متميز فى القبيلة على فرج لهذه المعضلة التى نغصت عليها عيشتها وأوقعتها فى ربك شديد وليس من الضرورى أنها آمنت بالأساطير التى تمتهنها تلك الكاهنة أو المستنشئة كل هذا من جانب.

• • •

أما من الجانب الآخر:

فإن الأخبار التى حملتها مؤلفات سيرة محمد ذات الرائحة التى ترد الروح كما تقول العامة تقطع بأن أم هند فى وقت من الأوقات دارت أو لفت حول نفسها وبلغت ذرى اليأس، إذ قرأنا أن المراسيل الذين خاطبوا «**سيد الأولين والآخرين**» فى هذا الشأن لم يتركوا نوعًا من أنواع الإغراء إلا أوصلوه إلى سمعه الشريف فأفهموه أنها سيدة حازمة شريفة جميلة نبيلة من أعظم قريش حسبًا ونسبًا وأكثرهم مالاً وتقدم لزواجها كثير من الأغنياء فرفضت أن تتزوج أحدًا منهم.

وقالوا له بلسان واحد: يا محمد لقد دعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة وكفيت «أى لا مؤنة عليك بأى نوع» ردًا على جوابه كيما يبرر رفضه إياها «ليس بيدى ما أتزوج به» فيتعهد له المرسال «أو الرسول» أنه سوف يذلل له كل العقبات ويسهل جميع الصعوبات ويرفع من طريقه كافة الموانع ويحل سائر المشكلات، فما إن يهز رأسه الكريمة بالموافقة حتى يجد كل شىء معدًا وكل شأن جاهزًا وكل أمر حاضرًا من وليمة العرس حتى الجوارى «الإماء» الرواقص اللائى يحيين الفرح وهو إغراء عريض وإغواء شديد وترغيب عميق لشاب مثل «**أبى القاسم**» فى تلك الأيام مليط من المال عرى من النشب خالى الوفاض.

إن هذا الحشد القوى والتجييش المضاعف والتعبئة المخططة من قبل سيدة النساء إزاء «**البشير النذير**» وهذا الحصار المحكم له حتى رفع الراية البيضاء وسلم لها بطلبها ورضى أخيرًا نكاحها إياه رغم الاعتراضات التى انتصبت فى نفسه وشخصت فى وجدانه والتى لها فى هذا الكتاب محل رحب سيغدو مصليًا ويجىء تاليًا نقول إن لذلك كله علة مفردة لا توأم لها وهى أنه «القادم» الذى طال انتظاره و«المأمول» الذى مر حين من الدهر من التشوق إليه و«الغائب» الذى تقطعت الرقاب لإيابه وال «**هو**» الذى بشرت به التوراة والإنجيل.

• • •

وعسى أنه قد حان الأوان لإلقاء نظرة عجلى على الوسائل التى استعملتها «**سيدة قريش**» والطرق التى سلكتها والفجاج التى اقتحمتها لإصابة هدفها والوصول إلى بغيتها وتحقيق طلبتها:

رغم مكانتها السامقة وحسبها الشريف ونسبها الرفيع وغناها الوسيع وثروتها الممدودة وكهولتها وحزمها ورجاحة عقلها فقد ضربت بتقاليد القبيلة وكافة القبائل عرض الحائط، تلك التقاليد الرواسخ كالجبال وتقدمت إلى «**سيد أهل الله**» بنفسها تقول له «إننى رغبت فيك» ولم تعبأ بفارق السن الذى يقارب أو يجاوز الربع قرن وعرضت نفسها عليه ولم يحدث أن سيدة قبلها جرؤت على ذلك.

• • •

إن الكتاب المحدثين للسيرة المحمدية التى هى ألذ من عسل الموصل سطروا فى كتبهم المعجبة أن أول اتصال بين «**أم هند**» و«**خيرة قرابين الله**» تم فى سفرته إلى الشام مع عبدها المخلص ميسرة والتى حقق لها فيها ربحًا وفيرًا فى متاجرته بمالها وما حكاه ذلك العبد عن خصاله المدهشة وأموره المحيرة مثل إظلال الملكين له وما قاله الرهبان عنه.

وهذا غير صحيح ونحن نتحرى الدقة المطلوبة فى كل بحث موضوعى علمى فنقول: إن هذا بعض الحقيقة وليس كلها ـ لقد بدأ التماسّ بينهما قبلها:

«عن ابن شهاب الزهرى وقد قال ذلك غيره من أهل البلد: إن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله ﷺ ورجلاً من قريش إلى سوق حباشة بتهامة»(١٤).

ولقد ورد هذا الخبر فى (الروض الأنف) برواية الزهرى أيضاً:

«روى أن رسول الله ﷺ قال شريكه الذى كان يتجر فى مال خديجة معه: هلم فلنتحدث عند خديجة وكانت تكرمهما وتتحفهما»(١٥).

وقد جاء به أن الزهرى أورده فى سيرته التى هى أول سيرة ألفت فى الإسلام ـ ومما يؤسف له أنها مفقودة.

ويضع المقريزى تحت باصرتنا تفصيلات لم ترد لدى غيره من المؤرخين

القدامى ممن أتيح لنا الاطلاع على مؤلفاتهم فيقول: «وكان حكيم بن حزام «=ابن أخى خديجة» قد رأى رسول الله ﷺ بسوق حباشة واشترى منه بزا من بز تهامة، فذلك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ تدعوه أن يخرج فى تجارة إلى سوق حباشة»[١٦]. وهذا الخبر ينفحنا بمعلومة مهمة وهى أن أم هند هى التي أرسلت إلى «سيد ولد عدنان» كيما يخرج فى تجارتها إلى حباشة وهو سوق من أسواق العرب - قبل الإسلام - فى تهامة - ثم يضيف المقريزى «ثم أجر نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين» - أى سفر محمد لحساب سيدة النساء قد تكرر مرتين أو ثلاثا لسوق جياشة ويمضى المقريزى قائلاً: «وخرج ثانيًا إلى الشام فى تجارة ومعه غلامها ميسرة»[١٧].

وهذا يؤكد ما نقول به إن اتصال سيدة قريش بـ «**البشير النذير**» لم يبدأ بمرحلة الشام بل قبل ذلك فى سفره الذى تكرر إلى سوق حباشة.

ومن أميز كتب الأحاديث «المستدرك» قد حمل لنا هذا الحديث أو الخبر: «عن جابر بن عبدالله قال: استأجرت خديجة رسول الله سفرتين كل سفرة بقلوص»[١٨].

ومن الوهم أن ينصرف هذا الحديث إلى سفرة «المنصور بالرعب قرابة شهر» مع ميسرة إلى الشام والتى سوف يأتي الحديث عنها فإنها كانت سفرة واحدة كما أن الأجر أو الجعل الذى اتفقت بشأنه مع «المعصوم» أو مع عمه أبى طالب ضعف هذا الأجر ثم ضاعفت ما سمته له.

والزهرى الذى عن طريقه روى الحديثان ليس مجرد تابعى بل هو من كبار التابعين وسادتهم ومن أوثقهم وأعرقهم فى الرواية وله مقام محمود فى مجال السنة أو الأحاديث، فعندما يروى لنا أن أم هند استأجرت «الأمين» مرتين إلى سوق حباشة «وكان ذلك قبل سفره فى تجارتها إلى الشام» فإن هذا الخبر يصير صحيحًا لا مطعن عليه «وهو أى الزهرى قرشى من تابعى المدينة رأى عشرة من أصحاب النبى ﷺ وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقًا لمتون الأخبار وكان فقيهًا فاضلاً روى عنه الناس»[١٩]، ونخلص عن ذلك إلى أن سفر «خيار بنى عبد مناف» إلى حباشة فى تجارة لخديجة خبر أكيد وبالتالى فإن اتصالهما لم يبدأ بسفرة أو رحلة الشام مع العبد ميسرة.

• • •

بيد أن «**سيدة النساء**» لم تضع وقتًا، إذ بعد عودته من الشام بشهرين وعشرين يومًا وقيل بعد شهر وعشرين يومًا ظفرت به بعلاً بعد أن أمطرته بوابل من المراسيل والمبعوثين والمندوبين من كافة الأشكال والأصناف حتى سلم لها فنكحته.

وهناك خبر آخر يمدح فيه «**أبو القاسم**» السيدة خديجة ويصفها بأنها أخير

أو أحسن «صاحبة عمل» إذ كل ما يعود هو وصاحبه من سوق حباشة يجدها قد خبأت لهما «تحفة من طعام» وتجلس تتحدث معهما:

«فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها والله ما إن رأيت صاحبة لأخير من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبى إلا وجدنا عندها تحفة من الطعام تخبئه لنا»[٢٠]. وقبل أن نغادر هذه النقطة يجمل بنا أن نذكر أن الزهري قال: «كانت سن رسول الله ﷺ يوم تزوج خديجة إحدى وعشرين سنة»[٢١].

وقد سبق أن أثبتنا أن المحب الطبرى فى «السمط الثمين» ذكره، أيضًا أورد أصلان عبدالسلام ما يؤيده «وقبل الواحد والعشرين أو نحو ذلك أى فى شرخ الصبا»[٢٢].

وقال الصالحى فى سيرته «وقيل إحدى وعشرون سنة وقدمه فى الإشارة»[٢٣]. كما أورد ابن الأثير الجزرى: «أن هناك من يقول إن خديجة عندما نكحت **«الصادق المصدوق»** كان عمره إحدى وعشرين سنة»[٢٤]. ومعنى ذلك أن اتصال **«سيد الناس وديان العرب»** بسدة النساء تم والأول فى الثامنة عشرة من عمره المبارك أى أنه تجاوز الصبا بقليل وأن عملية تشكيله وتطويعه لدخول التجربة بدأت مبكرًا.

والسفر إلى سوق حباشة بعكس السفر إلى الشام ففضلا عن المفاوز التى يتعين قطعها فإنها «= حباشة» تقع كما سلف فى تهامة المشهورة بشدة صواعقها حتي قيل «لا صواعق كصواعق تهامة»[٢٥]. وترتيبًا على ذلك فلا يقدم على المخاطرة بالقيام بها إلا العمال التجاريون ذوو العوز والحوجْاء واختلال الحال.

إذن القصد الذى تغيته الطاهرة من وراء تكليف «المصطفى» بإنجاز هذه السفرات الخطرة الشاقة يتمثل فى أمرين:

أ- اختبار معدنه وهل هو ناهض العزيمة قوى الشكيمة يتمتع بروح معنوية مرتفعة وإرادة ماضية ومن ثم يعتبر أهلاً لكى يغدو موضوعًا للتجربة على الوجه الأكمل.

ب - التعرف على قرب قريب على مدى مطاوعته وملاينته ومسالمته وهل لديه ولو ذرة واحدة من المعارضة والمناوأة والمشاكسة.. إلخ.

وما يهمنا فى هذه الأخبار هو أن سيدة نساء قريش طفقت بعدها تعامل **«البشير النذير»** معاملة فيها احتفاء مقرون بالحنية والتقرب لكى تزداد تفرسًا فيه وتحديقًا فى أحواله وتبصرًا بشئونه فمن ناحية للتأكد أنه موضوع التجربة الخطيرة المقدمة عليها وأيضًا لاختبار صلاحيته للنكاح والمباعلة لأن الأمرين مقترنان متشابكان.

أما رحلة الشام التى تحتل حيزاً فى فصل «المعجزات» ولها نصيب وافر فى

إثبات أن «**الأمين**» هو «القادم المنتظر» من وجهة نظر سيدة قريش.

فما إن وصلت القافلة إلى مكة وحاسبت محمدا على ما حققه من ربح جزيل وضاعفت له الجُعل الذى سمته له أى حددته له وهو فى الأصل ضعف أجر العامل العادى أى أنها نفحت «**سيد ولد آدم**» أربعة أضعاف ما درجت على إعطائه لأى أجير نقول إنها ما إن أنجزت ذلك.. حتى طفقت تصوب لأبى القاسم السهم تلو السهم وما إن يطيش أحدها حتى تبادر إلى توجيه آخر بعزم لا ينى عن إصابة الهدف حتى تم لها ما أرادت.

• • •

نحن نبدأ هنا بالمحاولات التى شرعت فيها بنفسها لا لأنها الأولى والسابقة لكن لأنها الأهم وذات الوزن الثقيل والمغزى العميق والدلالة الصريحة والمفهوم الواضح. إنما قبل طرح هذه المبادآت نعرج على الأفعال التى حايثتها أو حدثت قبلها والتى فى نظرنا لا تنفصل عنها وتشكل معها كلاً لا يتجزأ ومجموعاً لا ينفصم.

بدأت قافلة قريش تتجهز لرحلة الصيف أى لرحلة الشام «وكان لخديجة مال كثير حتي إن عيرها الذى يحمل بضائعها كان يعادل عير قريش كلها فى حجمه ونفاسته ما اجتمع عليه من بضائع التجار»(٢٦) ومن كتب التراث التى تؤكد أن حصة خديجة فى قافلة قريش توازى أو تجاوز النصف: كتاب «عيون الأثر» لابن سيد الناس.

«وكانت خديجة امرأة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتكون عيرها كعامة عير قريش»(٢٧).

وكذلك السيرة الشامية:

«وكانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش»(٢٨).

ووصل إلى علم أبى طالب عم «**الحبيب المصطفى**» خبر القافلة المسافرة إلى الشام وأن شطرها بالتمام والكمال تملكه سيدة قريش التى تستأجر رجالاً «عمالاً تجاريين» يتجرون فى مالها ولهم جعل معلوم فخاطب العم ابن أخيه قائلاً إنه أملط(٢٩) من المال وقد أضرت بهم السنون العجاف واقترح عليه أن يذهب إلى الطاهرة يعرض عليها أن تستخدمه كسائر العمال بيد أن «**الصادق المصدوق**» معتز بكرامته يشعر بأنه ليس كالآخرين وأن أنفته تأبى عليه ذلك وعزة نفسه ترفضه وحميته تنفر منه فلم يجد العم البائس الفقير بدا من أن يمشى بنفسه إلى أم هند «أبو طالب كلم خديجة حتى وكلت إلى رسول الله ﷺ بتجارتها»(٣٠).

ونذكر هنا أن أبا طالب رغم حوجته فهو سيد قريش بعد أبيه عبدالمطلب

وقيل إنه من القلة القليلة أو النادرة التى تسيدت على قبيلتها رغم عوزها وفاقتها.

• • •

استقبلته خديجة بترحاب يليق بمكانته ولأنه عم «**القادم المنتظر**» ولم يضع وقتًا ودخل فى الموضوع مباشرة فقال لها: «هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمدًا؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة أبكار، وكان رد خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا فكيف وقد سألته لحبيب قريب»(٣١).

إن من العبط (٣٢) والبله والغفلة أن نظن أن جواب سيدة النساء على أبى طالب عفو الخاطر أو زلة لسان أو رمية من غير رام. إن هذه العبارة كشفت عن مكنون شعورها وخبىء إحساسها ودفين وجدانها نحو الفتى المأمول والقادم والمنتظر إذ إنها وصفته بالحبيب ـ القريب.

الوصف الأول ينصرف إليه كبعل المستقبل الذى عقدت العزم على نكاحه أما النعت الأخير فهو توصيف لموضوع التجربة فهى فى قرارة نفسها عزمت ألا تلقى منه سوى المقاربة والألفة والمطاوعة.

وقد استجابت لما طلبه العم الشيخ بأن تنفح «**الأمين**» ضعف ما تعطى لغيره من الوكلاء أو العمال التجاريين أو المضاربين وقد وفت بما وعدت، بل إن سيرة محمد التى فحاويها طيب وعنبر تخبرنا دواوينها أنها «**الطاهرة**» منحته ضعف ما سمته له أى أنها أعطته أربعة أضعاف ما تعودت على إعطائه لغيره أى أنها إذا درجت على تسليم الأجير العادى بكرًا أو قلوصًا فإنها نفحت «**سيد الناس**» أربعة ولم يتهيأ له ذلك لأنه حقق لها ربحًا وفيرًا فحسب كما ذهب إليه كتاب السيرة الشريفة القدماء ثم تابعهم عليه المحدثون بل إنها أقدمت على مضاعفة الأجر إلى أربعة أمثال كنوع من التحية أو الترغيب أو المراضاة ليقابلها «= المضاعفة» بالتوافق مع ما رسمته وطفقت تلح عليه حتى حققته بعد أقل من ثلاثة أشهر وهو نكاحها إياه الذى هو بدوره فرشة للتجربة الكبرى التى صممت على إنفاذها.

• • •

وهناك ملحظ فائق الأهمية شديد الدقة بالغ المدى من الحساسية غاب عن الجميع وبهذه المناسبة فإن هذا الكتاب من أهم أغراضه الكشف عما فات القدامى والمحدثين فى السيرة المعطار خاصة فى علاقة سيدة قريش بـ«المصطفى» وفى مقدمها ذاك الذى حيّر الجميع فك طلاسمه وحل رموزه وتوضيح شفرته.

ثم نعود إلى السياق:

ذلك الملحظ هو أن مبالغة الطاهرة فى الترحيب بشيخ قريش والموافقة الفورية على شرطه مع أنها «خديجة» تاجرة ماهرة تحسب لكل شىء حسابه من أهم دواعيه وأبرز علله وأوضح دوافعه: أن أبا طالب هو أبو أم هانئ التى شكلت فى ذياك الإبان منافسًا خطيراً لسيدة قريش لأن محمدًا كان يأمل فى زواجها إذ إنهما تربيا فى بيت واحد ولابد أن نشأت بينهما عاطفة طاهرة شريفة مصيرها المباعلة، إذ إن العرف استقر آنذاك ومازال حتى الآن فى شبه الجزيرة العربية المباركة بل فى صعيد مصر الذى دهست أراضيه قبائل كثيرة مع الغزو العربى الاستيطانى بقيادة عمرو بن العاص ذلك الذى فعل الأفاعيل هو وجنوده فى مصر المحروسة عكس ما يزعمه حملة المباخر من المؤرخين المحدثين، جرى العرف على زواج ابن العم بابنة عمه فعلى سبيل المثال السريع: العدوى عمر بن الخطاب مع ابنة عمة زيد بن عمرو بن نفيل، وأوشك أن «يعملها» ورقة بن نوفل مع ابنة عمه خديجة بنت أسد. إن ترحيب الطاهرة بالعم ونزولها على شرطه بلاشك أنه يسل سخيمته عندما تستلب «**الأمين**» من كريمته ذاك الذى طالما سمع من أبيه عبدالمطلب أن مستقبلاً باهرًا فى انتظاره لا يحلم به أى عربى. هذا من ناحية.

ومن الجانب الموازى فإن سيدة نساء قريش حينما تضاعف الجعل أربعة أضعاف لمحمد فإنها بذلك تبلسم(٣٣) ما قد يعتور قلب محمد من ندوب وما قد يصيب شغاف فؤاده من جراحات عندما تطير منه أم هانئ لما تفلح سيدة قريش فى نكاحه، وسوف نرى ونحن نهرول فى صفحات هذا الكتاب أن عملية المداواة أو البلسمة هذه استمرت وتواصلت وكلفت خديجة ما لا يعلمه إلا الله وحده من الثمن الجزيل والمال الوفير والتقدمات النفيسة.

إنما كيف فعلت ذلك وهى التاجرة الناجحة والتاجر الموفق لا يصنع ذلك بل إنه كما يقول التعبير الشائع «يحسب الهواء الطائر»؟ إن العثور على الجواب السديد لا تعوزه الفطانة ولا يحتاج إلى الذكاء ولا يفتقر إلى الألمعية.

إن الطاهرة لم تقدم عليه من موقع التاجرة الشاطرة «كلمة فصيحة» بل من موقف «منفذة» تجربة فائقة الخطورة ومن ثم فهى لا تلتفت إلى حساب المكسب والخسران.

• • •

إنها بما تتمتع به من أفق رحيب ونظر بعيد وبصيرة نفاذة تعلم أن «موضوع التجربة» ينبغى عليه أن يولى ظهره للماضى وينساه بالكلية حتى يتفرغ تمامًا للتجربة التى يعانيها ويكابدها كيما يقيض لها الفوز، ومن أهم ما يعاضد على التفرغ هو الإغراق فى البلهنية والإغداق بلا حساب والغمر فى النعيم وهذا ما صوره «**الصادق المصدوق**» الذى لا ينطق عن الهوى حينما قال: «الحمد الله الذى

أطعمنى الخمير وألبسنى الحرير وزوجنى خديجة وكنت لها عاشقًا»[٣٤]. فهنا نجده قرن بين لبس الحرير وأكل الخمير وعشق خديجة، ومن المنطقى بل البديهى أن هذا العشق - عشقه لخديجة -قد جبّ ما قبله ومحا سابقه وأزال ما تقدمه وأزاح سلفه.

ولكن من هى أم هانئ تلك التى خايلت الطاهرة منذ قليل؟

«اختلف فى اسمها قيل هند وقيل فاطمة وقيل فاختة وهى أخت علىّ وأمها فاطمة بنت أسد التى أولاها محمد معزة فائقة واعتبرها بمثابة أمه، أسلمت أم هانئ يوم فتح مكة وهرب زوجها هبيرة وهى التى نقلت عن محمد صلاة الضحى»[٣٥].

وقد تكررت محاولات «**المعصوم**» للزواج من فاختة أو أم هانئ: وكان النبى ﷺ قد خطبها إلى أبيها أبى طالب فى الجاهلية ولكن أبا طالب كان قد وافق على خطبتها إلى هبيرة فقال لابن أخيه: يا ابن أخى إنا قد صاهرنا إليهم والكريم يكافئ الكريم.

وحين انفصمت علاقتها بزوجها «بعد أن هرب ومات كافرًا أ.هـ» بعد إسلامها خطبها النبى ﷺ إلى نفسها «بداهة حدث ذلك بعد وفاة خديجة أ.هـ» فقالت: والله ما كنت لأرفض طلبًا لرسول الله ولكننى امرأة كثيرة الأولاد - وقيل إنها قالت: يا رسول الله - لأنت إلىّ من سمعى وبصرى وحق الزوج عظيم فأخشى إن أقبلت على زوجى أن أضيع بعض شأنى وولدى وإن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج»[٣٦].

وعبارة أم هانئ التى وجهتها لـ«**ديان العرب**» لأنت أحب إلىّ من سمعى وبصرى، شديدة الوضوح حتى إنها غنية عن التعليق.

ولم تتوقف محاولات محمد نكاحها إذ بعد أن كبر أولادها وسقط عذرها ولم يعد لديها ما تحتج به تلا على تبعه الآية الخمسين من (سورة الأحزاب) التى قصرت زواج «**الحبيب المصطفى**» على بنات عمه اللائى هاجرن معه وهى لم تفعل فأصبحت لا تجوز له [٣٧].

وهنا كف محمد عن طلبها لأنها غدت محرمة عليه بنص القرآن العظيم.

ويبدو أن أم هانئ تمتعت بقدر وفير من الملاحة والحُسن ونظرًا لحداثة عهدها بالإسلام فلم تر بأسًا من إظهار جمالها ووسامتها وفى ذات مرة أبصرها عمر بن الخطاب على هيأة اعتقد ساعتها أن فيها مخالفة فلفت نظرها وأفهمها أن شفاعة محمد لن تنجيها من المساءلة فشكت العدوى إليه فغضب «**المصطفى**» وصعد المنبر وقال فى خطبته: إن شفاعته سوف تنال «حا وحكم» فكيف لا تنال رهطه الأدنين أى بنى هاشم.

و«حا وحكم» قبيلتان من القبائل السك[٣٨].

ثم نعود إلى السياق:

إن الروايات التى قصّت علينا ذهاب العم أبى طالب إلى سيدة قريش قليلة إنما غالبية مؤلفات السيرة المحمدية الطيبة سواء التراثية أو المحدثة نصت على أنها «خديجة» هى التى أرسلت إلى «**الصادق الأمين**»ورجته أن يخرج بمالها «تجارتها» إلى الشام ووعدته بأن تعطيه أكثر مما تعطى غيره:

«فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يتجر لها فى مالها ويخرج إلى الشام وتعطيه أفضل من غيره من التجار ثم أضعفت له ما سمت»(٣٩).

إن هذا العدد الوافر من المصادر الذى ضم الذرا الشوامخ والقمم العوالى من دواوين السيرة المحمدية العظيمة مثل سيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام والسيرة الشامية وتاريخ الطبرى وإمتاع الأسماع وأنساب الأشراف... إلخ.

ومن المراجع التى صنفها أصحاب أسماء لوامع مثل: طه حسين والخضرى وبنت الشاطئ وعبدالوهاب حمودة «وترجم أحدها الشيخ عبدالحليم محمود شيخ الأزهر».. إلخ، جميعها أطبقت على أن الطاهرة سعت إلى «**الأمين**» وتوسلت إليه لكى يتولى أمر تجارتها ـ ضمن قافلة قريش المتوجهة إلى الشام وتعطيه أفضل من غيره، وفى رواية ضعف ما تمنح غيره وإثر عودته سالمًا رابحًا أضعفت ما وعدته.

وما قلناه عن علة تلك المبادرات من قبل أم هند فى الفقرة الخاصة بسفارة العم أبى طالب إليها ينطبق هنا وربما أكثر لأنها هى بنفسها التى يممت شطر «**سيد الناس**» ورجته فى إلحاف أو ألحفت فى رجاء لكى يقبل أن يرحل بعيرها فى القافلة إلى الشام متجرًا فى مالها وأغرته بمضاعفة الجعل، وحين أوبته وقد سلم وغنم أعطته ضعف الضعف أى أربعة أمثال الأجر المتعارف عليه فى سوق العمالة التجارية.

ولعله من النوافل أن نسطر أن هذا كله تمهيد لإتمام عقد النكاح بينها وبين «**الأمين**» الذى هو بدوره المدخل لغمسه فى «التجربة الكبرى».

بيد أنه لماذا هو على وجه التعيين والتحديد فمكة تطفح بالعمال التجاريين الذين يرضون شاكرين ممتنين بالأجر أو الجعل العادى ولا شك أن فيهم أمناء خاصة وأن أم هند كانت تشترط أن يسافر معهم عبدها الأمين ميسرة بمثابة عين لها وحتى يغدو الأجير منهم تحت الرقابة الصارمة. نسطر هذا ردًا على من يقول إن دافعها لاستئجار «سيد ولد آدم» هو أمانته ـ هذا من جانب.

ومن جانب آخر هناك فتية وشبان قريشيون لا يأنفون من وكالة خديجة لهم لأن فروع أو بطون قريش ليست جميعها موسرة بل فيها بطون بين بين، نذكر منها تيم رهط ابن أبى قحافة وعدى عشيرة العدوى عمر بن الخطاب بالإضافة

إلى ناشئة قريش البطاح مثل عبيدة بن أبى الجراح، كل هؤلاء وأولئك يسعدهم أن تستخدمهم الطاهرة فى تجارتها وتسلمهم عروضها ليتجروا لها فيها مع الوضع فى الاعتبار أن تحمل التوكيل عن خديجة فى البيع والشراء هو فى النهاية عمل تجارى وقريش كما أخبرنا المؤرخون قوم تجار ومن ليس تاجرًا فيهم فهو لا شىء.

فضلاً عن أن الناشئ أو الشاب أو الفتى يعثر فى هذه الوكالة على ضالته، إذ أنه يحصل على خبرة أو دربة هو فى أمس الحوجة إليها إذ إنها تفيده عندما يكبر ويستقل ويصبح هو نفسه رب عمل تجاري كما أنه «الناشئ أو الشاب أو الفتى» يجد متعة فى الرحلة إلى الشام من نواح عديدة - يرى بلدانًا ويقابل أشخاصًا ويزور معالم لا تتاح له فرصة الاطلاع عليها لولا السفر الذى يقول مثلهم عنه إن فيه فوائد سبعًا ثم عندما يؤوب يلفى لديه خزينًا وفيرًا من الحكايا والأخبار والطرائف يقصها على لذاته وأترابه فى مجالس السمر فى ليالى مكة الطويلة.

إذن اختيار سيدة نسوان قريش لـ «**الصادق المصدوق**» لم يأت اعتباطًا كذلك ليس مرجعه أمانته وصدقه إذ لا يعقل أن تخلو قرية القداسة من الشرفاء ذوى الأمانة عداه.

من هنا فإننا نؤكد أن اختيار «**المنصور بالرعب**» لا يؤوب لأمانته فقط - بداهة أن أمانته لا ينتطح فيها عنزان - بل لأنه المرشح الأوحد للنكاح وتوابعه شديدة الخطر بالغة الأهمية.

• • •

تعددت المراسيل التى بعثتها الطاهرة لـ «**أبى القاسم**» لكى يوافق على أن تنكحه ذلك أنها كما ذكرنا صممت عليه وبيتت النية وعقدت العزم فلا يثنيها عن طلبتها شىء ولا تنتصب فى سكتها عقبة ولا يحول دونها حائل، ولا تضارب بين سعيها الحثيث وتقدمها بنفسها إليه وعرضها بلسانها ذلك وبين أن تمطره بوابل من المبعوثين لأنها عملية حصار محكمة فهؤلاء الرسل منهم من يذهب إليه فى موطنه وثان يقابله فى الطريق وثالث يفتعل المقابلة وكأنها مجرد صدفة ورابع يفاجئه إبان زيارته لسيدة نساء قريش وأثناء حديثه معها فيفاتحه فى الموضوع مباشرة مع التقدير أنه آنذاك فى الواحدة والعشرين من عمره أو قريبًا من ذلك.

«قالوا لما جاوزت سنو رسول الله ﷺ العشرين قال له أبو طالب: يا ابن أخى إن خديجة امرأة موسرة.. فسارعت ورغبت فيه ووجهته إلى الشام»(٤٠).

فإذا كانت سفرة الشام استغرقت ثلاثة أشهر وتم الزواج بعدها فى أقل من شهرين فإن معناه أن «**أول شافع وأول مشفع**» بالكاد بلغ تلك السن.

ولدينا واحد من الكتبة المحدثين يعتنق هذه الفكرة: «ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجته ما يقرب من ثمان وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين» (٤١).

فإذا قلنا إن «**حبيب الله**» فى عام الحزن وهو عام وفاة السيدة خديجة وصل إلى الحادية والخمسين ومكث معها ثمانيًا وعشرين سنة فإن دلالته أنه عندما نكحته لم يكمل الثالثة والعشرين إذن هو فى مجلس خديجة عندما يفاتحه المندوب أو المفوض أو المرسال أمامها مباشرة فى أمر نكاحها إياه يتراوح عمره ما بين الحادية والعشرين والثالثة والعشرين وهى فى السادسة والأربعين (أى بينهما ربع قرن من الزمان) وهذا ما نص عليه البلاذرى(٤٢).

بالإضافة إلى المصادر السوابق التى وثقت ذلك وأنه أجير لديها فإن النتيجة المتوقعة أو المحتومة أن يوافق من باب الحياء كما فى الخبر الذى أورده السهيلى وسنسطره فيما بعد.

إزاء ذلك يجد «**المعصوم**» نفسه فى دائرة محكمة أفرادها متعددة منهم ذكور أحرار نسوان حرائر وعُبدان وموالى وكاهنة فلابد أنه إذن يستسلم لرغبة سيدة النساء، فقد قرأنا فى سيرته التى تتضوع روائح طيبة أنه حتى آخر لحظة من سنى حياته المبروكة ظل كالعذراء المخدرة حياء وأدبًا.

إن أبرز الأسماء فى مضمار المراسيل الذين سلطتهم الطاهرة عليه: نفيسة بنت منية فقد نسبه الواقدى أحد أكابر كتاب السيرة المحمدية القدامى والذى قيل بشأنه إن الناس عيال فى السيرة عليه وكتابه عن الغزوات الذى حققه مارسدن جونز من أوثق المؤلفات فى هذا المضمار .

«قال الواقدى: كانت التى سفرت بين رسول الله ﷺ وبين خديجة نفيسة بنت منية أخت يعلى التميمى حليف بنى نوفل بن عبدمناف.

أسلمت نفيسة عام الفتح فذكرت رسول الله بما كان منها فبرها وأكرمها» (٤٣) .

أما أن «**سيد العرب والعجم**» برها وأكرمها فلا غرابة فى ذلك فهو المثل الأعلى للوفاء وكثيرًا ما قال لتبعه من عمل فيكم معروفًا فكافئوه خاصة وأن ابنة منية لا مشاحة «وجه السعد» عليه كما تقول العبارة الشعبية الدارجة.

واختلف البُحاث القدامى والمحدثون فى توصيف صلة نفيسة بأم هند فمن قائل إنها صاحبتها أو أنها سفيرتها أو ذات قرابة وأخطأ محمد رضا فى كتابه «**محمد رسول الله**» عندما قال عنها إنها مولاة لخديجة مع أنه باحث رصين ومؤلفه هذا من أميز كتب السيرة المحمدية فى المحدثين. وهذا هو الخبر الذى ورد بشأن نفيسة فى هذه الخصوصية.

«أم سعد بنت سعد بن ربيع عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة شريفة فأرسلتنى دسيسًا إلى محمد بعد أن رجع

بعيرها من الشام فقالت يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج؟ قال: ما بيدى ما أتزوج به؟ قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هى؟ قلت خديجة. قال: فكيف لى بذلك؟ قال: قلت على هذا. قال: فأنا أفعل. فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن ائت ساعة كذا وكذا»(٤٤).

وقد طرحته لنا عشرات المؤلفات التراثية والكتب الحديثة فى السيرة المحمدية التي هى أطيب من رائحة العود الهندى. قد يزيد جملة هنا أو ينقص جملة هناك ولكن النقاط الرئيسة فى كل منها واحدة، وهنا ملحظ لا يفوت العين اللاقطة أى التي تلتقط اللمحات الموحية ذات الدلالة العميقة وهو أن تلك الكتب أجمعت أو كادت على أن بنت منية اعترفت أن أم هند أرسلتها «دسيسًا» لـ «**سيد ولد آدم**» فمن هو الدسيس؟

هو الذى تدسه ليأتيك بالأخبار(٤٥). ويضيف المقرى الفيومى معنى جديدًا ألصق بالوصف الذى درجت كتب السيرة المحمدية الفاخرة على إطلاقه على نفيسة بنت منية فيقول: «يقال للجاموس: دسيس القوم» (٤٦).

وهناك تعبير دارج يتداوله العامة فيما بينهم ولا نرى ثمة بأسا من استعارته منهم وهو «يجس نبضه» أى يعرف نواياه ويدرك مراميه ويتنبه إلى مقاصده ويفقه أهدافه.. إلخ، يفعل ذلك قبل محادثته فى الموضوع مباشرة فإن وجد «الدسيس» عنده قبولاً فاتحه هو أو من أرسله فى الأمر وإلا طوى أوراقه وانصرف.

ونورد فيما يلى ثبتًا بالمصادر ثم نتبعه بالمراجع التي تؤكد أن نفيسة هى دسيس الطاهرة(٤٧).

• • •

وينتهى الخبر بنجاح «الدسيس» نفيسة فى مسعاها ويوافق «محمد» على مطلب خديجة أن تنكحه فتهرع إليها وتبلغها بالنتيجة الباهرة التى توصلت إليها ولا تضيع الفرصة وتسارع إلى اهتبالها وتطلب إلى دسيسها أو سفيرتها أن تبلغه أن يأتى ساعة كذا وكذا فيحضر هو وأعمامه فيجدون كل شىء معدًا ويتم عقد القران وبعد الوليمة ورقص الجوارى يدخل بها دون تباطؤ.

إنما أى دافع هذا الذى حث الطاهرة على الإسراع وتجهيز كل شىء من الألف إلى الياء والدخول بها على الفور لا على التراخى؟ لا نستطيع أن نجزم فنطرح باعثًا معينًا إذ إن هناك افتراضات متعددة ومتباينة منها على سبيل المثال لا الحصر:

أن يقع الشاب الغض الإهاب الذى جاوز مرحلة الصبا منذ قريب تحت تأثير عماته وكن متعددات إذ تعلنّ له:

ما الذى يدعوك إلى الارتباط بـ «ثيّب» تزوجت مرتين وأنجبت البنين والبنات

وفى عمر والدتك «لو عاشت» وقريش مليئة بالعذارى الأبكار الجميلات اللاتى يتمنين نكاحك؟

أو ينتصب اعتراض «وقد حدث ذلك فعلاً» من أبيها سوف نفند رأى من قال إنه توفى من قبل أو من عمها أو من أخيها فيحتجون قائلين أو يقولون محتجين: ما هى الضرورة التى تلجئك لنكاح يتيم قريش الفقير راعى الغنم وقد تقدم إليك «وما زالوا يتقدمون» علية ملأ قريش الذين يملكون المال الوفير والقسامة والرجولة والنضج؟

أو تضغط عليها صواحبها وقد أخبرنا العميد طه حسين أنهن عارضنها عند ما لمحت لهن به؟

أو ربما ينجح أصحاب «**درة بنى هاشم**» وأصدقاؤه فى إثنائه عن عزمه وينصحونه بالتريث والانتظار فالمستقبل - فى التجارة - أمامه مفتوح فهو علاوة على أنه من رهط رفيع المستوى فى القبيلة فإنه يملك كافة مقومات النجاح فى التجارة مثل طلاقة اللسان والجد فى العمل والصدق فى القول والأمانة، كما أنه لا داعى للعجلة فهو لم يتجاوز العشرين إلا بعام أو أقل.

● ● ●

كل هذه الاحتمالات قائمة ولاشك أن الطاهرة التي اشتهرت بسعة الأفق والتفكير العميق والبصيرة النافذة تدبرتها وأدارتها فى رأسها وتعمقت فى دراستها فلم تر مناصًا من التعجيل بإنجاز عقدة النكاح قولاً وفعلاً.

ولاشك أنها فطنت أن كل هؤلاء فى وادٍ وهى فى وادٍ آخر فهى لم تختر «**الحبيب المصطفى**» لشبابه أو فحالته أو جمال محياه إنما لتخوض به تجربة كبرى لم تدر بأخلادهم.

● ● ●

نجىء إلى مرسال من نوع خاص وهى المستنشئة وسبق أن تحدثنا عن عمالتها وموقعها الدينى ومكانتها فى القبيلة التي وزت سيدة قريش وزوزة[٤٨]. لأن تهرول إليها كيما تسفر بينها وبين «سيد ولد آدم» لكى تلحف فى رجاوته ليقبل نكاح الطاهرة إياه ولتباعله وهى أى الكاهنة شكل لقاءها بـ«**الصادق المصدوق**» نوعًا من الرسم أو التخطيط أو التدبير وربما يعود ذلك إلى المكانة الاجتماعية التى لها والتي تحول دون ذهابها إليه؛ لأن العادة جرت والعرف ترسخ على أن القبيل «أفراد القبيلة» هو الذى يسعى إليها حتى لكى تفسر له رؤيا رآها.

ولا سبيل إلى بعث أو إرسال محمد إليه وإلا انكشفت التلعابة[٤٩]. إذن لا حل لهذا الأمر الملتبس سوى تدبير لقاء بينهما كأنه تم مصادفة.

«وعن الزهرى فى سيرته أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة ليتحدث

عندها فلما قام جاءت امرأة (سوف يأتى فيما بعد أنها الكاهنة أو المستنشئة أ.هـ) فقالت: أخاطبًا يا محمد فقال: كلا. فقالت: ولم؟ فوالله ما فى قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفئا لها فرجع رسول الله ﷺ خاطبًا لخديجة مستحيًا منها» (٥٠).

وهنا يثور اعتراض:

كيف تزور الكاهنة أو المستنشئة خديجة وسبق أن قلنا إن القبيل «أفراد القبيلة» يزورها وهى لا تفعل. حتى عبدالمطلب جلال قدره أتاها ولم تأته؟ والرد على ذلك أن عبدالمطلب عندما أمها «قصد إليها» إنما بهدف تأويل رؤياه أى جاءها من أجل عملها كما يذهب المريض إلى الطبيب والمتقاضى إلى المحامى والمعيون إلى الراقى، والكاهنة هنا ذهبت إلى سيدة نسوان قريش لتزورها لا لتمارس عملها.. أما إذا قصدت «الرحمة المهداة» فلأى غرض؟

وفى الخبر إيحاء شديدة وإغراء له بخطبة خديجة وتبيين لمكانتها وفى الوقت نفسه تهيئة لـ «**الأمين**» بإخطاره أن أى مرة فى مكة تعتبره كفيئًا لها وذلك لتكدّ «تكسر» أى تردد فى نفسه وهذا ما حدث بالتمام والكمال فقد فعل فعل السحر إذ لم يلبث «**محمد**» برهة يسيرة إلا ورجع خاطبًا وهذا على وجه التعيين ما سطرناه عن لباقة هذه النوعية من البشر وذلاقة لسانها وقوة منطقها.

ومن لديه ذرة من ريبة أن المَرَة التى ورد ذكرها فى خبر السيرة الشامية هى المستنشئة فليرجع إلى السهيلى:

«جاءت امرأة مستنشئة وهى الكاهنة كذا قال الخطابى فى شرح الحديث فقالت له جئت خاطبًا إلى آخر الخبر» (٥١).

ثم توضح لنا بنت الشاطئ الأثر الذى تركته كلمات الكاهنة على محمد بعد أن قالت له ما قالت مما حمله إلينا الخبران السالفان فى «السيرة الشامية» و«الروض الأنف» «ثم لم تكن إلا فترة قصيرة المدى حتى تلقى دعوة خديجة فسارع إليها ملبيًا» (٥٢).

• • •

هكذا حمل إلينا خبر الكاهنة أو المستنشئة اثنان من ذروة سنام كتب التراث ومصنف حديث وضعته باحثة جادة.

وهذه المؤلفات الثلاثة إنما أوردناها للتمثيل لا الحصر أو الاستقصاء وفيها الغُنية للتدليل على أن من بين مراسيل أم هند كاهنة قريش أو المستنشئة وهذا يقطع بدوره على أن خديجة عزمت عزمًا أكيدًا على نكاح «محمد» مهما تعددت إليه الوسائل.

• • •

عمار بن ياسر مولى من موالى قبيلة مخزوم وفى ذات مرة بعد أن أعلن

«محمد» دعوته وفى قرية يثرب حدثت مشاحنة بينه وبين خالد بن الوليد بن المغيرة فى حضرة «صفوة الخلق»، ويبدو أن ابن ياسر أغلظ القول لمولاه السابق وابن سيد مخزوم «الوليد بن المغيرة» وأحد صناديدها وصاحب المال الممدود كما وصفه القرآن العظيم فأخذت الحمية خالدًا فوجه «لمحمد» سؤالاً: أتترك هذا العبد يشتمنى؟ فرد عليه **«أبو القاسم»** معلمًا إياه: «من أغضب عماراً فقد أغضبنى ومن أغضبنى فقد أغضب الله» وهنا اضطر سيف الله المسلول إلى ابتلاع خنزوانته «كبريائه» واعتذر لابن سمية مولاه السابق.

كما أن عماراً من السابقين من تبع **«الحبيب»** وعُذب هو وأمه وأبوه فى سبيل دعوته. أما قبل الإسلام فإن الخبر القادم يشى بأن العلاقة بينه وبين **«ديان العرب»** وطيدة ورغم أنه من القمة الشامخة من قريش إنما لتواضعه وحسن أخلاقه وكرم شمائله صادق العُبدان والموالى واللصقاء... إلخ، ومن ثم ربطته بعمار صلة حميمة، والطاهرة وقد وضعت **«المعصوم»** تحت المجهر وعلمت الصغيرة والكبيرة من شأنه تفطنت إلى عمق صحبة الاثنين ومن ثم انضاف ابن سمية «عمار» إلى طابور رسلها إلى **«محمد»** بيد أنه نظرًا لمكانتها السامية وقدرها الرفيع ومقامها المحمود استحال عليها أن تخاطب عمارًا مباشرة فهو مولى أو عبد - كما وصفه القائد المظفر الذى لم يهزم فى جاهلية أو إسلام والذى شكلّ أهم العوامل المؤثرة فى الهزيمة الوجيعة التى أصابت المسلمين فى الغزوة الثأرية «أُحد» - ومن ثم سلطت عليه أختها فحادثته وهو بدوره فتح الموضوع مع «المزمل»[٥٣].

«عن عبدالله بن الحارث أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة ويكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها إنى كنت ترِبًا له وكنت إلفًا له وخدْنا خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى وإذا كنا بالحَزْوَرَة (ضاحية بمكة) أجزنا على أخت خديجة وهى جالسة على أدم تبيعها فنادتنى فانصرفت إليها ووقف رسول الله ﷺ فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته: فقال: بلى لعمرى - فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة»[٥٤].

فى هذا الأثر وصف عمار العروة الوثقى التى شدته به المدثر فهو= ترب وخدن وإلف ولاشك أن أم هند أدركت ذلك لأنها وضعت **«محمداً»** تحت رقابتها من زمن، وترتيبًا عليه اختارته أى عمارًا سفيًرا لـ«سيد ولد آدم» ليجس نبضه فى عزمها على نكاحه، وفى خبر أيضًا أن «صاحب القبلتين» ما إن أعطى إشارة التسليم حتى طلب منه الحضور فى الصباح الباكر من اليوم التالى وعند ذهابه - هو ومن معه - وجدوا أن كافة الاستعدادات قد أنجزت وفى مقدمها ذبح بقرة،

وفى كتب التراث عند الحديث عن عرس «فرح» نقرأ عبارة «فأولم بشاة» بيد أن الطاهرة للفرحة الغامرة التي شملتها مع ثروتها الطائلة ذبحت بقرة.

أما ادعاء ابن سمية «أنا أعلم الناس بنكاح خديجة من محمد» فهذا غير دقيق فهو فى ذياك الوقت مجرد مولى لا خُلطة له بعلية قريش وعلى رأسهم سيدة نسائها حتي يمكنه أن يتعرف على أحوالهم ويعلم دخائلهم، وهو لم يرتفع قدره إلا بعد ذلك بأكثر من عقدين من السنين عندما غدا لسابق إسلامه من أقرب المقربين لـ«**سيد ولد قصى**».

«روى بعضهم عن عمار بن ياسر أنه قال: أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد: كنت صديقًا له فإنال نتمشى بين الصفا والمروة إذ بخديجة وأختها هالة فلما رأت رسول الله ﷺ جاءتنى أختها هالة فقالت: يا عمار أما لصاحبك حاجة فى خديجة؟ قلت: والله ما أدرى فرجعت فذكرت ذلك له فقال: ارجع وَاضعْها يومًا وعدها يومًا نأتيها فيه فقلت (أى فقلت ذلك لهالة أخت خديجة) فلما كان ذلك اليوم.. إلى آخر الخبر الذى سوف نسرده فى فاصلة من الذى تولى العقد عن خديجة»[٥٥].

من هذا الخبر الذى حمله إلينا اليعقوبى فى تاريخه عدة معطيات:

١- إن اسم الأخت هالة ولم يذكر أنها تبيع أدمًا أو خلافه.

٢- أن خديجة آنذاك بصحبة هالة.

٣- ذهبت هالة لعمار تعرض عليه أن تنكح خديجة «سيد ولد آدم» وبداهة أن ذلك ليس من عندياتها بل بإيعاز من الطاهرة.

٤- أمر «**المصطفى**» عمارًا أن يرجع إليها لتحديد يوم يأتيها فيه.

٥- ودلالة ذلك أن «**المعصوم**» لم يعط كلمته بالموافقة وهذا ما سبق أن ألمحنا إليه، ومع ذلك فإن خديجة «حسب نص الخبر» اعتبرت ذلك موافقة وأسرعت فى الاستعداد، إنما فى اعتقادنا أن عجز الخبر يتعين أن يؤخذ بحذر لأن الطاهرة اشتهرت بالحصافة.

وفى السيرة الشامية ورد هذا الخبر بالصورة الآتية:

«عند يعقوب بن سفيان فى تاريخه عن عمار قال: مررت أنا ورسول الله ﷺ بأخت خديجة فنادتنى فانصرفت إليها ووقف له رسول الله ﷺ فقالت: أما صاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة؟ فقال عمار: فأخبرته. فقال: بلى لعمرى، فذكرت لها ذلك فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلة»[٥٦].

وهو خبر مختصر عن سابقه لم يذكر عمار صلته بالحميمة بـ «**سيد الأولين والآخرين**» ولا بأنه أعلم الناس بقصة نكاح الطاهرة إياه.

إنما أضاف أنهم وجدوا خديجة قد لبست حلة الفرح أو العرس وهو معطى عميق الدلالة هو أن أم هند ذللت جميع العقبات خلا موافقة «**المصطفى**» فلما

أعطاها إياها عن طريق أختها اعتبرت أن النكاح تم لأن لبس الحلة أو فستان الفرح بالتعبير الحديث هو شارة إتمام الزواج، إذ لا يعقل أن سيدة رفيعة المقام مثل خديجة تقبل أن تغدو مضغة الأفواه وموضوع أحاديث مجالس السمر فى قرية القداسة ولغط عجائزها إذ يقال إنها لبست حلة الزفاف لمحمد بن عبدالله لكنه أى العرس أو الفرح لم يكتمل لأن أباها أو عمها أو أخاها أو لأن رهط بنى هاشم اعترضوا.

• • •

فى هذين الخبرين اللذين أورد أولهما ابن كثير وآخرهما الصالحى الشامى أن الأخت ـ أخت الطاهرة ما إن سمعت الوفاق من «**الأمين المأمون**» حتى ردت أن اغدوا علينا إذا أصبحنا فهى لم تطلب منهما اللبيثة قليلاً أو كثيراً حتى تردّ عليهما بأن تستأمر أم هند ثم ترجع إليهما بالرد أو الجواب بل على الفور لا على التراخى دعتهما للحضور فى صبيحة اليوم التالى إلى دار العروس.

علام يدل هذا؟

الجواب معروف لأنه بديهى أن طلب الأخت هالة من «**طه**» ـ عن طريق عمار تزويج خديجة لم يصدر منها بل هى مأمورة به من قبل أم هند.

اعرضى على «**الحبيب**» عن طريق صاحبه الأليف أو إلفه الصاحب أن يستجيب إلى طلبى أن أنكحه فإن فعل فامريهما أن يحضرا غدا، وسوف يجدان كل شىء جاهزا وسأنتظرهما وأنا فى حُلة العُرس أو فستان الفرح إذ ليس من المنطقى أن تخاطر الأخت بذلك فإذا أتيا للدار لم يلفيا شيئًا.

إذن الدعوة عن طريق الأخت كانت مخططة ومرتبة ومرسومة.

• • •

فى الفقرة السابقة الخاصة بالمولى ابن سمية جاء دور أخت سيدة نسوة قريش وهو ما يمكن أن نطلق عليه الرسول أو المرسال غير المباشر، فهى حادثت عمارًا وهذا خاطب «**سيد الناس وديّان العرب**» فالأخت فى الخبرين كليهما لم تكافحه «تواجهه». ورغم القرائن القوية التي طرحناها لإثبات أنه من المستحيل أن تقدم عليه من نفسها فإننا ـ منعًا لأى مشاكسة أو معارضة ـ نورد هذا الخبر «حدث أبو مجلز أن خديجة قالت لأختها: انطلقى إلى محمد فاذكرينى له أو كما قالت وأن أختها جاءت فأجابها بما شاء وتواطأوا على أن يتزوجها رسول الله ﷺ»(٥٧).

هذا الخبر يقطع بأن الطاهرة هى التى أمرت أختها بأن تنطلق أى تذهب مع قدر من العجلة والهرولة والسرعة إلى «**أبى القاسم**» وتسأله نكاح خديجة إياه فتواطأوا عليه أى توافقوا «والمتواطئ أى المتوافق وهى من المجاز وحقيقته كأن كلا منهما وطئ ما وطئه الآخر»(٥٨).

فيما سلف تناولنا سفارة عمار والأخت إذ إن خبرين منهما جمعا بينهما. بقى المرسل الأخير وهو العبد ميسرة والشان أن لجوء سيدة قبيلة قريش كلها إلى عبد من عُبدانها كيما يغدو رسولها إلى «**الصادق المصدوق**» فى مسألة المباعلة أى لتصيير هى بعله(٥٩). يقطع بصحة ما سطرناه منذ قليل أنها تعبت تعبًا شديداً ولغبت لغوبًا بالغًا وأرهقت إرهاقًا وجيعًا حتى أعيت فلم تر مناصًا من اللجوء إلى ميسرة ومهما كانت صلته بها فهو غلام من أغيلمتها ومملوك من مماليكها لكى تظفر ببعولة «**خير من وطئت قدماه الأرض**».

فى رحلة الشام الثانية ذاق ميسرة حلاوة أخلاق «**الأمين**» بل تضلع منها وشرب عللاً بعد نهل ورغم أنه فى السفر تظهر سجية المسافر على حقيقتها فإن غلام أم هند لم يجد لدى «**خير شافع ومشفع**» سوى رقة الشمائل وحسن المعاملة وأدب الخطاب وتواضع النفس فلا مشاحة أن العبد ميسرة ظن فى مبدأ الأمر أن هذا الذى فى الرحلة سيظهر له التعالى ولا يلفى منه إلا الكبرياء ولن يقابله سوى بشموخ الأنف كيف لا وهو من بنى هاشم ذروة سنام قريش خاصة أن السفر يظهر الفرد على حقيقته ويكشف عن وجهه الحقيقى ويسفر عن صفاته وأخلاقه دون زيف أو تصنع:

«لما أراد الحسن البصرى الحج قال له ثابت البنانى: يا أبا سعيد بلغنى أنك تريد الحج فأحببت أن نصطحب فقال: ويحك دعنا نتعايش بستر الله إنى أخاف أى نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه»(٦٠).

بيد أنه فوجئ بالعكس: دماثة فى الخلق ولين فى القول وكمال فى الأدب ولطف فى المعاملة.. ولنترك جانبًا المعجزات التى شاهدها بعينيه والتحايا والتجلة التى قابل الرهبان بها «**محمداً**» وكذا من يملكون علمًا وفيرًا بالكتاب فهذه ستملأ مكانًا وسيعًا فى باب المعجزات.

إنما الذى يهمنا هنا الخلق العظيم الذى لمسه العبد من «سيد الناس» فى رحلة الصيف وشعر بمضاعفة الإحساس بالامتنان والعرفان لسيدته لأنها أتحفته بصحبة هذا الشاب الذى بالكاد تخطى سنوات الصبا وولج مرحلة الشباب علاوة على الأمانة والصدق فى القول... إلخ، ومن ثم توطدت العلاقة بين العبد وسيده وتفطنت أم هند لعمق هذه الوشيحة بين أجيرها وغلامها مما أشار به الأخير على الأول بضرورة سرعة الذهاب إليها كيما يبشرها بالتوفيق فى السفرة والأرباح الوفيرة التي تحققت مع أن العادة أنه هو الذى يفعل ذلك حتى يظفر منها بالبشارة والحلوان (٦١).

ومما ذكره لها - بانبهار وإعجاب - عن شمائل محمد التى لا ضريب لها وأخلاقه التى لا مثيل لها فاستنتجت أن ميسرة يصلح ليسفر بينها وبين «**ابن عبدالله**» وأن يقنعه بالاستجابة لرغبة سيدته العارمة بأن تنكحه، وفى ثنايا

الخبـر وردت عبـارات تكشف عن ذلك «فـأسـرعت لأبشـرها فغمـرها السـرور» وربما إدراكه لتلك الإرادة والرغيبـة من جانبـها هو الذى زفه زفيفاً «دفعه دفعاً» إلى الإسـراع لـ«**حبيب الله**» وإلى إصراره على إنجازها والنجاح فيها.

«قال ميـسرة: أرسلتنى سيـدتى بعد شهـر وعشرين يومًا من عـودتنا من الشام إلى محـمد فقلت له: يا محـمد ما يمنعك أن تتزوج؟ قـال: ما بيدى ما أتزوج به. قال: فإذا كان ما تملكه على قلته يكفى ودعيت إلى الجمـال والشـرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هى؟ قال: إنها خديجة. قال: إنك هـازل كيف أجرؤ على أن أتقدم لطلب يدها وما أملك من مهر؟ قال ميسرة: لا عليك وأنا بحل تلك العقدة لكفـيل وكـانت نغمـة سيدى فى حديثـه كافـية لمعرفـة عـواطفه نحـو سيـدتى فـأسـرعت فـى العـودة لأبشـرها فـغـمـرها السـرور فـأخـذت فى الاسـتعـداد للزواج»(٦٢).

ولقد أيد المقريزى سفارة العبد ميسرة (وقيل سفر بينهما ميسرة»(٦٣). فى هذا الخبر نقاط على درجة من الأهمية منها أن خديجة أرسلت غلامها لـ «**سيد ولد آدم**» بعد خـمسين يومًا فحسب من عودتهـمـا من الشام أى أنها عـجلى من أمرها ومتلهفة على النكاح.

وأن عبدها ميسرة طرح مغريات شتى أمام عينى «**أول من تنشق عنه الأرض**».

- الجمال - المال - الشرف - الكفاءة.

وهى مـرغبـات كفيلة بأن تدفع شـابًا خـرج من الصبـا منذ وقت قـريب إلى القبـول الفورى إذ ما الذى يبـغيه فى الزوجة أكثـر من هذا بالإضـافة إلى حل مشكلة المهر التى تتكسر على شاطئها أمواج الخاطبين حتى الآن.

ومنها رد «**الحبيب المصطفى**» على الغلام أو العبد: إنك هـازل. لأنه «**الأمين**» لم يدر بخلده أن الطاهـرة تنكحه وهو منذ أقل من شـهريـن عمل أجيـرًا لديها وهـى ليـست صـاحبـة عـمل عـادية بل هـى ذات ثـراء ممدود حـتى إنهـا تملك نصف القافلة وسائر قريش بالكاد تملك الشطر الآخر.

ومنهـا أن غـلام خـديجـة استـشف من حـديث «سـيـد ولد عـدنان» عـاطفتـه نحوهـا وهذا أمر متوقع لأنه إذا اقتـرن بها فسوف يجد عندها العطف والحنان اللذين حـرم منهمـا مبكـرًا بموت أمه ولـم يتخط الخـامسـة إلا بقليل بيـد أن هذه العاطفة منه ألا تتعـارض مع ما ذكرناه أنه قد شدته إلى أم هانئ عـاطفة دفعته إلى خطبتها إنما لم يكتب له التوفيق؟

إن الرد على ذلك يتحصل فى أمرين:

أ- أن عاطفته نحو الطاهرة تولدت بعد يأسه من أم هانئ إثر خطبتها لهبيرة أو خطبة هبيرة إياها.

ب - بعد تماسه بسيـدة نساء قريش وجلوسه معها كما ألمعنا تولدت لديه أو

بمعنى أدق تيقظت فى حنايا صدره عاطفة البنوة أى شعوره بالحاجة الملحة إلى حنان الأم، ومنها أن السرور غمر الطاهرة فأسرعت على الفور لا على التراخى فى عمل الترتيبات اللازمة لنكاح «**الذى سيفه على عاتقه**» لتأكدها من فلج الخطة شديدة الإحكام للظفر بـ«**المعصوم**» زوجًا من ناحية وموضوعًا للتجربة من جانب آخر.

• • •

هذه حكايا المراسيل أو المندوبين الذين أطلقتهم على «**راكب الأتان**» حتى استجاب لندائها وهذا بخلاف ما سردناه سابقًا ونعنى «الجهود الذاتية» التى باشرتها هى بنفسها، وطرحها جميعها لازم لتبيين أو توضيح الأمور التى سبقت التجربة الفاذة ولكن لماذا تعددت المساعى ألا يكفى أن ينجح أحدها فتقنع خديجة به ولا ترى بعده أى حاجة لغيره؟ بمعنى أنه إذا فلجت هى فى الحصول على موافقة «أول من يفيق من الصعقة» على النكاح فما الذى يدعوها إذن للاستعانة بالمستنشئة أو بعمار أو بأختها أو بصديقتها أو بصاحبتها الروح بالروح نفيسة بنت مينة؟

• • •

نحن لا نشكك فى الأحاديث ونخاصم فكريًا بكل قوة أولئك المتنطعين والمتفيهقين والمتشدقين الذين ينادون بمقاطعة الأحاديث والأخبار والآثار المتعلقة بـ«**صاحب لواء الحمد**» والاكتفاء بالقرآن العظيم ونرى أنها دعوة فسيدة لم يتعمق أصحابها دراسة العلوم الإسلامية بكافة جوانبها، ومع ذلك فنحن لا نرميهم بتهمة العمالة لعدو الإسلام، كل ما فى الأمر أنه ينقصهم النضج فى التفكير والاستقامة فى المنهج (ومن جانبنا فإننا نسبق بخطوات أهل السنة والجماعة فى تقدير حتى الأحاديث الضعيفة ونرى أن صرف النظر عنها عوج وهوج وقلة حنك لأنها «=الأحاديث» هى «ديوان الإسلام» ومن أراد أن يتعرف عليه فليتوجه إليها ويدرسها بأناة وعمق. سبق أن ذكرنا ذلك فى أحد أسفار كتابنا «شدو الربابة» أ.هـ.

ومن هذا المنطلق فإننا لا نشك فى الآثار والأخبار التى قدمت لنا مسألة التعددية المرسالية من قبل سيدة نسوة قريش وفى مذهبنا أنها أقرب إلى المنطق وأدعى للتصديق وأدنى إلى العقل. لماذا؟

تلك الأخبار تقص علينا وقائع تجسدت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ونسبت لأشخاص «إناث وذكور» عاشوا فى بيئة مغايرة لبيئتنا وفى مجتمع مخالف لهذا المجتمع الذى نحيا بين جنباته.

ومن أهم مظاهر التباين - ولا أقول التنافر - بين ذياك المجتمع والمجتمع الراهن هو التقديس المبالغ فيه للتقاليد والقيم والموجبات الاجتماعية فى مكة

وداخل قبيلة قريش وقت ذاك؛ لأنه من ناحية فهو محدود العدد بخلاف مجتمعات المدن الكبيرة مثل القاهرة ودمشق وبيروت والتي تضم أشتاتا من الأعراق والجنسيات والطوائف، وأفراد ذلك المجتمع تربطهم بعضهم بعضا وشائج القربى والنسب والمصاهرة والولاء حتي إنه يمكن أن يقال إن كل واحد أو واحدة فيه يعرف الآخر أو الأخرى معرفة وثيقة. و«الملأ أو قمة هرم أو ذروة جبل ذلك المجتمع أكثر تمسكا بتلك التقاليد والأعراف والموجبات... إلخ، والسيدة الطاهرة منهم.

• • •

وفى مضمار موضوعنا هذا وهو عقدة النكاح فإن من أوليات الأمور التي تواضعوا أو تواطأوا عليها هو أن العروس وأهلها لا يعلنون الزواج إلا إذا استوثقوا من جدية العريس أو الخاطب لأنهم إن أذاعوا الزواج ثم استبان أن العريس أو الخاطب وأهله هازلون وعابثون لصارت العروس أو المخطوبة وأسرتها موضع سخرية وهزء فى القبيلة كلها ومحل زراية فى المجالس بين الرجال وفى البيوت بين النسوان خاصة فى حالة اتسام الزواج بقدر من الإدهاش وأدنى إلى التكذيب مثل عدم الكفاءة بين الطرفين إما بسبب المكانة الاجتماعية أو الغنى أو وجود فارق فى العمر بين طرفيه.

فهنا يتعين على العروس أو المخطوبة وأهلها أن يستوثقوا ويتثبتوا من جدية العرض وأن العريس أو الخاطب - من شواهد الحال - يتم عقد النكاح أو أنه لن يفنحه[٦٤]. وإن لم يفعلوا وصموا بالغفلة ورموا بالعبط ووصفوا بأفن العقل[٦٥] وضعف التفكير والبلاهة والحوجة «الافتقار» إلى النضج وبالنزق والطيش.

• • •

وخديجة سيدة قريش كلها بعيدة عن هذه الصفات الذميمة وإلا لما حازت هذا اللقب المنيف لذا وجب عليها ألا تذيع خبر نكاحها لـ«**الظفور- محمد**» إلا إذا ملأت يديها الاثنتين من صدق الخبر ووثقت تماما من الموافقة وهذا لا يتأتى إلا إذا وصلتها «=تلك الموافقة أ.هـ»، وتمكنت منها وكما يقال فى التعبير الدارج وضعتها فى جيبها، ومن ثم فليس أمامها سوى أن تسمعها من شخص تثق فيه وتطمئن إليه وجربت صدقه أكثر من مرة. فأرسلت إلى «**الأعظم**» أكثر من مندوب وساقت إليه عدداً من الرسل أو المراسيل وبعثت إليه بعضًا من السفراء كلهم أمناء أشد ما تجيء الأمانة وأعمق ما يتوافر من الإخلاص وأكثر ما يحوز من الصدق حتى إذا نقل إليها وفاق «صاحب الملحفة» اطمأنت إليه ووثقت فيه وإذا تواترت مصادر الخبر دل ذلك على مصداقيته إذ لا يعقل أن أولئك المراسيل أو المرسلين الذين غالبيتهم من خاصة بطانتها[٦٦]. وأقرب وليجتها إليها[٦٧] ومحض[٦٨] المقربين إليها وزبدة[٦٩] المحيطين بها مثل: أختها

ونفيسة صاحبتها وميسرة غلامها أو عبدها والمستنشئة كاهنة قريش أن يكذبوا عليها أو يزيفوا الخبر لديها أو يطرحوا الدخل (الفساد) والريبة أمامها، خاصة إذا علم أن غيره قد كلف بالحصول عليه إذن لابد أن يأتى الخبر من جمعيتهم موثوقًا فيه.

ومن جانب آخر: فلندع الكذب والتزييف والدخل (بفتح الخاء) جانبًا ولنقدم فرضًا آخر وهو أن أحدهم أو بعضهم أخطأ فى الفهم أو تسرع فى الاستنتاج أو شط فى التقدير ففهم السكوت موافقة والتريث إجابة والتمهل قبولاً فإن باقيهم لا يعقل أن يجيئوا على هذه الشاكلة أو ينسجوا على ذات المنوال أو ينهجوا نفس الطريق.

هذا هو الباعث الدافع أو هذه هى البواعث الدوافع التى حثت الطاهرة الحصيفة الأريبة على اختيار مسلك التعددية فى المراسيل ولم تكتف بذلك بل تعمدت أن يصبحوا تشكيلة(٧٠). فمنهم الحرة والعبد والقريبة والمولى لأن ذلك أدعى للتثبت من صدق الخبر. إذن ليس فى الأمر تضارب فى الأخبار أو تناقض فى الآثار أو التباس فى الوقائع أو تنافر فى الأحداث كما قد يتبادر إلى الأذهان.

وبعد أن تأكدت سيدة نسوان قريش من أن «الأوسط» قد أعطى شارة القبول وعلامة الموافقة وآية الرضى تقدمت إليه بنفسها وأبلغته أنها رغبت فيه لتنكحه وجاء جوابه كما توقعت: مرحبًا بك يا ابنة العم بعلاً لى.

«وعند ابن إسحق فى المبتدأ أن خديجة قالت له: يا محمد ألا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا. قال: ومن لى بك أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش، قالت: اخطبنى، وكان تزويجه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يومًا»(٧١).

أما فى السيرة بقلم ابن إسحق: «فقالت له فيما يزعمون يا ابن عم إنى قد رغبت فيك. ثم عرضت نفسها عليه»(٧٢).

إن صدور هذا التخطيط المحكم والتدبير المتقن والرسم الدقيق من الطاهرة خديجة ليس عجيبًا أو مستغربًا فهى قد عرفت بالحنكة واشتهرت بالعقل وذاع عنها الحزم والدربة واللب (العقل).

وبهذه الصفات الباهرة والنعوت المدهشة والخصائص المذهلة أدارت بمقدرة فائقة يعز مثلها لا فى نسون ذياك الزمان المفرد بل بين نساء كل الأزمان بعدها حتى الآن، أدارت «التجربة الكبرى» التى غيرت مجرى تاريخ الجزيرة العربية وما حولها. فيا لها من سيدة تعد من القليلات اللائى تركن وراءهن أثرًا بعيد الغور.

• • •

بعد أن حظيت سيدة نساء قريش بأمل حياتها ومنية عينها وطلبة «بكسر الطاء» عمرها نعنى شرف موافقة «**المستقيم**» على أن تنكحه. خاضت معركة أخرى لا تقل شراسة وهى رضاء وليها فى عقد الزواج: أبيها فى رواية وعمها عمرو بن خويلد فى رواية أخرى. أما أنه أخوها عمرو بن أسد فهو قول ضعيف. فأبوها كان يعارض بقسوة هذا الزواج فهى قد رفضت كل من تقدم لها من سادة قريش حسبًا ونسبًا وثروة.

فكيف إذن تباعل يتيم قريش أو يتيم أبى طالب راعى الغنم الفقير المملق الذى لا يملك حتى قيمة المهر أو الصداق الذى يسوقه إليها.

واختلف القدامى فيما بينهم عمن زوجها هل هو أبوها أو عمها عمرو بن أسد فمنهم من قال الأول ومنهم من قال الأخير لا حباً فى الخلاف أو هوى فى الاختلاف إنما لأنهم «القدامى» كما ذكرنا سالفًا ونكرره يسطرون ما توصلوا إليه دون أى اعتبار، بيد أن المحدثين أطبقوا على أن ولىّ عقدة النكاح هو عمها لعلة سوف يأتى كشفها فى حينه.

فزوجها «=خديجة» منه «=**أول من تنشق عنه الأرض**» أبوها وقيل عمها وقيل أخوها[٧٣].

فهنا نجد الإمام البرزنجى لم يستطع أن يجزم فذكر أباها وعمها وأخاها وهو أيضًا يسمى عمرو مثل عمها، أما ابن سيد الناس فقد وفاق ابن إسحق أن المزوج لها هو أبوها «فخرج مع عمه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه حتى دخل على خويلد فزوجها»[٧٤]. وفى أميز كتب السيرة المحمدية التى هى ذات ريح أجمل من رائحة العنبر الأصهب.

«فقالت خديجة ذلك (إبداء رغبته فى نكاحه) لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه فخرج معه حمزة بن عبدالمطلب رحمه الله حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها...»[٧٥].

وابن هشام هنا ـ كما فى غالبية سيرته ـ نقل عن محمد بن إسحق بالحرف الواحد: «حدثنا أحمد قال: حدثنا يونس عن ابن إسحق قال: فلما قالت لرسول الله ﷺ ما قالت ذكر ذلك لأعمامه ـ فخرج معه منهم حمزة بن عبدالمطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها رسول الله ﷺ»[٧٦].

ومما هو جدير بالذكر أن المحققين طه عبدالرؤوف وبدوى طه ذكرا فى هامش الصفحة (١٥٤) «قيل كانت سنه ﷺ إحدى وعشرين» وهو ما رجحناه فيها سلف. وشيخ المؤرخين الطبرى أكد أن خويلدا هو الذى تولى التزويج «فلما قالت لرسول الله ﷺ ذلك ذكره لأعمامه وخرج معه حمزة بن عبدالمطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها»[٧٧].

محمد ابن إسحق كتب السيرة المحمدية العطرة فى وقت مبكر ثم جاء ابن

هشام فاختصرها ومن ثم اعتبر مؤلفه «بفتح اللام» هو المصدر الذى متح(٧٨). منه كتاب السيرة القدامى أو أغلبهم لأنهم عولوا على ابن هشام ومن ثم فما يسرده يغدو موثوقًا به:

«روى محمد ابن إسحق أن خويلد بن أسد زوج خديجة ابنته من رسول الله ﷺ ومات بعد الفجار بعد خمس سنين» ولو أن أمانته العلمية أبت عليه إلا أن يذكر رأى غيره فى هذه الخصوصية أى فى تاريخ وفاة أبى خديجة «وروى بعضهم أنه قتل فى الفجار أو مات عام الفجار»(٧٩).

والزهرى الذى سبق أن سطرنا أنه كتب فى السيرة المحمدية العظيمة مؤلفًا يعتبر من أوائل ما كتب فيه ولكنه للأسف مازال مفقودًا فقد «ذكر الزهرى فى سيرته أن خويلدا أباها هو الذى زوجها منه»(٨٠).

ويخبرنا الذهبى أن:

«بعثت خديجة إلى محمد تقول يا ابن عمى رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك ثم عرضت عليه نفسها فقال ذلك لأعمامه فجاء معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد فخطبها منه وأصدقها عشرين بكرة»(٨١).

على عكس المحدثين الذين أطبقوا على رفض خبر تزويج خويلد لخديجة من **«سيد الأولين والآخرين»** كتب فتحى رضوان أن ذلك تم بولايته هو:

«قيل إن خويلدا لم يكن موافقًا على هذا الزواج فقد كان يرى شأن محمد الفقير راعى الغنم أصغر من أن يبنى بابنته الغنية.. ولكن الذى لاشك فيه أن أبا خديجة دهش حينما أحس من ابنته ميلاً إلى إتمام هذا الزواج»(٨٢).

ومع ذلك لا يفوتنا أنه ذكر الخبر بصيغة التمريض أو التشكيك «قيل» ولا غرابة فى أن يرفض خويلد **«الرحمة المهداة»** زوجاً لابنته فهو من ناحية صنديد شريف غطريف سميدع(٨٣) ومن ناحية خديجة فهى كما وصفناها فى حين أن **«الغوث»** فى نظر خويلد: فقير - مليط - يتيم - راعى غنم ليس بيده ما يتزوج به.

• • •

نأتى بعد ذلك إلى المؤرخين القدامى الذين ذهبوا إلى تولى العم عمرو تزويج خديجة.. الواقدى:

«والثبت عندنا أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ وأن أباها هلك قبل الفجار وهو المحفوظ عندنا عن عائشة وعن ابن عباس»(٨٤)..

«قال الواقدى بإسناده: وكانت امرأة عاقلة حازمة برزة مرغوبًا فيها لشرفها ويسارها فدست إلى رسول الله من عرض عليه أن يتزوجها فرغب فى ذلك فبعثت إليه أن ائت فى وقت كذا فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد فحضر وحضر رسول الله ﷺ ومعه عماه أبوطالب وحمزة وغيرهما من عمومته فزوجها إياه ومات بعد تزويجها بقليل»(٨٥).

وذكر محقق سيرة ابن هشام فى هامش ص ١٩٥: «عن ابن عباس وعن عائشة رضى الله عنهما أن عمرو بن أسد «العم» أنكح خديجة رسول الله وأن خويلدا كان قد هلك قبل الفجار»[٨٦].

• • •

«وقال المؤملى: المجمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها منه وهذا هو الذى رجّحه السهيلى وحكاه عن ابن عباس وعائشة قالت كان خويلد مات قبل الفجار وهو الذى نازع تبعًا حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن فقام خويلد فى ذلك وقام معه جماعة من قريش»[٨٧].

هذا الخبر أيده الواقدى والسهيلى من القدامى ونقله عنهم السرجانى ـ من المحدثين أحد محققى سيرة ابن هشام - وإذا تفرسنا فى الخبر نجد أن مصدره اثنان عائشة وابن عباس.

أما عائشة فإنها لم تتحدث عن ولىّ خديجة فى نكاحها لمحمد وإنما تحدثت عن منزلة خويلد وتصديه لتبع عندما عزم على نزع الحجر الأسود من الكعبة ونقله إلى اليمن وهذا يؤيد ما سطرناه قبل قليل أنه (أى خويلدا) كان فى قريش من المزازبة[٨٨] الجحاجح[٨٩]. ومن ثم فهى لا تعتبر مصدراً لقيام عمرو عم سيدة نساء قريش بتزويجها لـ«سيد الثقلين» أما ابن عباس فواقعة التزويج هذه حدثت قبل ولادته بأكثر من ثلاثين عامًا لأنه عندما انتقل **«سابق العرب»** إلى الرفيق الأعلى راضيًا مرضيًا لم يتجاوز عمره العاشرة إلا بعامين أو ثلاثة فهو لم يشهدها.

وقد أخذ على ابن عباس إكثاره من رواية الأحاديث والأخبار وأنه كان يروى ما لم يحضر أو يعاين أو يسمع مباشرة دون أن يبين السند الذى تلقاه منه وهو بهذه الطريقة يوهم أنه سمع الحديث من المعصوم مباشرة أو أنه شاهد الخبر بذاته وعاينه بنفسه ـ والمثل يقول ليس راءٍ كمن سمع، والمثل الآخر يقول ليس الخبر كالعيان وسنورد بعد سطور معدودةً رواية عمار بن ياسر الذى أكد أنه حضر عقد القران وأن ولىّ النكاح عن سيدة نسوان قريش هو أبوها خويلد لا عمها عمرو.

أما ما يقوله المؤملى: إن المجمع عليه أن عم خديجة عمرو هو الذى زوجها من المصطفى فهو قول فسيد وبعد قليل سنقدم أدلة فساده وللأسف فإن هناك طائفة من المؤرخين أو الباحثين تطلق أحكامًا دون تدقيق أو تمحيص.

• • •

إذا قارنا بين المصادر التى ذكرت أن خويلدا هو المباشر أو الولى فى التزويج وبين التى قالت إنه العم عمرو نلفى أن الأولى هى الأكثر عددًا والأعلى مقامًا فمن بين من ذكر الأب:

١ـ السيرة النبوية: ابن إسحق.
٢ـ سيرة ابن هشام.
٣ـ عيون الأثر: لابن سيد الناس.
٤ـ تاريخ الطبرى.
٥ـ تاريخ اليعقوبى.
٦ـ الزهرى: صاحب السيرة المفقودة ونقل عنه ذلك كثير منهم.
٧ـ الصالحى الشامى فى السيرة الشامية.
٨ـ السيرة النبوية للذهبى.

بينما ذكر العم:

١ـ الواقدى وقد نقله عنه البلاذرى فى:
- أنساب الأشراف.
- وكذلك نقل عنه «أى عن الواقدى» الطبرى فى تاريخه.
- السيرة النبوية لابن كثير.

وإذا نحينا جانبًا الكثرة العددية التى رجحت جانب الأب فإنه من المحال أن نغمض العين عن الثقل العلمى لأولئك الأثبات الذين أكدوا أن خويلداً هو الذى باشر العقد بصفته ولياً عن ابنته الطاهرة خديجة.

إن مما يجافى المسلك الموضوعى والمنهج العلمى اللذين لا تحركهما العواطف الفجة والحماسة الفطيرة «غير الناضجة» أن ننأى بجانبنا عن: سيرة الزهرى وسيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام والسيرة الشامية وعيون الأثر... إلخ ونغلب عليه أى مؤلفات أخرى فى نطاق السيرة المحمدية الذكية المعطار وهذا ما فعله للأسف الشديد كتاب السيرة المحمدية المحدثون. إن من العرب أو الأعاجم (فى كتبهم التى ترجمت إلى العربية) مما يدفعنا دفعًا إلى أن نؤكد أن كتاباتهم فى السيرة بل وفى غيرها من العلوم بعيدة بعد السماء عن الأرض عن المنهج العلمى الموضوعى بل لا نبدو مغالين إن قلنا إنهم يجنحون إلى التزييف ولكن لماذا يفعلون ذلك؟ لعل الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج إلى ذكاء ولا تفتقر إلى فطنة.

أما فى هذه الخصوصية ونعنى بها تأكيد أن العم هو ولىّ عقد النكاح دون الأب بحجة أنه مات فى حرب الفجار أو قبلها وهو خبر واه أضعف من بيت العنكبوت.

وفيها «هذه الخصوصية» فإن العلة تتضح بعد قراءة الأخبار الآتية:

«أخبرنا محمد بن عمر بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها خمرًا قال حتى سكر ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة فلما صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير؟ قالت: زوجتنى محمدًا. قال: ما

فعلت أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل»[٩٠].

محمد بن عمر الذى ورد اسمه فى الخبر هو الواقدى أستاذ ابن سعد المشهور بكاتب الواقدى كما ذكرنا من الذى نفوا مقولة أن أبا خديجة خويلداً هو الذى تولى عقدة نكاحها بصفته وليها مما يقطع بأنه نقل أخبارًا سمعها وليس خبر تزويج خديجة على يد عمها عمرو الذى نسب إليه فيما سبق هو رأيه الذى أعتقده وجزم به.

وفى الخبر أن الطاهرة سقت خويلدًا خمرًا حتى سكر وطيبته بطيب وخلعت عليه حلة حبرة وهى ثوب يمان من قطن أو كتان مخطط مزين لأن حبر الشىء زينه ونمقه مأخوذ من الحبور وهو أثر النعمة والحسن والوشى[٩١].

وفى حالة سكره البيّن وافق على الزواج فلما أفاق تساءل عن كل شىء: البقرة المذبوحة والطيب الفاتح والحلة اليمنية الغالية. فسارعت خديجة وأخبرته بأنه زوجها من «الزمزمى» فأنكر ذلك بل استنكره وأتى ببرهانه وهو رفضها العِلْيّة من قريش فكيف يباعلها محمدًا؟!

وخلع خديجة على أبيها الحلة الحبرة نوع من الرشوة ليوافق على التزويج أما ذبح البقرة فهو من ناحية يشى بثراء أم هند الوسيع لأن العامة فى مثل هذه المناسبة تذبح شاة يقال أولم بشاة، والوليمة هى طعام العرس.

ومن ناحية أخرى يقطع بأن سيدة نسون قريش انتابها فرح طاغ إذ يبدو أنها يئست من إتمام الزواج للأسباب العديدة التى ألمعنا إليها.

• • •

«فى التنبيهات على باب نكاح خديجة محمدًا أورد الصالحى الشامى ما يلى: وذكر الزهرى فى سيرته أن خويلدًا أباها هو الذى زوجها منه وكان قد سكر من خمر فألقت عليه خديجة حلة وضمّخته بخلوق فلما صحا من سكره قال: ما هذه الحلة وما هذا الطيب؟ فقيل له إنك أنكحت محمدًا خديجة وقد ابتنى بها فأنكر ذلك ثم رضيه ووافقه ابن إسحق على ذلك»[٩٢].

فى هذا الجزء أكد الصالحى الشامى صاحب السيرة الشامية وهى من أطول مؤلفات السيرة المحمدية الطيبة أن الزهرى أورده فى سيرته وأن ابن إسحق وافق عليه وهو «=الخبر» لا يخرج فى مضمونه عن سابقه عدا أنه يعد توثيقًا لمسألة إسكار خويلد وإنكاره أنه رضى بنكاح خديجة محمدًا ثم رضاؤه بعد ذلك ولعل مرده حدوث الدخول الفعلى.

أورد ابن سعد خبرًا آخر عن ذات الموضوع بيد أنه أشد وعورة مما سبق:

«وأن أبا خديجة سقى من الخمر حتى أخذت منه ثم دعا محمدًا فزوجه قال وألقت على الشيخ حلة فلما صحا قال: ما هذه الحلة؟ قالوا كساكها ختنك محمد. فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم

رغبة ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك»[٩٣].

فى هذا الخبر معطى بالغ الخطر هو أن خويلدا سقى خمرًا[٩٤] فلما صحا من سكره رفض الزواج بل غضب وأكثر منه أنه امتشق سيفه ليقاتل دون إمضاء القران وفعل بنو هاشم ذات الصنيع (=رفعوا أسلحتهم) وصرحوا بما تكنه صدورهم وهو عدم ميلهم لهذه المباعلة وكاد ينشب قتال بين الحيين «بنى هاشم وبنى أسد» لولا أنه كالعرف المستقر فى قريش عدم نشوب قتال بين بطونها فانتهى الأمر إلى المصالحة.

وهذا الأمر يؤكد ما قلناه إن هناك عقبات كبيرة وقفت فى طريق الطاهرة تحول بينها وبين نكاح «**ذى الميسم**» ومن اختمرت فى ذهنه ذرة من ريب فيما سطرناه يجىء هذا الخبر فيلقى اليقين فى روعه والاطمئنان فى نفسه والتصديق فى وجدانه فيوقن أن أم هند خاضت وقعة عنيفة لتغدو بعلاً لـ«المصلح» لتتولى به ومعه عملية الصقل والتدريب والتشذيب والسنفرة[٩٥]. ولتضع على أرض الواقع وتشيئ فى حيز الحقيقة الأمر الذى صدر لها (=خديجة) من مرجعية ذات مقام محمود بحتمية نكاح «**المسدد**» وصيرورتها بعلاً له.

«وقال خديجة له - يعنى اللبيب - قد أخبرنى ناصح غلامى به وبحيرا الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»[٩٦].

«قال الواقدى أيضًا إن خديجة أرسلت إلى النبى ﷺ تدعوه إلى نفسها تعنى التزويج فدعت أباها فسقته خمرًا حتى ثمل ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة ثم أرسلت إلى رسول الله ﷺ فى عمومته فدخلوا فزوجه - فلما صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير «الخلوق» وما هذا الحبير «الحلة الحبرة التى ألبسته خديجة إياها» قالت: زوجتنى محمدًا بن عبدالله. قال: ما فعلت أنى أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل - قال الواقدى: وهذا غلط والثبت عندنا أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ وأن أباها هلك قبل الفجار وهو المحفوظ عندنا من حديث مسلم عن عائشة وعن ابن عباس»[٩٧].

هذا الخبر أورده الطبرى فى تاريخه وتاريخ الطبرى مثل تفسيره يحظى بفائق الاحترام من أهل السنة والجماعة.

وبالإحالة إلى ما ورد فى عجز الخبر على لسان الواقدى فقد سبق لنا تفنيده والكشف عن عواره والإبانة عن خطئه وتوضيح خطله.

أما صدر الخبر فهو يؤكد الأخبار السوابق فى واقعة الإسكار حتى الثمولة ويوضح أن ذلك تم بيد أم هند «فدعت أباها فسقته خمرًا حتى ثمل» ثم عند صحوه استنكر الأب خويلد حادث التزويج وتعليله ذلك تعليلاً - يبدو منطقيًا.

قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: بلى لعمرى ـ فذكرت قول رسول الله ﷺ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة وصفرت لحيت وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقى خمرًا فذكر له رسول الله ومكانه وسأله أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعامًا فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحيًا فقال: ما هذه الحلة وما هذه الصفرة وما هذ الطعام؟ فقالت له ابنته التى كانت كلمت عمارًا هذه حلة كساها محمد بن عبدالله ختنك وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة فأنكر أن يكون زوّجه وخرج يصيح فى الحجْر وخرج بنو هاشم برسول الله فجاؤه فكلموه ـ فقال أين صاحبكم الذى تزعمون أنى زوجته خديجة؟

فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه قال إن كنت زوجته فسبيل ذلك وإن لم أكن فعلت فقد زوجته.

وقد ذكر الزهرى فى سيرته أن أباها زوجها منه وهو سكران وذكر نحو ما تقدم حكاه السهيلى(٩٨).

هذا الخبر ينفرد بميزة تفتقر إليها الأخبار السابقة وهى أنها رواية عمار بن ياسر خدْن «**المترحم**» وخلّه كما وصف هو نفسه ـ قبل الإسلام ـ وصاحبه ومن أخلص تبعه ومن السابقين للإيمان بدعوته وممن عذب بسبب إسلامه، ومن له هذه المناقب المنيفة من المستحيل أن يفترى هذا الخبر. أما الذى حمله إلينا فهو شيخ المؤرخين وشيخ المفسرين الطبرى وهكذا أحاطت بالخبر عوامل تنأى به عن التزييف وتبعد به عن التدليس وتحميه من التزوير.

• • •

خمسة أخبار ضمتها مؤلفات تعد فى الذروة السامقة من دواوين السيرة المحمدية العظيمة؛ فلماذا ينبذها الكتبة المحدثون الذين ألفوا فيها ويتمسكون بخبر أعجف مهزول مشكوك فى سنده وهو أن أبا خديجة مات فى حرب الفجار أو قبلها أو فى عامها وهذا تضارب يدعو إلى الشك فيه.

هل بسبب ما ورد فيه أن خديجة أسكرت أباها حتى أخذه الثمل من كل أقطاره(٩٩).

وماذا فى ذلك؟

من ناحية: الطاهرة لم ترتكب محرمًا لأن المزّة «الخمر» مباحة ولا تثريب على ساقيها وشار بها وكان تعاطيها شائعًا فى الفترة السابقة على الإسلام.

ومن ناحية أخرى:

من مستلزمات الأعراس «الأفراح» تقديم الزرْجون «الخمر» لشهوده وحاضريه سواء من أهل العروسين أو من المدعوين.

فإذا قدمت أم هند العروس وقد أخذتها فرحة عارمة الصريفية

«الخمر»[١٠٠]. لأبيها كضرب من التحية فإنها لم تفعل منكرًا بل جرت على عرف مستقر وقت ذاك وربما حتى الآن «عند غير الملتزمين» فإذا انتهزها خويلد فرصة ليروى غليله وشرب منها نهلاً بعد علل وتعبب[١٠١].

فهذا ليس ذنبها «=أم هند» ولا فى مقدورها آنذاك أن تحوشه[١٠٢] فهو فى نفس الوقت أبوها كما أنه ليس من اللائق أن تمنع العروس واحداً ممن حضروا الحفل من أكل أو شرب.

فإذا سكر أبوها وفقد وعيه فما جريرتها فى ذلك؟

(قال ميسرة: فأسرعت فى العودة لأبشرها «سيدتى خديجة» فغمرها السرور وأخذت فى الاستعداد للزواج وأول ما فكرت فيه أن تحصل على موافقة أبيها الذى كان يرفض دون ما رحمة كل الطامحين إما أنهم ليسوا من ناحية الشرف أكفاء وإما لأن ثرواتهم أقل مما ينبغى لهذا استعملت ابنته فى الوصول إلى ما تريد طريقة التحايل الآتية:

صنعت طعامًا وشرابًا ودعت أباها ونفرًا من سادات قريش ومحمدًا وأعمامه وكان خويلد يحب النبيذ حبًا جمًا فشرب منه حسب عادته أكثر مما ينبغى فانتهزت ابنته الفرصة وقالت: أبى إن محمد بن عبدالله طلبنى للزواج وأرجوك الموافقة على ذلك، وكان خويلد تحت تأثير الخمر يأخذ الحياة من جوانبها السارة فقبل عرض ابنته بدون تفكير وما إن حصلت على رضاء أبيها حتى قامت حسب عادتهم إلى تعطير أبيها وألبسته حلة نفيسة وصحا خويلد من سكره فسأل ابنته ما هذا؟ قالت: إنك يا أبت به عليم فقد قبلت زواجى بمحمد بن عبدالله. قال: أنا أزوجك اليتيم الذى كفله أبوطالب؟ كلا إن هذا لا يحدث ما دمت على قيد الحياة. قالت: ألا تستحى أن تسفه نفسك عند قريش تخبر أنك كنت سكران، وضربت خديجة على تلك النغمة طويلاً حتى ارتبك واضطر إلى القبول النهائى[١٠٣].

هذا الخبر يؤيد الأخبار الخمسة السابق ذكرها والتى حملتها شوامخ مؤلفات سيرة «**سيد ولد آدم**» أن المزوّج هو الوالد لا العم وأن إسكار الأول تم بتدبير سيدة نساء الأرض «كما ورد فى حديث للفخر» بل إن الخبر وصف فعلها بأنه «تحايل» وأنها بعد صحوه عزفت أم هند نغمة إقناعه وفى مقدمها أن قريشًا سوف تعيّره بسكره. كما أن هذا الخبر له قيمة ويحمل إمارة ثمانته ففضلا عن أن مؤلفيه مسلمان أولهما مستشرق مسلم وحسن إسلامه فإن مترجميه أولهما غدا فيما بعد شيخا للأزهر «رأسا للمؤسسة الدينية الرسمية فى مصر» وآخرهما «ثانيهما» أستاذ فى الأزهر مما يجعلهما بمنأى عن التجريح والغمز واللمز.

هكذا أثبتنا أن امتناع الكتبة المحدثين عن ذكر هذه الواقعة وبسببها أصروا

على رفض تولى خويلد مراسم العقد نوع من الطفولة أو المراهقة الفكرية ومن أسف أن من بينهم أصحاب أسماء لوامع.

• • •

وإذ إن الكتبة المحدثين لا يقرأون بتدقيق ولا يطالعون بتمحيص ومن ثم فإن مؤلفاتهم محشوة بالعبارات البيانية والصيغ الإنشائية والجمل البلاغية فهى قرعاء من البحث العلمى(١٠٤) جرداء من الدراسة الموضوعية.

إنهم لو قرأوا لعرفوا أن العلة التى من أجلها استبعدوا الأب من مجلس العقد والولاية عن الزوجة ونعنى بها «=العلة» هى معاقرته القهوة «الخمر» فهى متوافرة تمامًا فى العم الذى يصرون على أنه هو ولى الطاهرة خديجة فى عقد نكاحها لـ«**العارف.العابد**» وإذ إننا لا نلقى الكلام على عواهنه بل ننصب له الدليل فإننا نطرح أمام عيونهم الخبر الآتى.

«قال لعمار: ارجع فواضعها وعدها يوما ناتيها فيه فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمرو بن أسد فسقته ذلك اليوم ودهنت لحيته بدهن أصفر وطرحت عليه حبرًا ثم جاء رسول الله فى نفر من أعمامه تقدم أبوطالب فخطب أبوطالب فقال... إلخ فتزوجها وانصرف فلما أصبح عمها عمرو أنكر ما رأى فقيل له هذا ختنك محمد أهدى لك هذا قال: ومتى زوجته؟ قيل له بالأمس، قال: ما فعلت. قيل له: بلى نشهد أنك فعلت فلما رأى عمرو رسول الله قال اشهدوا أننى إن لم أكن زوجته بالأمس فقد زوجته اليوم...»(١٠٥).

وليس ما رواه عمار بن ياسر هو المصدر الوحيد على أن خديجة سقت عمها الرحيق «الخمر» ليوافق على نكاحها لمحمد وهو أى عمها عمرو بن أسد مخمور، بل البلاذرى فى أنسابه ينفحنا بخبر آخر رواه عن الكلبى يوثق أن العم عمرًا أجاز المباعلة أى أن تغدو الطاهرة بعلاً لـ«**صاحب السيف**» وهو «سكران».

«قال الكلبى: بعثت خديجة سرًا إلى النبى ﷺ أن أخطبنى إلى عمرو بن أسد وكان شيخًا كبيرًا فأمرت شاة فذبحت واتخذت طعامًا ودعت عمها عمرًا وبعثت إلى رسول الله ﷺ فأتى ومعه حمزة وأبوطالب فأكلوا وسقت عمرًا ثم قالت لرسول الله ﷺ قل لأبى فليخطبنى فخطبها أبوطالب إلى عمرو فزوّجها رسول الله على اثنين وعشرين أوقية ونشأ - والأوقية أربعون درهما»(١٠٦).

فى الخبر الأول نجد أن الذى رواه هو عمار بن ياسر وقد سبق منذ قليل أنه أكد بين الأخبار الخمسة أن الأب خويلدًا هو الذى باشر العقد وفى هذا الخبر يفصح أنه العم فكيف السبيل إلى حل هذه الإشكالية؟

أما نحن فلا نرى أن فى الأمر أدنى إشكالية لأنك لو على مذهب القائلين بأن العم عمرًا هو متولى العقد فعليك أن تأخذ بشهادة الصحابى عمار أنه سُقىّ الهباء «الخمر» حين مضاه ولما أفاق من سكره أنكره.

أما إذا كنت مثلى تعتقد أن خويلدًا هو ولىّ ابنته فى إتمام النكاح فالخطب يسير إذ نهضت عدة حجج على صحته.

الخلاصة إذن أنه على كل الفرضين تم العقد ووكيل الزوجة غائب عن وعيه تحت تأثير الشمول «الخمر».

بيد أنه لماذا فعلت سيدة نسوان قريش ذلك؟ الإجابة على هذا السؤال جاهزة إنها اضطرت اضطراراً لأنه من الحتم اللازم أن تنكح «محمدًا» أى تتخذه زوجًا أى تصير هى بعله لأنها من جانب تطيع أمرًا صارمًا صدر لها - من سنوات كيما تفعل وسبق أن قدمنا دليل ثبوته.

ومن جانب آخر فإن مباعلة **«الشدقم أى البليغ المفوه»** هى الطريق الأوحد لكى يغدو الزوج الابن أو الابن الزوج «وجود ربع قرن من الزمان هو فارق السن بينهما» وتسهل من ثم عملية التشكيل والإعداد والتهيئة وهذا هو الركن الأقل أهمية. أما الركن الجوهرى والعمود الفقرى فهو أنه ولا أحد غيره لا فى قريش ولا فى ثقيف ولا فى غيرهما هو المرشح لكى يصبح «القادم المنتظر».

هذه هى السيدة خديجة الأرستقراطية ذات الحسب العريق والنسب الرفيع بنت أحد صناديد قريش ومن رهط قوى من الذروة والتى تملك الثروة الممدودة والمال العريض والتجارة الواسعة والمثقفة والتى ساعدت معرفتها بالقراءة والكتابة على مدها بمقومات الثقافة فى زمانها والتى سمعت ما ردده الرهبان والأحبار الذين لابد أنها تعودت الاجتماع بهم فهى برزة تقابل الرجال الذين يجلسون عندها للحوار والحديث وعلمت منهم منذ سنوات أمر «القادم المنتظر»، وقرأت الصحف والإصحاحات التى ترجمها ابن عمها اللازق إلى اللغة العربية فتوثق لديها وترسب فى وجدانها أحدوثة الموعود المأمول ظهوره ثم دققت البصر فى فتيان ورجال القبيلة حتى عرفته بالمعجزات التي سبقت مولده الشريف وحايثت ذلك الميلاد المدهش وما حدث بعده وظلت تعاصره مرحلة إثر مرحلة وكذلك بصفاته الخلقية «بضم الخاء» والخلقية «بكسر الخاء» وزاد الشأن سفورًا وتبيانًا عندما أشار عليها المرجع العالى المقام السامى الرتبة الرفيع الدرجة بأن هذا الصبى أو الشاب هو المأمول والمنتظر وأن عليها أن تنكحه.

وهنا قررت أن تباعله وصممت على زواجها منه وبذلت فى ذلك كل وسعها وطاقتها حتى ظفرت به وقد سطرنا فيما سلف الأفاعيل التى قامت بها فى هذا السبيل.

وذلك أيضا هو رأى اليعسوب لأنه فقه أن نكاحها إياه مع فارق العمر الذى يبلغ كما ذكرنا خمسة وعشرين عامًا سوف يؤدى بطريق الحتم واللزوم إلى نجاح عملية تحويله من يتيم قريش كما وصف نفسه لديها أو يتيم أبى طالب

حسب تعبير والدها إلى ذلك الذى تتطلع إليه العيون فى اشتياق وتترقبه القلوب مع نفاد صبر، ولذا فما إن ألمحت سيدة نساء الأرض إلى القس بعزمها على نكاح «**المطيع.المطاع**» حتى هرول إلى الموافقة وأسرع إلى القبول وبادر إلى التبريك، وهذا ما حكاه لنا الدكتور طه حسين فى كتابه المعجب «على هامش السيرة»: «ولكن خديجة استبقته «ورقة» قائلة: أقم فإن حديثى لم ينته قال ورقة أقدمى يا ابنة عم على ما تدبرين فى نفسك لا تحجمى ولا تترددى فأنت أسعد نساء قريش بل أسعد نساء الأرض إن أتم الله لك.. وتلطفى فى تدبير أمرك فإن أحببت توفيقًا فآذنينى بذلك فإنى أتمنى أن تكون لى يد ما فى هذا الزواج الذى سيكون له فى حياة الناس أسعد الأثر وأبقاه(١٠٧).

ولقد أحسن العميد وأجاد فى تصوير موقف اليعسوب من أمر الزواج، زواج «**المتضرع فى الدعاء**» من الطاهرة، فهو ما نصحها بالتلطف فى تدبير أمرها إلا أنه يعلم أن هناك صعوبات كأداء سوف تقف فى طريقها، وصرّح بحرصه على قيامه بدور فى هذه المناكحة وهو ما حدث بالفعل كما سنوضحه بعد سطور. بيد أن الأخطر والأهم والأوعر هو تقريره بأن هذا الزواج سيغدو غائر الأثر فى حياة الناس لأنه سيسهل عليهما «أم هند والقس» فلاح التجربة التى سيقومان بها والتى سوف تغيّر تاريخ المنطقة وما حولها تغييرًا كليًا ولقد صدق القس فى مقاله.

الهوامش

(١) وجدت آنذاك فى وسط وغرب جزيرة العرب اثنتان وعشرون كعبة بخلاف التى فى قرية القداسة بكة. أ.هـ.
(٢) مع المصطفى فى عصر المبعث: د بنت الشاطى ص ١٨ وما بعدها.
(٣) السيرة النبوية لابن إسحق، المجلد الأول ص ١٨٢، ط أخبار اليوم.
(٤) فى المعجم الوسيط: كبش الشىء كبشا ـ تناوله بجمع يده أ.هـ.
(٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٧ وما بعدها.
(٦) فى القاموس المحيط للفيروز آبادى، وفى المعجم الوسيط: نتش الشىء، جذبه واستخرجه والعامة فى مصر تستعمل الكلمة فى ذات المعنى أ.هـ.
(٧) فى القاموس المحيط للفيروز آبادى: نشل الشىء، انتزعه بسرعة أ.هـ.
(٨) تفاوت سنها ما بين الأربعين والسادسة والأربعين حسب الروايات التى ذكرتها كتب السيرة المحمدية التى هى أحلى من تفاح الشام مضرب المثل فى الحلاوة.
(٩) الكاهنة: سميت بذلك لأنها تستثئ الأخبار أى تبحث عنها أو هى تستحدث الأمور وتجدد الأخبار. من تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى. أ.هـ.
(١٠) العامة تقول مزنق أ.هـ.
(١١) كلمة عربية فصيحة.
(١٢) لازال حتى الآن بعض رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية يبوس «كلمة فصيحة» أتباعهم أياديهم كلية البركة أ.هـ.
(١٣) لخم فلانا شغله بما ثقل عليه. أ.هـ.
(١٤) تاريخ الطبرى: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثانى، ص ٢٨١.
(١٥) الروض الأنف للسهيلى: ص ٢١٤ سابق.
(١٦) إمتاع الأسماع (الأول) المقريزى ص ٣٦.
(١٧) السابق ص ٣٦.
(١٨) المستدرك للحاكم النيسابورى الحديث ٤٨٣٤، ٤٣٢ المجلد الثالث سابق، وقال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(١٩) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د. فاطمة محجوب، المجلد الرابع والعشرون حرف الزين ص ٥٩٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، د.ت.ن الناشر: دار الغد العربى، بمصر.
(٢٠) أخرجه الدولابى: السمط الثمين للمحب الطبرى، ص ١٢، ١٣، ط الكليات الزهرى.
(٢١) عيون الأثر لابن سيد الناس: ص ٥٠ المجلد الأول، سابق.
(٢٢) زوجات الرسول ﷺ: أصلان عبدالسلام حسن، ص ١١.
(٢٣) السيرة الشامى: للصالحى، الثانى، ص ٢٢٥.

(٢٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة: لابن الأثير الجزرى، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين، المجلد السابع، كتاب النساء، ص ٨٠، د.ت.ن: دار الشعب بالقاهرة.

(٢٥) كتاب المسالك والممالك: لأبى عبيد البكرى تحقيق وتقديم وفهرست أدريان فان ليوفن واندرى فيرى، الجزء الأول فقرة ٨٤ ص ٤٩٤، طبعة ١٩٩٢م من إصدارات بيت الحكمة مع وزارة الثقافة.

(٢٦) دراسات فى السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨١، ٨٢، سابق.

(٢٧) عيون الأثر: لابن سيد الناس الأول، ص ٤٧ سابق.

(٢٨) السيرة الشامية: للصالحى الشامى ص ٢١٥.

(٢٩) الأملط الذى لا ريش أو شعر له، أ.هـ.

(٣٠) إمتاع الأسماع: للمقريزى الأول، ص ٣٦.

(٣١) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١١٢، «حياة محمد» لهيكل ص١٣٧، «محمد الثائر الأعظم» لفتحى رضوان ص ٨٩.

(٣٢) الافتقار إلى النضج أ.هـ.

(٣٣) فى المعجم الوجيز: البلسم دواء تضمد به الجروح أ.هـ.

(٣٤) المستدرك للحاكم النيسابورى: الحديث رقم ٤٨٤٠-٣٠ المجلد الثالث.

(٣٥) أسد الغابة لابن الأثير الجزرى، كتاب النساء، المجلد السابع ٧٦١٢، ص ٤٤، ط كتاب الشعب بمصر.

(٣٦) حياة الصحابيات: د. حمزة النشرتى وآخرين، ص ١٤٨ وما بعدها.

(٣٧) المرجع ذاته ص ١٥٠.

(٣٨) السُكّ: البئر الضيقة الخرق وسد الشىء والدرع الضيقة الحلق من «القاموس المحيط» للفيروز آبادى، والعامة فى مصر تقول هذا الرجل سَكة أى قليل القيمة، أو درجة ثانية أ.هـ.

(٣٩) **أولاً: المصادر أو الكتب التراثية:**

١. السيرة النبوية لابن إسحاق، الأول، ص ١٥٣.

٢. السيرة النبوية لابن هشام الأول، ص ١٩٣.

٣. السيرة الشامية للصالحى الشامى الثانى، ص ١٤.

٤. الخصائص الكبرى للسيوطى الأول، ص ٢١١.

٥. عيون الأثر لابن سيد الناس الأول، ص ٤٧.

٦. تاريخ الطبرى: الطبرى الثانى، ص ٢٨١.

٧. السمط الثمين: المحب الطبرى، ص ٣٢.

٨. الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى الأول، ص ١٤٣.

٩. السيرة النبوية للذهبى، ص ٣٠.

١٠. إمتع الأسماع للمقريزى الأول، ص ٣٦.

١١. أنساب الأشراف للبلاذرى الأول، ص ٩٧.

ثانياً: المراجع أو المؤلفات الحديثة:

١. على هامش السيرة لطه حسين الثانى، ص ١٤٨.

٢. محمد لتوفيق الحكيم، ص ١٥.

٣. محمد رسول الله لناصر الدين آتين دينيه، ص ٩٥.

٤. نساء النبى لبنت الشاطئ، ص ٢٧.

٥. الرسول فى بيته لعبدالوهاب حمودة، ص ٧.

٦. نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للخضرى، ص ١٨.

٧. محمد رسول الله لجلال مظهر، ص ٤٥.

٨. حياة سيد المرسلين للأبراشى، ص ٣٢.

٩. موسوعات أمهات المسلمين لعبد الصبور شاهين وأخرى، ص ٧٥.
١٠. أوائل العرب، الأول لحبوش، ص ١٠٩.
١١. دراسات فى السيرة وعلوم السنة لموسى شاهين وآخر، ص ٨١.
(٤٠) أنساب الأشراف: للبلاذرى، الأول، ص ٩٧.
(٤١) زوجات الرسول ﷺ: لأصلان عبدالسلام حسن، ص ١١ سابق.
(٤٢) أنساب الأشراف: للبلاذرى، الجزء الأول، ص ٩٩، مصدر سابق.
(٤٣) أنساب الأشراف: للبلاذرى، الأول ص ٩٨.
(٤٤) عيون الأثر: لابن سيد الناس، المجلد الأول ص ٤٩، د. ت الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(٤٥) القاموس المحيط: للفيروز أبادى.
(٤٦) المصباح المنير: للمقرى الفيومى والجاسوس والجسيس من يتجسس أخبار الأعداء وتجسس الخبر جسه «المعجم الوسيط».
(٤٧) **أولاً: المصادر:**
١. السيرة الشامية: الصالحى الأول، ص ٢٢٣.
٢. عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩.
٣. الطبقات الكبرى الأول لابن سعد، ص ١١٣.
٤. أنساب الأشراف: للبلاذرى الأول، ص ٩٩.
ثانيًا: المراجع:
١. على هامش السيرة: طه حسين الثانى، ص ١٧٨.
٢. محمد رسول الله: ص ٣٩، محمد رضا.
٣. حياة محمد: هيكل، ص ١٣٨.
٤. محمد الثائر العظيم: فتحى رضوان، ص ٩٢.
٥. دراسات فى السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨٣.
٦. الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من حياته: عبدالحليم محمود، ص ٧٠.
٧. موسوعة أمهات المؤمنين: عبدالصبور شاهين وأخرى، ص ٧٨.
٨. محمد رسول الله ﷺ: جلال مظهر، ص ٤٥.
٩. محمد: لتوفيق الحكيم، ص ١٧.
١٠. حياة سيد المرسلين: الأبراشى، ص ٣٣.
(٤٨) الوزوزة: مقاربة الخطو وسرعة الوثب، من القاموس المحيط للفيروز أبادى.
(٤٩) العامة فى مصر يقولون: انكشف الملعوب أ هـ.
(٥٠) السيرة الشامية: للصالحى الثانى، ص ٢٢٢.
(٥١) الروض الأنف: للسهيلى الأول، ص ٢١٤.
(٥٢) نساء النبى: بنت الشاطئ، ص ٣٣.
(٥٣) فى مصحف عبدالله بن مسعود «المتزمل» انظر كتاب د. عبدالصبور شاهين «تاريخ القرآن» ص ١٤١ من الطبعة الأولى ١٩٦٦م، دار القلم الناشر، الكتاب العربى للطباعة والنشر، ص ٢١١، ٢١٢ من الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٤م والناشر هو المؤلف.
(٥٤) السيرة النبوية: لابن كثير الأول، ص ٢٥١.
(٥٥) تاريخ اليعقوبى: الثانى ص ٢٠، ٢١.
(٥٦) السيرة الشامية: للصالحى الشامى الثانى، ص ٢٢٢.
(٥٧) الطبقات الكبرى: لابن سعد الأول، ص ١١٣.
(٥٨) تاج العروس من جواهر القاموس: الجزء الأول للزبيدى.
(٥٩) ويقال للمرأة أيضا بعلة، من مختار «الصحاح للرازى».

(٦٠) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب: لأبى منصور الثعالبى النيسابورى، ص ٣٢ سابق.
(٦١) الحُلوان بالضم: العطاء، من «الصباح المنير» للمقرى الفيومى، العامة فى مصر تقول: الحلاوة. أ.هـ.
(٦٢) محمد رسول الله: لناصر الدين آتين دينيه وسليمان إبراهيم بتعريب الشيخ عبدالحليم محمود وابنه، ص ٦٧.
(٦٣) إمتاع الأسماع: للمقريزى الأول، ص ٣٧.
(٦٤) فى المعجم الوجيز: فنخ العقد لم يمضه والعامة فى صعيد مصر يتداولون فيما بينهم هذا اللفظ بذات المعنى. أ.هـ.
(٦٥) فى المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية: أفن الشىء أفنا، نقص.
(٦٦) يقال فلان بطانة لفلان أى مداخل له مؤانس «المعجم الكبير» مجمع اللغة العربية.
(٦٧) الوليجة من تتخذه معتمدا إليه من غير أهلك من «المعجم الوسيط» مجمع اللغة العربية.
(٦٨) فى المعجم الوسيط: المحض كل شىء خلص حتى لا يشوبه شىء يخالطه.
(٦٩) فى المعجم الوجيز: زبدة الشىء، خلاصته.
(٧٠) شكل الأمر التبس: القاموس المحيط للفيروز أبادى.
(٧١) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ص ٢٢٢-٢٢٤.
(٧٢) السيرة النبوية: لابن إسحق، الجزء الأول، ص ص ١٥٣، ١٥٤ تحقيق طه عبدالرؤوف وبدوى طه، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ط أخبار اليوم.
(٧٣) مولد النبى: للبرزنجى، ص ١٣.
(٧٤) عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩.
(٧٥) سيرة ابن هشام: الأول، ص ١٩٥، تحقيق السرجانى طبعة ١٩٧٨، المكتبة التوفيقية بمصر.
(٧٦) السيرة النبوية: لابن إسحق، الجزء الأول، ص ١٥٤، ط أخبار اليوم بمصر.
(٧٧) تاريخ الطبرى: الثانى ص ٢٨١.
(٧٨) فى القاموس المحيط: متح الماء، نزعه.
(٧٩) تاريخ اليعقوبى: الثانى، ص ص ٢٠، ٢١.
(٨٠) السيرة الشامية: الثانى، ص ص ٢٢٥- ٢٢٧.
(٨١) السيرة النبوية: للذهبى، ص ص ٣٠-٣٣.
(٨٢) محمد الثائر الأعظم: فتحى رضوان، ص ص ٩٢، ٩٣.
(٨٣) السميدع: السيد الموطأ الأكناف من كتاب «تثقيف اللسان وتنقيح الجنان» لابن مكى الصقلى ص ١٢٧، أما فى «القاموس المحيط» للفيروز أبادى فهو السميذع بالذال المعجمة.
(٨٤) تاريخ الطبرى: الثانى، ص ٢٨١.
(٨٥) أنساب الأشراف: البلاذرى، ص ص ٩٧-٩٩.
(٨٦) هامش ص ١٩٥ من سيرة ابن هاشم، الأول، بقلم السرجانى الذى حقق الكتاب طبعة المكتبة التوفيقية.
(٨٧) السيرة النبوية: ابن كثير، الأول، ص ص ٢٦٦، ٢٦٧.
(٨٨) جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم «المعجم الوسيط».
(٨٩) الجحاجح جمع جحجاح وهو السيد المسارع إلى المكارم من «أساس البلاغة» للزمخشرى.
(٩٠) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١١٣.
(٩١) وهى ثوب يمان من قطن أو كتان مخطط مزين لأن حبّر الشىء زينه ونمقه مأخوذ من الحبُور وهو أثر النعمة والحسن والوشىء من «المصباح المنير والمعجم الوجيز والقاموس المحيط».
(٩٢) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ص ٢٢٥-٢٢٧.
(٩٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١١٣.

(٩٤) «جاء الفعل مبنيا للمجهول ولسنا فى حاجة إلى زكانة لمعرفة ساقيه الخندريس أى الخمر. أ.هـ».

(٩٥) الصنفرة ورقة مرملة يلمس به الخشب، من المعجم الوجيز.

(٩٦) السيرة النبوية: ابن كثير، الأول، ص ص ٤٠٧- ٤١٠.

(٩٧) تاريخ الطبرى: الثانى، ص ٢٨١، صفحة ٢٥٧.

(٩٨) السيرة النبوية: ابن كثير، الأول، ص ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٩٩) العامة فى مصر تقول: «سكران طينة».

(١٠٠) أسماء الخمر التى وردت فى هذه الفقرة من كتاب «نظام الغريب فى اللغة» ص ٩٤ مصدر سابق.

(١٠١) فى المعجم الوسيط: تعبب الشراب تجرعه بكثرة وألح فيه حتى فقد وعيه. أ.هـ. والعامة فى مصر تقول: «سكر سكرة ينى».

(١٠٢) تمنعه وهى كلمة فصيحة.

(١٠٣) محمد رسول الله: لآتين دينيه ناصر الدين وسليمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ عبدالحليم محمود وابنه الشيخ محمد، ص ص ٩٦-٩٨، ط أولى ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.

(١٠٤) فى المعجم الوسيط: قرع الفناء، خلا من الساكنين.

(١٠٥) تاريخ اليعقوبى: الثانى، ص ص ٢٠، ٢١.

(١٠٦) أنساب الأشراف: البلاذرى، ص ص ٩٧-٩٩.

(١٠٧) على هامش السيرة: طه حسين، الثانى، ص ١٧٧ سابق.

الفصل الثـانى

الأم الرؤوم

الأم الرؤوم فاتحة أطوار التجربة

فى الفرشة ذات الطيتين والتى نأمل ألا يسأمها القارئ لطولها النسبى إذ حاولنا أن نوصل إليه ما يعينه على استيعاب الفكرة الرئيسة التى يدور حولها الكتاب فطرحنا فيها «=الفرشة» ما نعده إرهاصات لها «=للفكرة الرئيسة» تجمع بين القادم[1] والمدماك إذ إنها تمهد لها وتحبكها أى تشد إزارها فى نفس الوقت.

ولقد أدرك الأقدمون ذلك وهذا يتضح بسهولة فى كتبهم التراثية التى خلفوها لنا والتى ذكروا فيها كل الوقائع حتى التى يسرع إلى الذهن أن فيها ما فيها مما يجمل أو يستحسن ستره أو إخفاؤه.

بعكس الكتبة المحدثين الذين فعلوا النقيض، بل إن الأمر وصل ببعضهم إلى حد التدليس أحيانًا والتلفيق أحيانًا أخرى والتبرير والتسويغ ولى أعناق النصوص أحيانا ثالثة. نقول إن القدامى أدركوا حقيقة العلاقة بين «**سيد الناس وديان العرب**» كما قال له الأعشى فيما بعد ونعنى به محمدًا وبين سيدة النساء خديجة إذ لم يخف عليهم شعور البنوة الذى أبداه محمد، نحوها وعاطفة الأمومة الفياضة بالحنو التى سكبتها عليه.

وفى بدى التجربة ـ وقد عدت ذلك من بشائر نجاحها ـ ما إن يلقى محمد ملاك الرب جبريل فتتلقاه بين ذراعيها وتأخذه فى أحضانها وتهدهده وتطمئن فؤاده وهى تفعل ذلك كما الوالدة على ولدها.

ومن جانب آخر كيما تثبته حتى لا يتوقف فتفسد التجربة بأسرها وتذهب هباءً منثورًا أدراج الرياح كل الجهود التى بذلتها والأموال التى أنفقتها.

... ثم انصرف «=ملاك الرب جبرائيل» ثم انصرفت إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها ـ يعنى ملتصقًا[2].

ونكتفى بهذا العدد من المصادر والمراجع.

فى هذا الخبر ما إن فارق ملاك الرب «**الصين.المصون**» حتى سارع إلى الطاهرة جالسًا على فخذها ملتزقًا بها شأن الابن الصغير مع أمه الحبيبة

الشفيقة عليه وهى تدعه جالسًا على فخذها وتضمه إلى صدرها بقوة وحنية.

وهنا يتعين علينا أن نتذكر أن محمدًا فى الأربعين من عمره أو الثالثة والأربعين على مذهب من يقول إن إسرافيل «وفى رواية ميكائيل» لازمه ثلاثة أعوام قبل جبرائيل، ومع سلخه هذه السنوات من عمره المبارك فقد ظل يشعر نحو أم هند بشعور الابن نحو أمه الحنون.

لماذا؟ لأن سيدة قريش تعاهدته به «=هذا الشعور» منذ أول لحظة نكحته فيها واستدام معه ينمو بنموه ويكبر معه حتى طور الكهولة لأن من شب على شىء شاب عليه، والمحب الطبرى يخبرنا فى «السمط الثمين» أن محمدًا بنى بخديجة وهو ابن احدى وعشرين سنة (ص١٤) ولو أنه يضيف: وقيل خمس وعشرين وعليه الأكثر.

والمحب الطبرى ليس وحده هو الذى ذهب إليه «=ابن إحدى وعشرين سنة» بل العديد من الأقدمين والمحدثين شاركه فيه.

● ● ●

أما المحدثون الذين ألفوا كتبًا فى السيرة المحمدية التى تتضوع مسكًا فقد تناولوا العلاقة بين الزوجين المباركين لكن تفاوت منهجهم تفاوتًا كبيراً.

فمثلاً نرى كارين أرمسترونج وهى كما يشى به اسمها من الفرنجة أثبتت أنها على قدر لا بأس به من الأمانة العلمية: «ألقى محمد بنفسه فى حجرها «خديجة» وهو يزحف على يديه ورجليه بينما يرتعد الجزء الأعلى من جسده.. فأخذته خديجة بين ذراعيها وهى تخفف عنه وتحاول أن تبعد عنه الخوف..

وفيما بعد كان يتلقى الرؤى إلى جانب الجبل وكان أيضًا فى كل مرة يسرع إلى خديجة راجيًا إياها أن تحتضنه وتدثره فى عباءته.. لكن خديجة لم تكن شخصية أم تبعث الطمأنينة فحسب... إلخ[٣].

أما الكتبة المحدثون العرب فقد ألمحوا ولم يصرحوا وجمجموا ولم يبينوا:

«... وكانت خديجة ربة البيت تستقبله بوجه مبتسم ونفس راضية وقلب يحنو عليه ثم يحيطه بكل أنواع الرعاية...»[٤].

هذا كل ما قدر عليه المؤلفون، إنهم يصفون ما صدر عن أم هند: الاستقبال بالوجه المبتسم والنفس الراضية وحنو القلب والتحويط بكل أنواع الرعاية..

وتركوا لفطانة القارئ لكى يترجمه بشعور الأم نحو وليدها ولا تثريب عليهم إذ فعلوا لأن عاطفة الوالدة إذا اقترنت بحنو الزوجة أضاف إلى رصيدها زيادة وضاعف مكانتها، وكانت هى «=أم هند» فى الأربعين من عمرها «أى عند مباعلتها أو نكاحها لمحمد أ.هـ». فعوضه الله سبحانه وتعالى عن أمه التى فقدها فى صدر حياته وقت الحاجة إليها بزوجة وأم وخير رفيقة فى الحياة[٥].

«... ووهبته ما تملك فى سبيل الدعوة وكانت له الصدر الحنون ساعات

روعه ومحنته.. وظلت إلى جانب الرسول ﷺ تعاضده وتعينه»(٦).

ورغم أن خديجة نفحت محمدًا فى ساعات المحنة وأيام المنحة صدرها الحنون ولم تقتصر على أوقات الأزمات مما يدل على خطأ حبوش فى تحجيره وصرفه لزمن الشدة فحسب فإن عبارته كشفت عن تفطنه إلى كنه العلاقة بين **«راكب الجمل»** وخديجة وأحرى بحبوش أن يقيمها «=العلاقة» ويسطرها فى كتابه، ومنهم من قال:

«تزوج محمد من السيدة خديجة بنت خويلد التى وهبته إخلاصها وحنانها»(٧).

وباحث آخر لا يكفى بهبة الطاهرة محمدًا حنانها وإخلاصها بل قال عليها «وإنها لتذوب رحمة به وحنانًا وإشفاقًا عليه وخوفًا»(٨). والذى لا مشاحة فيه أن الأم هى التى تذوب رحمة وحنانًا وإشفاقًا وخوفًا على ابنها الوحيد الذى لا ثانى له أما الزوجة فإن شعورها لا يصل إلى هذا المرقى العالى والذروة المرتفعة ولا يتجسم هذا المصعاد الجهيْد.

بيد أن الكاتب نكص على عقبيه ولم يمض حتى آخر الشوط فيضع تحت نظر القارئ أو بمعنى أوضح ينقل إليه ما استبان له من حقيقة الصلة الوشيجة التى ربطت بين «الشهم» والسيدة الطاهرة.

مثل العرب الذى يقول: «قطعت جهيزة قول كل خطيب» ينطبق على الدكتورة عائشة عبدالرحمان أو بنت الشاطئ، وهى كما يعرف القارئ كاتبة إسلامية أو مفكرة إسلامية ذات مقام محمود اتسمت فى تناولها لهذه النقطة بقدر وفير من الشجاعة الفكرية فقد أكدت بوضوح لا لبس فيه أن شعور خديجة نحو محمد هو شعور الأم التى تفيض حنانًا وعطفًا وحبًا ورئمانًا على ولدها الذى لم ترزق بغيره.

وهذا بعض ما ذكرته: «... فأمسك الشاب اليتيم دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ أن تركته أمه فى السادسة من عمره صبيًا لتعرض عليه لكى يتقدم ليخطبها إذ إنها راغبة فى نكاحه. أ.هـ» «وتندت عينا محمد وهو يفتقد أمه آمنة فإذا يد لطيفة رقيقة تأسو الجرح القديم فى حنان غامر» (ص٣٣).

«... وضمته إلى صدرها وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها.. واستشعر الراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق إلى فراشه فتضعه فيه كما تفعل أم بطفلها الوحيد ثم تهدهده بصوتها الحلو وتنشر على مضجعه أسنى الأحلام» (ص٣٦).. «وتلقته خديجة من صحوه بين ذراعيها وحدثته بما سمعت من ورقة بن نوفل - المرجعية الذى طفق يتابع التجربة عن كثب ويشير على الطاهرة بما تفعله فى كل مرحلة. أ.هـ - فرنا محمد ﷺ إليها مليًا بنظرة تفيض

شكرًا وامتنانًا» (ص٣٧)(٩).

لقد أجادت وأبدعت بنت الشاطئ فى وصف العلاقة بين خديجة ومحمد وربما يرجع ذلك إلى أن الدكتورة عائشة تحس بشعور الأم لأنها أنثى وأم..

والعبارات التى أوردتها فى توصيف الرابطة تنطق بذاتها وليست فى حاجة إلى شرح أو توضيح.

بيد أن الذى غاب عن المؤلفة فى هذه الخصوصية مع أنها فطنة لبيبة أن هذا الشعور الدفاق الذى دلقته أم هند مبعثه ليس شعور الأمومة فقط إنما يضاف إليه حرصها المكين على فلج التجربة التى بدأتها مع **«صاحب الرداء»** منذ ما يقرب من عشرين عامًا فهذا الشعور له أثر السحر على محمد اليتيم الذى حرم منه وهو صغير فدفعه أن يقدم المزيد من التوافق مع السيدة الطاهرة.

وهو ركن جوهرى لا غنى عنه كيما يكتب للتجربة الظفر الكامل والفوز المبين.

• • •

من له أذنان فليسمع من له عينان فليبصر ومن له عقل فليتدبر ومن له فهم فليفقه ومن له بصيرة فليدرك.

إذ ربما ينبرى لنا قارئ فلحاس من إياهم(١٠). من باب المعاندة وبقصد المخالفة ولمجرد المفارقة ويدّعى على غير وجه حق أن ما طرحناه آنفًا ليس فيه مقنع بأن **«الحبيب المصطفى»** نظر إلى الطاهرة نظرة الابن لأمه الحنون ولا أنها عاملته كما تعامل الوليد الوحيد أو أنها أغدقت عليه فيوضا من حنانها أو أغرقته فى بحار عطفها أو حوّطت عليه ببررها. حقيقة ربط بينهما ود متبادل بيد أنه لم يخرج عن دائرة ما يحدث بين زوج وزوجة ولم يغادر نطاق ما بين بعل وبعلته(١١).

ولكى نقطع عليه طريق المشاكسة ولكى نسك عليه منفذ المعارضة فإننا نضع تحت باصرته هذا الخبر: «قال **محمد** يا خديجة هذا جبريل، قالت: يا ابن عم قم فاجلس على فخذى اليسرى فجلس قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فاقعد على فخذى اليمنى فجلس على فخذها اليمنى قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فاجلس فى حجرى ففعل، قالت: هل تراه؟ قال: نعم فتحسرت وألقت خمارها ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: اثبت وأبشر فوالله إنه ملك وما هذا بشيطان(١٢).

وهناك إضافة للخبر المذهل:... يونس عن ابن إسحق قال: فحدث عبدالله بن الحسن «بن الحسن بن على بن أبى طالب» فقال: سمعت فاطمة بنت حسين «وهى أمه» تحدث بهذا الحديث عن خديجة إلا أنى سمعتها تقول: أدخلت رسول الله ﷺ بينها وبين درعها «يعنى قميصها» فذهب عند ذلك جبريل عليه

السلام[١٣].

وتكملة أخرى لذات الخبر المعجب: وهى أن اختبار الآتى لمحمد أو تعبير السيدة الطاهرة «صاحبك» لمعرفة هل هو من الملائكة أو من الشياطين أنجز بإرشاد ورقة بن نوفل[١٤].

والقس كما رأينا هو «مدير المتابعة» بالتعبير الحديث لـ«التجربة» المذهلة التي تقودها وتنفذها بدقة ومثابرة سيدة قريش.

بيد أن ورقة لم يأمرها سوى بالتحسر أى نزع الخمار أما إجلاس «المعظم» على فخذيها ثم على حجرها ثم إدخاله فى قميصها فهذا من إبداعها وصنعها. لماذا؟

مرجعه إلى شعورها بعاطفة الأمومة الذى غدا طاغيًا تجاه «الخالص» حتى بعد أن ناهز الثالثة والأربعين هذا من جانبها.

أما من جانب «**الخاشع**» فلاشك أن القارئ لم يفته أنه أصبح مثلاً فاذا فى المطاوعة والملاينة. اجلس على فخذى يجلس ـ تعال فى حجرى.. يأت. ادخل بين قميصى وجسدى.. يدخل.

وهذا له دلالة لمن لديه ذرة من زكانة أو مسكة من فطانة على أن «**الخاضع**» غدا ينظر إلى زوجته نظرة الابن إلى أمه الحبيبة الذى يرى سعادته فى برها ومهاودتها وأن ما تأمر به واجب النفاذ العاجل لأن الوالدة الحنون لا تشير إلا بكل ما هو فى صالحه ولفائدته حتى ولو لم يعرف كنه الطلب ولا مغزى الأمر.

فهنا نجد صورة نادرة أشد الندرة للتفانى فى المحبوب بل للفناء فيه حتى إنها تذكرنا بالتعبير الشائع: «جسدان فى روح واحدة» ونسأل: هل هو حلول أم فناء أم اتحاد؟

اختر ما شئت إنما الذى لا مشاحة فيه أنها صورة أندر من الكبريت الأحمر كما يقال فى حب الزوج الابن أو الابن الزوج للزوجة الأم أو الأم الزوجة.

• • •

ولا نريد أن نغمط سيدة النساء حقها فى هذه الخصوصية وحتم علينا أن نقر ونعترف بمهارتها عديمة الضريب فى المزج الرائع بين الأمومة الفياضة بالحب والحنان وبين الإعداد الدقيق لتلقى التجربة ولولا هذا الخلط البارع الذى طالعنا أيأته[١٥] منذ قليل لما قدر لها «التجربة» الفلج الذى ملأ الدنيا وشغل الناس منذ أربعة عشر قرنًا ومازال يشغلهم حتى الآن وربما لأمد بعيد ما لم تتبدل جذريًا أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وما لم يتحلحل حراس الإسطير المخيم وحلاس التراث المبارك عن أماكنهم الميمونة.

• • •

بعد الرحلة المباركة التى قطعتها السيدة خديجة انتقلت روحها الطاهرة إلى

بارئها راضية مرضية بعد أن هدها المرض وسوء التغذية طوال مدة الحصار الذى فرضه عليهم طواغيت قريش الذين خلت قلوبهم من الرحمة والإنسانية ورغم أنها ليست من بنى هاشم إلا أنها آثرت أن تظل بجوار بعلها وابنها الحبيب تشاطره الشدة وتقاسمه المحنة وتشاركه العسرة.

ذاك موقف يعجز القلم عن تصويره، فالسيدة البالغة الثراء المنعمة المترفة التى عاشت فى رغد وبلهنية لم تشأ لها أخلاقها السامية أن تترك **«الأواه»** وحده يعانى مشقات الحصار الظالم ولكنها لم تتحمل لأنها ناهزت الخامسة والستين ـ فأسلمت الروح وهى قريرة العين بعدما رأت وسمعت ولمست نجاح التجربة العظيمة التى استهلكت من مالها الكم الوفير ومن صحتها القدر الذى لا يعلم مداه إلا الله.

ويكفى ملازمتها لـ**«إمام المتقين»** كلما راح لغار حراء الذى يبعد عن دارها ثلاثة فراسخ الصعب المرتقى الضيق المولج. فى بداية التجربة على الأقل لمدة خمس سنوات والملازمة أمر لا غنى عنه وقت ذاك حتى يقيض لها «=التجربة» الفوز والفلاح والتى لولالها لصار نجاحها مشكوكًا فيه.

وبدون الإرادة الفولاذية والشكيمة الحديدية والعزيمة الصلبة وهى الصفات التى تمتعت بها الطاهرة والخصائص النادرة التى تمتعت بها لما أفلحت التجربة ولما طرحت الثمرة الناضجة الباهرة.

• • •

صعق موت خديجة **«الحبيب المصطفى»** صعقًا وجيعًا حتى إنه سمى عام وفاتها «عام الحزن» خاصة وأن فيه توفى عمه أبوطالب حاميه وكافله ومؤازره. ويذكرنا حزنه الدفين عليها بحزنه الشديد عند موت القس ورقة الذى اقترن به فتور الوحى أو انقطاعه لدرجة أنه هم عدة مرات أن يلقى بنفسه من رؤوس شواهق الأجبل لولا أنه كما حدثنا فى آخر لحظة يظهر له ملاك الرب جبرئيل فيثنيه عن إمضاء عزمه.

• • •

كان الأسى المرير على فقد خديجة أمرا بديهيا لأنها الأم الرؤوم والوالدة الحنون والزوجة الحبيبة التى آزرته وعضدته وثبتته والتى لولاها لما أكمل التجربة حتى نهايتها وهى التى فتحت له خزائنها يغرف منها كيفما يشاء والتي وضعت بين يديه كل ما تملك ورفعت عن كاهله هم الرزق وخوف الخلق وفرغته كيما يجتاز المراحل مرحلة وراء أخرى، وهى التى أتاحت له التماس بالقس ورقة وغيره مثل عداس وبحيرى وقضاء الليالى الطوال مع ابن نوفل فى المدارسة والمذاكرة والمحاورة.

أو تقرأ له وهو الأمى بشهادة القرآن الكريم الصحف التى قام القس بنقلها إلى اللسان العربى.

وهى التى هيأت له الاختلاط بأصحاب كافة الملل والنحل والعقائد والأديان الذين اكتظت بهم بكة التى يؤمونها «يتوجهون إليها ويقصدونها» لأغراض متباينة: الموعظة، الدعوة، التجارة، الجاسوسية، الحج إلى البيت الحرام الذى اعتقدوا أنه إرث إبراهيم أبى الأنبياء وأكبر البطاركة.

ولولا التفرغ الدائم أحد عطايا أم هند لما انفسحت له الفرص الثمينة، إذ لا شك أن الخلطة بهم شكلت جزءًا من الخطة المرسومة لما انضوت عليه «الخطة» من تمرس واستماع وحفظ وحوار ومدراسة وتخزين معلومات فمن المعروف أن الأمى يتمتع بذاكرة خارقة.

منذ فجر التجربة المعجبة أدركت السيدة اللبيبة ببصيرتها النافذة وعقلها الراجح وأفقها الوسيع أن احترافه التجارة بما يتطلبه من سفر وعقد صفقات وسوم ومقابلات سيستنزف وقته وجهده بالكامل ولا يدع له فسحة من الوقت.

فى حين أن التجربة تحتم ضرورة التفرغ لها بالكامل وطلاق كل ما يشغله عنها طلاقًا بائنًا بينونة كبرى.

• • •

كذلك فإن «التجربة» علاوة على ما ذكرنا لها جانب شديد الأهمية بالغ الخطر وهو الانعزال عن الناس لفترة معينة فى كل عام للتحنف والخلوة والتحنث والتبرر وهذه كلها تمثل الجانب الروحى وإعداد النفس والجسم معا لتلقى الرؤى والهواتف واستقبال الكائنات العلوية غير المنظورة للناس العاديين والحديث معها. وتراثات أهل الكتاب ومرويات غيرهم من سائر الملل والديانات الأخرى مليئة بأمور مماثلة أو حتى مشابهة.

وهنا نذكر بقيام ورقة بالتدريس وبترجمة صحائف من الكتاب المقدس وقراءة الطاهرة لها - فهى تقرأ وتكتب - واستيعابها ثم تلقينها وتحفيظه إياها. بقى التطبيق العملى الذى مارسته بحذق ومهارة يعز مثلهما ونفذه الابن البار المتفانى فى المحبة والمهاودة - نفذه بصورة عرية عن الضروب ولا غرو فهو عبقرى لا يفرى فريه أحد ومنذ ظهوره المبروك، لم تر له جزيرة العرب نظيرًا وحتى مقاربًا.

• • •

وظلت ذكرى سيدة نسوان قريش متأججة فى نفس محمد لم تفارقه لحظة وبقى حتى آخر يوم فى عمره الميمون شديد الوفاء الذى يتغلغل فى أعماق حنايا نفسه لها.

وحتى عندما أصبح سيد الجزيرة العربية بأسرها وديان العرب جميعهم فإنه طفق يصرح بأعلى صوته أنها صاحبة الفضل عليه وأنها وحدها من دون الجميع آمنت به بينما كذبه قومه وآزرته وعضدته ووقفت بجواره فى الحوالك

والأزمات ورزق منها الولد فى حين عجزت سائر نسائه.

وسوى بينها وبين الصديقة المصطفاة على نساء العالمين بنص القرآن الكريم مريم بنت عمران وأم المسيح عيسى «عن عبدالله ابن جعفر عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - سمعت رسول الله ﷺ يقول خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة»(١٦).

ولقد أورد البخارى أصح كتاب بعد الذكر الحكيم ذات الحديث بنفس السند برواية علىّ بن أبى طالب فإذا خرّج البخارى والحاكم حديثًا فلا مطعن عليه ولا يتجاسر مسلم على تجريحه أو غمزه حتى ولو انتسب إلى نفاة السنة أو المشككين فيها، هداهم الله. وهذا الحديث ليس هو الفذ أو اليتيم بل أمثاله كثير وقد اكتفينا به منعاً من التطويل وفى أحاديث أخرى سوى بين خديجة وسارة وآسيا زوج فرعون.

ونستغنى بالحديث المذكور ففيه التصريح بالمساواة التامة بين مريم أم عيسى على الحقيقة «دعك الآن من مسألة الولادة العذراوية وما دار حولها من بحوث تيولوجية فلا مجال لها هنا فضلا عن أنها بالغة التعقيد أ.هـ» وبين سيدة نسوان قريش أم محمد عن طريق المجاز أو أمه المعنوية أو الاعتبارية.

فالأولى: مريم - بنص القرآن العظيم - مصطفاة نساء العالمين أى سيدتهن ومقدمتهن، وصديقة فبالمثل تغدو الأخرى «أم هند» فى ذات الرتبة والمقام والدرجة وتتمتع بالألقاب نفسها فضلاً عن أن هذه التسوية بين السيدتين الجليلتين لها مدلول عميق ومغزى غائر وإشارة خبيثة سوف تتفتح أكاميمها سنة سنة(١٧) من هذا الكتاب.

وتعوّد محمد على بر صديقات الطاهرة وقل أن يذبح شاة دون أن يهدى إليهن منها ولمح مرة وهو يمشى مع بعض صحابته واحدة منهن فانتحى جانبًا من الطريق وسلم عليها ووقف يحادثها ويبدو أن الحديث طال - لأن من شمائله الجميل كما الورد المتفتح ألا يترك محدثه حتى ينصرف عنه - فسأله أحدهم عنها فردّ عليه أنها اعتادت تزورهم أيام خديجة.

• • •

ولا شىء يثير ثائرة محمد ويدفعه إلى الغضب ويحثه على الحنق ويجره إلى الغيظ قدر كلمة فيها إساءة أو تعريض بسيدة قريش مهما بلغ قائلها من مكانة سواء فى المجتمع أو فى نفسه هو.

فعائشة بنت أبى بكر بن أبى قحافة أصبى زوجاته وأجملهن وأصغرهن خطبها وهى فى السادسة ودخل بها فى الثامنة وقد ناهز الخامسة والخمسين.

ومن هذات ما فتئت تتدلل عليه وما انفك هو يصرح بحبه إياها.

وسائر نسونه عرفن ذلك عنه فغرن منها إنما الغيرة المكتومة لأنها لو ظهرت

فستجر على صاحبتها المتاعب.

الزوجة منهن إذا أيقنت أنه لم يعد لديها ما يغرى **«صاحب الهراوة»** باستبقائها على ذمته وتستشعر عزمه على فراقها تسرع إليه وتطلب إليه بإلحاح أن تظل زوجة له وتهب ليلتها لعائشة.

إذ هى تدرك مدى حبه لها وتليها أم سلمة ثم زينب بنت جحش «لجمالهن الفائق وحسنهن الزايد وبهائهن المفرط» ثم حفصة «لا لملاحتها إنما لأنها ابنة العدوى عمر بن الخطاب».

ففى القرآن المجيد ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ** ﴾[18] «وكان فيمن أرجأ رسول الله ﷺ سودة وأم حبيبة وميمونة فأراد فراقهن فقلن لا تفارقنا ودعنا على حالنا وأقسم لنا ما شئت من نفسك ومالك فتركهن على حالهن وقسم لهن ما شاء قال وكان ممن آوى عائشة وأم سلمة وزينب وحفصة وكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء».

وهذا الحديث فى مسند أحمد.

وقال المحقق فى هامش الصفحة: «أرجأهن بعد أن كبرن فلم يقسم لهن أيامهن...»[19].

ونضيف أن مرجع ترجى سودة وأم حبيبة وميمونة منه **«المعلم»** عدم طلاقهن واستبقاءهن دون قسم الليالى هو اعتقادهن أنهن لو بقين على ذمته لدخلن معه أعلى عليين فى الفردوس بخلاف لو طلقهن لما ظفرن بهذه الرفقة.

• • •

وفى وقت من الأوقات اجتمع محمد بعدد من صحبه فى حجرة عائشة على غداء أو عشاء فأرسلت زوجة أخرى هى صفية بنت حيى طبقا فيه طعام «ونظراً لأنها يهودية ومن العلية بين قومها فهى على درجة حضارية أرقى ومن ثم تجيد الطبيخ أ.هـ».

فما إن رأت بنت أبى بكر الطبق حتى كسرته واندلق ما فيه أمام **«المتوكل»** ومن حضر فلم يزد على قوله «لقد غارت أمكم» وأمرها أن تصنع طعامًا بدله وترسله إلى ضرتها صفية.

هذه الأحدوثة[20] تقدم الحجة الساطعة والبرهان القاطع على مدى تدلل بنت أبى بكر على **«صاحب التاج»**.

بيد أن هذا الخبر أوعر: «هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها كانت تقول لنساء النبى ﷺ أما تستحى المرأة أن تهب نفسها فأنزل الله تعالى: ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ** ﴾ (الأحزاب: ٥١) فقالت عائشة: «أرى ربك يسارع لك فى هواك»[21].

وفى رواية ابن إسحق بذات السند: «قالت عائشة: كنت أغار فقالت لامرأة

ممن وهبت نفسها لرسول الله ﷺ أما تستحى المرأة أن تهب نفسها بغير صداق وكان رسول الله ﷺ قد اعتزل بعضهن وكنت على رجاء فلما نزلت الآية المذكورة ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾... إلخ أيست وقلت إنى لأرى ربك يسارع لك فى هواك»[٢٢].

العبارة الأخيرة الواردة فى الخبر ذى المصدرين والرواية الواحدة وهى قول عائشة: «أرى ربك يسارع لك فى هواك» لا تجرؤ مسلم سوى التيمية بنت ابن أبى قحافة على التفوه بها فهى تقطع بأن الذات العلية تهرع إلى مرضاة محمد فى هواه وتلبى طلباته فورا وحاشا لله جل جلاله أن يفعل.

ومن طريق أخرى نسبت الهوى إلى «**الناطق بالحق**» وهو كما نعلم جميعًا ما ينطق عن الهوى وثالثًا أن الهوى الذى نسبته التيمية بنت ابن أبى قحافة إلى «الهمام» يتعلق بأمر نسائى - حتى لو فى نطاق الحلال الصرف - والمأمول منها أن تنزهه عنه، وبهذه المناسبة تقفز إلى أذهاننا العاصفة التى أثيرت أخيرًا من أن كتب الأحاديث حتى الصحاح منها فيها أحاديث شديدة الواقع على نفس المسلم التقى[٢٣].

وعلى أى حال فإن الذى لا مشاحة فيه أن التيمية بنت ابن أبى قحافة لها عند «**صاحب النعلين**» مكانة عالية حتى إنها جرؤت على أن تقول له وتفعل فى حضرته ما لا يتجاسر عليه مسلم أو مسلمة ومرجعه إلى صغر سنها «بالنسبة إليه» ووضاءتها وأنها الوحيدة من بين نسوانه التى تزوجها عذراء بكراً.

فضلا عن أنها بنت «الثانى فى الغار»، إن الزوجة الغندورة[٢٤] اعتقدت أن بما لها من حظوة لدى «**راكب البعير**» أن تدوس على طرف سيدة النساء الطاهرة. بيد أنها فوجئت بأنه قابلها بغضب عارم وأمسك بشدقها «جانب فمها» وحذرها من العودة لمثله فامتثلت وحرّمت.

• • •

فى مرة قالت عن سيدة نسوان قريش إنها عجوز حمراء الشدقين وإن الله أبدله خيرًا منها فبان الغضب على قسمات وجهه بشدة شديدة وصكها بقوله إنه غير صحيح بالمرة وإن الله لم يبدله خيرًا منها:

فقد آمنت حين كفرت قريش به وواسته بنفسها ومالها وآزرته ورزق منها الولد فى حين أن أى واحدة من نسائه التسع لم تفعل.

وفى خبر آخر «أن أم رومان «=أم عائشة» دخلت حجرتها فوجدت «**صاحب الشملة**» مغضبًا من ابنتها فقالت له يا رسول الله مالك ولعائشة إنها حدثة «أى صغيرة إذ يبلغ الفارق بينهما فى السن أكثر من خمسة وأربعين عامًا» أ.هـ.

وإنك أحق من يتجاوز عنها - فأخذ بشدق عائشة وقال: ألست القائلة: كأنما ليس على الأرض امرأة إلا خديجة والله «أى أنه أقسم» لقد آمنت بى إذ كفر

قومك ورزقت منها الولد وحرمتموه»[٢٥].

وفى حديث آخر والله «قسم» ما أبدلنى الله خيرًا منها.

• • •

والعجب كله أن الإخباريين يضيفون إلى صفات التيمية بنت أبى قحافة الذكاء والفطانة فكيف لم تدرك أن خديجة بالنسبة لمحمد ليست زوجاً وأما فحسب بل هى صاحبة الفضل وهندوز التجربة التى خلدت اسمه فى الأولين والآخرين ودفعت تبعه «المصدقين به» أن يقرنوا باسم رب العزة ذى الجلال والإكرام تقدست آلاؤه، اسمه الشريف فكيف يرضى إذن بأى مساس بها حتى ولو من أصبى زوجاته وأحلاهن وأملحهن وأبهاهن[٢٦].

ولقد ترك «**الذى تنام عينه ولا ينام قلبه**» عددًا وفيرًا من الأحاديث التى لا تعبر فحسب بل تقطع بعلو مكانة وارتفاع مقام وسمو قدر أم هند عنده وعن مدى اعترافه بالجميل لها وقد وردت «الأحاديث» فى دواوين السنة التى تقدسها أمة لا إله إلا الله.

وفى مقدمها على سبيل المثال لا الحصر صحيح البخارى الذى وصف بأنه أصح كتاب بعد الذكر الحكيم نذكر منها:

١ـ سمعت عبدالله بن جعفر عن علي رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة.

٢ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: ـ وأتى جبريل النبى ﷺ ـ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

٣ـ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: قال «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ومريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون»[٢٧]. بيد أن حديثًا صدر من «الألمعى» وقفت عنده مليًا.

٤ـ عن ابن أبى داود قال دخل رسول الله ﷺ على خديجة فى مرضها الذى ماتت فيه فقال لها بالكره منى ما أثنىّ عليك يا خديجة وقد يجعل الله فى الكره خيرًا كثيرًا أما علمت أن الله تعالى زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون فقالت وقد فعل ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، قالت: بالرفاء والبنين»[٢٨].

ولقد استشعر «**صاحب الخلق العظيم**» ما فى نقل هذا الخبر إلى خديجة من حرج ولذا قال لها «بالكره منى» لأنه يعلم أنه ما يسوء الزوجة شىء قدر الزواج عليها أى إحضار ضرة لها حتى ولو فى مكانة مريم أم عيسى وآسية حرم فرعون خاصة وأن الطاهرة تلقت هذا الخبر وهى فى مرض الموت.

إنما «**المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض**» له حجته لأنه من نص الحديث ذاته أن الذى زوجه أولئك النسون - حسب ما قال - هو ربه أى لم يقع بمحض إرادته.

والسؤال الذى يدور فى الذهن: هل النسوة فى الجنة بل فى أعلى عليين منها يشعرن بالغيرة كما تشعر بها نساء الدنيا؟

وما هو إحساس الطاهرة آنذاك عندما تعلم أن «**المعطى جوامع الكلم**» قد نكح بعد وفاتها عددًا كبيرًا من الزوجات؟ اختلف كتاب سيرته التى هى أحلى من سكر الأهواز فى تحديده - وبحسب أحاديثه المشرفة لابد أنهن سيرافقنه فى ذات المقام الذى سوف يتموضع فيه بأعلى الفردوس.

وهنا قد ينبرى أحدهم فيعترض أن صاحب «أسد الغابة» لم يظهر لنا سنده. فنرد عليه الآتى:

«عن أبى إسحق عبد خير عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ مسرورًا فقال: يا عائشة إن الله عز وجل زوجنى مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم فى الجنة. قالت: قلت بالرفاء والبنين يا رسول الله»(٢٩).

هذا الحديث رواه ابن ماجة فى سننه وهو أحد الصحاح الستة. وأخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم الليلة»، وأورده السيوطى فى «الجامع الكبير».

ونشره مجمع البحوث الإسلامية وهو هيئة تابعة للأزهر أعطى نفسه فى الأيام الأخيرة الحق فى الرقابة على الكتب والدراسات التى تبحث «الإسلاميات».

• • •

إذن لا يمارى أحد فى صحته.

والذى نراه بعد إمعان الفكر والمزيد من التدبر ومضاعفة التأمل أن «**صاحب الفضل العظيم من الله**» أراد به زيادة رفع مكانة خديجة بأن قرنها بمريم بنت عمران ذات المقام المحمود فى القرآن فهى صديقة ومطهرة ومصطفاة على نساء العالمين وقانتة وساجدة وراكعة.

وقد وضع الذكر الحكيم اسمها على رأس سورة من أميز سوره.

ونحن نؤكد أن تمجيد أو تقديس القرآن للعذراء البتول أم عيسى فاق بما لا يقاس ما جاء بالأناجيل الأربعة.

هذا بخلاف كلثم أخت موسى وآسية بنت مزاحم بعلة فرعون ولكل منهما ذكر حميد فى القرآن المجيد.

هذا الحديث رغم تزويج الله سبحانه وتعالى لـ«**الورع. الوجيه**» ثلاث ضرائر على خديجة فى أعلى عليين فى جنة عدن، فهو تكريم لسيدة نسون الدنيا ومن ثم فإنه «**نعمة الله**» أخبرها به وهى على سرير مرض الموت لأنه بعشرته الطويلة

لها علم أنها سوف تتفطن إلى المعنى الخبىء الكامن بين طياته ومن ثم يحق لنا أن نصل إلى نتيجة حاسمة وهى أن هذا الخبر من شواهد سمو قدر أم هند عند محمد ومن أدلة عرفانه بجميلها وامتنانه لها.

ولم يتركنا «**ذؤابة قريش**» لكى نستخلص براهين ثبوت إقراره بفضل خديجة عليه من أحاديثه الشريفة فقط بل ترجمه عمليًا وطبقه فعليا وشيأه على أرض الواقع:

«عن أبى مليكة عن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبى ﷺ فقال: كيف أنتم كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله. فلما خرجت قلت يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»[٣٠].

هذا الأثر الشريف لاشك بلغ الذروة من الصحة والتوثيق وارتفع عن الطعن وبعد عن التوهين وسما عن التشكيك وهو صريح النص والدلالة معا على أن «**المرتضى**» برهن على عميق وده وسابغ امتنانه لسيدة قريش بحفاوته البالغة المقرونة بالإكرام لعجوز من صواحب خديجة ومن ثم فقد أورده «=الحديث» الإمام ابن حجر العسقلانى فى الفتح فى باب «حسن العهد من الإيمان».

وقد حق لـ«**المتين**» أن يتغلغل فى عمق نفسه وحنايا وجدانه الشعور بأسمى آيات العرفان بالجميل لخديجة صانعة التجربة المذهلة التى خلدت ذكره أبد الدهر.

الهوامـش

(١) جمعها قوادم: ريش فى أول جناح الطائر.

(٢) تاريخ الإسـلام: للذهبى ص ٥٩، والسيرة النبوية: لابن هشـام ـ تحقيق السـرجانى، المجلد الأول ص ٢٤٦، وعيون الأثر: لابن سـيـد الناس، الأول، ص ٨٦، والخصـائص الكبـرى: للسيـوطى، الأول، ص ٢١٨، والمستدرك: للحاكم النيسابورى تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، والسمط الثمين: للمحب الطبرى، ص ٤٠ وما بعدها، والاكتفـاء: للكلاعى، ص ٢٦٥، شـرح السيـرة النبوية رواية ابن هشـام: لأبى ذر الخشنى، وتاريخ الطبـرى: تحقيـق محـمـد أبو الفضل إبراهيم ، الثانى، ص ٣٠٣، السيـرة الشـاميـة: للصـالحى، الجزء الثانى، ص ٣١٤، السيرة النبـوية: لابن إسـحق، المجلد الأول، ص ١٩٢، ط أخبار اليوم.

ومن المحدثين: الرحيق المختوم: للمبارك فورى، ص ٥٩.

(٣) سيرة النبى محمد: كارين آرمسترونج، ص ١٣٠.

(٤) قصص القرآن: لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص ٣٠٠.

(٥) دراسات فى السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨٣.

(٦) أوائل العرب عبر العصور والحقب: الجزء الثانى، حبوش، ص ١٠٦.

(٧) الرسول فى رمضان: لعلى حسن الخربوطلى، ص ١٦.

(٨) محمد الثائر الأعظم: لفتحى رضوان، ص ١٠٢.

(٩) نساء النبى: لبنت الشاطئ، صفحات ٣٠-٣٢-٣٦-٣٧.

(١٠) فى القاموس المحيط: للفيروز أبادى: الفلحاس: السمج والعامة فى مصر تقول فلحوص. أ.هـ.

(١١) ويقال بعلة «المذكر والمؤنث»: لأبى بكر الأنبارى ٣٢٨هـ، تحقيق الشيخ عضيمة ومراجعة د. رمضان عبدالتواب ١٤١٩هـ/١٩٩٩م المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.

(١٢) **أولاً: المصادر:**

- تاريخ الإسـلام: للذهبى، ص ٦٠.
- الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ٢١٨، ٢١٩.
- السيـرة الحلبيـة: للحلبى، الأول ص ٣٨٦. ثم ذكرهـا أيضـا ص ٤٥، سيـرة ابن هشـام، بتحقيق السرجانى الأول، ص ٢٤٧، ٢٤٨.
- تاريخ الطبرى: الثانى، ص ٢٩٨-٣٠٠.
- السيرة النبوية: لابن كثير، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.
- السيرة الشامية: الثانية، ص ٣١٤.

ثانيا: المراجع:

- حيـاة مـحـمـد: لهيكل ص ١٥٢، ومـحـمـد رسـول الله: لناصـر الدين آتيين دينيـه، ص ١٠٩. ولهوامش المترجمين الشيخ عبدالحليم محمود وابنه محمد.

- الرسول فى بيته: لعبد الوهاب حمودة.
- الرسول فى رمضان: للخربوطلى، ص ٣١.
- محمد: لتوفيق الحكيم، ص ٢٤.

(١٣) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ٢٠٤، ط ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، عن قطاع الثقافة بأخبار اليوم بمصر.

(١٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٦.

(١٥) فى القاموس المحيط: للفيروز أبادى الأياة هى الهيأة وزنا ومعنى. أ.هـ.

(١٦) المستدرك على الصحيحين: للحافظ الحاكم النيسابورى، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، المجلد الثالث رقم ٤٤٥/٤٨٤٧.

(١٧) أطلقت السنة بفتح السين مع التشديد على الفصل الواحد مجازا، «المصباح المنير» للمقرى الفيومى والعامة فى مصر تقول سنة سنة بكسر السين. أ.هـ.

(١٨) سورة الأحزاب: آية ٥١.

(١٩) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ٣٤٥ وهامشها، ط أخبار اليوم مصدر سبق ذكره.

(٢٠) فى مختار الصحاح: للرازى، الأحدوثة بوزن الأعجوبة وهو ما يتحدث به والعامة فى مصر تقول: الحدوتة. أ.هـ.

(٢١) رواه البخارى فى صحيحه.

(٢٢) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول ذات الصفحة، مصدر سابق.

(٢٣) إخوتنا الفرس أو الإيرانيون يسمون المسلم المتمسك بالحرفيات والشكليات والمظاهر: مسلم أحماق أ.هـ.

(٢٤) فى المعجم الوسيط: الغندور الناعم الحسن الشباب أ.هـ.

(٢٥) الروض الأنف: للسهيلى، الأول ص ص ٢٧٨/٢٢٧، مصدر سابق.

(٢٦) فى صعيد مصر يقولون: مرة صبية أى جمعت خصال الجمال والبهاء والحسن مع صغر فى السن وفى «مختار الصحاح» للرازى يقال للجارية صبية والجمع صبايا مثل مطية ومطايا، ونضيف أن المقصود بالجارية هنا الفتاة الصغيرة أو الشابة الصغيرة لا الأمة أو العبدة أو الجارية المملوكة أ.هـ.

(٢٧) مسند الإمام أحمد: ٣٢٢/٢٩٣/٣١٦ عن أسد الغابة فى معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير الجزرى، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخر، المجلد السابع، كتاب «النساء» ص ٨٣، دون تاريخ، طبعة الشعب مصر، وسبل الرشاد فى سيرة خير العباد: للصالحى الشامى، جـ ١٢ ص٤٠، نقلاً عن «حياة الصحابيات» لحمزة النشرتى وآخرين، ص ٩، د.ت.د.ن القاهرة.

(٢٨) أسد الغابة: المجلد السابع، ص ٨٥، مصدر سبق ذكره.

(٢٩) جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير: للإمام جلال الدين السيوطى ٩١١/٨٤٩هـ، العدد السابع والعشرون من الجزء الخامس من السنن القولية، ص ٣٤١٤ - الحديث ٢٧١٦٥/٦٨٣، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر مصر.

(٣٠) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى: للإمام ابن حجر العسقلانى، والمستدرك: للحاكم النيسابورى، وقال عنه صحيح على شرط الشيخين أى البخارى ومسلم والذهبى فى التلخيص وأورده البيهقى فى شعب الإيمان - والحديث فى كنز العمال فى الفصل الثالث والديلمى وأورده السيوطى فى جمع الجوامع الكبير ص ٣٤٢١، رقم ٢١٧٧/٦٩٥ من العدد السابع والعشرين من الجزء الخامس من السنن القولية من موسوعة السنة رقم ٥ - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

الفصل الثـالث

التحديق في الهندوز

التحديق فى الهندوز

• فى البدى من هو الهندوز؟

يقال رجل هندوز: مجرب جيد النظر صحيحه، والجمع: هنادزة، ويقال هم هنادزة هذا الأمر أى علماء به[١].

وإذ يقال للريح الطيبة التى تبشر بالخير والمطر ريح نشور «لا نشورة» وللمرة التى لا تكتم السر مرة فروج «لا فروجة»[٢].

فيغدو وصف سيدة نساء الأرض بالهندوز لا الهندوزة صحيح، وهى «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى، وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب تزوجت عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وأبا هالة نباش بن زرارة من بنى أسيد بن عمرو بن تميم حليف بنى عبدالدار بن قصى»[٣].

وقد اختلف الإخباريون اختلافًا كبيرًا فى ترتيب هذين الزوجين أيهما الأول وأيهما الآخر وفى طريقة فصم عروة الزوجية وفى عدد الأولاد الذين خلفتهم من كل منهما بيد أن الذى يعنينا أن أحدهما من بنى مخزوم الفرع الذى حاز أبناؤه مالاً ممدودًا حتى إنهم فى تلك الأيام الخوالى تمتع عدد منهم بجوار يونانيات أو روميات نصرانيات وهذا أحد الأدلة على انتشار النصرانية فى مكة، وكما كان لبنى مخزوم جوار يونانيات كان لدى العباس جوار يونانيات.. «وكان هذا الرقيق الأبيض ذكورًا وإناثًا من جنسيات متعددة منهم من كان من أصل رومى.. ومنهم من أهل العراق مثل نينوى ومنهم من كان من بلاد الشام أو أقباط مصر وهم على النصرانية فى الغالب»[٤].

ولقد أخطأ محمد حسين هيكل فى «حياة محمد» عندما ذكر أن الزوجين مخزوميان.

«كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها بشىء تجعله لهم ولقد زاد فى ثروتها أنها وكانت من بنى أسد قد تزوجت مرتين فى بنى مخزوم مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى»[٥].

ونكاح أم هند للمخزومى نرجع أنه أحد أسباب ثرائها العريض.

«وخديجة من بنى أسد وهم يشكلون مفدعًا قويًا فى قبيلة قريش وأبوها خويلد بن أسد بن العزى من سادة قريش ولدت بمكة عام ٥٥٦ للميلاد الموافق ٦٨ قبل الهجرة وكان أبوها من أشراف مكة وموسريها وزاد شرفًا عندما حالف بنى عبدالدار بن قصى ثم مات فى عام الفجار»[٦].

أما ما ذهب إليه المصنفان أن خويلدًا هلك فى عام الفجار فقد طرحنا أدلة فساده.

وقد ذهبت كارين آرمسترونج أن عشيرة بنى أسد فى ذياك الوقت أقوى من بنى هاشم «عشيرة سيد الخلق».

«كانت خديجة قد تزوجت مرتين وأنجبت عددًا من الأطفال وتنتمى إلى عشيرة بنى أسد التى أصبحت فى بداية القرن السابع الميلادى أكثر قوة من بنى هاشم»[٧].

إنما الذى لا مشاحة فيه أنه بعد ظهور «مقدم عترة الله» وإعلانه الإسلام غدا بنو هاشم أكثر شرفًا من بنى أسد بل إنهم بزّوا كل بطون قريش بل كل العرب والعجم.

وقبل ذلك اشتعلت المنافسة بين العشيرتين على تسنم ذروة المجد وقمة الشرف فى مكة بأسرها.

ومن أدلة شرف بنى أسد وارتفاع مقامهم فى مكة وفى قريش أنهم حفروا بيرًا أطلقوا عليها «سُقية» قبل أن يحفر عبدالمطلب جد **«المحمود»** بئر «زمزم».

وحفر البيار علامة من علامات السؤدد وشارة تدل على الرفعة وآية تنبئ عن السمو وقيل إن بنى أسد حفروا «سقية» بعد أن حفر بنو هاشم بئرهم «بذر» كأنما يعلنون لأهل الحرم أن مقامهم محفوظ وأنهم لا يقلون عن الهواشم مكانة ورتبة[٨].

ولخويلد ذاته مواقف مشهودة تقطع بأنه أحد صناديد[٩] قريش فهو الذى تصدى لتبع حينما شرع فى قلع الحجر الأسود[١٠] من الكعبة ونقله إلى اليمن كذا ضمه وفد قريش لسيف بن ذى يزن لتهنئته بانتصاره على الحبش[١١]. بيد أنه لا يفوتنا أن نذكر أن عبدالمطلب بن هاشم جد **«المتربص»** ترأس ذلك الوفد ونفحه سيف بن ذى يزن ضعف ما منح أى عضو فى الوفد واختلى به وبشره أنه سيأتى من بين أحفاده من له مقام محمود وذكر خالد على مدى الدهر.

وعضوية الوفد تعد مكرمة لا ينالها إلا الغطاريف الجحاجح فى القبيلة لأن الوفادة على الملوك تحتاج إلى خصائص فريدة ومناقب سامية.

• • •

«خديجة كانت تسمى سيدة نساء قريش ورد ذلك فى سيرة التيمى وكانت

تسمى الطاهرة فى الجاهلية والإسلام»[١٢].

هذا ما جاء فى سيرة ابن هشام وهى أشهر دواوين السيرة ومنها استقى كل من جاء بعدها، وأن تلقب بسيدة نساء قريش فهذا مناسب نظرًا لشرفها وانتمائها لعشيرة بنى أسد القوية ولثروتها العريضة، أما تلقيبها بالطاهرة فهو ما يلفت النظر ويشحذ الذهن لمعرفة العلة الكامنة وراءه إذ إنه: لقب له عبق دينى فمريم أم عيسى يلقبها المسيحيون بـ«معدن الطهر»[١٣].

وكذلك جاء فى القرآن العظيم عن البتول أم عيسى عبدالله ورسوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ [١٤]. وفى حق ابنها: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [١٥].

ومن ثم فإن لقب الطاهرة ليس لقبًا عاديًا بل إن عليه مسحة تيولوجية ويفوح منه ريح مسك دينى ولعل مما يؤكد ذلك أن الختان فى مصر يسمى «الطهارة كأن الفتى والفتاة يتطهران بهذا العمل»[١٦]، ولا أدل على اقتران عملية الطهارة أو الختان بالدين «ولو فى معناه الشعبى أنها (الطهارة) كانت لوقت قريب تتم فى أيام الموالد ـ ويحدثنا أحمد أمين عن قبيلة سودانية رغبت فى دخول الإسلام «فكتب رئيسها إلى بعض علماء الأزهر ـ يستوضحه الإسلام وما يفعله أفراد قبيلته لدخولهم فى الإسلام فكتب إليه العالم الأزهرى قائمة بما يجب أن يعملوه فكان أولها الختان فرفضت القبيلة أن تسلم وقد كانت هذه المسألة قلة ذوق»[١٧].

بيد أن الذى يهمنا فى هذه القضية هو الاعتقاد بأن الطهور أو الطهارة طقس دينى به يتطهر من تجرى عليه عملية الختان.

ويذهب باحث أن الطهور أو الطهارة أو الختان فى مصر بالذات ليس شعيرة من شعائر التكريس أو من شعائر المرور «إنما الاعتقاد الشعبى السائد هو ضرورة إجراء هذه العملية لأن هناك التزامًا دينيًا بضرورة إجرائها»[١٨].

وهكذا بعد هذا التفريع الطويل بعض الشىء لعلنا أفلحنا فى طرح ما يقنع القارئ أن لقب الطاهرة الذى حلىّ جيد خديجة قبل الإسلام[١٩] يحمل سمات تيولوجية وقسمات دينية وبصمات عقيدية بخلاف لقبيها الآخرين سيدة نسوان قريش وسيدة قريش فهما بحسب التعبيرات الحديثة مدنيان. أما العلة الكامنة والسبب الخبىء والدافع المستتر والباعث المتوارى خلف هذا اللقب «الطاهرة» فسوف يرفع القارئ الواعى بنفسه الستار عنه كلما مضى فى القراءة سنة سنة أو فصلاً فصلاً.

ويحق لنا أن نتساءل لماذا لم يطلق على خديجة الشريفة ـ الأمينة الصادقة مع أنها تحوز هذه الصفات عن جدارة؟

لعل فى الرجوع إلى المعاجم ما يوضح لنا الأمر.

والطاهرة من النساء الخالية من الحيض وغيره .
وطهر طهارة وطهرًا: نقى من النجاسة والدنس.
والطهورية هى الطهارة البالغة.
والمطهر - عند النصارى - مكان تطهر فيه النفس بعد الموت بعذاب موقوت[٢٠].

أما الزمخشرى فإنه يلقى عليه أنوارًا كواشف دون أن يقصده على المجاز «تطهر من الإثم: تنزه عنه وطهره الله وهو طاهر الثياب تنزه من مدانس الأخلاق، والتوبة طهور للمذنب».

وعلى الحقيقة «امرأة طاهرة ونساء طواهر وطهرت من الحيض وهى ذات طهور وهن ذوات أطهار.
تطهر من الإثم: تنزه منه وطهره الله[٢١].

أما الكتبة المحدثون فإنهم ينقلون لنا الخبر دون أدنى محاولة للتحليل أو التعليل.

«خديجة.. كانت تسمى الطاهرة قبل الإسلام وبعده وقد خطبها كثير من العظماء فرفضت وقدُم لها كثير من المال فامتنعت لأنها كانت غنية»[٢٢].

«خديجة... أبوها من أشراف قريش فى الجاهلية.. وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة وتكنى بأم هند»[٢٣].

هذان المؤلفان لم يحاولا أن يعملا فكريهما بأن يتساءلا لم هذا اللقب دون غيره من الألقاب؟ «كلاهما ذكر أنه اسم فى حين أنه لقب أ.هـ».

ولعل القارئ اللقن سوف يهتدى بفطانته إلى العلة عندما يمضى فى قراءة هذا الفصل.

• • •

انتشرت النصرانية فى بنى أسد عشيرة خديجة بدرجة لم تتوافر فى عشيرة أخرى وهذا ما أطبق عليه الإخباريون وكتاب السيرة المحمدية العطرة. إن من القدامى أو المحدثين حتى غدا حقيقة مؤكدة من يقدم على إنكارها يلفى كل الأدلة تنتصب ضده ونذكر فيما يلى غيضًا من فيض أو نقطة ماء من بحر تلك المصادر والمراجع:

(وقد ذكر «ابن قتيبة الدنيورى» أن النصرانية كانت فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وقال اليعقوبى: وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بنى أسد بن عبدالعزى منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل)[٢٤].

وبذلك جمع هذا الخبر بين روايتى ابن قتيبة الدينورى واليعقوبى وهما من أصحاب الأسماء اللوامع فى هذا المجال.

ولم نكتف بما أورده جواد على رغم أنه باحث رصين ونحن نكن له تقديرًا إذ

رجعنا إلى اليعقوبى ذاته فألفيناه ينص على الآتى:

«أما من تنصر من أحياء العرب فقوم من بنى أسد بن عبدالعزى منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل»[٢٥].

وتشير كتب السيرة إلى أن شماسًا زار مكة فى الجاهلية وكان يعيش فى مر الظهران راهب مسيحى كما كان فى مكة نساء نصرانيات تزوجهن أهل مكة[٢٦].

والسؤال الذى ينتصب فى الذهن فور قراءة هذا الخبر: هل تزوج رجال من بنى أسد بعضًا من تلك النسون النصرانيات ومن هنا فشت النصرانية فيهم وبعبارة أخرى يمكن أن نعزو انتشار النصرانية فيهم لهذا العامل أو على الأقل هو أحد العوامل؟

ومما يرسخ حقيقة فشو النصرانية فى رهط بنى أسد اعتناق عدد من الأسديين لها وتبحرهم فيها وتضلعهم من كتبها حتى إنهم حازوا فيها ألقابًا نصرانية عالية لا يحصل عليها إلا من بلغ فيها درجة من التعمق رفيعة المقام منهم ورقة بن نوفل ابن عم أم هند والذى كان مرشحًا لنكاحها كما سوف نورد فيما بعد والذى لعب دورًا شديد الخطورة فى متابعة «التجربة».

• • •

وهناك كاتب من المحدثين يذهب إلى فرسخة[٢٧] النصرانية فى أنحاء شتى من الجزيرة العربية.

«كذلك عرفت النصرانية فى مدن الحجاز التجارية إذ كان سكان هذه المدن على اتصال وثيق بالشام ونعلم أن بعض القرشيين قد تنصر مثل عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل، وكان بيثرب وبالبحرين نصارى أيضا كما كانوا فى كثير من الأماكن الأخرى من جزيرة العرب»[٢٨]. ثم يعود إلى تأكيد انتشار النصرانية ولكنه يضيف إليها اليهودية ثم وسع دائرة البسط والفرطحة فجعلها تشمل بلاد العرب بكاملها.

ثم «إنه لا ينبغى أن ننسى أن النصرانية واليهودية كانتا قد انتشرتا فى بلاد العرب، وكانت قبائل عربية قد اعتنقتهما فما حاربها أحد ولا عارضها معارض فضلاً عن أنه كان يوجد بمكة مبشرون بالمسيحية بل لقد كان من أهل مكة ومن بنى عبد مناف ذاتهم رجل حكيم عاقل فاضل تنصر، هو ورقة بن نوفل فما عارضه أحد وما اضطهده أحد وما أجبره أحد على الارتداد عن دين الآباء والأجداد»[٢٩].

بيد أن جلالاً أخطأ فى أمرين:

الأول: أنه نسب العاقل الفاضل المتنصر ورقة إلى بنى عبد مناف بينما هو من بنى أسد.

الآخر: فى قوله «إنه كان يوجد بمكة من يبشرون بالمسيحية» وهذا شطط

فإنهم بشروا بالنصرانية وهناك فرق واسع بينهما ونلفت الانتباه إلى أن القرآن العظيم ذكر النصارى ولم يذكر المسيحيين.

ولقد لاحظنا أن كثيرًا ممن كتبوا فى السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحًا من العود الصنفى خانهم التوفيق ولم يتحروا الدقة فى كتاباتهم «أما ورقة بن نوفل فدخل النصرانية وقيل إنه نقل إلى العربية ما فى الأناجيل أما عثمان بن الحويرث وكان من ذوى قرابة خديجة فذهب إلى بيزنطة وتنصر وحسنت مكانته عند قيصر ملك الروم»(٣٠).

أما هذا الخبر فقد جاء فى «**السيرة النبوية**» لابن كثير وفى كتاب «**حياة محمد**» لهيكل. وأولهما يعد فى مقدمة الكتب التراثية فى السيرة والآخر له مكان متميز فى مؤلفات المحدثين.

«أما ورقة فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب...

وأما عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى فقدم على قيصر الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده»(٣١).

والأثر حملته إلينا سيرة ابن هشام وسبق أن أوضحنا مكانتها السامية، أما كتاب محمد رضا فهو من ضمن المؤلفات الحديثة التى نالت القبول والتقدير.

ونكتفى بهذين الخبرين لأن القس ورقة بن نوفل سنفرد له فاصلة مستقلة ونأمل أن نوفيه حقه لذاته ولما قام به من دور متميز فى إنجاح التجربة.

• • •

هناك ابن عم آخر لسيدة نساء قريش توغل فى النصرانية وعب من علومها الشىء الكثير حتى منحته دوائرها المتنفذة لقب البطريق الذى هو بذاته يشى بعلو كعب حائزه، ذلكم هو عثمان بن الحويرث بن أسد(٣٢). والخبر القادم فى كتاب فى النسب ولو أنه لاحق لكتاب المصعب الزبيرى إلا أن مؤلفه من النجوم اللامعة فى سماء العلوم الإسلامية وله باع طويل فى عدد منها.

«وكان قد تنصر من قريش نفر يسير وهم: شيبة بن ربيعة بن عبدالشمس وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى بن قصى وابن عم له: ورقة بن نوفل بن أسد ولا عقب للحويرث ولا ورقة»(٣٣).

ويؤكد لنا السهيلى فى روضه الأنف وصول عثمان بن الحويرث إلى مرتبة «البطريق».

وكان يقال لعثمان بن الحويرث «البطريق»(٣٤).

ومن المحدثين من ذهب إلى رجحان كفة النصرانية على اليهودية: «بعض رجال مكة تبرموا بالوثنية وخرجوا عليها وتنصروا أمثال: ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، وقد كان أثر النصرانية فى مكة أكثر من اليهودية»(٣٥).

ثم يبدأ د. حسين مؤنس فى إطلاعنا على أول الخيط المؤدى إلى النهاية المأساوية التى لقيها عثمان بن الحويرث.

«وقد تنصر رجل آخر من قريش وهو عثمان بن الحويرث الذى حاول الدعوة للمسيحية فى مكة وربط دعوته إلى دعوة الروم»[٣٦].

ذلك أن البطريق لم يكتف بالرتبة الدينية التى تحصل عليها بل أراد أن يمزج الديانة بالسياسة وهذا داء قديم بأن يصبح ملكًا على قرية القداسة بكة ويجعل الحجاز ولاية رومانية.

وهذا يدل على أنه من ذوى الطموح بعكس ابن عمه ورقة الذى اكتفى باللقب الدينى «القس».

ولا يفوتنا أن ننوه إلى خطأ حسين مؤنس أن عثمان بن الحويرث حاول الدعوة إلى المسيحية وأن المرء ليعجب كيف أن كاتبًا فى قامة مؤنس لا يفرق بين المسيحية والنصرانية التى عرفها واعتنقها ابن الحويرث وابن نوفل وأضرابهما - وبعد هذه الملحوظة الضرورية نرجع إلى السرد.

وقد أثار هذا الأمر طائفتين: القرشيين أشراف مكة الذين أبوا على ابن الحويرث ذلك وثاروا فى وجهه وصاحوا أن مكة لقاح لا تملك ولا تملك:

«وأما عثمان بن الحويرث فقد بقى مغاضبًا قومه فى دينهم ثم رأى الذهاب إلى الروم وتقرب إلى قيصر وحسنت منزلته عنده وتنصر ومنح لقب بطريق وأراد تنصيبه ملكًا عليهم ولكن قومه أبوا عليه ذلك.. وفى رواية أخرى أنه خرج إلى قيصر فسأله أن يملكه على قريش وقال احملهم على دينك فيدخلوا فى طاعتك ففعل»[٣٧].

أما الطائفة الأخرى التى نقمت عليه هذا المسعى وهو تحويل الحجاز إلى ولاية رومانية فهم الغساسنة الذين خشوا على أنفسهم منافسته لهم فى المكانة لدى قيصر الروم فسعوا إلى قتله - ولو أن ختام حياته الدامى اختلف عليه الإخباريون إذ ترى محمد حسين هيكل يطرح سببًا آخر لقتله حيث يقول «فطرده المكيون فاحتمى بالغساسنة وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة فوصلت إلى الغساسنة هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسمومًا»[٣٨].

وقد نقل هيكل هذا الخبر من مصادر تراثية دون أن يشير إليها منها «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم الأندلسى:

«ولد الحويرث بن أسد بن عبدالعزى: عثمان بن الحويرث أراد التملك على قريش من قبل قيصر فامتنعت قريش من ذلك فرجع إلى الشام وسجن من وجد بها من قريش ومن جملتهم أبو أحيحة سعيد بن العاص فدست قريش إلى ابن الغسانى فسم عثمان الحويرث فمات بالشام ولا عقب له. وكان قد تنصر»[٣٩].

وتحقيق هذا الشأن يند عن صلب الموضوع إنما الذى يعنينا هو أن عثمان بن

الحويرث أحد بنى أسد تنصر وحسنت نصرانيته وارتقى فيها حتى حاز رتبة منيفة والأهم من ذلك أنه سعى لنشر النصرانية فى أحياء بكة مما يجعلنا نرجّح أنه بدأ بعشيرته بنى أسد ورهطه الأدنين بنى عمومته وأنه نجح فى ذلك بدرجة أو أخرى حتى إن الإخباريين وأصحاب السير عدوا بطن بنى أسد من البطون أو الأفخاذ أو حتى القبائل التى فشت فيها النصرانية مثل: غسطان وتميم وقضاعة وربيعة.

● ● ●

ولم يقتصر اعتناق بنى أسد على الرجال بل تعداهم إلى النسون وهذا ملحظ شديد الأهمية.

فهناك ثالث أو ثالثة أبناء عم الطاهرة الذين يتنصرون وهى قتيلة أو أم قتال، وقيل فاطمة بنت نوفل أى أخت ورقة وهى واحدة من المرتين اللتين تعرضتا لأبى محمد: عبدالله بن عبدالمطلب وهو فى طريقه مع أبيه كيما ينكح آمنة بنت وهب الزهرية بأن يفاخز كلا منهما بعد أن رأتا بين عينيه نور النبوة وله مائة من الإبل لا عن ريبة أو عُهورة فيهما ولكن عن عفة بقصد أن تفوز إحداهما بنور النبوة وتغدو أم القادم المنتظر.

وهذه الأحدوثة لا يكاد يخلو منها كتاب من السيرة المحمدية الزكية كما المسك ونكتفى بما أورده البلاذرى فى أنساب الأشراف برواية نقلها عن الواقدى: «وقال الواقدى: المرأة التى قالت لعبدالله ما قالت هى قتيلة بنت نوفل من أسد بن العزى أخت ورقة بن نوفل وكانت تنظر فى الكتب»(٤٠).

وبالإضافة إلى ما يحظى به البلاذرى وكتابه الأنساب من تقدير فهناك سبب آخر وراء إيرادنا لخبره هو أنه ذكر فيه أن بنت نوفل كانت تقرأ الكتب إذ إننا سوف نتخذ من معرفتها للقراءة والكتابة قرينة أو دليلاً لإثبات أن سيدة نسون قريش كانت تعرفها «القراءة والكتابة».

وهناك أخبار تنص على أن قتيلة أو أم قتال بنت «أخت» ورقة ذكرت أن ما دفعها لعرض نفسها على عبدالله بن عبدالمطلب ليباطنها وتعطيه مائة من الإبل أنها سمعت من أخيها القس ورقة بقرب ظهور القادم المنتظر وأنها بما أنها تعتاف وتقرأ الكتب توسمت النور فى جبينه بيد أنه لما خالط زوجه آمنة انتقل إليها ذياك النور وهنأتها بحيازتها له وبشرتها بحملها للقادم المبارك.

● ● ●

وهكذا نشأت الطاهرة فى فرع تغلغلت فيه النصرانية وهو «أسد» وبين أقربائها الأقربين بنى عمومتها الذين تنصروا بل تبحروا فى ديانة ابن مريم لدرجة أنهم فازوا فيها بدرجات سامقة فأحدهما «بطريق» والآخر «قس» (قد تقدم لخطبتها بيد أنه لم يتوفق له ذلك) والثالثة «متكهنة» أو معتافة قرأت

الكتب وحازت قدرًا من الفراسة به حدست فى عبدالله أنه أبو القادم الذى طال شوق العليمين ببواطن الأمور إليه.

ونحن ندع القارئ الفطن لكى ينقه(٤١) دلالة ذلك وكيما يدرك مدى تأثير الوسط على الناشئ الذى ينشأ فيه(٤٢).

ولا ندرى على وجه التحقيق هل هو مصادفة أم تدبير وهل هو خبط عشواء(٤٣) أم تخطيط محكم وقصد سابق أن تقدم أم هند بعد أن غدت صاحبة تجارة عريضة ومال وفير وغنى ممدود على شراء الأعبد النصارى وتشغيلهم فى أعمالها عيونًا على الرجال الذين تستأجرهم ليتاجروا بمالها لقاء جُعل معلوم وذلك لشدة ثقتها فى أولئك العبدان النصارى أو النصارى العبيد. وقد حفظت لنا دواوين سيرة **«الحيى»** التى هى أسنى من ذكاء «ضم الذاء»(٤٤) اسم اثنين من أولئك المماليك النصارى أولهما يسمى ناصح ومع التنقير والبحث والتدقيق عثرنا له على خبر مفرد فحسب.

«قالت خديجة لمحمد: قد أخبرنى به ناصح غلامى وبحيرى الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»(٤٥).

وغلامى هنا تعنى عبدى ومملوكى لأنه لم يوجد للسيدة الطاهرة ولد باسم ناصح لا من زوجيها السابقين ولا من **«البهى»**(٤٦) والخبر قرن ناصحًا عبد خديجة ببحيرى مما يقطع بعلو كعبه فى النصرانية إذ شارك الراهب بحيرى الذى نرجّح أنه المسئول عن أبرشية الحجاز «وفيه مكة» فى المشورة بضرورة أن تنكح **«الأعز.الأعظم»**.

● ● ●

أما الغلام أو العبد الآخر فهو ميسرة فله ذكر مفرطح(٤٧).

فى كتب سيرة **«صاحب الدعوة المستجابة»** التى هى أطيب من زعفران ثمّ فهو الذى خصصته سيدة قريش لخدمته **«الشاهد الداعى»** فى رحلته إلى الشام كذلك سفر هذا المملوك بينهما فى مسألة الزواج كما أسلفنا. أما المعجزات التى رآها هذا العبد فى تلك السفرة فموضعها فى فصل المعجزات إنما الذى يهمنا هنا هو ما يقطع بنصرانية ميسرة.

«وأنا رجل نصرانى كما تعلمين يا سيدتى أحب الرهبان وأكبر الأحبار. ميسرة» (٤٨).

فهنا يؤكد د. طه حسين أن العبد ميسرة من النصارى بل وعلى وشيجة حميمة بالرهبان والأحبار والبطارقة الذين يقطنون أطراف الشام والذين سوف نثبت أنهم من الفرقة التى باينت تبع شاؤول «بولس» حين خريق(٤٩) النصرانية بتأليه ابن مريم وأمه.

وتنصر هذا المملوك يتضح فى كافة المؤلفات التى تناولت سفره «الصحيح»

فى تجارة سيدة نسون الدنيا ومعه ميسرة وهذا خبر سريع لتأكيد ما ذهبنا إليه من نصرانية العبد المملوك ميسرة.

«قال ميسرة لخديجة: إن هذا الغيم - الذى يظل محمدًا - لم يتخلف عن مرافقتنا منذ أن غادرنا مكة إلى أن عدنا إليها ومنذ أن تركنا بصرى وقد عرفنى رهبان حوارن العلماء من هو محمد فعرفت أن هذا الغيم ليس إلا أجنحة ملكين مكلفين بوقاية سيدى من قيظ الشمس المهلك»(٥٠). فهنا يصرح الغلام ميسرة أنه على علاقة خاصة برهبان حوران وعلمائها الذين أخبروه من هو «الصفىّ» عندما أحاطهم علمًا بالمعجزات التى لمسها بيديه ورآها بعينيه إبان سفره معه.

● ● ●

إذن خديجة من عشيرة قرشية فشت فيها النصرانية من دون أبطن القبيلة ومن فرع داخلته ديانة المسيح فأعتنقها ثلاثة أفراد من بنى عمومتها وتعمقوا فيها حتى حازوا فيها ألقابًا باذخة، وليس هذا فحسب بل إن خاصة عبدانها وأقرب وليجتها(٥١) وألصق بطانتها بها (٥٢) نصارى وهذه المعارف جميعها مستقاة وموثقة من كتب السيرة المحمدية الكريمة ذات الرائحة التى هى أطيب من عنبر الشحر(٥٣) وهى «=المعارف» من دون أدى ريب تعنى الكثير الذى لا يند عن فطانة القارئ اللبيب.

● ● ●

أطبقت كتب السيرة المحمدية المنيفة على بكرة أبيها دون استثناء تراثية أو حديثة على أن السيدة خديجة فى زمانها من أغنى أغنياء مكة إن لم تعد أغناهم ومن الأدلة التى تطرح على ذلك أن قافلتى قريش اللتين تخرجان من مكة فى رحلتى الشتاء والصيف شطراهما للطاهرة بمفردها والشطران الأخران لسائر تجار قريش وسبق أن قدمنا الأخبار التى تؤكد ذلك ولكى يأخذ القارئ فكرة سريعة عن مدى الثراء العريض لسيدة قريش نذكر له أن القافلة التى أفلتت من المسلمين الذين خرجوا للقائها وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب وأعقبتها غزاة بدر الكبرى بلغت عدة البعير الذى يحمل العروض ألف جمل ودلالة ذلك أن سيدة نساء الدنيا وحدها تملكت خمسمائة بعير بما عليها من بضائع أو نحوها أو ربما أقل قليلاً.

«قالت خديجة: ولئن كنت كثيرة المال ضخمة الثروة»(٥٤).

هذه مجموعة من المصادر والمراجع التى تؤكد الثراء العريض والغنى الوسيع والأموال الطائلة التى احتازتها الطاهرة والتى رصدتها لإنجاح التجربة فهى فرغت «**الظاهر**» تمامًا وأخلت ذهنه البتة من هم الرزق كيما لا يشغله شاغل من أى نوع يعوق نجاح التجربة التى رشحته لها ليتحقق حلمها بأن يغدو القادم

المنتظر، وقد قرأنا فيما سبق ما قاله «**المنصور بالرعب قرابة شهر**» أنه بعد زواجه منها أكل الخمير ولبس الحرير.

بيد أنه ما هى العمالة التى مارسها إبان فترة التفرغ أو حقبة التأسيس وهى مدة متوارية فى الظل فى كل كتب السيرة لا تجد عنها خبرًا. فبعد أن نكحته خديجة وذكرت المؤلفات وقائع الزواج قفزت مباشرة إلى حادث الغار إذن ما هى أعماله أو ممارساته أو أنشطته إبانها؟ لقد تفرغ أو بمعنى أوضح فرغته الطاهرة للتجربة ففى النهار يمشى فى الأسواق يقابل ويحادث ويحاور أصحاب مختلف العقائد والملل والنحل الذين ماجت آنذاك بهم قرية القداسة من يهود ونصارى وأحناف وصابئة ومجوس وغنوصية.. إلخ، ولا يفوته حضور الأسواق التى تنصب أو تقام فى مواعيد معروفة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز ويسمع خطبهم ومحاوراتهم وأشعارهم فيها وقد حفظت لنا كتب السيرة سؤاله وفد إياد عن مصير قس بن ساعدة الأيادى والذى قال إنه سمع خطبه فى عكاظ وغيرها وسألهم عمن يحفظ منهما شيئًا فاستجاب له أحد أعضاء الوفد وأسمعه إحداها.

«وقال قس بن ساعدة فى خطبته التى حكاها عنه النبى ﷺ يا أيها الناس اسمعوا وعوا»[٥٥].

والنص هو افتتاح خطبته بعكاظ التى رويت للنبى فقال فيه: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٥٦]. واستماع «الفضل العظيم عليه من ربه» لقس بن ساعدة أمر ثابت فى العديد من كتب التراث، والخبر الذى أوردناه واحد منها وهو من أدلة الثبوت على أنه «**سيد أهل الله**» كان دائم التجوال فى الأسواق للاستماع لعلماء مختلف النحل والملل والعقائد ومحاورتهم والاستفسار منهم «وهذا أحد طقوس التجربة الكبرى» إذ إن محمدًا آنذاك قد طلق التجارة فلا تفسير لحضوره الأسواق إلا لذلك هذا بالنهار.

أما بالمساء وفى ليل مكة الطويل شتاءً فمع الطاهرة بمفردهما أحيانًا وبحضور القس أحيانًا أخرى تتم فى تلك القعدات مذاكرة الإصحاحات التى نقلها ورقة من اللسان العبرانى إلى اللسان العربى إما بتلقيها منه مباشرة ثم إدارة الحوار بشأنها، وإما بتلقيها من الأم الرؤوم والزوجة الحنون خديجة التى لاشك أنها أجادت القراءة والكتابة «وسوف يصبح ذلك مادة للفقرة القادمة» وقرأت تلك الإصحاحات وخزنتها فى ذاكرتها أو أنها طفقت تقرأها له مباشرة.

وكل هذا: ما يدور بالنهار فى الأسواق والحوانيت والأعياد والمواسم وما يتم سماعه من القس ورقة وخديجة من الإصحاحات التى عربها القس فى الليالى الطوال وما يعقبها من شروح وإيضاحات وحوارات بالجلسات التى قد تستمر حتى بزوغ الفجر، نقول كل هذا يجرى تخزينه وبرمجته فى ذاكرة العبقرى الذى

لم تر جزيرة العرب له مثيلاً ولم تشهد له ضريبًا ولم تعاين له شبيهاً أو نداً.

خاصة وقد آمنا أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب والأمى أى أمى يتمتع بذاكرة حديدية وحافظة واعية أشد الوعى فما بالك إذا اجتمعت الأمية والعبقرية الفاذة فى شخص وسوف نورد فيما يستجد أمثلة معجبة على القدرة على الحفظ.

• • •

والذى يمارى فى أن سيدة قرش رصدت ثراءها الممدود وأوقفته على إنجاح التجربة نتحفه بالخبر الآتى:

«ويروى أنه ﷺ دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك قال: الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحيى منك وإن أنا لم أبذل أخاف الله ـ فدعت قريشًا ومنهم الصديق، فقال الصديق: فأخرجت دنانير حتى صبتها وبلغت مبلغًا لم يقع بصرى على من كان جالسًا قدامى ثم قالت اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه»(٥٧).

والذى أورد الخبر القمىّ النيسابورى من أعلام مفسرى القرآن الكريم وكتابه أو موسوعته **«غرائب القرآن»** من أميز كتب التفسير ويحظى بالقبول والتقدير.

والخبر فى ذاته ليس فى حاجة إلى توضيح فإذا أحضرت الطاهرة لـ«الحلاحل ـ الشجاع» جزءًا من مالها ذكر ابن أبى قحافة أنه بلغ من الضخامة أنه حجب عنه الجالس أمامه فكم تبلغ ثروتها مع ملاحظة أن تلك «الصبة» من دنانير لا من دراهم(٥٨).

كما أن سيدة نسوان قريش فوضت زوجها الحبيب فى إنفاق المال كيفما أراد «إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه» وهنا ينتصب سؤال فى ذهن القارئ وهو: لم فعلت خديجة ذلك؟

هى فعلت ذلك وأمثاله كيما يتجه **«المنتدب»** بالكلية لموجبات التجربة الخطيرة ولا يصرفه عنها صارف حتى يكتب لها الفلج وهو ما حدث ونجحت التجربة نجاحًا فاق كل التوقعات.

• • •

ومن الأدلة التى نسوقها على اتساع ثروة أم هند أنها عند زواج ابنتها زينب من أبى العاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبد شمس أهدتها دارًا وبوفاتها انتقلت ملكيتها إلى زوجها المذكور ومنه إلى ورثته ثم بيعت من أحدهم بثمانين ألف دينار فالتى تهدى دارًا هذا ثمنها فكم بلغت ثروتها.

«الدار التى صارت لجعفر بن خالد بن برمك بفوهة أجياد الكبير عمّرها جعفر بن يحيى بالحجر المنقوش بثمانين ألف دينار وكانت هذه الدار لأبى

العاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبد شمس زوج زينب بنت النبى ﷺ وفيها ابتنى بزينب ابنة رسول الله ﷺ أهدتها إليها أمها خديجة...»(٥٩).

ومما هو جدير بالذكر أن أبا العاص هذا كان يلقب بالأمين.

كذلك نفحت ابنتها المذكورة قلادة وعندما أسر زوجها أبو العاص فى غزاة بدر الكبرى بعثت بها «=بالقلادة» فداء له من الأسر فلما رآها **«صاحب الشفاعة الكبرى»** رق لها فألح إلى تبعه أن يطلقوا إليها زوجها ويردوا لها القلادة فعلى الفور لا على التراخى نفذوا إشارته، وقد رق لها لأنها ذكرته بأيامه العزيزة عليه مع الأم الرؤوم والبعلة الحنون. وفى ذلك الزمن فإن الأم التى تمنح ابنتها عند نكاحها دارًا وقلادة لابد أن تبلغ درجة من الثراء وفيرة.

وهكذا تتراكم الأدلة على أن سيدة نساء الدنيا وصلت فى الغنى إلى درجة غير عادية وفى الثراء إلى رتبة عالية وفى الملاء إلى مستوى غير مسبوق لا فى مجتمعها فحسب بل وفى غيره من المجتمعات حتى إننا من الميسور علينا أن نطلق عليها «مليونيرة».

• • •

هذه السيدة العظيمة ذات الصفات البواهر والخصائص الممتازة والمناقب الحميدة والتى أجمعت دواوين السيرة المحمدية ذات الريح الذى هو أطيب من العنبر الأصهب على أنها حازمة لبيبة برزة(٦٠).

والتى أنجبها «=خديجة» والد من غطاريف قريش أسمى قبائل الحجاز بل والجزيرة العربية بأجمعها.

خديجة التى انتمت إلى أسد أو بنى أسد أحد الأبطن العالية فى قريش والتى تملك تجارة وسيعة والتى تستأجر الرجال يعملون لديها. من المستحيل عقلاً أن تظل أمية تجهل القراءة والكتابة بل كل الشواهد تقطع بعكس ذلك وتثبت نقيضه، وهذه بعض البراهين التى تؤكد معرفتها التامة للقراءة والكتابة:

١- كيف تسنى للطاهرة أن تدير تلك التجارة العريضة وتحاسب الرجال الذين تستخدمهم وكيف تزدهر «تلك التجارة» حتى تصل إلى نصف قافلة قريش والقافلة تسافر مرتين فى العام مرة فى الصيف وأخرى فى الشتاء، وقد سطرنا فيما سبق أن القافلة تضم ألف جمل أى أن أم هند لها فيها «فى القافلة» خمسمائة جمل، نقول كيف تسنى لها ذلك لو أنها أمية لا تعرف الكتابة والقراءة إلا أمانى؟

٢- كيف يستسيغ العقل أن قتيلة أو أم قتال أو فاطمة بنت نوفل وأخت ورقة إحدى المرَّتين اللتين تعرضتا لأبى محمد ليعتليهما أو ليعتلى كلا منهما على حدة نقول كيف يستسيغ أن هذه المرَة - وهى بنت عم الطاهرة - تعرف القراءة والكتابة فى حين أن خديجة وهى أعلى منها مرتبة وأرفع مقامًا

وأسنى درجة فى كل ناحية تجهل القراءة والكتابة؟

٣ـ كذلك المَرَة الأخرى فاطمة الخثعمية التى طلبت من عبدالله بن عبدالمطلب أن يأخذها وأغرته بجمالها الفائق وحسنها الباهر ومحياها الطلق وملاحتها الظاهرة حتى إن فتيان قريش تعودوا على التحلق حولها والاجتماع بها ليتملوا من بهائها ووضاءتها ـ وأغوته كذلك بنفحه مائة من الإبل إن ركب عليها وجامعها ـ هذه المرأة كانت تقرأ الكتب.

فأنى يدخل العقل أن هذه الخثعمية التى تتكسب من العيافة والكهانة.. إلخ تقرأ وتكتب وسيدة نساء الأرض تجهلها.

«انطلق عبدالمطلب بابنه عبدالله ماضيًا إلى بنى زهرة مَرّ بامرأة من خثعم يقال لها فاطمة، وكان فتيان قريش يتحدثون إليها وكانت عفيفة ويقال إنها كانت من بنى أسد بن خزيمة وكانت تعتاف وتقرأ الكتب»[٦١].

ولقد تأكد هذا الخبر من مؤلفات أخرى فى السيرة المحمدية المعطّر نقتصر على ثلاث منها:

«مر به على امرأة كاهنة من أهل تبالة «بلدة باليمن» قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية..»[٦٢].

«عن الكلبى عن أبى الفياض الخثعمى قال: مرّ عبدالله بن عبدالمطلب بامرأة من خثعم يقال لها فاطمة بنت عمرو وكانت من أجمل الناس وأشبهم ـ أشبهم بتشديد الباء أكثرهم شبابًا وقوة ـ وأعقه وكانت قد قرأت الكتب...»[٦٣].

والأخير فى الوفا بأحوال المصطفى: «لما خرج عبدالمطلب بعبدالله ليزوجه مَرّ به على كاهنة يقال لها فاطمة بنت مُرّ من أهل تبالة قد قرأت الكتب...»[٦٤].

٤ـ حازت خديجة لقبين لم تحظ بهما واحدة من قريش قبلها أو بعدها، أولهما سيدة قريش، وآخرهما سيدة نسون قريش فهل يجوز أن تتسيد نسوة قريش ورجال قريش جميعهم أمية لا تعرف القراءة والكتابة؟

٥ـ عند تعرض **«صفوة بنى قصى»** لأحدوثة غار حراء[٦٥]، والتى أخبر عنها وهو الصادق المصدوق أن ملاك الرب جبرائيل ظهر له فى غار حراء وغدا وقعها على نفسه شديدًا ورجع إلى الطاهرة ترجف بوادره وقد اعتبرتها هى ختم التصديق على نجاح التجربة وأن مساعيها كللت بالنجاح الباهر أرادت أن تتأكد وتستوثق من حدسها فتوجهت إلى ابن عمها ورقة ثم إلى عدّاس «وهو راهب» وقصت عليهما تفاصيل الحادثة فبشراها بفلج التجربة التى ظلت تحمل على كاهلها موجباتها والتزاماتها من كافة النواحى البدنية والمالية ما يقرب من عشرين عامًا وسوف تأتى دقائقها فى باب «التجربة» ولكن لم يواتها الحظ بوجود الضلع الثالث وهو بحيرى الراهب فى مكة حتى تخبره ثم تزداد وثوقًا منه لأنه سافر إلى الشام «بُصرى مركزه الدائم» فاضطرت سيدة نسون قريش

إلى الكتابة إليه وقد ورد هذا الأثر بأكثر من مصدر.

«ذكر ابن دحية أنه ﷺ لما أخبر خديجة بجبريل ولم تكن سمعت به قط كتبت إلى بحيرى الراهب فسألته عن جبريل فقال لها: قدوس قدوس يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم»(٦٦).

«وفى رواية أنها ركبت لبحيرى بالشام فسألته عن جبريل فقال لها: يا سيدة قريش أنى لك بهذا الاسم... إلخ»(٦٧).

ولعل ما جاء فى الخبر أنها ركبت إلى بحيرى وقع فيه تصحيف والصحيح أنها كتبت إليه، وسواء هذه أو تلك فهذا الخبر يقطع بانتصاب علاقة حميمة بين سيدة نسوة الدنيا وبين الراهب بحيرى.

وممن ذكرها الإمام العدل سليمان التيمى فى سيره.

«ومن أمثلة ذلك أيضًا ما ورد فى «السيرة الحلبية» من أن ما يسمى بالإمام العدل سليمان التيمى ذكر فى سيره أن السيدة خديجة رضى الله عنها عندما قص عليها محمد خبر الغار ركبت إلى بحيرى الراهب فى الشام...»(٦٨).

وهنا نجد الدكتور حسين مؤنس يسخر من الإمام التيمى ويتهكم عليه لأنه ذكر خبرًا «وهو الركوب أو الكتابة إلى شماس مكة الذى سافر وقتها للشام كيما تتأكد منه عن واقعة الغار أ.هـ» لا يرضى هو عنه وهو منهج يناقض العلمية وينافى الموضوعية ويجافى الأصول المتعارف عليها فى البحث التاريخى والإمام التيمى الذى هزئ به د. مؤنس هو أحد مصادر ابن هشام عند كتابته السيرة المحمدية التى هى أطيب من مسك ثبّت»(٦٩).

وسيرة ابن هشام عمدة دواوين السيرة المحمدية ومن ثم فلا يتصور أن يعوج صاحبها إلى مصادر مهزولة أو عجفاء أو ضامرة.

ونحن نطلب من القارئ الرجوع إلى سيرة ابن هشام بتحقيق السرجانى المجلد الأول (ص١٩٢) ليستوثق بنفسه من مدى احترام مؤلفها للإمام التيمى ومن ثم يدرك خطأ د. مؤنس فى هجومه عليه، وابن هشام ليس هو الوحيد الذى آب إلى الإمام التيمى بل فعل ذلك السهيلى أحد أكابر شراح سيرة ابن هشام وهو مؤلف موسوعى مدقق وشرحه المسمى بـ«الروض الأنف» من أقيم المؤلفات التى كتبت فى نطاق السيرة المحمدية التى هى أجمل من ريح بنفسج الكوفة ـ ومن أكثرها عمقًا ونفاسة.

ومثله لو أنه رأى فى الإمام التيمى ركركة(٧٠). أو فهّة(٧١) أو يأتى بعضيهة(٧٢) لما أقدم على الاستشهاد بما ورد فى سيره:

«خديجة تسمى الطاهرة فى الجاهلية والإسلام وفى سير التيمى أنها كانت تسمى سيدة نساء قريش وأن النبى لله حين أخبرها عن جبريل ولم تكن سمعت باسمه قط ركبت إلى بحيرى الراهب واسمه سرجس فيما ذكر المسعودى

فسألته عن جبريل فقال قدوس قدوس»[٧٣].

ثم نذكر القارئ بالخبر الذى نقلناه منذ سطور والذى جاء فى «فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى» وأورد المعلومة ذاتها، وبذا ثبت أن نقد د. حسين مؤنس للإمام العدل وتهكمه عليه لأنه أثبت فى سيره الأثر ذاته ليس فى محله وجانبه الصواب فيه.

إن مؤنسًا مؤرخ له باع بيد أن بضاعته فى «الإسلاميات» وشلة «قليلة» وقد سبق لنا أن لفتنا نظر الكتّاب المحدثين خاصة الذى ركبوا الموجة الإسلامية «على كبر» أن يتضلعوا من العلوم الإسلامية قبل أن يقدموا على الكتابة فيها.

ثم نعود بعدها إلى سياقه فنقول: إن من المستحيل أن تكتب خديجة إلى بحيرى وهى أمية!!

٦ـ وجدت فى قريش نسون أجدن ـ لا عرفن فحسب القراءة والكتاب ـ منهن: «الشفاء بنت عبدالله القرشية... أسلمت قبل الفتح وبايعت رسول الله ﷺ عن صالح بن كيسان.. أن رجلاً من الأنصار خرجت به نملة فدلّ على الشفاء بنت عبدالله ترقى من النملة فجاءها فسألها أن ترقيه فقالت: والله ما رقيت منذ أسلمت فذهب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذى قالت الشفاء فدعا رسول الله ﷺ الشفاء فقال: اعرضى علىّ فعرضتها عليه فقال: أرقيه وعلميها حفصة كما علمتها الكتاب. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»[٧٤].

هذا الخبر يضم حديثًا لـ**«أفصح العرب»** محمد وحمله إلينا الحاكم النيسابورى فى كتابه «المستدرك» وهو إن لا يعد من كتب الصحاح إلا أنه يتمتع بسمعة طيبة مثل عود الهند بين أهل السنة والجماعة ـ فإذن لا مطعن عليه ولا مغمز فيه.

ولنقارن بين سيدة قريش على بكرة أبيها وبين الشفاء الراقية. فسوف نلقى «نجد» ألا وجه للمقارنة إذ كيف تغدو الأخيرة قارئة كاتبة بل تعلم الأميين والأميات القراءة والكتابة إذ فى طيات الخبر أن **«مقدم عترة الله»** أمرها أن تعلّم إحدى زوجاته التسع: حفصة بنت العدوى عمر بن الخطاب القراءة والكتابة والأولى «الطاهرة أم هند» أمية؟

أين مقام خديجة من موضع الشفاء بنت عبدالله؟

فسيدة نساء الدنيا أسدية «من بنى أسد» أحد فروع قريش الرفيعة المقام والشفاء الراقية عدوية من بنى عدى وهو فرع هزيل أزعر بين الزعارة[٧٥].

وكيف تتفوق «=الشفاء» على سيدة نسون قريش «وهى منهن»؟ أى منطق يجيز وقوع مثل هذا السخف؟ بأن يعلو المسود على السيد وأن يرتفع التابع على المتبوع وأن يتقدم المقود على قائده!

وهناك نسوة أخريات فى قريش كن يعرفن القراءة والكتابة منهن أم كلثوم

بنت عقبة بن أبى معيط وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد.

ولا توجد بين هاته النسوة من تصل قامتها إلى ركبة الطاهرة إذن كيف يجوز، أن المفضول يتفوق على الفاضل والراجح تشيل كفته على كفة المرجوح والمصلى(٧٦) يسبق المجلّى(٧٧).

٧ـ من جماع ما تقدم ثبت بيقين أن السيدة خديجة من ذروة الحامة(٧٨).

ومن أعلى سنام النخبة فى قريش وقريش لا تضارعها قبيلة فى المكانة ولا تباريها عشيرة فى المقام ولا تدانيها جماعة فى الدرجة لا فى الحجاز بل فى شبه الجزيرة العربية بأسرها ومكة موطنها فى ذلك الإبان تمتعت بازدهار تجارتها بخلاف موقعها الفريد وصلات سمادعها(٧٩). بكل حكام الحوار ـ الروم والفرس وبالتالى تابعوهم المناذرة والغساسنة وباليمن والحبوش ومصر ومن ثم وبطريق الحتم واللزوم أن تصير بيوتات قريش العالية على درجة متقدمة نسبيًا من الحضارة، هذا بالإضافة إلى الاحتكاك بوفود الحجيج الذين يحجون ويقدسون الكعبة باعتبارها إرث إبراهيم مقدم البطارقة بخلاف من استوطن قرية القداسة «بكة» لأسباب مختلفة منها المتاجرة والتجسس والهروب من الاضطهاد الدينى ومجاورة البيت الحرام وأقدس الكعبات «فى تلك الأيام وجد فى الجزيرة العربية بضع وعشرون كعبة أ.هـ».

فالتماسّ بكل هؤلاء لاشك أنه قد أثر فى القرشيين وزادهم رقيًا ـ «كان يقال لقريش أهل الله لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم والفضائل والخصائص التى هى أكثر من أن تحصى.. ومنها كونهم قبلة العرب وموضع الحج يؤتون من كل أوب بعيد وفج عميق فترد عليهم الأخلاق والعقول والآداب والألسنة واللغات والعادات والصور والشمائل عفوًا بلا كلفة ولا غرم ولا عزم ولا حيلة فيشاهدون ما لم تشاهد قبيلة: وليس من شاهد الجميع كمن شاهد البعض ولا مجرب كالغمر ولا الأريب كالعتلّ. فكثرت الخواطر واتسع السماع وانفسحت الصدور بالغرائب التى تتخذ والأعاجيب التى تحفظ فثبتت فى صدورهم وأضمرت وتزاوجتِ فتناتجت وتوالدت وصادفت قريحة جيدة وطينة كريمة.. فلذلك صاروا أدهى العرب وأعقل البرية وأحسن الناس بيانًا...»(٨٠).

ولا أدل على سمو قبيلة قريش على غيرها من القبائل فى الحجاز مثل ثقيف فى الطائف وبنى قيلة فى يثرب بل وعلى سائر القبائل فى أنحاء شبه جزيرة العرب أن لغة قريش أو لهجتها إذا شئنا الدقة فاقت سائر اللهجات فى الرقة والعذوبة والدماثة والبعد عن الحوشية والبداوة والخشونة حتى غدت بلا جدال سيدة اللهجات فى جزيرة العرب كلها.

إذن تلك القبيلة التى حازت كل تلك الخصائص الباهرة والمناقب العالية والصفات الحميدة كيف يتأتى للفهم السديد والإدراك السليم والفقه الصحيح

أن تقبل أن تغدو سيدتها وقمة هرمها الاجتماعى والاقتصادى أمية تجهل القراءة والكتابة.

إن هذا مما يمجه الذوق المرهف والحس الدقيق والفطرة الخالصة قبل أن يلفظه العقل ويستهجنه الإدراك ويستقبحه الفهم ويسترذله الوجدان.

• • •

تلك هى البراهين التى تقطع ببعد «سيدة نساء الدنيا» عن الأمية بعد السماء عن الأرض. ونحن ندرك أننا أطلنا فى هذه الفقرة الخاصة بإثبات علم الطاهرة بالقراءة والكتابة لأن هذا أمر فى نظرنا بالغ الأهمية شديد الخطر. إذ بدونه لا يقيض لـ«التجربة» النجاح وهذا ما نرجح أن القارئ اللبيب قد فطن إليه مما سطرناه حتى الآن وسوف يزداد له لقانة[٨٠] كلما استمر فى المطالعة التى نأمل أن تتم بوعى كامل وإدراك يقظ.

إذن خديجة وقد حازت كل ما ذكرناه تعتبر من الخاصة أو النخبة أو الحامة لا فى قريش وحدها بل فى منطقة الحجاز بأسرها ومن ثم فى شبه الجزيرة العربية، يضاف إلى ذلك اتصالها الحميم وعلاقتها المتينة بابن عمها القس ورقة ومن ثم فهى تنضم أو تأتى فى مقدمة تلك الفئة الممتازة التى سمعت بـ«**القادم المنتظر**» ثم آمنت بهذه الفكرة المبهرة وأدركت بما رزقت من صفات عقلية ممتازة أن الظروف تهيأت لمجيئه.

«وكانت عاقلة فاضلة سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة. وكانت تزور ابن عمها ورقة وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل وكانت تنكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة...»[٨٢].

«وسبق لنا أن سطرنا ما ذكره من القدامى: ابن إسحق وتلميذه ابن هشام كل منهما فى سيرته الأول فى صفحة ٨٢ الأول والآخر. الأول ص ٢٢١ . تحقيق السرجانى».

وتقول الدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ فى هذه الخصوصية:

«فكانت السيدة خديجة وهى من صميم قريش وجيرة الحرم بحيث لا يفوتها شىء مما ماجت به بيئتها قبل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه شعراء العرب وحكماؤهم وإرهاصات كهانهم وحنفائهم عن نبى جديد.. وتنبؤات برسالة سماوية جديدة تناقلها الرواة والسمار عن رهبان النصارى فى الشام ونجران وأحبار اليهود فى شمال الحجاز، ومكة على الخصوص كانت المركز الذى تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والتنبؤات وتتجمع روافد هامة هنا وهناك لتصب حول البيت العتيق وتحوم حول حى بعينه من أحياء قريش وهو حى بنى هاشم وترنو إلى شخص بذاته هو محمد»[٨٣].

والدكتورة عائشة عبدالرحمن أو بنت الشاطئ أجادت وصف حالة مكة

الدينية قبل بدء التجربة التى نذرت أم هند نفسها وجهودها وثروتها لها إلا أن التوفيق لم يحالفها فى قولها حامت حول «شخص بذاته هو محمد» ذلك أن أم هند دون غيرها هى التى رشحت «**الحبيب المصطفى**» دون غيره فى مكة جميعها ليغدو «**القادم المنتظر**».

وذكر العقاد: «واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة»(٨٤).

بيد أن الأستاذ الكبير انزلق فوقع فى خطأ فادح فالظروف لا ترشح. الظروف تهيئ وتوطئ وتمهد إنما الذى يرشح شخص أو نفر من الناس والنفر من ثلاثة إلى عشرة وقد يفعل ذلك فرد ثم يعاضده ويعاونه واحد أو أكثر.

و«سيدة نساء الدنيا» قد رشحت ووافق توسمها حدس آخر «يغدو من المفيد الرجوع إلى الخبر الذى سطرناه فيما قبل عن بحيرى رئيس أبرشية مكة أو الحجاز وناصح غلام خديجة وأتحفنا به ابن كثير فى سيرته» وإذا لم تفعل ذلك الطاهرة التى تتلمذت على القس وسمعت منه وقرأت ما عربه من العبرانية، فمن يفعله؟

• • •

وهناك كُتاب قدماء أو قدامى ومحدثون فطنوا إلى ذلك..

«بعد ذكر واقعة اختبار خديجة لمن كان يأتى محمدًا هل هو شيطان أم ملاك أورد صاحب السيرة الحلبية ما يلى: فإلى ذلك أشار صاحب الهمزية: وأتاه فى بيتها جبرئيل، ولذى اللب فى الأمور ارتياء. فأماطت عنها الخمار لتدرى، أهو الوحى أم هو الإغماء. فاختفى عند كشفها الرأس، جبريل فما عاد وأعيد الغطاء فاستبانت خديجة الكنز الذى حاولته والكيمياء»(٨٥).

إن الذى يلفت النظر هو البيت الأخير وهو أن سيدة نساء قريش وجدت فى المصطفى الكنز الذى حاولته والكيمياء وهى عبارة لا تحتاج إلى تأويل.

والذى اكتشفناه أن عددًا من الذى ألفوا فى السيرة المحمدية المعطار توصلوا إلى التجربة التى قامت بها خديجة مع محمد الذى فطنت إلى أنه الكنز ولو أنهم لم يصرحوا وقد سمى صاحب الهمزية جهودها فى هذا السبيل بـ«الكيمياء».

ومن المحدثين الذين ألغزوا ولحنوا(٨٦) عميد الأدب العربى د. طه حسين إذ يقول: «لقد أحبت خديجة هذا الفتى منذ كان صبيا وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع ترقبه وتتبع نموه واكتماله»(٨٧).

وكذلك أصحاب مؤلف «قصص الأنبياء»: «ويا للزوجين الكريمين. يعنى الطاهرة أم هند وحبيب رب العالمين. زوجة تكلأ وترعى وتشجع وزوج يستهدى ويلتمس النور من رحاب الله رب الأرض والسماء.. ويمضى الزوج فى التهيؤ للرسالة وتمضى الزوجة لتشجيعه ورعايته وعين القدر من فوقهما ساهرة والله

من ورائهم محيط»[٨٨].

وهنا من الضرورى أن ينتصب سؤال: ما هى الدوافع والبواعث التى حملتها على مراقبة محمد ومتابعة أطواره منذ أن كان صبيًا؟

وهل فعلت ذلك مع غيره من صبيان قريش وهم بالعشرات؟

إنها لم تفعل ذلك إلا لأنها لاحظت أن **«العطوف»** هو المنتخب الوحيد كيما يصير «المرتقب» والمأمول بحسب ما قرأت فى الكتب وما سمعت من القس؟

وماذا تعنى العبارات التى سطرها مصنفو كتاب «قصص الأنبياء» مثل: زوجة ترعى وتكلا وتشجع.. وتمضى الزوجة لتشجيعه ورعايته، إذا لم تدل على أنها الزوجة أو سيدة نساء الأرض تنفذ التجربة وتمضى فيها مشجعة راعية مؤازرة.

إن جاد المولى وصحبه تحدثوا عن التجربة التى خاضتها الطاهرة إنما بعبارات ملتوية وجمل ملفوفة وكلمات حلزونية ونحن نلتمس لهم العذر لأن التبيين سوف يجر عليهم المتاعب ولعلهم أسروا فى نفوسهم لا ذنب علينا إذا لم ينقه القارئ!!

• • •

وترشيح الطاهرة لـ«قائد الخير» ليصبح هو المرتقب أو المأمول أو الآتى أكدته دواوين السنة المعتبرة وما انفك يشاركها فى هذا الحدس ورقة وازداد اقتناعًا بما فتئت تنقله إليه الطاهرة من خطوات «... كان يتوسمها فى رسول الله ﷺ بما كانت خديجة تنعته له وتصفه له وما هو منطو من الصفات الطاهرة الجميلة وما ظهر عليه من الدلائل والآيات»[٨٩].

ولقد عبر عنها ابن كثير فى سيرته بـ«ما ظهر عليه من الدلائل والآيات» وأن «خديجة كانت تنعته له وتصفه له» أى دأبت على إحاطته علما بالأحوال التى يترقى فيها **«سعد الله»** أثناء مروره بأطوار التجربة لكى يوجه القس بما يراه لما له من علم عميق بكتب اليهود والنصارى علمًا لم يصل إليه واحد من المكيين فى زمانه.

هذه الكتب التى أطبق أصحاب دواوين السيرة المحمدية التى هى أذكى رائحة من العنبر الأصهب أنها بشرت به ووصفته وصفًا دقيقًا حتى السمات الجسدية له ذكرتها بدقة متناهية.

• • •

وسطر أحد الكتاب المحدثين رأيه عن ضرورة استعانة الطاهرة بأستاذ يقوم بالإرشاد والتوجيه:

«ولكن الأمر كان أعظم من هذا، وكان يحتاج إلى رجل له خبرة بالديانات وتاريخها والنبوات وسننها ومعرفة بأهل الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء فرأت أن تستعين بابن عمها العالم ورقة بن نوفل»[٩٠].

ونجزم أنه لا توجد كلمات أقوى وأصرح من هذه الكلمات تحدد موقع ورقة كأستاذ ويعسوب وموجه للطاهرة وهى تتولى إنجاز التجربة الكبرى التى أظهرت القادم المنتظر بصورة مدهشة.

• • •

الفارق الزمنى بين عمر هندوز التجربة وعمر موضوع التجربة هو ربع قرن، فـ«سيدة قريش» نكحت محمدًا وهى بنت ست وأربعين سنة[٩١].

فى حين أنه لم يكد يبلغ الحادية والعشرين من عمره المبرور[٩٢].

إنما بعض البحاث يستهول هذه الحقيقة فبعضهم يدعى أنها أسن منه ببضع سنوات والوهم الشائع بين غالبيتهم يرتفع بالمسافة العمرية بينهما إلى خمسة عشر عامًا، بيد أن بعض المتفيهقين منهم يرفضه أيضا بمقولة أن الطاهرة إن بلغت الأربعين من عمرها المبارك عندما نكحت «صاحب النسب الموصول» فكيف أنجبت أربع بنات «هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة» وهناك اختلاف على ترتيب رقية وأم كلثوم وصبيين هما القاسم والطاهر «أو الطيب» وهى فى تلك السن؟

فسألت واحدًا من أكبر أطباء النساء فى مصر: هل تستطيع المرّة أن تنجب وهى فى السادسة والأربعين؟ فأجاب متسائلاً: أخبرنى عن خصوبتها؟

فرددت عليه لعلك تعنى هل أنجبت قبل ذلك ثم أردفت إنها ولدت ثلاث مرات أو أربعا.

وجاءنى رده عبر الهاتف: نعم تستطيع دون مشاكل.

• • •

وبدورى أضيف الآتى: طلاقة الجو ونقاؤه وعدم تلوثه كلها أمور تساعد على الإنجاب كما أن أم هند... من البديهى أنها تمتعت بصحة ممتازة فلديها الثروة والجوارى اللاتى يكفينها خدمة المنزل التى تهد حيل[٩٣] المرّة.

أى أنها عاشت فى بلهنية ورفعنية[٩٤]. ونذكر أن دواوين السيرة العطرة أطبقت على جمالها والجمال قرين الصحة والعافية كما ذكرت أن العديدين من الملأ «وجوه القوم» تنافسوا على خطبتها فما الذى يدعو هؤلاء لنكاح قبيحة منفرة أو حتى متوسطة الحُسن عادية القسامة منخفضة الوسامة.. إذن فما دامت الطاهرة بهيّة حسنة حلوة فلا مشاحة إذن أنها تمتعت بصحة جيدة تؤهلها للولادة عدة مرات رغم تلك السن.

فإذا فرضنا أن الطفل يستغرق ما بين حمل وولادة وانتظار للمولود التالى عاما ونصف عام وهى أنجبت لـ«**ذى العطايا**» ستة أطفال فإن دلالته أنها قضت فى ولادتهم أقل من عشر سنوات من عمرها المبروك أى أنها استمرت حتى السادسة والخمسين ولا غرابة فيه فنحن الآن نرى فى الأرياف زوجات يخلفن

فى مثل هذه السن.

أما من ناحية «المسبح» فهو فى عز شبابه[٩٥].

وتحدثنا كتب سيرته التى هى أشد شذى من الورد البلدى أنه عرف بمتانة البنيان وقوة الجسد وإحكام الخلق وشدة الأسر[٩٦] وأنه صرع ركانة أقوى رجل[٩٧] فى قريش فعاد ركانة من مصارعته مهزومًا ذليلاً يجر أذيال الصغار والخيبة.

ومن جماع ما تقدم يثبت أن الدفع بإنجاب سيدة قريش لهذا العدد من البنات والبنين يدل على أنها عند نكاحها «**سيد ولد قصى**» لا فى السادسة والأربعين ولا حتى فى الأربعين، نقول يثبت أنه دفع فسيد وحجة بائرة ودليل أعجف وقرينة مهزولة ضامرة.

● ● ●

وهنا يرتفع سؤال على قدر من الأهمية وهو: ما هى علة الإصرار من جانبنا على أن الطاهرة عندما نكحت «المنتصر» بلغت أو ناهزت السادسة والأربعين وأن الفارق بينهما قارب الربع قرن؟

الإجابة على هذا السؤال تنضوى على شقين:

الأول: سبق أن أوضحناه فى باب «الأم الرؤوم» وهو أن ذلك ساعد بالفعل على نجاح التجربة لأن «**المجير**» نظر إلى أم هند باعتبار أنها أمه مما عاضد على المطاوعة والملاينة والمسالمة والمهاودة وهى ركائز الفلج والظفر والفلاح ونزيد: لو كانت خديجة فى مثل سنه أى بالكاد تخطت العشرين هل يستجيب لها تلك الاستجابة المعجبة. ونذكر بما تم فى اختبار الآتى هل هو ملك أو شيطان ففيها تجاوب معها تمامًا دون اعتراض. وهذه الواقعة من الوقائع النادرة التى سطرها كتاب السيرة المحمدية الفائحة بالمسك. ولو أنهم أتحفونا بمثيلاتها لوجدنا بين أيدينا مددًا طيبًا ساعدنا فى الإبانة عن أطوار التجربة المنقطعة النظير.

ثم نعود للسياق: لو أن الطاهرة وقت ذاك فى مثل سن «**أعظم الكائنات**» هل استجاب لها وطاوعها فى طلباتها منه أن يجلس فى فخذيها ثم فى حجرها ثم داخل درعها «قميصها»؟

الإجابة لابد أن تجىء بالسلب حتى لو أضفنا عشر سنوات.

إن أم هند شد انتباهها «**الأنوار-المتجرد**» منذ علقت به أمه من أبيه عبدالله ثم وضعته تحت الرقابة الشاملة منذ أشار عليها الراهب بحيرى «المرجعية الكبرى» بلزوم نكاحه وضرورة مباعلته وفرض الزواج منه إذ من غير المعقول أن تصرف نظرها عن الشخص الذى سوف تصير له بعلاً بل لابد وبطريق الحتم واللزوم أن تحيط بكل صغيرة وكبيرة عنه ولابد أنها لحظتها فيه «=المراجع

فوهزتها وهزًا[٩٨] للإشارة عليها بحتمية القران به مع الوضع فى الاعتبار أنه فى ذياك الوقت صبى لما يحتلم وقريش فيها من الرجال العدد الوفير، والمراجع إياها فى مثل هذه الأمور لا تعبث ولا تهزر ولا تعرف المجانة.. إذن لابد أن فى الأمر سرًا وإذ إنها «=المراجع» لم تبح به لها وهى من ناحيتها ليس من حقها أن تسألها عنه وإلا عدت طورها وتخطت درجتها وتجاوزت مكانها إذن فلا سبيل أمامها لمعرفته «السر» إلا أن تضع المرشح الزوج أو الزوج المرشح تحت المجهر كيما تلم بالصغير والكبير من شئونه حتى تتوصل إلى السر.

الأمر الذى استغرق وقتًا ممدودًا وزمنًا طويلاً وبالتالى تقدمًا فى العمر.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن خديجة كما ذكرنا من الذؤابة العليا من قريش ومن رهط بنى أسد ومن ثم فهى ـ وكما أسلفنا ـ تعد من النخبة التى اتصلت مثل غيرها من طبقتها بأحبار اليهود وبرهبان النصارى الذين ما فتئوا يتحدثون عن القادم المنتظر والمأمول وأن ذلك كله مسطور فى كتبهم المقدسة حتى أوصافه الخلقية مذكورة فيها وأنهم لمسوا آيات وعلامات وإشارات تقطع بأن زمانه قد أظل أو أطل وبديهى أنها لم تقف عند ذلك فهى طُلّعة.

لهذا أخذت تتدارس هذا الأمر مع جهابذة العلم الدينى فى منطقة الحجاز عامة وقرية التقديس «بكة» خاصة وسوف يأتى تفصيل هذا كله فى باب التجربة وما نذكره هنا باختصار أن خديجة ربطتها علاقة حميمة بهؤلاء وعلى رأسهم:

بحيرى الراهب وعداس وهو راهب أيضا ولو أن كتاب السيرة المجيدة المحدثين يغطرشون[٩٩] على هذه الحقيقة وبالتالى فهى بحثت معهم باستفاضة مسألة القادم المأمول وإرهاصات ظهوره والعلامات التى تومئ إليه دون تحديد أو تعيين، بيد أنها بما أوتيت من بصيرة ورزقت من فطانة ومنحت من زكانة تعرفت على المرشح الفرد الذى يصلح أن يغدو هو دون غيره من ناشئة قريش وذلك بعد أن تفرست فيه جيدًا وتمعنت فى قسماته المعنوية قبل المادية ومن ثم سعت سعيًا حثيثًا إلى مباعلته وخاضت معركة شرسة حتى ظفرت به ونكحته كما أوضحنا فيما سلف، وبعد ذلك باشرت مهمتها باقتدار ونجحت فى ذلك نجاحًا باهرًا فصارت خير هندوز لتجربة من أعظم التجارب فى تاريخ البشرية.

• • •

إلى هنا نصل إلى المحطة الأخيرة فى الرحلة الطويلة التى قطعتها الطاهرة لكى تغدو بعلاً لـ«الهاشمى - الهمام» ونعنى بميناء الوصول مجلس عقد الزواج (فخرج معه «=مع محمد» حمزة وأبو طالب وهو الذى خطب خطبة النكاح لأنه أسن من حمزة.. فلما أتم الخطبة تكلم ورقة بن نوفل.. وجاء فى ختام كلمته:

قد رغبنا فى حبلكم وشرفكم فاشهدوا علىّ يا معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة من محمد. ثم سكت فقال أبوطالب: قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمها عمرو: واشهدوا علىّ يا معاشر قريش أنى قد أنكحت محمدًا خديجة وشهد على ذلك صناديد قريش فأمرت خديجة عند ذلك جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف وقالت لمحمد ينحر بكرًا من بكرانك وأطعم الناس فقل من أهلك فأطعم الناس...)(١٠٠).

(فرغ أبوطالب من خطبته فى خطوبة «صاحب الفرج» لخديجة.. فتكلم ورقة فقال: الحمد الله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها «رؤساؤها» وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر أحد فضلكم وشرفكم وقد رغبنا فى الاتصال بأسرتكم وشرفكم فاشهدوا علىّ يا كبار قريش أنى قد زوجت خديجة.. من محمد.. بمهر كذا.

فقال أبو طالب: أحب أن يشترك عمها معك فقال عمها عمرو: اشهدوا علي يا كبار قريش أنى قد زوجت محمدًا خديجة.. وشهد على ذلك كبار قريش)(١٠١).

• • •

ويتضح من جماع هذه الآثار أن ورقة هو الذى تولى تزويج خديجة لـ«**المستجيب**»: فاشهدوا أنى قد زوجت خديجة من محمد.. ويلاحظ أنه قدم خديجة باعتبار أنها هى التي توصلت لـ«**الضحوك**» لتنكحه أى أن النكاح تم بناءً على طلبها. أما ورقة فهو الذى رحب به وباركه بل شجع أم هند عليه وفتحّ مخطها ولفت نظرها وشد انتباهها لأهميته وبصرها بالنتائج الخطيرة التي تترتب عليه وأنها سوف تغدو «سعيدة السعيدات» أو «أسعد الناس» فى حالة إنجازه وطلب منها أن تخطره بخطواته خطوة إثر خطوة.. هذا ما حكاه لنا الدكتور طه حسين فى كتابه الممتع «على هامش السيرة».

• • •

إن ولىّ الطاهرة فى إبرام عقدة الزواج سواء هو الوالد أو العم لم يدل بكلمة أهل العروس أو المخطوبة بل الذى تكلم هو ابن عمها ورقة على خلاف المعهود ومن ثم فقد ألح أبو طالب على ضرورة سماع كلمة الولىّ ولم يكتف بمقالة ابن نوفل - ذلك أن عم «**المعروف**» لا علم له بخبيئة الأمر وتقدم القس - لإلقاء كلمة بنى أسد دليل قاطع وبرهان ساطع على أهمية دور ابن نوفل سواء فى إتمام الزواج أو متابعة التجربة الكبرى وتأكيد بأنه يعسوبها والمشرف على خطواتها، ذلك أن ورقة رجل حصيف وأريب ومجرب يعرف قبل غيره أن إلقاءه كلمة أهل العروس فيه تعد لمقام وليها سواء هو والدها أو عمها وتخط لقدره وتجاوز لمكانته ومثله لا يقبل على هذه الخطوة إلا إذا كمن وراءها سبب دافع وهو

الحرص الشديد على إتمام عقدة الزواج لأنها خطوة بالغة الأهمية ولها ما بعدها وبدون إحكامها لا يكتب للتجربة المدهشة الفلج ولا يقيض لها الظفر ولا يتاح لها الفلاح - أم أن صفة ورقة كـ«قس» شكلت ضرورة طقوسية ليتولى هو مراسم العقد كيما يصير شرعيًا ليباركه الرب!!، ولا ننسى أن الولى فى تلك اللحظة الحرجة سكر سكرًا بيناً إذ إنه عب من العاتق «الخمر» حتى فقد وعيه.

وخشى القس وعاضدته سيدة نسوان قريش أن الولى المخمور أو المخمور الولى يخربق فى كلمته فينهار مشروع الزواج الذى كلفها الكثير من الجهد ودعك من المال والأهم أن تخفق التجربة التي ظلت تدبر لها سنين عدداً فتصير هيأتها لدى المرجعية التى أشارت عليها بضرورة نكاحها «الهين» على غير ما تحب وبخلاف ما ترجو ونقيض ما تأمل كما أنها تغدو فى نظر أستاذها ومعلمها نعنى القس ورقة غير جديرة بأن تحظى بشرف توجيهه لها ورعايته إياها.

وبالنسبة لهما معا فإن ما رسماه يصبح رمادًا تذروه الرياح العواصف ونحن نرجح أن إقدام ابن نوفل على التعبير عن رأى رهط الأسديين فى إمضاء العقد تم باتفاق بين التلميذة النجيبة والأستاذ القدير.

وهناك احتمال لا يجمل بنا تجاهله فى هذه الواقعة وهو أن مبادرة ورقة بإلقاء كلمة أهل المخطوبة ربما ترجع إلى أن وليها والدًا أو عمًا فى حالة من فقدان الوعى تحت تأثير السلسال «الخمر» حتى إنه لا طاقة له على الكلام وهذا يوثق ما سبق لنا إثباته أنه سواء الأب أو أخوه هو الذى حضر المجلس فالأمر سيان وذكرنا هذا الاحتمال هو من باب تكميل تحليلنا لهذه الواقعة ذات الأهمية الظاهرة وتناولنا لها من كافة أقطارها وبحثها من سائر جوانبها والتنقير فى كل نواحيها كيما لا تشوب هذه الدراسة أقل شائبة.

• • •

ما هى ثقافة الهندوز وما مداها هل هى عميقة أم متوسطة أم وشلة «ضحلة»؟

فى البداية: ما هو كنه ثقافتها وإذ نفعل نعانى كثيرًا من ندرة ولا نقول من قلة المعلومات فالمصادر «الكتب التراثية» لم تتناول هذا الموضوع بشكل مباشر ومن ثم فنحن نستقطر منها الأخبار الشحيحة التى ألمت بهذا الشأن.. أما المراجع «المؤلفات الحديثة» فقد أحجمت عن الخوض فيه لأسباب لا تغيب عن ذكاء القارئ ذى اللب والفطانة.

أول ما ينتصب قرينة على أن ثقافة أم هند فى ذلك الوقت كتابية هو لقب «الطاهرة» وسبق أن أفضنا فى هذه النقطة ومن ثم فلا داعى لإعادة الحديث بشأنها بيد أننا نضيف ما سطره اثنان ممن كتبوا فى السيرة المحمدية المعطير

وهما من المحدثين:

أولهما: الشيخ عبدالحليم محمود الذى ارتقى سلم المؤسسة الدينية الرسمية حتي ذروته: «ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة رضى الله عنها ولكن أحبته لشيء آخر هو السمو الروحى وهو العزوف عن اللذائد المادية الفاشية والاتجاه إلى الخالد من معالى الأمور»(١٠٢).

فالسيدة التى تبذل ما يشبه المستحيل حتى تغدو بعلا لـ**صاحب الشملة**» لسموه الروحى وعزوفه عن اللذائد المادية لزهده ـ ونحن نعلم أن أهم صفة امتاز بها عيسى ابن مريم هى الزهد ـ والاتجاه إلى معالى الأمور الخوالد، ليست زوجة عادية إنما بطريق اللزوم أن تتمتع بثقافة دينية خاصة ذات منزع لا يغيب عن العين البصيرة.

أما **المصنف الآخر:** فهو محمد على الصابونى الذى سلط الضوء على جانب طالما أثار اللغط خاصة من بعض المستشرقين الحاقدين على «**المهذب**» فيقول:

«كان زواج العقل للعقل.. لم يكن الغرض منه قضاء الوطر «الشهوة».. هذه المرأة النقية العاقلة الذكرة «يسرها الله تعالى له» لتعينه على المضى فى تبليغ دعوته.. قضى الرسول مع خديجة زهرة شبابه فلم يتزوج عليها ولا أحب أحداً مثل حبه لها..»(١٠٣).

هنا نجد الصابونى يتحدث عن تقوى ونقاء «سيدة نساء الدنيا».. والتقوى والنقاء يعادلان الطهر وينزهها عن قصد قضاء الوطر والشهوة عندما يممت شطر «**الفاتح**» وقدمت ما يفوق طاقة البشر لتنكحه ـ بل ولتعينه على المضى فى تبليغ دعوته».

فلولا أن سيدة نساء قريش تملكت ثقافة كتابية لما فعلت كل هذا!

ومن حقنا أن نسأل: كم سيدة على استعداد لتؤدى عشر ما قامت به أم هند مع «**المتوسط**» وبذلت الجهد والمال مثلها؟

● ● ●

فإذا انتقلنا إلى رهط خديجة وهم بنو أسد نجد أنه لم يوجد بطن آخر فى قبيلة قريش بجناحيها: البطاح والظواهر، تفشت فيه النصرانية مثلهم ولقد بسطنا القول فى هذه الخصوصية ومن ثم يغدو من التكرار الممل إعادة ما سطرناه فيها ويكفينا أن نورد رأى باحث جاد هو الدكتور جواد على فى مصنفه القيم «المفصل»: «وقد ذكر ابن قتيبة الدينورى أن النصرانية كانت فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ـ وقال اليعقوبى: وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بنى أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد وورقة بن نوفل»(١٠٤).

ونحن نعلم أننا سبق أن ذكرنا هذه الفقرة بيد أن التكرير القليل يغدو لازمًا

فى أحيان كثيرة خاصة عندما ندرس موضوعًا من نواح عديدة.

ونذكر أن ثلاثة من بنى عم أم هند تضلعوا فى النصرانية حتى وصلوا إلى مراتب سامية فيها:

البطريق: عثمان بن الحويرث.

القس: ورقة بن نوفل.

الكاهنة: قتيلة أو أم قتال بنت نوفل.

وليس مصادفة أن خديجة التاجرة استعملت عبيدًا نصارى علمنا منهما اثنين هما ناصح وميسرة أما الأول فلم نعثر له إلا على خبر واحد:

«قالت خديجة لمحمد قد أخبرنى به ناصح غلامى وبحيرى الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»(١٠٥).

وغلامى تعنى عبدى ومملوكى وأم هند أخبرت بذلك **«أنفس العرب»** بعد أن فلجت فى أن تصير له بعلاً. والخبر على وجازته يكشف الستر عن أن العبد متمكن من النصرانية وعلى علم بالكتاب لأن سيدة قريش قرنته بالراهب بحيرى فكلاهما أشار عليها بضورة مباعلة **«الأمة»**.

أما المملوك الآخر فهو ميسرة وسبق أن طرحنا البراهين على نصرانيته ونضيف خبرين الأول: أورده البلاذرى عن «الأنساب».

«وأخبرها ميسرة بما كان يقال فيه «=محمد» وكانت امرأة عاقلة حازمة برزة مرغوبًا فيها لشرفها ويسارها»(١٠٦).

وجملة «بما كان يقال فيه» تعنى ما قاله الرهبان فى حق **«البارقليط»** ولولا أن عبد الخير ميسرة على معرفة وطيدة بل علاقة حميمة بمن أسروا له بأحوال وصفات ومناقب **«الصراط المستقيم»** لما خصوه بها، ونرجح أنهم طلبوا منه أن ينقلها لسيدته. ونضيف أنه استمر رقيقا لها عدة عقود من السنين وأنها أولته ثقتها الكاملة، ودأبت على إرساله مع الذين تستأجرهم كيما يضاربوا لها بمالها عينًا ورقيبًا عليهم كذا ليحمل إليها آخر ما يستجد من أخبار وأحوال لدى أولئك الرهبان الذين يقطنون على حدود الجزيرة ومشارف الشام وتمر عليهم قافلة قريش التى تملك أم هند نصفها.

أما الخبر الآخر فقد نفحنا به جلال الدين السيوطى فى «الخصائص الكبرى» «راهب رحلة الشام الثانية اسمه نسطورس كان يعرف ميسرة ويعرفه»(١٠٧). هذا الخبر صريح فى نصه واضح فى دلالته على أن ميسرة يعرف الراهب نسطورس وأن الأخير يعرفه وهذا برهان ساطع على نصرانيته وإلا فما الذى يربط عبدًا براهب؟

كما أن السيدة خديجة عندما تسترق عبيدًا نصارى وتنفحهم ثقتها فإن هذا له علة خبيئة خاصة وأن ما حكته دواوين السيرة المحمدية التى هى أطيب

رائحة من المسك الأصهب عن ميسرة يدل على أن الصلة بينه وبين سيدته ليست علاقة عبد بمالكته بل هى أعمق ونذكر هنا أنه سفر بينها وبين «المشيح» فى مسألة نكاحها إياه.

● ● ●

العبدان النصارى فى بيت أم هند هم أفراد الحلقة الكتابية الداخلية التي أحاطت بها.

وهناك أخرى مماثلة خارجية اتصلت بها: أول أفرادها ورقة بن نوفل ابن عمها وسبق أن تحدثنا عن العلاقة بينهما بما فيه الكفاية إنما لا بأس من إضافة هذين الخبرين «فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان ابن عم خديجة وكان شيخًا كبيرًا عمى ـ وكان من الحنفاء ـ ثم تنصر فصار من علماء الكتاب»[١٠٨].

«وكانت خديجة تسأله - أى ورقة - عن أمر النبى ﷺ»[١٠٩].

والحق أننا لسنا فى حاجة إلى ذكر ورقة كعضو فى الحلقة بعد أن أفردنا له فصلاً مستقلاً إنما لاستكمال عدة أعضائها.

● ● ●

وثانيهما عداس مملوك عتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما من أغنياء الطائف لهما بساتين وأراض زراعية وكروم عنب وسبق أن ذكرنا أن ابن حزم أكد أن شيبة نفسه اعتنق النّصرانية «وكان فى الطائف نفر من الموالى كانوا على دين النصرانية لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون من هؤلاء عداس وقع فى الأسر فبيع فى سوق الرقيق وجىء به إلى الطائف فصار مملوكًا لعتبة وشيبة ابنى ربيعة»[١١٠].

وعلى رأس هؤلاء الموالى النصارى عداس وتخبرنا الدواوين التراثية لسيرة **«الأبر»** أنه راهب إنما الكتب الحديثة تداريها لعلة يدركها القارئ اللماح.

«ثم رأيت أن عداسًا المذكور هنا كان راهبًا وكان شيخًا كبير السن قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له أنعم صباحاً يا عداس. فقال: هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش، قال: أدنى منى فقد ثقل سمعى فدنت منه ثم قالت له: ما تقدم»[١١١].

هذا الخبر يقطع بوجود علاقة وطيدة بينهما لأنه عرف صوتها ولنلاحظ أنه ناداها بلقب «سيدة نساء قريش».

وفى خبر آخر أن بحيرى خاطبها بذات اللقب.

وثالثهما هو الراهب سرجيوس: «يقصد تيوفانيس ـ طبعة كلاسن ـ وجورجيوس ـ طبعة بيكر ـ أنه بعد أن ارتجف محمد بعد ظهور جبريل أول مرة

توجهت خديجة، وقد استولى عليها قلق شديد إلى سرجيوس وكان راهبًا زنديقا منفيا فطمأنها بأن أكد لها أن الملك «يعنى جبريل كان يرسل إلى كافة الأنبياء»(١١٢).

وواضح من الخبر أنه ممن وثقت فيهم خديجة وفى علمهم بالكتب المقدسة لهذا هرولت إليه لتستفسر منه عما حدث لـ«الفلاح» فى غار حراء إذ مما يرفضه اللب أن تهرول إليه فى مثل هذا الأمر دون سابق معرفة لخطورته من جانب ومن جانب آخر لضرورة كتمانه حتى لا يتسرب فيحدث رد فعل سيئ قد يؤدى لعدم اكتمال التجربة.

والرابع هو بحيرى الراهب وهو رأس الحلقة بلا مدافع ونرجح أنه شماس أو مقدم أبرشية الحجاز واختلفت المصادر فى اسمه فبعضها سماه بحيرى والآخر أطلق عليه نسطورا بل ويؤكد أن هذا هو الاسم الصحيح وأنه الذى قابل **«الصبيح»** فى سفرته الأولى إلى الشام.

«هذا الراهب ذكروا أن اسمه نسطورا وليس هو بحيرى المتقدم ذكره وهو الذى قابله فى سفرته الأولى وهو غلام مع عمه أبى طالب»(١١٣).

وليس ابن هشام هو الوحيد الذى لم يستطع أن يجزم بالاسم الصحيح بل فعل ذلك صاحب السيرة الحلبية.

وسبق أن أخبرنا القارئ أن سيرة ابن هشام هى عمدة السير «بعد سيرة ابن إسحق» أما الحلبية فلها مقام لا يستهان به بين مؤلفات سيرة محمد التي هى أحسن من صوت «هزاز دستان» وهو طير له صوت كأنه مزامير داوود.

«بحيرى أو نسطورا أو نحوهما ممن صدق بأنه (=ﷺ) نبى هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام لأنهما لم يدركا البعثة»(١١٤).

ولايزال الخلاف مستمرًا حتى يومنا هذا «إن المصادر العربية لا تذكر بحيرى، إلا أنه راهب اسمه سركيس ولقبه بحيرى لسعة اطلاعه فى علوم عصره فى نطاق اختصاصه اللاهوتى»(١١٥). والمقال به أخطاء تاريخية ومعلوماتية وملىء بالعبارات الإنشائية بيد أننا استشهدنا به لمجرد إثبات استمرار الاختلاف على «بحيرى» وسواء اسم ذلك الراهب نسطورا أو بحيرى أو سركيس فالذى يعنينا أنه رئيس أبرشية الحجاز الذى ربطته بسيدة قريش آصرة شديدة وأنها تثق فى علمه الكتابى ثقة لا حد لها فبعدما أخبرها **«السلطان»** أنه التقى بالملاك جبريل تصادف أن سافر بحيرى من الحجاز إلى الشام فركبت إليه لتستوضح منه حقيقة ما حدث ولتبشره بنجاح التجربة إذ هو الذى أشار عليها من زمن لتغدو بعلاً له.

«انطلقت خديجة لتسأل من عنده علم من الكتاب كعداس ونسطورا الراهب فقالا: قدوس قدوس ـ وفى رواية أنها ركبت لبحيرى بالشام فسألته عن جبريل

عليه السلام فقال لها: يا سيدة قريش... إلخ»[١١٦].

وهذا الخبر يتعين أن يحظى بوافر الاحترام لأن الذى نقله إلينا إمامان الزبيدى والشرقاوى والمحقق هو الشيخ أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر ومن متنفذى المؤسسة الدينية فى مصر. فسيدة نساء الدنيا لولا ثقتها فى الراهب بحيرى لما تجشمت عناء الركوب إليه من مكة إلى أطراف الشام مع ملاحظة أنها فى ذياك الوقت ناهزت السادسة والخمسين من عمرها المبارك «على فرض أنها نكحت المليح الوجه وهى بنت أربعين عامًا» خاصة وأن بحيرى هو الذى أشار إليها منذ زمن بنكاحه.

ولم ينفرد «فتح المبدى» برواية هذا الخبر ذى الثقل والوزن بل سبقه الإمام العدل فى سيره.

«من يسمى بالإمام العدل سليمان التيمى ذكر فى سيره أن السيدة خديجة رضى الله عنها عندما قص عليها محمدﷺ خبر الغار كتبت أو ركبت ـ إلى بحيرى الراهب فى الشام»[١١٧].

ولقد شكك فى هذا الخبر الدكتور حسين مؤنس فليشكك كما يحلو له، ففيما سلف فندنا رأيه بأدلة دوامغ هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فقد تعودنا من الكتاب المحدثين أن أى خبر يقرأونه فى المؤلفات التراثية ولا يوافق هواهم «نعم هواهم» يهرولون لا إلى نقده بل إلى تسخيفه وترذيله دون أن يقدموا أى أدلة فسيدة واهية متهافتة لا تصمد إلى تجريح.

● ● ●

الخلاصة أن الحلقة الكتابية الخارجية التى ربطت خديجة حبلها بها تشكلت من القس ورقة والراهب عداس والراهب سرجيوس ومقدمها الراهب بحيرى أو نسطور أو سركيس، قد وصلت إلى درجة رفيعة من العلم بالكتاب وليس من بينها رجل عادى يقال عنه إنه يعرف قشورًا من العلم الكتابى حتى عداس المملوك لابنى ربيعة ارتقى إلى رتبة «راهب» وهذا أمر له دلالته وهو أن الطاهرة شدتها صلة وثيقة وعلاقة حميمة وآصرة متينة برؤوس أهل الكتاب فى مكة والحجاز وإذ إنها برزة فالراجح بل المؤكد أنها جالستهم ونشبت بينها وبينهم محاورات قوامها العلم الكتابى مما يزيد ثقافتها الدينية عمقًا. بيد أن ثقافتها الكتابية تلك لم ترتفع إلى درجة علمهم ـ ولكن قدرها لا يستهان به على الإطلاق وإلا لما نجحت فى إنجاز التجربة الفذة.

● ● ●

ومن أهم روافد تلك الثقافة قراءة ما تولى ابن عمها ترجمته من التوراة والإنجيل، فقد أجمعت كتب سيرة «**الماحى**» التى هى أجمل ريحاً من نشر القطر أن ورقة أتقن العبرانية كتابة ونطقا وبعضها ذكر أنه اعتنق فى البدء اليهودية ثم

استقر على النصرانية، ولو أنه فى الأوائل صُنف من بين الأحناف الذين تركوا الوثنية بحثًا عن دين إبراهيم أبى الأنبياء ومقدم البطاركة وبذلك نقل من الكتاب المقدس بقسميه «التوراة والإنجيل» «ونحن نرجح أنه إنجيل العبرانيين الذى بين يدى النصارى الذين جاءوا من الشام فراراً من اضطهاد الفرق الأخرى»، نقل منه إصحاحات أو صفحات أو أبعاضًا، والمؤكد أنها وفيرة لأن القس اعتمد فى معيشته على تشغيل ما لديه من مال فى التجارة ومن المؤكد أنه استفاد من خبرة خديجة التاجرة الناجحة فى هذا الشأن ونحن نقول به لأن المصادر التى بين أيدينا لم تطلعنا على مهنة له يمتهنها أو تبين لنا مورد دخله وممن تكسب أو تعيش. فإذا صح ذلك وأغلب الظن أنه صحيح لأن من المعروف عن قريش أنهم قوم تجار فإنه قد تفرغ لقراءة الكتاب المقدس ولترجمته وبذل مجهوداً مضنيًا حتى أثر على نظره فعمى فى آخر عمره. هذه الترجمات بطريق الحتم استعارتها منه خديجة فقرأتها واستوعبتها وشكلت قسمًا وسيعًا من ثقافتها الدينية.

وهى بدورها طفقت تقرأها لـ«**الخاتم**» بعد أن نكحته وغدت له بعلاً وهو بدوره قد اختزنها فى حافظته الواعية وذاكرته القوية.

● ● ●

انعقدت جلسات مذاكرة ومدارسة ومحاورة بينها وبين اليعسوب ثم انضم إليها «**أحمد**» بعد المباعلة وفى ليالى مكة الطويلة استمرت هذه الجلسات حتى ينفجر نور الصباح. فهى جزء عضوى فى الإعداد والتأهيل والتهيئة.

● ● ●

إذن هذا هو الرافد الآخر فى تكوين الثقافة الكتابية لسيدة نساء الدنيا. بيد أنه من المفيد أن نذكر باستعدادها لتقبل هذا النوع من الثقافة لأنها كما صنفها أحد كتاب السيرة من النفر القليل الذين نبذوا عبادة الأصنام واقتنعوا بأنها باطلة فضلاً عن عدم معقوليتها ولعلها أخذت تردد: ما صنم نطوف به ونذبح له الذبائح ونقدم له القرابين؟

ليس ما أسلفنا فحسب.

بل ولأن الثقافة النصرانية فى ذياك الوقت سيطرت وهيمنت على أجواء مكة والحجاز عامة ودفعت بالثقافة اليهودية إلى الهامش، لعدة أسباب منها:

أولها: أن هناك من حاول نشر الثقافة النصرانية فى قرية القداسة منهم عثمان بن الحويرث أحد بنى أسد وابن عم خديجة وسبق أن سطرنا خبره فنرجو الرجوع إليه ومن البديهى أن يبشر بها عشيرته الأقربين وأدناهم إليه بنو عمومته اللزيقون به.

وثانيها: أن مكة ذات موقع خطير فهى ملتقى القوافل الذاهبة إلى كل اتجاه

ومن ثم فإن أعين الروم والفرس لم تغفل عنها فوجد فيها جواسيس وتجار روم وهؤلاء حاولوا نشر ثقافتهم النصرانية.

وثالثها: أن الخصام أو العداء استحكم بين فرق النصارى وضيق الخناق على الأبيونيين واليهود المتنصرين والنصارى الموحدين فلم يجدوا مناصًا من النزوح وشطر منهم رحل إلى الحجاز، ومن طبائع الأمور أن هؤلاء لا يظلون ساكتين بل طفقوا ينشرون ثقافتهم النصرانية واتخذ ذلك صورًا عديدة فبعضهم انتهز فرصة الأسواق التى تقام بمناسبة الحج فى أماكن قريبة من مكة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز وأخذ يخطب فيها داعيًا لاعتناق عقيدته.

ومنهم من اتخذ مهنة الطب وسيلة لجذب أهل مكة وما حولها لثقافته خاصة وأن عرب ما قبل الإسلام (يسمون هذه الفترة بالجاهلية أ.هـ) علمهم بالطب معدوم وكل ما لديهم معارف محدودة استقوها من التجارب وهذه لا يقال عنها علم.

أخبرتنا العديد من الأخبار التى حملتها المصادر ذات الرتب العوالى أن أصحاب الثقافة الكتابية النصرانية امتهنوا التطبيب والغرض منه معروف.

«ويشير أهل الأخبار إلى ورود بعض الرهبان والشمامسة إلى مكة وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب وقد ذكر الإخباريون أن شماسًا كان قد قصد مكة فأعجب الناس به...»(١١٨).

وبعضهم عالج «**السنا**» فى صغره مرتين الأولى وهو فى حضانة جده عبدالمطلب «قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى الوفا فى سنة سبع من مولده أصابه رمد شديد فعولج بمكة فلم يغن فقيل لعبدالمطلب إن فى ناحية عكاظ راهبًا «هكذا» يعالج الأعين فركب إليه»(١١٩).

والأخرى وهو فى كفالة عمه أبى طالب: «... فخرج به (بمحمد) عمه أبو طالب إلى رجل من أهل الكتاب يتطبب بمكة.. وقال: يا عبد مناف هذا طيب طيب للخير فيه علامات إن ظفرت به يهود قتلته...»(١٢٠).

ولازالت الإرساليات المسيحية وخاصة الكاثوليكية تعتبر الطبيب أنجح الوسائل لجذب الوثنيين فى مجاهل إفريقية وآسيا لعقيدتهم وثقافتهم.

«كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متحفزًا بالعاص بن وائل وكان الله قد آتاه علمًا كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طب ورفق وعلم»(١٢١).

أما **رابع الأسباب** فهو التسرى بالإماء الروميات واليونانيات النصرانيات «ووجد منهن عدد وفير فى مكة والطائف وأقبل على اقتنائهن أثرياء مكة والطائف منهم بنو مخزوم والعباس بن عبدالمطلب»(١٢٢).

«وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذى جىء به إلى مكة

وإلى مواضع أخرى من جزيرة العرب من هؤلاء نسطاس ويقصد بذلك انستاس وكان من موالى صفوان بن أمية»[١٢٣].

وهؤلاء الجوارى أنجبن بنين وبنات تأثروا بثقافة أمهاتهن النصرانيات.

وخامس الأسباب: هو وجود أعداد كبيرة من العُبدان النصارى فى بيوت أثرياء مكة استخدمهم أسيادهم فى شتى مجالات الخدمة من الإشراف على تجارتهم والعمل فى حوانيتهم إلى التكسب من وراء من أجاد منهم حرفة مثل التجارة والحدادة وصقل السيوف والبناء... إلخ، وإذ هم من معتنقى النصرانية فلاشك أنه دارت حوارات بينهم وبين سادتهم وبعضهم بلغ درجة لا بأس بها من الثقافة الدينية مع إجادته القراءة والكتابة وتملك أو حاز نفر منهم إصحاحات وأبعاضا من الإنجيل.

وفيما تقدم أوضحنا أن مشركى مكة خصوم أو أعداء «**صفوة البشر**» اتهموه أنه يستقى معلوماته أو معارفه الدينية من أحدهم ورد عليهم القرآن العظيم بأن هؤلاء أعاجم و«**قطب الأقطاب**» ذو لسان عربى مبين[١٢٤].

وقد ذكر اسم العبد الذى يمد «**الفارق بين الحق والباطل**» بالمعارف الكتابية فمنهم من سماه «جبرا» غلام الحضرمى وكان قينا «حدادًا» ومنهم من قال بل هما اثنان «جبر ويسار» وكانا يعملان السيوف ومنهم من أكد أن اسمه «بلعام» وكان يعمل قينا وهو غلام لحويطب بن عبدالعزى، بيد أن الذى اتفقوا عليه أنه كان أعجمى الأصل نصرانيًا يقرأ الكتب كما «أنه كان بمكة نفر من الموالى على دين النصرانية يقرأون ويكتبون»[١٢٥].

وقد رأينا من هؤلاء عداسا غلام عتبة وشيبة ابنى ربيعة ولعل اعتناق الأخير للنصرانية بتأثير عبده ويمكن أن ينضم إليهم ناصح وميسرة مملوكا سيدة قريش.

هذا هو الرقيق الأبيض من العبدان والعبدات.

«وبين الرقيق الأبيض نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة يعرفون القراءة والكتابة ولهم اطلاع فى شئون دينهم ومعارف ذلك العهد ولهذا أوكل إليهم القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة، وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ويقصون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين وأكثرهم ممن كانت ألسنهم لم تتروض بعد على النطق بالعربية وكانوا يرطنون بها أو يتلعثمون ومنهم من كان لا يعرف شيئًا منها أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات»[١٢٦].

• • •

أما الرقيق الأسمر أو الأسود اللون فبالمثل وجد بمكة بكثافة وفيرة وهؤلاء تخصصوا فى الخدمة وهم أيضا نصارى انتشروا فى دور صناديد قريش ومن

الراجح أنهم قد نشروا ثقافتهم النصرانية بين أهل تلك البيوت.

«وقد كانت فى مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد عرفوا بالأحابيش وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى استوردوا للخدمة والقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة، وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثرا فى لغة أهل مكة يظهر فى وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها فى مثل المصطلحات الدينية.. وقد أشاروا إلى ورود بعضها فى القرآن الكريم وفى الحديث»[١٢٧].

وسادس الأسباب: هو ثخانة الجالية النصرانية فى مكة بل فى الحجاز عامة ومنهم من ربطته صلة حميمة بالسادة الغطاريف:

«أخرج أبو نعيم عن طريق الوادى عن شيوخه قالوا بينا عبدالمطلب يوما فى الحجر وعنده أسقف نجران وكان صديقا له وهو يحادثه...»[١٢٨].

«أخرج أبو نعيم وابن شاكر.. كان بمر الظهران «واد بين مكة وعسفان» راهب من أهل الشام يدعى عيسى قد أتاه الله علماً كثيرًا وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود.. وقال لعبد المطلب كن أباه»[١٢٩].

ومنهم من أقام بوادى القرى وهو قريب من بكة.

«وكان فى وادى القرى نفر من الرهبان كما ورد ذلك فى شعر جعفر بن سراقة أحد بنى قرة: فريقان رهبان بأسفل ذى القرى.. وبالشام عرافون ممن تنصر»[١٣٠].

ويحدثنا الباحثون المحدثون وفيهم من يحظى بالثقة عن فرسخة وفرطحة النصارى فى الحجاز.

أما فى الحجاز فيحدثنا جورج قنواتى معتمدًا على مصادر إسلامية عن «مسيحيين» فى إيلة «إيلات» ودومة الجندل وتيماء وتبوك ووادى القرى ويثرب، وإن هؤلاء كانوا عربا بل كان بعضهم من العرب البداة كما يحدثنا عن «أساقفة المضارب» أى الأساقفة البدو الذين يتنقلون بين مضارب «خيام» البدو والرحل وكان فى مكة المكرمة بعض المسيحيين..»[١٣١].

ونقل إلينا الأب الدكتور جورج قنواتى أن للعرب أسقفًا مقره بصرى وهذا ما توصلنا إليه ورشحنا لهذا المنصب بحيرى الراهب ولو أننا قصرناه على أبرشية الحجاز وربما اختص بها مع وجود أسقف لعموم جزيرة العرب. أما أنه عربى فهو مما يتسق مع طبيعة الأمور «كان للعرب أسقف عربى فى بصرى»[١٣٢].

ومما يقوى هذا الخبر ويرفعه من درجة الاحتمال إلى مرتبة التيقن أنه فى ليلة مولد «**المصطفى**» ترددت كلمة بصرى كثيرًا مثل «أن آمنة عندما ولدته خرج منها نور أضاء قصور بصرى» وآنذاك تساءلنا: لماذا بصرى بالذات؟

والآن جاءنا الخبر اليقين والرد المقنع والجواب المفحم.

لم يعد من المستغرب لدينا أن ما يمثل رمزى النصرانية: مريم وولدها عيسى ظل قائمًا فى الكعبة حتى خلافة عبدالله بن الزبير التى قضى عليها الحجاج ابن يوسف الثقفى بأمر من سيده الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان.

وأن هذا الرمز وهو تمثال عيسى وأمه مريم قد عومل معاملة خاصة من **«راكب البعير»** فقد أمر بمحو صور كافة الأنبياء بمن فيهم إبراهيم أبو الأنبياء ومقدم البطاركة، ماعدا صورة عيسى ابن مريم وأمه بل إن تمثالها ظل قائمًا طوال العهدين المحمدى والخليفى ثم شطرا من الخلافة الأموية حتى زمن عبدالملك بن مروان ولولا ضرب الكعبة المقدسة بالمنجنيق بواسطة السفاح ومبير ثقيف فشب حريق فى هذا المكان الأقدس لظل التمثال قائمًا ربما حتى الآن.

وإن المرء يتساءل: لماذا؟

الإجابة على هذا السؤال لا تعنينا لأنها لا تدخل فى نطاق بحثنا إنما الذى يهمنا هو دلالة ذلك وهى الوجود العريض الثقيل للنصرانية فى الحجاز فى ذياك الزمان الذي حفل بالمعجبات من الأمور وكعادتنا فى التزام التوثيق الشديد لما نكتب خاصة فى النقاط التى هى على قدر من الدقة والحساسية فإننا نورد فيما يلى الأدلة الشاهدة على ذلك:

(وفى الحديث عن أبى نجيح عن أبى حويطب بن عبدالعزى وغيره فلما كان يوم الفتح دخل رسول الله ﷺ إلى البيت فأمر بثوب فبل ماء وأمر بطمس تلك الصور ووضع كفيه على صورة عيسى وأمه وقال: امحو الجميع إلا ما تحت يدى ـ رواه الأزرقى)(١٣٣).

«عن ابن جريج قال: سأل سليمان بن موسى الشامى عطاء ابن أبى رباح وأنا أسمع أدركت فى البيت تمثال مريم وعيسى قال: نعم أدركت فيها تمثال مريم مزوقا فى حجرها عيسى ابنها قاعدًا مزوقًا»(١٣٤).

إن وضع أو جلوس عيسى فى حجر أمه مريم يذكرنا بما فعلته أم هند عند اختبار ذلك الذى يأتى **«خير البرية»** هل هو ملاك أم شيطان فقد أمرته بأن يجلس فى حجرها.

البعد الزمنى بين الصورتين أكثر من ستة قرون والفارق بينهما هو أن «معدن الطهر مريم» هى أم عيسى على الحقيقة والواقع ودعنا مؤقتا من أحدوثة الولادة العذراوية التى يذهب إليها بعض فرق المسيحية أما الطاهرة فهى أم **«عين العز»** على المجاز. ويفصل بينهما فى السن ربع قرن فى حين أن مريم عند ولادتها لابنها عيسى ناهزت الرابعة عشرة تقريبًا أى نصف ما فصل بين عمر **«الوسيلة»** وعمر أم هند.

«قال وكان تمثال عيسى ابن مريم ومريم عليهما السلام فى العمود الذى يلى الباب. قال ابن جريج: فقلت لعطاء: متى هلك؟ قال: فى الحريق فى عصر ابن

الزبير. قلت: أعلى عهد النبى ﷺ كان؟ قال: لا أدرى، وإنى لأظنه قد كان على عهد النبى ﷺ. قال له سليمان: أفرأيت تماثيل صورة كانت فى البيت من طمسها؟ قال: لا أدرى غير أنى أدركت من تلك الصور اثنتين.. وأراهما والطمس عليهما. قال ابن جريج: ثم عادوت عطاء بعد حين فخط لى ست سوارى ثم قال: تمثال عيسى وأمه فى الوسطى»(١٣٥).

«عن مسافع بن شيبة بن عثمان أن النبى ﷺ قال: «يا شيبة امح كل صورة فيه إلا ما تحت يدى» قال: فرفع يده عن عيسى وأمه.

حدثنا داوود بن عبدالرحمان عن عمرو بن دينار قال: أدركت فى بطن الكعبة قبل أن تهدم تمثال عيسى ابن مريم وأمه وعن ابن شهاب أن النبى ﷺ دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة وغيرها.. ثم رأى صورة مريم فوضع يده عليها وقال امحوا ما فيها من الصور إلا صورة مريم، وعن حكيم بن عباد وغيره من أهل العلم أن قريشًا كانت قد جعلت فى الكعبة صورًا فيها عيسى ابن مريم.

قال ابن شهاب: قالت أسماء بنت شقران امرأة من غسان حجت فى حاج العرب فلما رأت صورة مريم فى الكعبة قالت: «إنك لعربية فأمر رسول الله ﷺ أن يمحوا كل تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم»(١٣٦).

«قد استدل شيوخ من الخبر المروى عن الصور التي قيل إنها صور الرسل والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم والتى ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة على أنها هى الدليل على أثر النصرانية بمكة واستدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمست تلك الصور استثنى منها صورة عيسى وأمه مريم. وبخبر ثان ورد عن تمثال لمريم مزوق بالحلى وفى حجرها عيسى باد فى الحريق الذى شب فى عصر ابن الزبير. وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قيل إنها حجت فى حاج العرب. فلما رأت صورة مريم فى الكعبة قالت بأبى أنت وأمى إنك لعربية فأمر رسول الله ﷺ بمحو تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم»(١٣٧).

ومن المعلوم أن غسان التى منها تلك المرأة التى قالت ما قالت فشت فيها النصرانية وعدها الإخباريون من بين القبائل التى انتشرت فيها النصرانية.

إن مصادر هذه الأخبار مؤلفات تنال الاحترام ويصعب غمزها أو التشكيك فيها. «السيرة النبوية» للذهبى و«أخبار مكة» للأزرقى. أما المرجع فهو لـ«د. جواد على» وسبق أن حشرناه فى زمرة الباحثين الجادين من المحدثين.

• • •

لهذه الأسباب جميعها وهى كما لابد وأن لاحظ القارئ معقدة ومتشابكة، فضلاً عن نفور السيدة خديجة الفطرى من الثقافة «إن صح هذا التعبير»

الوثنية التى غرقت فيها قريش آنذاك إلى الأذقان غدا من الحتم اللازم أن تحاصر ثقافة النصارى أم هند وتدفعها إلى التفكير فيها والاطلاع عليها وتأملها ومعرفة ثوابتها ومتحركاتها وأفكارها ومبادئها وقصصها وأساطيرها ومن بينها فكرة نبى أطل أو أظل زمانه خاصة بعد أن شاركتها فيها الثقافة اليهودية وأقوال كهان الوثنية فى هذه.

وقد وافق الفكرة ارتياح سيدة قريش النفسى ورضاءً تامًا لديها أن يصبح القادم المنتظر من العرب، فربما ورثت عن أبيها خويلد حبه لوطنه مكة ولقبيلته قريش ونستشهد بموقفه من تبع عندما هم بقلع الحجر الأسود، ونقله إلى اليمن وتصديه له بل وقف على رأس المقاومين له.

ونضيف وفادته على سيف بن ذى يزن ليهنئه بنصره المؤزر على الأحباش.

ورثت الطاهرة حب العرب ومكة وقريش من أبيها فرحبت واعتنقت فكرة أن يصير القادم من العرب وللعرب فكما أن لليهود نبيهم وللنصارى نبيهم فمن اللازم أن يغدو للعرب واحد مثلهما ويحمل بيده كتابا كما قدم موسى لأتباعه كتابا وطرح عيسى على حوارييه ومن بعدهم كتابًا.

وجماعه يستلزم الإطلاع على كتابى هاتين الثقافتين وخاصة ثقافة النصارى لسببين:

الأول: أنها الأقرب عهداً والمنفتحة على الآخرين وليست منغلقة على ذاتها وتابعيها مثل الثقافة الأولى أو العتيقة.

الآخر: أنها فى متناول اليد خاصة بعد ترجمة مصدرها الأساسى إلى العربية، الأمر الذى يسر قراءتها لها وليس معناه الاقتصار عليها بل يجب الاطلاع على الأولى والأقدم لأنها أصل الأصول والأساس والجرثومة(١٣٨).

ومن المستحيل اكتمال قوام «**القادم**» وتكوينه دون الاطلاع عليها بل تمحيصها وما ورد بها بديا من الخلق والتكوين.. إلخ خاصة وأن الثانية عولت عليها فى هذه الأساسيات حتى إن معتنقى الأخيرة لم يجدوا مناصا من اعتبار كتابهم ملحقًا لكتاب الأولى فضمهما كتاب واحد أطلقوا عليه «الكتاب المقدس».

ومن المفارقات الصارخة - وكم فى الثقافات الدينية من مفارقات يحار العقل السليم فى فهمها - أن أصحاب الثقافة العتيقة لا يعترفون إلا بكتابهم هم وينكرون كتاب الثانية والذى طلع به على الناس فى حين أن أتباع الأخيرة يعترفون بالكتابين معا وبالبطارقة الذين وردت أسماؤهم فى كليهما وبالحكايا المعجبات والخوارق والمدهشات والمخاريق التي حفلت بهما.

نحن نعى أن الفاصلة الخاصة بثقافة الهندوز قد طالت بعض الشىء ولكنه ضرورى أشد ما تتجلى الضرورة إذ إنه بدون الثقافة الدينية ما نجحت التجربة المفردة إذ كيف يتصور أن منفذتها مليطة منها «الثقافة الدينية».

وإذ إنه لكل فرض برهان فإننا نضرب مثلين:

عندما أخبر «**الأمىّ**» بعله الهندوز بإتيان ملاك الرب جبرائيل إليه وهو السفير الإلهى لكل من سبقوه كما علمها سرجيوس غدا من الحتم اللازم تحقيق هذه المسألة الخطيرة والتأكيد من صدق حدوثها فإن صحت فهذا دليل على نجاح التجربة وبالتالى يصبح «**النجم الثاقب**» هو القادم المأمول من العرب.

فقامت أم هند بالاختبار الذى أجرته بأن أجلسته على فخذها اليمني ثم اليسرى ثم فى حجرها ثم أدخلته بين جسدها وقميصها. عندها انصرف جبريل لأن هذا منظر لا يتفق مع مكانته كمندوب الحضرة الإلهية إلى مختاريه من البشر وهنا صاحت فرحة مستبشرة أنه ملاك وليس شيطانًا.

حقيقة أن بعض المصادر ذكرت أن اليعسوب أو القس هو الذي أشار عليها بالاختبار «فى جزئه المتقدم» بيد أن الذى حسم الأمر هو عجز الاختبار وهو إدخال «الولى» فى درعها فهذا من إبداع أم هند ولولا ثقافتها الدينية لما استطاعت أن تتوصل إليه «إلى هذا الاختبار».

أما المثل الآخر فملخصه أن ملاك الرب حضر إلى «**المضمخ**» فى غار حراء ذات مرة فأنبأه بقدوم خديجة إليه ومعها طعام له وطلب منه أن يسر إليها أن الله وجبريل معا يقرئانها السلام فلما حضرت سيدة نساء الدنيا بلغها فردت على الفور: على الله وعلى جبريل السلام وصار هو رد السلام التقليدى لدى تابعى «**المعطى خزائن الأرض**».

فمن أين أتت خديجة بهذا الرد الصحيح على الفور لولا مخزونها الثقافى الذى يحفل بالسلام.

حدثنا أبو الوليد قال حدثنى جدى أحمد بن محمد حدثنا عبدالجبار بن الورد المكى قال: سمعت ابن أبى مليكة يقول:

جاءت خديجة إلى النبى ﷺ بحيس وهو بحراء فجاءه جبريل فقال: يا محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيسا معها والله يأمرك أن تقرئها السلام وتبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. فلما أن رقيت خديجة قال لها النبى ﷺ يا خديجة إن جبريل قد جاءنى والله يقرئك السلام ويبشرك ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب فقالت خديجة: الله السلام ومن الله السلام وعلى الله السلام وعلى جبريل السلام»[١٣٩].

وربما تغدو هاتان الواقعتان من الهامشيات إنما الذى يقطع بتمتع الهندوز بالثقافة الكتابية هو موقفها عندما أخبرها «**أحمد**» بما حدث له فى غار حراء وبلقائه بملاك الرب جبرائيل أول مرة فى المنام وتصديقها إياه فبدون الخلفية الدينية لما فعلت ولارتاعت وظنت به الظنون مثل مس من الشيطان أو أنه هاتف مثل الذى يدعى الكهان مجيئه لهم.

صحيح أنها أخذته «راكب الجمل» إلى ورقة وغيره «=مقدم وأعضاء الحلقة الخارجية» لسؤالهم أو ذهابها بمفردها إليهم إنما ذلك تم للاستيثاق والتأكيد والتيقن والتثبت لأن المسألة جد فارقة لا ينبغى لها أن تنفرد فيها برأيها.

تلك هى جوانب ثقافة أم هند وشواهدها وحججها وبراهينها.

• • •

سيدة نساء الدنيا خديجة عاشت مع «المجتهد» عشرة أعوام بعد واقعة غار حراء لأنه مكث فى مكة بعدها ثلاثة عشر عاما وروحها الطاهرة انتقلت إلى بارئها راضية مرضية قبل نزوحه «هجرته» إلى يثرب «المدينة» بثلاثة أعوام ومع ذلك فهى لم ترو عنه حديثا واحداً. إن الصحاح والمسانيد والجوامع والسنن والموطآت «ج. موطأ» والمعاجم والأمالى والطبقات والمناقب والشمائل والفوائد.. إلخ لا يوجد فيها حديث واحد لخديجة ولا يوجد مسند باسم مسند خديجة مع وجود مسانيد لعدد كبير من الصحابة حتى صغارهم سواء فى السن أو المقام.

وفى المقابل نجد أن عائشة بنت أبى بكر تزوجها «الذى سيفه على عاتقه» وهى بنت ست سنوات ودخل بها وهى بنت تسع سنوات وكان هو فى الثانية والخمسين من عمره المبرور وظلت معه تسع سنوات إذ إنها بلغت الثامنة عشرة عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا. ومع ذلك روت عنه ألفين ومائتين وعشرة أحاديث وهذا أقل عدد ذكره جهابذة علم الحديث.

وهنا يثور فى الذهن سؤال على قدر من الأهمية: لماذا؟ ما العلة؟ ما السبب؟

وقفت كثيرًا عند هذا السؤال ودار فى ذهنى عدد من الردود أو الإجابات ولم أستطع أن أهتدى إلى إجابة وافية بيد أن أقربها إلى الصحة أو إلى المعقولية أو إلى المنطق.. هو موقف كل من الزوجتين بالنسبة لـ«الموقن».

التيمية ابنة أبى بكر تلميذة وتابعة ومتلقية أما سيدة نساء الدنيا فهى الأم الرؤوم وهندوز التجربة التى خرج منها «صاحب المغنم» من الفتى الهاشمى القرشى إلى القادم المنتظر، ومن الأمين والصادق إلى المأمول المرتقب الذى طال التشوف إليه والذى رد الاعتبار إلى العرب وصار لهم حامل كتاب مثل موسى بالنسبة لليهود وعيسى عند النصارى.. ولعل هذا يفسر أمرًا آخر أثار انتباهى وأنا أقرأ سيرته العظيمة الفائحة بالرائحة الطيبة كما المسك، عشرات المرات فى المصادر والمراجع أن ابنة أبى بكر طفقت تناديه بصفة مستمرة: يا رسول الله، أما سيدة نسوان قريش فلما توجه إليه خطابا تقول: يا أبا القاسم أو يا محمد، وكذا عندما تتحدث إليه.. إلا فيما ندر والاستثناء لا يقاس عليه.

وهى التي توجهه وتطلب إليه وتشير عليه.. بينما التيمية ابنة أبى بكر فعلى العكس هى التى تلبى وتطيع وتمتثل وتأتمر «بأمره» وتنفذ وتسمع.. إلخ وهو الفرق الواضح الذى لا يحتاج إلى زكانة لمعرفته أو حتى إلى لمسة باليد بين

خطاب الهندوز واستجابة التلميذة.

• • •

وهنا يتصدى لنا لجوج فيصيح قائلاً أو يقول صائحًا: ليست خديجة هى الوحيدة من بين زوجات **«أول من يفيق من الصعقة»** من لم ترو عنه حديثا واحدا بل هناك من بين التسع اللائى نكحهن بعد وفاتها ثبت من كافة المصادر المعتبرة أنها فعلت ذلك أيضا وهى زينب بنت خزيمة(١٤٠).

وهذا دفع فسيد فعلاوة على ما به من لجاجة فإنه يتسم بالجهالة. ذلك أن الهلالية المذكورة «زينب بنت خزيمة» وشهرتها أم المساكين «لم تلبث عنده ﷺ إلا شهرين أو ثلاثة»(١٤١).

أما د. حمزة النشرتى فقد ارتفع بالمدة إلى ثمانية شهور «واختلف الرواة فى المدة التى بقيت زينب فى بيت النبى ﷺ فمن قائل إنها ثمانية أشهر إذ إنها تزوجت فى رمضان وتوفيت فى ربيع الآخر»(١٤٢).

والأمانة العلمية تقتضينا أن نذكر أنه أورد أن هناك من قال إنها ظلت عند «الأمجد» عامين بيد أنه لم يبين مصدره فى ذلك.

ولكن مؤرخا ثبتا تلقى موسوعته عن الصحابة خالص التقدير يؤكد أنها لم تلبث عنده إلا يسيرًا وأن ذلك لا خلاف فيه «وتزوجها رسول الله ﷺ بعد حفصة، قال أبو عمر: ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيرا شهرين أو ثلاثة حتى توفيت وكانت وفاتها فى حياته لا خلاف فيه»(١٤٣).

وهكذا ثبت أن ما طرحه النشرتى فى «حياة الصحابيات» عن مكوثها لدى «المرشد» سنتين لا يثبت مع ما أكدته المصادر والمراجع، وكلها كما يرى القارئ محترمة.

ونعود إلى سياقة البحث وهو أن ذلك الدفع واه ومتهافت لأن الهلالية أو أم المساكين إذا لم يثبت لها رواية عن **«صاحب المحجة البيضاء»** فلها عذرها وهو بقاؤها معه مدة قصيرة وترتيبا على ذلك فقياسها بـ«سيدة نساء الدنيا» فى هذه الخصوصية قياس من الفارق.

ويظل التعليل الذى قدمناه فيما سبق عن عدم رواية «الهندوز» ولا لحديث فرد لـ**«الشتن»** هو التعليل الأقرب إلى الصحة والأدنى إلى المعقولية والأكثر اتساقا مع المنطق.

الهوامش

(١) من المعجم الوسيط: للغة العربية

(٢) المذكر والمؤنث: لأبى بكر الأنبارى، ٥٣٢٨ . تحقيق الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة ومراجعة د. رمضان عبدالتواب، الجزء الثانى، ص ٢٨٩، الملزمة ١٩ ط ١٤١٩هـ/١٩٩٩م نشرته لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وزارة الأوقاف، مصر.

(٣) كتاب نسب قريش: لأبى عبدالله بن المصعب الزبيرى ١٥٦/٥٢٣٦، نشره وصححه وعلق عليه ليفى بروفنسيال، ص ٢، الطبعة الثانية ١٩٧٦م، دار المعارف بمصر.

(٤) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد على، الخامس، ص ٦٠٥.

(٥) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧١، ص ١٣٧، دار المعارف بمصر.

(٦) موسوعة أمهات المؤمنين: د. عبدالصبور شاهين، وإصلاح الرفاعى، ص ٧٥، ط أولى ١٤١٢هـ/١٩٩١، الزهراء للإعلام.

(٧) سيرة النبى محمد: تأليف كارين آرمسترونج ترجمة د. فاطمة نصر، ود. محمد عنانى، ص ١٢٨ الطبعة الأولى، الكتاب الأول من سلسلة كتب سطور الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار سطور للنشر، القاهرة.

(٨) العامة فى مصر تقول فى مثل هذا العمل: ما فيش حد أحس من حد.

(٩) جمع صنديد وهو السيد الشريف الشجاع من «القاموس المحيط» للفيروز أبادى.

(١٠) العامة فى مصر تقول: الأسعد. أ هـ.

(١١) الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزى، الأول، ص ص ١٢٢-١٢٥، ط ١٣٨٦هـ.

(١٢) السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجانى، هامش الصفحة ١٩٢، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره.

(١٣) القديسة مريم أم المخلص: لملاك لوقا، ص ٧٧ العدد ١١ من سلسلة سير القديسين، الطبعة الأولى ١٩٩١م، الناشر مكتبة المحبة، شبرا مصر.

(١٤) الآية ٤٢ من سورة آل عمران.

(١٥) الآية ٥٥ من سورة آل عمران.

(١٦) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية: لأحمد أمين، ص ١٨٨ فقرة «الختان» الطبعة الأولى ١٩٥٣م، الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة وص ٣٨٥ من الطبعة الثانية التي أصدرها المجلس الأعلى للثقافة تقديم وتعليق محمد الجوهرى ١٩٩٩، مصر.

(١٧) المرجع السابق ص ١٨٧ من الطبعة الأولى وص٢٥٨ من الطبعة الثانية.

(١٨) المولد: دراسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر: من سلسلة «دراسات فى المجتمع» لفاروق أحمد مصطفى، ص ٢٠٢ الطبعة الأولى ١٩٨٠، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية.

(١٩) يسمون تلك الفترة بالجاهلية وهى تسمية أيديولوجية القصد منها التنفير والتقبيح والتسوىء.
(٢٠) المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية.
(٢١) أساس البلاغة: جار الله أبى القاسم الزمخشرى.
(٢٢) حياة سيد المرسلين: الأبراشى، ص ٣٣، ط أولى ١٩٨٠، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة.
(٢٣) أوائل العرب عبر العصور والحقب: لطاهر جليل حبوش، الثانى، ص ١٠٦، طبعة الأولى ١٩٩١ دون ناشر، بغداد، العراق.
(٢٤) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد على، السادس، ص ٥٩٠.
(٢٥) تاريخ اليعقوبى: الأول، ص ٢٥٧.
(٢٦) هامش ص ٢٣٥ من كتاب «مكة والمدينة».
(٢٧) اتساع يقال سراويل مفرسخة متسعة «المعجم الوسيط» وهى السعة ومنها اشتق الفرسخ «المصباح المنير».
(٢٨) محمد رسول الله سيرته وأثره فى الحضارة: جلال مظهر، ص ٢٣، الطبعة الأولى ١٩٧١، مكتبة الخانجى بمصر.
(٢٩) محمد رسول الله: جلال مظهر، ص ٦٠.
(٣٠) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٢، سابق. السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ٣٥٦ وما بعده.
(٣١) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجانى الأول ص ٢٥٥ . ومحمد رسول الله ﷺ: لمحمد رضا ص ٥٦، د.ت.ن - دار إحياء الكتب العربية بمصر.
(٣٢) كتاب نسب قريش: للمصعب الزبيرى، ت. ليفى بروفنسيال، ص ٢٠٩ سابق.
(٣٣) جمهرة أنساب العرب: لأبى محمد على.. بن حزم الأندلسى ٤٥٦/٣٨٤، تحقيق عبدالسلام هارون، ص ٤٩١، الطبعة الخامسة ١٩٨٢، دار المعارف بمصر.
(٣٤) الروض الأنف: للسهيلى، الجزء الأول، ص ٢٥٥، ط شقرون.
(٣٥) مكة والمدينة: لأحمد إبراهيم الشريف، ص ٢٥٥.
(٣٦) دراسات فى السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ص ٧٧ سابق.
(٣٧) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد على، الجزء السادس ص ٤٧٧، الطبعة الثانية ١٩٧٨، الناشر دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
(٣٨) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٥، سابق.
(٣٩) جمهرة أنساب العرب: لأبى محمد على بن حزم الأندلسى ٤٥٦/٣٨٤هـ، تحقيق عبدالسلام هارون، ص ١١٨، الطبعة الخامسة ١٩٨٣م، دار المعارف بمصر.
(٤٠) أنساب الأشراف: للبلاذرى، الأول، ص ٧٩ سابق.
(٤١) يفهم. فإن قوله نقهت الحديث يعنى فهمته. «تصحيح الفصيح وشرحه» لابن درستويه، تحقيق د. محمد بدوى المختون، مراجعة د. رمضان عبدالتواب، ص ١١٣، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م من إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.
(٤٢) تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدى، الجزء الأول، ص ٤٦٣، تحقيق عبدالستار أحمد فراج الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥، العدد ١٦ من سلسلة التراث العربى وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
(٤٣) خبط عشواء، يضرب مثلا لمن يصيب مرة ويخطئ أخرى والعشواء الناقة التى لا تبصر ليلا وهى تطأ كل شىء «ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب» لأبى المنصور الثعالبى النيسابورى ٤٢٩/٣٥٠، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المثل ٥٤٢، ص ٣٥٤، الطبعة الأولى ١٣٨٥، العدد ٥٧ من سلسلة ذخائر العرب الناشر دار المعارف بمصر.
(٤٤) «ذكت الشمس ومنه قيل لها ذكاء والصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها» أساس البلاغة: للزمخشرى، الجزء الأول ص ٣٠٠، فصل الذال والكاف، ص ٣٠٠ الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، مركز

تحقيق التراث الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٤٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ٤٠٧ وما بعدها.

(٤٦) ويمكن أن يقال للجارية الغلامة وجاء فى الشعر يهان لها الغلامة بالتاء المربوطة «المصباح المنير» للمقرى الفيومى.

(٤٧) فى المعجم الوجيز: المفرطح - المبسوط والعريض.

(٤٨) على هامش السيرة: طه حسين، الثانى ص ١٥٨ وما بعدها، سابق.

(٤٩) خربقة - شقه وقطعه والشىء أفسده من «القاموس المحيط» للفيروز أبادى.

(٥٠) الرسول فى رمضان: للدكتور محمد حسنى الخربوطلى، ص ص ٢٨/٢٤.

(٥١) فى المختار من صحاح اللغة: وليجة الرجل - خاصته.

(٥٢) فى المعجم الكبير: لمجمع اللغة العربية، الجزء الثانى حرف الياء - بطانة الرجل - صاحب سر المرء الذى يشاوره وينبسط إليه ومن يخصه بالإطلاع على باطن أمره.

(٥٣) جزيرة على بعد مائتى فرسخ من عمان.

(٥٤) ١. على هامش السيرة: الجزء الثانى، ص ١٣٨ وما بعدها، الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٠م، دار المعارف بمصر.

٢- مولد النبى: الإمام البرزنجى، ص ١٣ وما بعدها، د.ت. مكتبة القاهرة الصنادقية، الأزهر، مصر.

٣- تاريخ الطبرى: الجزء الثانى ص ٢٨١، الطبعة الرابعة ١٩٧٧، دار المعارف بمصر.

٤- الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١١٢ وما بعدها.

٥- السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٢٦٦.

٦- السيرة النبوية: لابن إسحق، الأول، ص ١٥٣، ط أخبار اليوم.

٧- أنساب الأشراف: للبلاذرى، الأول ص ٩٧.

٨- السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ٢١٤.

٩- دراسات فى السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨١-٨٢، سبق ذكره.

(٥٥) تصحيح الفصيح وشرحه: لابن دستوريه ص ١٣١، تحقيق د. محمد بدوى المختون، مراجعة د. رمضان عبدالتواب، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، من إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، بمصر.

(٥٦) هامش ص ١٣١ من المصدر السابق بقلم المحقق د. محمد بدوى المختون.

(٥٧) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للقمى النيسابورى، تحقيق حمزة النشرتى وآخرين، المجلد الحادى عشر، ص ٤٢٨، صدر من القاهرة دون تاريخ ودون ناشر.

(٥٨) صبّ الماء أو نحوه صبا أى سكبه من «المعجم الوسيط».

(٥٩) أخبار مكة وما جاء بها من الآثار: للأزرقى، تحقيق شكرى ملحسن، الجزء الثانى، ص ٢٤٣، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار الأندلس، بيروت.

(٦٠) فى «المعجم الكبير» البرزة من النساء - البارزة المحاسن والموثوق برأيها وعفافها والجليلة التى تظهر للناس ويجلس إليها القوم ويتحدثون عندها أو امرأة برزة بارزة المحاسن أو متجاهرة كهلة جليلة تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون وهى عفيفة «القاموس المحيط للفيروز آبادى».

(٦١) أنساب الأشراف: البلاذرى، الأول، ص ٧٩ سابق.

(٦٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٦٣.

(٦٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١٧٦، وما بعدها.

(٦٤) الوفا بأحوال المصطفى: لأبى الفرج عبدالرحمان بن الجوزى، تحقيق د. مصطفى عبدالواحد، الجزء الأول ص ص ٨٦-٨٧، ط أولى ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفى، القاهرة.

(٦٥) الأحدوثة - بضم الألف - بوزن الأعجوبة - ما يتحدث به من «مختار الصحاح» للرازى، ترتيب محمود خاطر، ط١٩٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سمعت منه أحدوثة مليحة «بفتح الألف» من «أساس البلاغة» للزمخشرى، الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أما ابن السكيت فقد رجّح ضم الألف، وهى الأحدوثة بضم الألف مثل الأغلوطة والآسيوية والأعجوبة كلها بضم الألف، فيقال: انتشر فى الناس أحدوثة حسنة - من «إصلاح المنطق» لابن السكيت ٢٤٤/١٨٦، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، باب أفعولة، ص ١٧١، ذخائر العرب، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م، دار المعارف بمصر. وهل هناك أملح وأحسن من أحدوثة الغار!!

(٦٦) السيرة الحلبية: الأول ص ٤٩٣.

(٦٧) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى: للشرقاوى، تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، الجزء الثانى ص ٩١، ط ١٤١١هـ/١٩٩٠م كتاب الشعب بمصر وأهمية هذا المصادر أنه يجمع بين البخارى وصاحب الجامع الصحيح والعلامة المحدث الزبيدى ٨١٢-٨٩٣، وشيخ الإسلام الشرقاوى ١١٥٠-١٢٢٦، ثلاثة أسماء شوامخ لا يجرؤ مسلم على أن يشك فيها ثم حقق المصدر وعلق عليه الشيخ أحمد عمر هاشم مدير جامعة الأزهر.

(٦٨) دراسات فى السيرة النبوية: لحسين مؤنس ص ٩٨ وما بعدها، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م الناشر الزهراء للأعلام العرب بمصر.

(٦٩) وتبت من بلاد الترك اشتهرت بالمسك الطيب حتى ضرب به المثل أ.هـ. «ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب» للثعالى النيسابورى.

(٧٠) الركركة: الضعف من «القاموس المحيط» للفيروز أبادى.

(٧١) الفهة: السقطة والجهلة من «مختار الصحاح» للرازى، ترتيب محمود خاطر ط ١٩٨٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٧٢) العضيهة: الإفك من «مختصر العين» لأبى بكر الزبيدى الإشبيلى، تحقيق د. صلاح مهدى الفرطوسى، الجزء الأول ص ٩٣، الطبعة الأولى ١٩٩١م دار آفاق عربية، بغداد العراق.

(٧٣) الروض الأنف: للسهيلى، طبعة شقرون.

(٧٤) المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابورى تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الجزء الرابع، الحديث رقم ٢٤٨٦/٦٨٨٨، ص ٦٣، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٧٥) مكان أزعر: قليل النبات وزعر الرجل زعارة قل خيره من «أساس البلاغة للزمخشرى» الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٧٦) المصلى: الفرس الذى يتلو السابق لأن رأسه عند صلاة أى مغرز ذنبه من «المختار من صحاح اللغة».

(٧٧) جلى الفرس تجلية أى سبق فى الحلبة من «المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية.

(٧٨) فأما الحامة فهى الخاصة. يقال دعينا فى الحامة لا العامة، ويقال كيف حامتك وعامتك من كتاب «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكى الصقلى ت: ١١٠٧/٥٠١م، تحقيق د. عبدالعزيز مصر، ص ١٠٦، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، لجنة إحياء التراث الإسلامى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

(٧٩) السمادع جمع سميدع، وهو السيد الكريم الشريف السخى الموطأ الأكناف الشجاع «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكى الصقلى ص ١٢٧، مصدر سابق و«شرح الفصيح فى اللغة» لأبى منصور الجبان، تحقيق د. عبدالجبار جعفر القزاز، ص ١٩٨، الطبعة الأولى ١٩٩١م، آفاق عربية و«القاموس المحيط» للفيروز أبادى، فصل السين باب العين، ولكنه «الفيروز أبادى» يرى أنه بالذال ولا بالدال «أى السميذع».

(٨٠) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب: لأبى منصور الثعالبى النيسابورى ٤٢٩/٣٥٠، تحقيق محمد

أبو الفضل إبراهيم، ص ص ١٠، ١١، ط ١٩٨٥، دار المعارف بمصر.

(٨١) قال الأزهري وابن فارس لقن الشيء وتلقنه فهمه وهذا يصدق على الأخذ مشافهة وعلى الأخذ من المصحف «المصباح المنير» للمقرى الفيومى تحقيق د. عبدالعظيم الشناوى، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار المعارف بمصر.

(٨٢) السيرة النبوية: للسيد أبى الحسن على الحسنى الندوى، ص ص ٨٥/٨٣، الطبعة الأولى ربيع الثانى ١٣٩٧- أبريل ١٩٧٧، دار الشرق، جدة.

(٨٣) مع المصطفى فى عصر المبعث: د. بنت الشاطئ، العدد ٣٢٣ من سلسلة اقرأ، نوفمبر ١٩٦٩، دار المعارف بمصر.

(٨٤) عبقرية محمد: لعباس محمود العقاد، نرجح أنها الطبعة الأولى، ص ١٩، د.ت.د مطبعة دار التأليف بمصر.

(٨٥) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٥ سابق.

(٨٦) لحنت له لحنا: قلت له ما يفهمه عنى ويخفى على غيره وعرفت ذلك فى لحن كلامه - فى فحواه وفيما صرفه إليه من غير إفصاح «أساس البلاغة» للزمخشرى، الثانى، سابق.

(٨٧) على هامش السيرة: الثانى، طه حسين، ص ١٥١.

(٨٨) قصص الأنبياء: لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص ص ٢٩٩-٣٠١، الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م الناشر مكتبة دار التراث، بمصر.

(٨٩) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٠.

(٩٠) السيرة النبوية: للندوى، ص ص ٨٣-٨٥، مرجع سابق.

(٩١) أنساب الأشراف: الأول، للبلاذرى، ص ٩٧، وما بعدها.

(٩٢) السمط الثمين: للمحب الطبرى، ص ١٤، ط المكتبات الأزهرية، و«عيون الأثر» الأول، ابن سيد الناس، ص ٤٧ وما بعدها، و«إمتاع الأسماع» الأول للمقريزى، ٣٧.

(٩٣) الحول هو القوة ويقال لا حيل ولا قوة من «المختار من صحاح اللغة» لمحمد محيي الدين عبدالحميد وآخر، وفى «المصباح المنير» للمقرى الفيومى ولا حيل ولا قوة إلا بالله.

(٩٤) فى القاموس المحيط: أى سعة العيش.

(٩٥) فى المعجم الوسيط: عز لحمه - اشتد وصلب وبالقياس عز شبابه قوى.

(٩٦) فى المعجم الوسيط: الأسر شدة الخلق.

(٩٧) العامة تقول: فتوة كذا.

(٩٨) فى القاموس المحيط للفيروز أبادى: الوهز هو الحث والدفع.

(٩٩) فى المعجم الوجيز: غطرش - تعالى عن الحق.

(١٠٠) الرسول فى بيته: لعبدالوهاب حمودة، ص ٦ وما بعدها، العدد٣٢ من سلسلة المكتبة الثقافية، مارس ١٩٩١، وزارة الثقافة والإرشاد القومى مصر.

(١٠١) حياة سيد المرسلين محمد ﷺ: لمحمد عطية الإبراشى، ص ٣٣ وما بعدها، الطبعة الأولى ١٩٨٠، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة وأورد الخبر ذاته محمد رضا فى كتابه «محمد رسول الله» ص ٣٩ وهو مرجع سبق لنا ذكره، وأضاف أن سيدة قريش أمرت جواريها أن يرقصن كما ذكره د. عبدالوهاب حمودة.

(١٠٢) الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه: للشيخ عبدالحليم محمود الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، الكتاب الأول، من سلسلة البحوث الإسلامية، التى يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ص ٧٠، ربيع الأول ١٣٨٩-١٩٦٦م، مصر.

(١٠٣) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ: لمحمد على الصابونى، ص ص ٣٤-٣٨، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، طبعة الشربتلى، دون تحديد مكان النشر.

(١٠٤) المفصل: جواد على، السادس ص ٥٩٠.

(١٠٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٧ وما بعدها.
(١٠٦) أنساب الأشراف: البلاذرى، الأول، ص ٩٨.
(١٠٧) الخصائص الكبرى: الثانى، السيوطى، ص ٢١٢.
(١٠٨) صفوة السير: إعداد محمد الحبش سابق،
(١٠٩) كتاب نسب قريش: للمصعب الزبيرى، ص ٢٠٧، سابق.
(١١٠) السيرة الحلبية: ص ٣٩٣، الأول، سابق.
(١١٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: المجلد الأول ص ص ١٤١-١٤٢، سابق.
(١١٣) السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجانى، هامش ص ١٩٣، الأول، سابق.
(١١٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨.
(١١٥) أمية النبى محمد ﷺ: بقلم محمد مصطفى الهلال ص ١٠ من العدد ٤ السنة ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٠ يوليو ١٩٩٩م من مجلة «منار الإسلام» تصدر فى دولة الإمارات العربية المتحدة.
(١١٦) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى: للشرقاوى تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، ص ٩١، الجزء الثانى، طبعة ١٤١١هـ/١٩٩٠م، كتاب الشعب، دار الشعب للنشر بمصر.
(١١٧) دراسات فى السيرة النبوية: حسين مؤنس.
(١١٨) المفصل: جواد على، السادس، ٦٠٦.
(١١٩) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ١٨٢.
(١٢٠) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ص ٣١١-٣١٢.
(١٢١) السيرة الحلبية - ٧٥ وابن كثير -٢٧٢، مكة والمدينة: لأحمد إبراهيم الشريف، ص ٢٥٣.
(١٢٢) المفصل: جواد على، السادس ص ٦٠٥.
(١٢٣) المفصل: جواد على، السادس، ص ٦٠٥.
(١٢٤) فضلا اقرأ الآية ١٠٣ من سورة النحل.
(١٢٥) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠٤.
(١٢٦) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠٣.
(١٢٧) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠٦.
(١٢٨) الخصائص الكبرى: السيوطى، الأول، ص ١٩٢.
(١٢٩) الخصائص الكبرى: السيوطى، الأول، ص ١٢٥.
(١٣٠) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠١، سابق.
(١٣١) تاريخ الشعوب العربية: لحورانى ترجمة صلاح الدين، ص ١١، ط أولى، الألف كتاب الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب نقلا عن «المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتى، ص ص ٨٠-٨٣، سابق.
(١٣٢) المسيحية والحضارة العربية: د. جورج شحاتة قنواتى، ص ٩٥٩ الطبعة الأولى ١٩٩٢، دار الثقافة مصر، نقلا عن تاريخ الشعوب العربية لألبرت حورانى، ترجمة نبيل صلاح الدين، ص ١١ الطبعة الأولى ١٩٩٧ - العدد ٢٦٧، الألف كتاب الثانى الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(١٣٣) السيرة النبوية: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تحقيق حسام الدين القدسى، ص ٣٦، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م دار الكتب العربية، لبنان.
(١٣٤) أخبار مكة: للأزرقى، الأول، ص ١٦٧.
(١٣٥) أخبار مكة: للأزرقى، ص ١٦٧.
(١٣٦) أخبار مكة: للأزرقى، ص ١٦٨، وما بعدها مصدر سابق، والمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد على، ص ١٧٢.
(١٣٧) المفصل: جواد على، السادس ص ٦٠٧.
(١٣٨) أساس البلاغة: للزمخشرى، هو من جرثومة العرب.

(١٣٩) أخبار مكة: للأزرقى، الثانى، ص ٢٠٤، و«دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ» على الغلاف الخارجى تحقيق الإمام عبدالحليم محمود والدكتور محمود ابن الشريف، أما على الغلاف الداخلى فلم تذكر كلمة تحقيق واقتصر على الإمام عبدالحليم محمود الذى وصل إلى منصب شيخ الأزهر، والحديث نقلا عن أبى زرعة ورواه البخارى فى الاصحيح عن قتيبة ورواه مسلم عن أبى شيبة.

(١٤٠) دور المرأة فى خدمة الحديث فى القرون الثلاثة الأولى: لأمال قرادش بنت الحسين، هامش ص ٤٥، كتاب الأمة، العدد ٧٠، ربيع الأول ١٤٢٠هـ السنة التاسعة عشر، وزارة الأوقاف، دول قطر.

(١٤١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د. فاطمة محجوب، ص ١٣٠ من العدد ٢٦، ط أولى، د.ت، الناشر دار الغد العربى، بمصر.

(١٤٢) حياة الصحابيات: لـ أ.د. حمزة النشرتى وآخرين، ص ٥٢، ط أولى ١٩٩٩، والناشر هو المؤلف، القاهرة.

(١٤٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير الجزرى، ٥٥٥/٦٣٠هـ، ص ١٢٩ من المجلد السابع، كتاب النساء، مصدر سابق.

الفصل الرابـــع

التفرس في اليعسوب

التفرس فى اليعسوب

من معانى اليعسوب ـ الرئيس الكبير[١].

وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ـ وهو من رهط بنى أسد الذين تكلمنا عنهم بتوسع فى فصل «الهندوز».

وهو ابن عم الطاهرة خديجة.

«أما أن ورقة كان ابن عمها فهذه هى الحقيقة»[٢].

« ... ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل»[٣].

ومما له دلالة عميقة وصلة حميمة ببحثنا أن ورقة أوشك أن يتزوج ابنة عمه الطاهرة ولكن لم يوفق فى ذلك لأسباب لم تفصح عنها كتب سيرة محمد التى هى أجمل صوتا من هزار دستان[٤].

«عندما بلغت خديجة سن الزواج ذكرت لابن عمها ورقة فلم يقدر على زواجها ...»[٥].

علاوة على صلة القربى بين الطاهرة والقس وإذ إن سن زواج الجارية «الفتاة» آنذاك لا يتعدى الخامسة عشرة وإذ إنها نكحت **«الكافى»** وهى فى السادسة والأربعين من عمرها المبروك فإن ذلك يعنى أنها استمرت على علاقة حميمة بابن العم ورقة لمدة أنافت على ثلاثين عامًا فلا مشاحة والحال كذلك أن يغدو «ورقة» هو أستاذها وهى تخوض التجربة المعجبة التى طرحت أروع ثمرة شهدتها جزيرة العرب.

والمرجع الذى ذكر الخطبة غير الموفقة، حديث بيد أننا لا نكتفى بالمراجع الحديثة مع تقديرنا لها رغم وجود أخطاء أو هنات أو تجاوزات فيها نرجو أن نتمكن من الكشف عنها فى حينه ومن ثم فنحن لا نعوّل عليها بل حتم لازم أن نقصد المصادر أى الكتب التراثية خاصة تلك التى تحظى بالتقدير.

«قال ابن إسحق وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل وكان ابن عمها وكان نصرانيًا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس»[٦].

هذا الخبر نفحنا به ابن سيد الناس فى مؤلفه «عيون الأثر» وهو من دواوين السيرة الرفيعة الدرجة وسنده فيه ابن إسحق صاحب السيرة التي قام ابن هشام باختصارها أو تهذيبها ومن حسن الحظ أنها «=سيرة ابن إسحق» حفظت لنا بخلاف سيرة الزهرى التى اندثرت.

كذلك أورده ابن الجوزى فى «الوفا»: «وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل فلم يقض بينهما نكاح»(٧).

وأورده ابن هشام فى سيرته: «قال ابن إسحق: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس»(٨).

• • •

إنما الذى يهمنا فى خط سير اليعسوب هو تنصره وتبحره فى علوم النصرانية.

ذلك أنه اجتمع نفر من قريش رفضوا عبادة الأوثان منهم: زيد بن عمرو بن نفيل العدوى «عم عمر بن الخطاب» وعثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل وقد اختار الأخيران ديانة عيسى ابن مريم فاعتنقاها، ولأهمية هذه الخطوة التى خطاها ورقة فإننا سوف نقف عندها مليا ومن حق القارئ علينا أن نقدم له أدلة الثبوت عليها كيما لا ندع ذرة من شك فى تنصر اليعسوب وتضلعه فى النصرانية وحيازته لرتبة دينية عالية وقيامه بتعريب قدر مفرطح من التوراة والإنجيل ونقله من اللسان العبرانى إلى لغة العرب ذلك أن هذا العمل من الخطورة بمكان وله أثر غائر ونافذ فى إنجاز التجربة المعجبة كما ذكرنا، وسوف نذكر ونحن نستميح القارئ عذرا إن حدث تكرار بيد أن ما توخيناه والذى فى اعتقادنا أنه مهم للغاية هو المصادر العالية المقام التي تضافرت وتعاضدت على تأكيد نصرانية ورقة وأنه شرب من علومها نهلاً بعد علل وأنه نقل من النصرانية إلى العربية العدد الوفير من الإصحاحات والصفحات من الكتاب المقدس بقسميه «ورقة.. ابن عم خديجة وكان امرءًا تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»(٩).

هذا الخبر حمله إلينا صحيح البخارى مقدم الصحاح الستة وأصح كتاب بعد القرآن العظيم.

«تنصر أى صار نصرانيًا.. فأما ورقة فأعجبه دين عيسى ولم يبدل ولهذا أخبر بشأن النبى ﷺ والبشارة به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل..»(١٠).

ويشرح ابن حجر العسقلانى الأثر الذى أخرجه البخارى فى صحيحه ويزيده إيضاحا فيقول:

«وفى رواية يونس ومعمر: ويكتب «يعنى ورقة» من الإنجيل بالعربية ولمسلم فكان يكتب الكتاب العربى والجميع صحيح لأن ورقة تعلم اللسان العبرانى والكتاب العبرانى فكان يكتب الكتاب العبرانى كما كان يكتب الكتاب العربى لتمكنه من الكتابين واللسانين لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن ميسرا كتيسير حفظ القرآن الذى خصت به هذه الأمة فلهذا جاء فى صفتها: أناجيلها فى صدورها..»[١١].

وقد ركز الخبر على تمكن القس من اللغة العبرية مثل تمكنه من اللغة العربية وأن التعريب شمل التوراة والإنجيل وهو خبر بالغ النفاسة.

وفتح البارى للإمام العسقلانى أحسن مؤلف فى شرح صحيح البخارى ونأمل أن يختزن القارئ ما ذكره من لقاء القس للرهبان الذين ظلوا على دين عيسى قبل تبديله إذ سنتناوله بعد قليل بتفصيل ونوضح بصماته التي سوف ندركها من خلال التجربة الفذة.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[١٢]. فى «اللؤلؤ والمرجان» جمع صاحبه الأحاديث التى اتفق عليها البخارى ومسلم «الشيخان» وكلاهما يقفان على رأس الصحاح الستة ومقدمها «البخارى» هو الأول أو السابق وآخرها «مسلم» هو التالى له أو المصلى وقد اتفقا على نصرانية ورقة ونقل إصحاحات العبرانية إلى العربية.

ثم ذكر الكلاعى فى الاكتفاء:

«ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل»[١٣].

وامتاز هذا الأثر بأنه ذكر أن القس سمع من أهل التوراة أيضا لا من أهل الإنجيل فقط وهو عين ما نص عليه العسقلانى، ثم نأتى إلى الإمام أحمد بن حنبل شيخ المذهب المعروف ومسنده أحد دواوين السنة المحترمة وقد ذكر روايتين للحديث.

الرواية الأولى:

«حتى أتت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة.. وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربى فكتب من العربية ما شاء الله أن يكتب. رواه الزهرى عن عروة عن عائشة»[١٤].

هذه الرواية رفعها إلينا الزهرى عن عروة عن عائشة وبذلك تصير مؤكدة وموثقة.

الرواية الأخرى:

«وبرواية محمد بن مسلم حدثنا عروة بن الزبير.. فانطلقت بى خديجة إلى

ورقة.. وكان رجلاً قد تنصر شيخا أعمى يقرأ الإنجيل بالعربية»(١٥).

وذكر د. حمزة النشرتى أن الشيخين أجمعا على ما يأتى:

- ورقة هو ابن عم خديجة.
- تنصر أى دخل دين ابن مريم.
- يكتب من الإنجيل المكتوب بالعبرانية أى ينقل منه إلى اللسان العربى «حتى أتت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة رضى الله عنها وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. أخرجه الشيخان»(١٦).

وأوردها المحب فى «السمط» فقال: «... ورقة وكان ابن عمها «الطاهرة» وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس...»(١٧).

ثم نختم بما جاء فى تاج مؤلفات السيرة المحمدية التى هى أطيب رائحة من ورد جور(١٨).

«ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل..»(١٩).

لعلنا بعد كل هذه الأدلة لسنا فى حاجة إلى القول بصحة هذا الخبر ووثاقته بعد أن قدمته إلينا مصادر هى فى الدرجة الأولى.

من التراث الإسلامى:

- صحيح البخارى.
- صحيح مسلم.
- فتح البارى
- مسند ابن حنبل
- سيرة ابن هشام
- عيون الأثر
- الوفا بأحوال المصطفى
- السمط الثمين للطبرى
- الاكتفاء للكلاعى

إنما لماذا حرصنا على هذا التوثيق المبالغ فيه؟

الإجابة لا تحتاج إلى ذكاء: ذلك أن نصرانية القس وتضلعه فى علومها ونسخه إصحاحات من التوراة والإنجيل إلى العربية بالإضافة إلى علم الطاهرة بالقراءة والكتابة مع عوامل أخرى كلها تشكل مفاتيح اللغز الذى حير الناس طوال مدة أربعة عشر قرناً.

ولكن هناك باحثا حديثا عرف بالرصانة واشتهر بالرزانة وحاز كتابه عن «حياة محمد» التى أطيب من ريح الخزامى بتقدير وفير حتى إنه طبع مرا

عديدة خريق[٢٠] فى هذه الخصوصية خريقة دلت على عدم فطانته للفرقة النصرانية التى انتهى إليها ورقة وإلى الإنجيل الذى كان يعرب منه والذى ترك بصماته على **«منتج التجربة»** بصورة واضحة لا تخفى على اللبيب ولا تستبهم على الذكى ولا تلتبس على اللوذعى[٢١].

أما ورقة بن نوفل فدخل النصرانية وقيل إنه نقل إلى العربية ما فى الأناجيل..»[٢٢].

ونحن نرى أن هيكلاً أخطأ فى قوله «ما فى الأناجيل» لأن ابن نوفل لم يعرف سوى إنجيل العبرانيين أو إنجيل متى قبل إضافة الإصحاحين الأولين إليه، ويؤيده ما جاء فى «الفتح» للعسقلانى أن القس كان يؤوب إلى ما بقى من الرهبان على دين عيسى الذى لم يبدل وهم الشيعة أو الفرقة النصرانية التي لم تزعم أن ابن مريم إله يعبد مع الله وهم النصارى الموحدون أو النصارى المتهودون أو الأبيونيون «وقد كانت جماعة اليهود المتنصرين فى فلسطين هى الأقرب إلى تعاليم المسيح من حيث كان منها تلاميذه الحقيقيون وعلى رأسهم بطرس مقدم تلاميذه هؤلاء»[٢٣]. وفى مقابلها تقف الفرقة الأخرى على رأسها شاؤول الذى تحول من مضطهد للنصارى إلى زعيم من بدل دين المسيح واعتقد ألوهيته.

«وأظهر ما تتميز به عقيدة هؤلاء الأبيونيين تمسكهم بالتوحيد المجرد وإنكارهم دعوى تأليه المسيح واعتباره مجرد إنسان نبى والتزامهم بكتب موسى والأنبياء وما تقضى به من شعائر وفروض»[٢٤].

وقد تعرضوا من فرقة بولس المغيرين لدين المسيح للاضطهاد ومن ثم فروا بدينهم خارج فلسطين بعد أن وسمهم شاؤول أو بولس وزمرته بالهرطقة ومنهم الجماعة التى وصلت إلى جزيرة العرب وتلك التى استوطنت حدود الشام التى على مشارفها وهذا ما توصل إليه الشيخ محمد الغزالى.

«وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد بن عمرو بن نفيل بعاقبة يخالفون المذهب الرسمى لكنيسة الرومان»[٢٥].

«وقد استكملوا فقط ما يدعى «إنجيل العبرانيين» ولم يبالوا كثيرا بالأسفار الأخرى»[٢٦].

وقيل إنهم طفقوا يقرأون إنجيل متى قبل إضافة الإصحاحين الأولين له اللذين كتبا لإرضاء جماعة بولس من حيث تأليه المسيح وهو أى إنجيل متى فى الأصل مكتوب بالعبرانية ومن ثم يقال إنه إنجيل العبرانيين ذاته «من المحتمل أن يكون إنجيل الناصريين هذا هو الأصل العبرانى لإنجيل متى ثم طرأت عليه توسعة وتعديل...»[٢٧].

وهذا ما تؤيده المصادر المسيحية ذاتها:

«ومن بين اليهود الذين قبلوا المسيح وكان هناك من دخلوا فى شركة كاملة مع إخوانهم الأميين ولم يدعوا أى امتياز لأنفسهم عنهم استنادًا إلى الناموس.. وذلك بإصرارهم على ضرورة حفظ الناموس.. وعلى هذا فقد انتقلوا من كونهم حزبا فى إطار الكنيسة إلى وضع شيعة خارجة عنها ونجدهم فى نحو منتصف القرن الثانى وقد أصبحوا زمرة من الهراطقة.. وبعد ذلك بوقت قصير صنفهم الكاتبون تحت اسم «الأبيونيين».. ولقد أنكروا أن يكون بولس رسولاً ولم يستخدموا سوى إنجيل متى بل وفى صورة مشوهة وكان... رأيهم أن المسيح رجل عادى حبل به بالشكل العادى ولم يتميز سوى ببره وعطية الروح القدس السامية.. ومن ناحية أخرى يتحدث العلامة أوريجانوس عن طائفتين من الأبيونيين ويوضح أن إحدى الطائفتين تنكر الحمل العذراوى بالمسيح بينما تؤيد ذلك الرأى الطائفة الأخرى.. واتخذوا لهم لقب الناصريين «يعنى نسبة التى الناصرة التى ولد بها عيسى ابن مريم أ.هـ»... وهم يتحدثون بالآرامية وكان لهم إنجيلهم الخاص ويذكر شاف أنهم استخدموا إنجيل متى فى العربية..»[٢٨].

أما دائرة المعارف الكتابية فترى:

«أن التاريخ القديم المتفق عليه لهذا الإنجيل أى إنجيل العبرانيين وأغلب الاقتباسات القليلة منه والاحترام الذى يذكره به الكتاب الأوائل والتقدير الذى يلقاه من العلماء عموما فى العصر الحاضر كل هذا تجعل له اعتبارا خاصًا.. وكان جيروم ٤٠٠م يعلم بوجود هذا الإنجيل ويقول إنه ترجمه إلى اليونانية واللاتينية وتوجد اقتباسات منه فى مؤلفات أكلميوندس السكندرى وعلاقته بإنجيل متى الذى يكاد الإجماع ينعقد على أنه كتب أصلا بالعبرية «الآرامية» أثارت جدلاً كبيراً.

ثم تتحدث عن الأبيونيين فتقول إنه:

يمكننا وصف الأبيونيين عموما بأنهم المسيحيون من اليهود الذين عملوا على الاحتفظ بقدر الإمكان بتعاليم العهد القديم.. ويقول جيروم من القرن الرابع: إنه وجد فى فلسطين مسيحيين «هكذا وصحتها مسيحيون أ.هـ» يعرفون باسم ناصريين وأبيونيين ولا نستطيع الجزم هل كانا مذهبين أو أنهما كانا جناحين «هكذا وصحتها جناحان أ.هـ» لمذهب واحد.. وإنجيل الأبيونيين أو الإنجيل الاثنى عشر رسولاً كما كان يسمى أيضا يمثل مع إنجيل العبرانيين المذكور سابقا الروح المسيحية اليهودية.. ويقول أبيفانيوس ٣٧٦م: إن الناصريين لديهم إنجيل متى فى صورة أكمل فى العبرية الآرامية»[٢٩].

يبد أن أحد الباحثين ينبهنا إلى أن إنجيل متى الحالى ليس هو إنجيل متى الأصلى الذى اعتمده النصارى الموحدون أو اليهود المتنصرون أو الناصريون أو الأبيونيون «وأما عن نسبة إنجيل متى إلى الحوارى متى فقد جاء في كتاب

«حياة المسيح» للأب ديدون أن بعض الثقات قال إن الإنجيل الحالى المنسوب إلى متى ليس من كتابته بل هو مقتطف من أصل مفقود كان ينسب إلى الحوارى متى.

وفى الهامش أضاف ما يلى:

«ويزيد هذه الشبهة أن الكتابة فى هذا الإنجيل ليست بضمير المتكلم كما فى لوقا مثلاً، وفى دائرة المعارف البريطانية استبعد موريس فرن أن يكون الإنجيل المعزو إلى متى ليس من كتابته بل هو مقتطف من أصل مفقود كان ينسب إلى متى الحوارى بل لقد نادى «فاستس» فى القرن الرابع من علماء «مانى كيز» أن الإنجيل المنسوب إلى متى ليس من تصنيفه وأضاف بالهامش ما يلى:

اجتمع لكتابة دائرة المعارف البريطانية ما يزيد على خمسمائة عالم من أكبر علماء فرنسا والبلاد الأخرى فى القرن التاسع عشر[٣٠].

ويقول الباحث الشيخ رحمت الله بن خليل الهندى (١٢٣٣/١٣٠٨هـ): «إن الفرقة البيونية تقول إن بولس مرتد وكانت تسلم بإنجيل متى لكن كان هذا الإنجيل عندها مخالفًا لهذا الإنجيل المنسوب إلى متى الموجود عند معتقدى بولس الآن فى كثير من المواضع محرفة عند هذه الفرقة ومعتقدو بولس يرمونها بالتحريف»[٣١].

وكان كيرنثوس الذى عاصر الحواريين يؤكد أن الإصحاحين الأولين فى إنجيل متى «الحالى» والمشتملين على قصة ميلاد عيسى لم يكونا أصلا فى النسخة العبرانية بل هما من إضافة شيعة شاؤول «بولس» دعاة تأليه ابن مريم[٣٢].

• • •

بعد هذه الاستطرادة التى نرى أنها قد استطالت: نقول لعلنا بذلك طرحنا الحجج الدامغات على خطأ هيكل عندما ذكر أن القس نقل إلى العربية ما فى الأناجيل إنما هو إنجيل واحد هو إنجيل العبرانيين الذى حملته معها طائفة اليهود المتنصرين أو النصارى الموحدين أو الأبيونيين أو الناصريين التى فرت من اضطهاد بولس وشيعته واستوطنت جنوب الشام على تخوم الجزيرة العربية ومنطقة الحجاز وربما هى خليط من كل أولئك وعنهم أخذ القس ورقة نصرانيته ويدخل فى هذه الزمرة كل الأسماء التى وردت فى سيرة محمد التى هى أطيب من رائحة الورد. أمثال: بحيرى وسيرجيوس ونسطورس وانسطاس وعداس وميسرة وناصح والأخيران هما غلاما «يدة نسون الدنيا أم هندا». والفرقة بأسرها تعتبر فى نظر بولس وتبعه: هراطقة ومارقون وعلى باطل لأنهم يتمسكون بالتوحيد المجرد وينكرون دعوى تأليه المسيح واعتباره مجرد إنسانى نبى ويلتزمون بكتب موسى والأنبياء وما تقضى به من شعائر وفروض[٣٣].

ومن أميز عقائدهم الإيمان بالولادة العذراوية لعيسى أى أنه ولد من عذراء وروح القدس(٣٤).

وهذه العقائد ذاتها بنصها هى التى وردت فى القرآن العظيم بخصوص المسيح وأمه مريم العذراء البتول:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(٣٥).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(٣٦).

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (٣٧).

أما عن الولادة العذراوية فقد خصص لها القرآن الكريم عدة آيات فى سورة مريم تبدأ من الآية الرابعة عشرة.

وعن عبودية المسيح لله ونفى الألوهية عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٨).

وعن نفى أبوة الله لعيسى أو بنوة الأخيرة لله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ (٣٩).

• • •

هذه الفرقة الهرطيقة فى نظر بولس هى التى أخذ القس ورقة منها علمه بالنصرانية سواء فى الشام أو فى الحجاز، فلم تلتفت أو تعترف إلا بإنجيل متى قبل تحريفه بإضافة البابين أو الإصحاحين الأولين وتجاهلت الأناجيل الثلاثة القانونية الأخرى دعك من باقى الأناجيل(٤٠).

ونأمل ألا يظن القارئ أن هذه مبالغة قذف بها باحث مسلم دفعه إليها التعصب الدينى ولكن هذا ما يؤكده علماء الفرنجة المدققون فى تواريخ الأديان وخاصة المسيحية وكذا فى علم الأديان المقارن «وقد تم اعتماد الأناجيل الأربعة من بين العدد الهائل من الأناجيل..»(٤١).

كما أن علماء تلك الفرقة رأوا أنه «من الضرورى رفض كل رسائل بولس الذى قالوا عنه إنه مرتد عن الناموس»(٤٢).

وكذلك سائر رسائل الرسل الباقين.

والقرآن المجيد لم يذكر إلا إنجيلاً واحداً بالمفرد وليس به كلمة واحدة عن بولس ولا رسائله ولا رسائل الآخرين رغم أن شاؤول أو بولس هذا قام بدور رهيب إذ هو الذى دهول(٤٣) المسيحية وقلب حالها رأساً على عقب بأن آلة المسيح عيسى فى حين أنه هو نفسه صرح أنه مجرد رسول خلت من قبله الرسل وأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًا وقد مضت ستمائة عام على مخاريق بولس وشعبذاته قبل القرآن.

ثم نؤوب إلى سلسل «بسكون اللام الأولى» الحديث نقول: إن هيكلاً بعد ست

صفحات عاد إلى صوابه فأقلع عن خطئه وبرئ من غلطه ورجع عن تخليطه فقال:

«لذلك انطلقت «=خديجة» إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكما قدمنا قد تنصر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية فلما أخبرته بما رأى محمد وسمع قصت عليه كل ما حدثها به فذكرت له إشفافها وأملها، أطرق مليا، ثم قال: قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت.. وسارعت «=خديجة» فقصت عليه (=على محمد) نبأ ورقة وما حدثها»(٤٤)

ففى هذه الفقرة يذكر أن ورقة عرف إنجيلاً واحداً لا أناجيل بالجملة أى عدة أناجيل والفرق لا يتمثل فى الألف ولكنه أعمق من ذلك فمن قال إن ورقة قرأ إنجيلاً واحداً أدرك كنه ما وقع بالفعل وعرف الحقيقة التاريخية ونقه السر الخبىء وراء اقتصار نتج «ناتج» التجربة على ذكر إنجيل فذ وعلى أفكار فرق معينة أو فرق مخصوصة من فرق أتباع عيسى. هى التى استوطنت تخوم الشام أو رحلت إلى الحجاز فماسها ورقة وأقرانه. أما الذى يسطر فى كتابه أو بحثه أن القس اطلع على أناجيل «بالجمع» وعربها أى نسخ ما فيها إلى العربية فعلاوة على بعده عن الصواب فإنه يقطع بأنه لم يفطن إلى مجريات الأحداث فى ذياك الزمان المدهش ولا أحاط معرفة بالعلم الدينى الذى حصّله ابن نوفل وأنداده ولا بمن لقنه إياه ودرسه له.

وغاية الأمر فى هذه الخصوصية البالغة الدقة رغم صغر حجمها أن هكيلاً صحح خرفه..(٤٥)، واستدرك غلطه واستقال من عذره إنما لكل سيف نبوة ولكل عالم هفوة ولو أنها ليست كذلك بل هى سقطة وجيعة كنا نأمل ألا يتردى هيكل فيها.

• • •

بعد هذا التفريع الذى ألجأنا إليه هيكل نعود إلى سرد الحديث وهو إيضاح أو إثبات علم اليعسوب المكين وصلاحيته ليغدو المستشار وكفايته كيما يصبح الموجه ومكنته لكى يتولى رتبة المتابع «للتجربة» التى خاضتها الطاهرة بجسارة شديدة ونفذتها باقتدار يعز أن نجد له نديداً فنورد آراء الكتاب المحدثين فيما يتعلق بعلم القس بالنصوص المقدسة ومكانته العلمية الدينية بين من أعتنق النصرانية وذلك بعد أن طرحنا ما صنفه المؤلفون التراثيون فى هذه الخصوصية والحق أنهم جهابذة الكتاب القدامى وسادتهم ممن حظيت مؤلفاتهم بوافر الاحترام بل بعضها وصل إلى درجة التقديس مثل صحيحى البخارى ومسلم.

• • •

إن الكتاب الذى عربه الشيخ عبدالحليم محمود الذى تربع على كرسى رئاسة مؤسسة شئون التقديس فى مصر نعنى مشيخة الأزهر يؤكد مصنفاه أن ورقة هو أعلم أهل مكة بالنصوص المقدسة:

«كان ورقة من هؤلاء الذين اعتنقوا النصرانية وكان يعد من أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة ولقد عاش مثل ما عاش رهبان الشام فى انتظار الرسول العربى»[٤٦].

والعميد الدكتور طه حسين يخبرنا عن تبحر ورقة فى النصرانية وإمعانه فيها وحفظه منها ما حفظ ويؤكد ما سطره ناصر الدين **آتين دينيه** وزميله أنه أعلم من ببكة بالكتاب المقدس:

«كان ورقة بن نوفل حازما عازما رجل صدق وشارك فى مفاخر مكة ومآثرها ولكن ورقة وإن أحب النصرانية وأمعن فيها فقد كان لقومه محبًا ولوطنه مؤثرًا ... ولم يذهب إلى قسطنطينية وإنما حفظ من النصرانية ما حفظ ووعى من علم الأحبار والرهبان ما شاء الله أن يعى ثم عاد بهذا كله إلى مكة فأقام فيها.. فلا غرابة أن تفكر ابنة عمه خديجة أن تسأله عما رأت وسمعت من هذه الأحداث العظام والآيات الكبار وهو الذى انتهى إليه علم الكتاب فى مكة». العميد هنا يتحدث عن هرولة الطاهرة إلى القس بعدما سمعت من غلامها ميسرة ما رآه فى رحلته مع «المشقح» إلى الشام»[٤٧].

• • •

ولا نعد مغالين إذا انتهينا إلى حقيقة ثابتة أطبق عليها الكتاب المحدثون للسيرة المحمدية الزكية وهى أن القس هو أعلم من فى منطقة الحجاز من أهلها بالنصوص المقدسة فقد ذكرنا منهم ناصر الدين آتين دينيه والعميد طه حسين.

وهذا هو رأى ثالثهم وهو الخربوطلى الذى يذهب إليه أيضًا.

«فغادرت خديجة دارها قاصدة إلى ابن عمها ورقة وكان قد اعتنق المسيحية وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة...»[٤٨].

ولكننا نأخذ عليه أنه ارتكب غلطة لا يصح لمثله أن يتردى فيها وهى قوله إن القس اعتنق المسيحية فى حين أنه لا شأن له بها إنما هو اعتنق النصرانية وقد سبق أن أوضحنا تفصيلا فيما تقدم الفارق بين الثنتين، ومما يؤسف له أن عددًا ملحوظًا من المحدثين الذين يتناولون السيرة المحمدية العطرة يخوضون فيها بقدر من الخفة وعدم التعمق وسنرى فيما يلى: أن الخربوطلى قد أخطأ خطأً بينا فيما يتعلق بغار حراء وخلط بينه وبين أحد أجبل مكة ولو أنه دقق قليلاً لتحاشى الغلط الفادح.

وهذا رابعهم يقول:

«كان ورقة عربيًا أصيلاً من ذروة بيوتات قريش وهو كما يروى صاحب الأغانى أحد من اعتزل الأوثان فى الجاهلية وطلب الدين وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان. طلب ورقة الدين ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية بل لعل اللغة العربية إذ ذاك لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية ويقول الإمام البخارى عنه: وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب العبرانية فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب.

وقد كان ورقة معروفًا بالعقل الناصح والمعرفة الواسعة والإخلاص المخلص وقد كان فى فترة البدء هذه شيخا كبيرا قد عمى أى أنه مر بالتجارب الكثيرة فى الدين من أجل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ﷺ إليه وقالت له: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك»(٤٩).

المدون بعاليه هو رأى الشيخ عبدالحليم كمؤلف لا كمعرب أو مترجم وقد أخرج هذا الكتاب وهو أمين عام مجمع البحوث الإسلامية ثم غدا فيما بعد شيخًا للأزهر وهو يتناول جانبا آخر لم يتطرق إليه من سبقوه وهو اتسام القس بصفات عالية مثل الزهد والعقل الناضج والمعرفة الوسيعة والإخلاص والتجارب العميقة فى الدين.

• • •

إذن علم القس المتين وتضلعه من النصوص المقدسة وعلو كعبه بين العارفين بها محل إجماع، وترتيبًا عليه فهو أجدر الناس بأن يظفر بمركز المستشار والموجه والمراجع والمتابع.

بقيت نقطة مهمة تكمل علم القس وهى وثاقة صلته بهندوز التجربة والعلاقة الحميمة التى ربطتهما ودفعتها لذلك التعاون الناجح.

• • •

ورقة بن نوفل

قرشى جليل القدر، نافذ البصيرة، كان قريبًا للسيدة خديجة زوج النبى ﷺ ترك الوثنية إلى النصرانية، وكان يقول للنبى ﷺ: ستكون نبيًا وإن أدركنى يومك نصرتك نصرًا عظيمًا ولكنه توفى قبل أن يظهر للناس إسلامه(٥٠).

إن مشيخة الأزهر أكبر مؤسسة لشئون التقديس فى مصر بل فى العالم الإسلامى على بكرة أبيه ومن على صفحات مجلتها الرسمية تؤكد صلة القس بالطاهرة «كان قريبًا» وهو الذى عضد «**الفائق**» وبشره بأنه المأمول والمنتظر والقادم.. إلخ ووعده بالمؤازرة القوية والنصر المبين ولا توجد عبارات تقطع بما ذهبنا إليه أوضح منها وإذ إن هذا الرأى صدر من مشيخة الأزهر فينطبق عليه المثل: «وعند جهينة الخبر اليقين».

«وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل...»(٥١).

هنا نجد الندوى وهو من البحاث المحدثين الأعاجم يؤكد زيارة أم هند لابن عمها ورقة ومثله لا يزار لمجرد المؤانسة بل للمدارسة والاستشارة فى ما يهم من الأمور وما يعظم من الشئون. فضلا عن أن الزيارة تشى بوجود عروة وثقى وصلة وطيدة بين الهندوز واليعسوب هى التى رشحت الأخير للموقع الذى ذكرناه.

● ● ●

وبالبحث والتنقيب والتنقير وجدنا أن القس لم يترك المسألة للحدس والتخمين ولقراءة المعنى الخبىء وراء الأخبار والدلالة المستترة خلف الآثار «جمع أثر» بل ثمة كلام صريح لليعسوب وقد صاغه شعرا «إذ إنه كما ذكرنا من شعراء قريش أ.هـ» يحكى لنا فيه عن الصلة الوشيجة التي ربطته بأم هند وأنها دأبت على إطلاعه أولاً بأول على أحوال «**راكب الناقة**» وما فتئت تلتمس منه أن يكشف لها عن دالة هذه الأحوال:

«أخرج الحاكم من طريق ابن إسحق: حدثنى عبدالملك بن عبدالله بن أبى سفيان الثقفى وكان واعية قال: قال ورقة بن نوفل فى ما كانت خديجة رضى الله عنها ذكرت له من أمر رسول الله ﷺ:

حتى خديجة تدعونى لأخبرها وما لها بخفى الغيب من خبر
جاءت لتسألنى عنه لأخبرها أمرا أراه سيأتى الناس من آخر.
وخبرتنى بأمر قد سمعت به فى ما مضى من قديم الدهر والعصر(٥٢).

أليس هذا الخبر صريح النص والدلالة معا على حقيقة ما جمع بين الطرفين وتعاونهما سويا على إنجاز التجربة.

● ● ●

وللقس ورقة شعر كثير حملته إلينا دواوين سيرة «الهادى» التى هى أجمل من رائحة الألوة مع الكافور والزعفران وقد أورد ابن إسحق فى سيرته قصيدتين. منهما واحدة تضم الأبيات السابقة(٥٣).

تكلم فيهما بوضوح عن صلته الوثيقة بسيدة قريش وكيف أنها ما انفكت توافيه بقدر ملحوظ من الموالاة بمواقف «**الذى سيفه على عاتقه**» وما يمر به من مقامات وتستفسر منه عن تأويلها الأمر الذى لا يدع مجالا لذرة من شك أنهما تعاضدا على إنجاز التجربة التي موضوعها «**النجيد - النجيب**».

● ● ●

هناك عبارة كثيرة ما تقرؤها فى سيرة «صاحب زمزم» التى هى ألذ طعما من تفاح الشام وهى أنه ما إن سمعت سيدة نسون قريش من «**البارع**» خبر لقائه

بملاك الرب فى غار حراء، وعودته إليها مذعورًا ترجف بوادره ويزحف على يديه ورجليه من شدة الفزع والخوف فما إن هدنته[٥٤] ونومته حتى هرعت إلى اليعسوب تقص عليه الخبر وفى رواية أخرى أنها اصطحبت «**الضدغم**» معها عندما هرولت إلى القس، وسواء ذهبت منفردة أو بمعيته فإن الذى يهمنا هو أن أم هند فور سماعها الحكاية المعجبة أسرعت إلى ابن عمها أعلم المكيين بالكتابين التوراة والإنجيل، وهذا ثابت بكل مصادر ومراجع السيرة المعطار تقريبا بيد أننا نكتفى بالبعض منها[٥٥].

نجتزئ بهذا القدر من المصادر والمراجع وهى من ذوات الرتب العوالى فى سيرة «**الأبطحى**» التى هى أطيب من ريح الخزامى وذلك منعًا من الإطالة ونقدمها كمجرد مثال ولا نبغى الاستقصاء وهى جميعها سواء ما ذكرناه أو تركناه تقطع أن الطاهرة ما إن أحاطها «**أبو إبراهيم**» بلقائه بالملاك فى غار حرى حتى أرقلت[٥٦] بأقصى ما تملك من طاقة لابن عمها وأخبرته بفلج التجربة فما حدث فى الغار هو إعلام بنجاح «التجربة الكبرى» التى ظلت ترعاها لمدة سنوات طويلة.

وهذا اللجوء إلى القس يشى بمتانة الوشيجة وقوة الآصرة ووثاقة العلاقة بين أم هند وورقة.

● ● ●

وبذلك اكتمل فى حق القس أمران:

أ. علمه الغزير بالنصوص المقدسة.

ب . صلته الحميمة بهندوز التجربة التى غيرت وجه التاريخ فى منطقة الحجاز وما حولها ونرجح أن تأثيرها سوف يستمر زمنًا ما لم يحدث تثوير فى ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومن ثم يترقى الوعى فى مجتمعاتها فينعتقون من أغلال الإسطار الذى خيم على عقول أفرادها منذ قرون طويلة.

● ● ●

وإذا أننا نعالج فى هذا الفصل اليعسوب نتملى فى صورته وندقق فى قسماته ونتمعن فى ملامحه فلابد لنا أن نلم ولو إلمامة سريعة بجانب على قدر من الأهمية وهو معرفته باللغة «اللسان» العبرية.

ولقد قلنا إلمامة لأن هذا الجانب سوف يعرض بتوسع مناسب فى باب التجربة لما له من أهمية فيها.

ذكرنا فى مفتتح هذا الفصل أنه ورد بصحيح البخارى وصحيح مسلم ومسند أحمد بن حنبل أن القس ورقة يكتب الكتاب العبرانى وأنه ينقل من الإنجيل بالعبرانية إلى اللسان العربى، ولقد شرح ابن حجر العسقلانى ذلك الأمر وفصله بأن ورقة تعلم العبرانية كتابة ونطقا «تعلم اللسان العبرانى والكتاب العبرانى وأنه تمكن من الكتابين واللسانين».

ذلك أنه حفظ التوراة والإنجيل غير ميسر كما هو الحال مع القرآن.

إذن نسخ أو نقل أو ترجمة ورقة لإصحاحات أو أبعاض التوراة والإنجيل حقيقة تواترت على حدوثها ثلاثة من العوالى من كتب التراث اثنان من الصحاح الست بالإضافة إلى مسند أحمد بن حنبل وغيرها من المصادر والمراجع الأخرى.

• • •

ويتكامل هذا مع ما أثبتناه أن سيدة نسون أهل الدنيا أتقنت القراءة والكتابة فإن القس لإنجاح التجربة دأب على مدها بما قام بتعريبه وهى تقرأ على «**المطيع**» ويتولى هو بدوره تخزينه فى ذاكرته ونذكر بأميته ومن ثم فهو يعتمد اعتمادًا كليا عليها.

• • •

واليعسوب لآصرته القوية بابنة عمه أخذ يعقد جلسات طوالا يحضرها «الخاضع» وفيها ينجز ما يأتى:

أ- قراءة الإصحاحات والأبعاض التى نسخها ورقة من لغتها الأصلية «العبرية» إلى اللسان العربى ثم تفسيرها وتأويلها وإيضاح ما غمض منها.

ب - أما ما لم يقم بتعريبه فإنه يترجمه مباشرة دون كتابته ويتولى شرحه وإيضاحه.

جـ - مدارسة المسائل التيولوجية التى تعتبر من القواعد الأساسية فى كافة العقائد كالتى تتعلق بالألوهية والخلق وصلة المتعالى بالأراضى والكائنات غير المنظورة مثل الملائكة والجن.. والخلق والتكوين والكائنات... إلخ.

د- التحدث فى شأن النبوة والأنبياء والوحى ووسائطه.

هـ - العقاب والثواب والجنة والنار والموت والبعث والنشور والصراط والميزان.. إلخ.

و- المقارنة بين كافة الملل والنحل والديانات التى ماجت آن ذاك بها قرية القداسة منها: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة، واستعراض عقائدها وشعائرها.

هذه بعض المواضيع التي لاشك أنها أثيرت فى تلك القعدات(٥٧). والتى من جانبها شكلت جزءًا من منهج الإعداد والتهيئة الذى هو كينونة التجربة.

• • •

ولقد فطن عدد من البحاث إلى التجربة وأنها استلزمت تمهيدًا طويلا ومعاناه ثقيلة وإعدادا ممدودا(٥٨).

ولو أنهم لمحوا ولم يفصحوا وجمجموا ولم يصرحوا وألغزوا ولم يبينوا: «إن هذا الحادث «حادث حراء» لم يكن حادثا عارضا من خوارق القدر بل

كان نتيجة لتمهيد طويل خلال سنوات.. على هذا الجبل حراء كان خاتمة التمهيد والتهذيب والإعداد...»[٥٩].

والنكتة[٦٠] هنا أن هيكلاً نقله إلى التجربة التى هى العمود الفقرى لهذا الكتاب فقال إنها ليست حادثا عارضا من خوارق القدر أى أنها ليست من الماورائيات، فحادثة حراء استغرقت من التهذيب والتمهيد والإعداد سنوات وسنوات أى منذ أن نكحت سيدة نساء الدنيا **«المخبت»** إلى لحظة ما حكاه عن لقائه لملاك الرب فى غار حراء وهو ذات الملك الذى بشر الصديقة مريم بولادتها لعيسى.

ويستطرد هيكل أن ما وقع فى الغار كان خاتمة لكل ذلك من التمهيد والتهذيب والإعداد.

أما من الذى قام بها فهم بشر من البشر وناس من الناس إنما من هم؟

فقد ترك الباحث معرفتهم لذكاء القارئ وفطانته.

● ● ●

ثم جاء بعده ما يقرب من عشرين عامًا باحث ركب الموجة الإسلامية أو بلفظ أدق كثف من النكهة الإسلامية فى كتاباته وهو حسين مؤنس وذكر كلمة «التجربة» تصريحا ووصفها بأنها طويلة فقال:

«إن التجربة التى مر بها محمد بن عبدالله وتحول من بشر إلى نبى تجربة طويلة»[٦١].

وأكد أن **«الشكار»** كيما ينتقل من فتى هاشمى قرشى إلى المنتظر والمأمول والمرتقب استدعى الأمر دخوله تجربة طويلة.

وإذ إن الشىء بالشىء يذكر فإن **«محموداً»** قبل أن يحظى بأن تنكحه خديجة لم يعرف عنه أى اهتمامات تيولوجية ولا توجهات دينية ولا قصود[٦٢] عقائدية، أما ما نسب إليه من ميل إلى العزلة فذاك يؤوب إلى شعوره الدفين باليتم إذ مات أبوه وهو جنين، وفى رواية ابن أعوام ثلاثة ثم أمه وهو فى السادسة ثم جده حين بلغ الثامنة، وهكذا ذاق مرارة فقد الحانى والكافل ثلاث مرات فى وقت قصير فكيف لا يشمله الإحساس بالعزلة ويميل إلى البعد عن الناس والاغتراب عن الجماعة.

إذن الدافع أو الباعث عائلى أو اجتماعى لا علاقة له بالدين ولا دخل له بالعقيدة ولا شأن له بالتيولوجى. فإن كل هذا عديم الصلة به ولم يبدأ انعطافه نحو الغيبيات والماورائيات إلا بعد أن نكحته الطاهرة وطجنته «أنضجته» فى التجربة بحنكة انقطع ضروبها.

بيد أن كتب سيرة **«الأشنب»** الأحلى من سكر الأهواز نفحتنا بمعطى ذى رتبة عالية يتعين علينا ألا نمر عليه مرورًا عابرًا لأنه ذو دالة عميقة ومعني بعيد فهو

«**المعطى**» أشبه بالشفرة أو الرمز والأمارة أو الإشارة للدور الخطير الذى سيقوم به اليعسوب ثم الهندوز تجاه «**الحيى**» فى المستقبل.

«وكان ورقة هو الذى وجد الطفل الرضيع محمدًا عندما تاه من مرضعته»(٦٣).

والموسوعة الإسلامية الميسرة أجملت أو أوجزت هذه الأحدوثة أما دواوين سيرة «**صاحب الخلق العظيم**» التى ريحها أجمل من ريح المقطر «المجمرة» فقد أوردتها بقدر من التفصيل.

«فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرد «حفيده» عليه وأنشد:

يا رب رد ولدى محمدًا أرد   ده ربى واصطنع عندى يدًا

فسمع هاتفًا من السماء يقول: أيها الناس لا تضجوا إن لمحمد ربا لن يخذله ولن يضيعه، فقال عبدالمطلب من لنا به فقال: إنه بوادى تهامة عند الشجرة اليمنى، فركب عبدالمطلب نحوه وتبعه ورقة بن نوفل فوجداه ﷺ تحت شجرة يجذب غصنا من أغصانها.. إلخ»(٦٤).

أما محمد حسين هيكل فيروى الخبر بصيغة أخرى: (وعاد «محمد» بعد هذه السنوات الخمس.. ويقال إن حليمة التمسته وهى مقبلة به على أهله فلم تجده فأتت عبدالمطلب فأخبرته أنه ضل منها بأعلى مكة فبعث من يبحث عنه حتى رده عليه ورقة بن نوفل فيما يروون(٦٥).

ورواية هيكل هذه أعمق تكثيفا لرمزية الدور الذى سوف يضطلع به اليعسوب فى التجربة المبرورة، ولعل بعض الكلمات التى وردت فى ثنايا الخبر مثل: «ضل منها» بـ«أعلى مكة» إشارة إلى غار حراء. «من يبحث عنه» دلالة على التنقير عنه من بين فتيان مكة وشبابها حتى رده عليه ورقة كناية عن الدور الخطير الذى قام به اليعسوب، ونكتفى بهذا العدد من المصادر والمراجع التى روت لنا تلك الواقعة.

ونحن لسنا بصدد تفنيد ما يقوله علم النفس الاجتماعى من أن الشعوب أو الجماعات تنسب إلى أبطالها الدينيين حكايا معجبة وقصصا خارقة فى طفولتهم المبكرة مثل ما يقوله اليهود عن موسى من أن أمه وضعته فى التابوت ثم ألقته به فى اليم حتى رسا على ميناء قصر فرعون فالتقطوه دون أن يغرق ويرسو فى مكان آخر ولم يجدوا له ظئرا سوى أمه وهكذا عاد إليها واطمأن فؤاده الفزع الفارغ.

والشعوب والجماعات عندما تضيف هذه الخوارق لأبطالها الدينيين تعلى من شأنهم وترفع مقامهم وتسمو بقدرهم.

ونحن لا نفند هذا الرأى لسببين:

أولاً: لا يدخل فى صلب بحثنا وجوهر دراستنا.

وآخراً: فإن «**الأطيب**» ليس فى حاجة إلى مثل هذه المخاريق إذ إنه أسمى مكانة وأعظم درجة وأجل موضعاً.

• • •

وهناك ملمح هام فى ذات الخبر هو أن عبدالمطلب وجد حفيده تحت شجرة يجذب غصنا والشجرة لعبت دورًا متميزًا فى الديانات السامية سواء القديمة أو الكتابية وسوف نوضح ذلك تفصيلا فى موضعه إنما المثل السريع الذى يرد على الذهن أن مريم ولدت عيسى ابنها فى ظل نخلة أمدتها بالرطب الجنى الغذاء الأمثل للنفساء.

فى هذا الخبر نجد أن القس ورقة عثر على أو ساهم فى العثور على «**البهاء**» بعد أن تاه من ظئره «مرضعته» حليمة السعدية فهل هذه الواقعة تحتوى على إشارة ضمنية إلى ما سينجزه «أى ورقة» فى السنوات المقبلة مع «**المأمون**» خاصة وأن بعض المفسرين وهم يفسرون ما جاء بسورة الضحى ﴿**ووجدك ضالا فهدى**﴾ ألمعوا إلى هذه الواقعة(٦٦).

• • •

وسواء صح هذا التفسير أم اعتوره قدر من الشطط فإنه مما لا مشاحة فيه أن هذه الأقصوصة وخاصة فى شطرها الخاص بعثور اليعسوب على «الطهور» انضوت على إيحاء مكثف بالعمل الذى سوف يقوم به فى الوقت المناسب.

• • •

ولعل مما لا يخفى على العين الفاحصة ما ورد فى الخبر الأول من اشتراك آخر مع ورقة فى هداية «**العبلة**» إلى الطريق إلى قرية القداسة أو أم القرى ونعنى به الجد عبدالمطلب فهو هنا يمثل دور الهندوز أى سيدة نسون قريش لأنه بدون جدال سيد قريش على بكرة أبيها وقد جاء فى باقى الخبر الأول أن الجد وضع الحفيد أمامه على الدابة وأخذ يهدهده بكلمات تفيض حنوًا وعطفًا مما يذكرنا بـ«الأم الرؤوم» فهو «الجد الحنون» أو هو «المعادل الموضوعى لها».

فما هو تفسير أن يعثر شخصان على «**الأدعج**» مع أن عبدالمطلب بمفرده. كان كفيئا أن يسرع إلى حفيده ويعيده إلى مستقره وبصيغة أخرى يهديه الطريق خاصة بعد أن أرشدهم الهاتف السماوي إلى مكانه.

ونورد عجز الخبر عساه أن يعاضد على إلقاء شعاع من الضوء يساعد على إبراز الجوانب الموحية فيه:

«فقال له جده: من أنت يا غلام فقال: أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب: قال: وأنا جدك فدتك نفسى واحتمله وعانقه وهو يبكى ثم رجع به إلى مكة وهو قدامه على قربوس فرسه ونحر الشياه والبقر وأطعم أهل مكة»(٦٧).

هنا نجد المعادل الموضوعى للطاهرة ونعنى به الجد عبدالمطلب ينادى «الحبيب» يا غلام.. فدتك نفسى.. وعانقه وهذا يذكرنا بالأم الرؤوم التى

أغرقت ابنها الزوج أو زوجها الابن بفيوض من الحب وطوفانات من الحنان.. ثم عاد به إلى مكة وهذا ما أشار إليه المفسرون بأنه ما جاء فى الآية السابعة من سورة الضحى، ونمضى مع الأثر فنراه يقول: احتمله وعانقه واحتمال عبدالمطلب لـ«**صفوة البشر**» ومعانقته تأكيد للحب والحنان الذى ما فتئ يغدقه عليه وهو ذات ما دأبت سيدة قريش على عمله مع «**الملئ**»، ثم وضع الجد عبدالمطلب حفيده الأثير إلى قلبه على قربوس[٦٨] فرسه أى أمامه أو قدامه كما فى الخبر، دلالة على تقديمه إياه على نفسه وهو سيد قريش تماما مثل ما أن الطاهرة قدمت على غمر «**الممنوح**» فى التجربة كيما يتطور من الفتى الهاشمى القرشى إلى القادم المنتظر، هو بدون أدنى جدال رفع لهامته لا على هامتها هى فقط وهى سيدة قريش بل على هامات الناس جميعهم عربًا وأعاجم.

● ● ●

وفى ختام الخبر أو الأثر أن عبدالمطلب نحر الشياه والبقر وأطعم أهل مكة وهذا يذكرنا بصنيع أم هند عندنا تكرم عليها «**حرز الأمين**» بإشارة الوفاق لها أن تباعله فاجتزرت للوليمة[٦٩] بقرة من فورة فرحها وشدة غبطتها وغاية بشرها كما أن عبدالمطلب عمه السرور عند لقيانه به فذبح الشاء والبقر.

وقد أطلعنا صاحب السيرة الشامية على ما نحره عبدالمطلب «نحر عبدالمطلب عشرين جزورًا وذبح الشياه والبقر»[٧٠].

● ● ●

وهذا القدر الوافر من الذبائح يشى بأن الجد شمله انبساط بالغ لعثوره على الحفيد محمد.

● ● ●

فهو «=الجد» قد وجده وجودًا ماديًا - وهى «=خديجة» قد اهتدت إليه اهتداءً معنويًا بنكاحها إياه وكلاهما انتابه شعور عارم فمرق عن طوره وبعد عن إلفه وفارق عادته.

فالالتقاء بطفل ضائع لا يقابل بمثل ما فعله عبدالمطلب والوليمة[٧١] يكتفى فيها بجذر سخلة أو معزة إذ درجوا على أن يقولوا «أولم بشاة» كما سلف على **المحنى** وفى الحالين شاركهم الناس سرورهم وطعموا ما وزّهم إحساسهم الطاغى على نحره وتقديمه لهم.

● ● ●

بيد أنه ما دور اليعسوب فى هذه الأحدوثة الموحية؟

ورقة قام بدور الصاحب والمعين والمعاضد للجد عبدالمطلب فى ذهابه وإيابه ونلاحظ أنه لم يقدر على ذلك أحد من القرشيين لا من طرائفهم[٧٢] ولا من إمهارهم[٧٣].

أما فى التجربة فهو قد أعان وساد أم هند بالإضافة إلى التوجيه والإرشاد

والأستاذية. وتباين الدوران اللذان قام بهما اليعسوب وهذا أمر بديهى لاختلاف طبيعة الأمرين ومرور زمن بينهما. فبالنظر إلى ورقة فهو قد تطور من قرشى يتمتع بقدر من الامتياز إلى قس هو أعلم أهل مكة بالتوراة والإنجيل.

«ورقة كان على دين موسى وصار إلى دين عيسى أى كان يهوديًا ثم صار نصرانيًا»(٧٤).

«ورقة بن نوفل أسد بن عبدالعزي.. أحد المتحنفين فى الجاهلية الذين هجروا عبادة الأوثان ونظر ورقة فى كتب النصارى وعلم ما فيها واستحكم فى النصرانية وظل عليها وتوفى قبل مبعث النبى ﷺ بقليل»(٧٥).

أما بالنسبة إلى «**الصابر**» فقد تخطى مرحلة الطفولة إلى الصبا فى الشباب وغدا محل تجربة من أخطر التجاريب التى شهدتها القرون الوسيطة.

وخلاصة القول إن عمالة «وظيفة» ابن نوفل ظلت فى جوهرها كما هى إنما الذى لا مشاحة فيه أن الخبر الذى حللناه ملىء من إخمص قدميه حتى شعر رأسه بالدلالات.

• • •

ومن المثمر أن نلقى ولو حزمة من الضوء على المنزع الدينى لليعسوب فهو فى البدى انضم إلى الأحناف الذين هجروا عبادة الأصنام وما تبعها من طقوس مثل الذبح للأصنام واتجهوا بفطرتهم إلى التوحيد وإلى البحث عن ديانة إبراهيم الجد الأعلى للعرب الملقب بـ«أكبر البطارقة» ومنهم من ظل عليها مثل زيد بن عمرو بن نفيل «عم عمر بن الخطاب» ومنهم من اعتنق النصرانية مثل أمية الذى ضمن شعره كثيرًا من الألفاظ والمعانى التى جاءت فى الكتاب المقدس ولو أن عدداً من البحاث ينكر حنيفيته استنادًا على أن «المصادر القديمة التي بها وردت أسماء الأحناف مثل ورقة وزيد العدوى وقس بن ساعدة لم تذكر أمية بينهم ومن هؤلاء الأحناف من اعتقد أنه سوف يغدو نبيًا وأبرزهم القس ورقة وأمية وكلاهما شاعر»(٧٦).

ونضيف أن ابن أبى الصلت هذا أمه قرشية من بيت عبد شمس من الذؤابة العليا فى قريش وأول أولاده اسمه القاسم ومن ثم كني بأبى القاسم.

وأخته الفارعة بنت أبى الصلت هى التي روت لـ«**المزكى**» بعد أن صدع بالديانة الإسلامية حياة وأخبار أمية وشعره، ويقال إنها فى إحدى المرات أنشدته مائتى بيت وطفق يستزيدها ثم فى الختام قال «آمن شعر أمية وكفر قلبه» لأنه «أمية» رفض أن يسير تبعا لـ«**الأكرم**» حسداً منه وحقدًا عليه وسمى بكره «أول أولاده الذكور» القاسم وبه كنى تماما مثل ما فعل «**النقى**». «الفارعة بنت أبى الصلت وصفها ابن الأثير بأنها ذات لب وعقل وجمال، لما وفدت على النبى ﷺ استنشدها أشعار أخيها وسألها عن أخباره وقال لها تحفظين من أشعار أخيك شيئًا فأنشدته فقال لها رسول الله ﷺ ما أطيب شعره سألتك بالله أعيديه، فأعادته»(٧٧).

وأمية كالقس والطاهرة يمثل الأنتلجنسيا الحجازية بيد أنه ليس له دور فى حياة «**الكامل**» لنفوره من الدخول فى ديانته ويغدو من أتباعه لأنه فى نظر نفسه أعلم منه بالكتاب المقدس وأنه متضلع فى علوم الأولين. وأمية من ثقيف وعاش فى الطائف ومن ثم فلم يلزق بـ«**أحمد**» رغم صلة القربى الحميمة التى ربطتهما من ناحية الأم، فأمية أمه قرشية من بنى عبد شمس أولاد عمومة بنى هاشم ومنافسيهم، بيد أن الذى لا مشاحة فيه أن كلاً من القس ورقة وأمية لم يتمتع بالشخصية الكارزمية «الآسرة» التى تهيمن من النظرة الأولى على المحيطين بها وتحولهم إلى تابعين أمناء لصاحب تلك الشخصية مثل «**سعيد**» الذى تحدثنا سيرته التى هى أطيب ريحا من العود الصنفى كيف أن الرجل من أولئك وهو صنديد وسيد مطاع فى عشيرته ما إن يقابله حتى يستحيل إلى تابع مطيع ومسود سلس القياد.

• • •

طالعنا فى دواوين السيرة المحمدية التى هى أطيب من ريح الخزامى عن شخصية «**الصبور**» القوية الآسرة وكيف أن أشخاصًا ملأ قلوبهم الحقد عليه والعداوة له ما إن قابلوه حتى غدوا من أخلص تابعيه ولمعرفة قيس من قوة شخصيته لنرجع إلى وصف أم معبد صاحبة الخيمة التى دخلها فى رحلة النزوح «الهجرة» إلى يثرب ومعه صاحبه التيمى ابن أبى قحافة وجاء فيه:

«إذ صمت فعليه الوقار وإذا تكلم علاه البهاء.. له رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره.. أحسنهم قدرا لا عابس ولا مفند»(٧٨).

ويبدو أن كلا من ورقة وأمية بن أبى الصلت لم يتمتع بتلك الخصائص الآسرة وتلك المناقب الجاذبة وبتلك المواهب الآمرة - فأمية قد ركب رأسه وملأه الغرور وسيطر عليه الحقد وشحن وجدانه الحسد فأبى واستكبر وربما يزاد على ذلك فارق السن بينه وبين «**النسيب**».

والخلاصة أنه عاند وأبى أن يدخل تحت رايته.

أما القس فقد رضى بالأمر الواقع وازداد اقتناعا به خاصة بعد أن نكحته خديجة فلمس فيه مميزات وصفات وخصائص كلها سام وشامخ مثل قوة فطرته وذكاء خاطره وثبات جنانه وفصاحة لسانه وحلمه وكرمه وصدقه ومروءته فانبهر بشخصيته وشارك فى خطوات صقله وإعداده وتهيئته وتصنيعه وتسويته حتى غدا ذاك الذى طال انتظاره.

كما أن «المحرَّض» امتاز بالفصاحة وطلاقة اللسان ونصاعة البيان وقد قيل فى هذا الجانب الكثير وفيما بعد حدث تبعه عن نفسه:

«أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر فأنى

يأتينى اللحن؟».

وأمية وورقة رغم أنهما شاعران فلم يعرف عنهما شيء من ذلك إذ هما أمران مختلفان والشعر موهبة ذاتية أما الخطابة فهى موهبة برانية أى موجهة للمخاطبين.

وأدوات كل منهما مغايرة للأخرى. إذن كل من ورقة وأمية افتقر لصفتين مهمتين ولازمتين للقادم المنتظر: الشخصية الآسرة وموهبة الخطابة والتأثير فى المخاطبين ومن هنا لم يقيض لأى منهما النجاح فى مسعاه لكى يغدو الآتى المأمول والقادم المنتظر.

• • •

تأثر شعر القس ورقة بثقافته الكتابية فظهرت فى قصائده أو مقطوعاته أو أبياته التى رويت عنه بصورة لا تخفى حتى على القارئ العادى فما إن يطالعها حتى يفطن للوهلة الأولى إلى ذلك ونكتفى بضرب مثل سريع: ببضعة أبيات أوردها المصعب الزبيرى فى «نسب قريش»:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدون إلاها غير خالقكم	فإن أبيتم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذى العرش لا شىء يعادله	رب البرية فرب واحد صمد
سبحانه ثم سبحانا يعود له	لا ينبغى أن يساوى ملكه أحد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ أدنى الشعوب له	الجن والإنس تجرى بينهما البرد
لا شىء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويردى المال والولد[٧٩]

فألفاظ مثل «النذير» و«إله» و«خالق» و«سبحانه» و«رب البرية» و«ذى العرش» و«واحد صمد» و«الخلد» و«عاد» و«سليمان» و«الجن» و«الإنس» و«لا شىء تبقى بشاشته» و«يبقى الإله»... ذات نكهة دينية لا يخطئها البصر أو البصيرة وتقطع بمجرد إلقاء نظرة عليها أن قائلها صاحب ثقافة دينية عالية وهو ما أكدته المصادر التراثية جميعها:

فشيخ كتاب السيرة المحمدية التى هى أحلى من عسل الموصل - والذى يعتبر عمدة مؤلفات هذه السيرة ونعنى به ابن إسحق - يصف علم اليعسوب بأنه كثير لأنه استحكم فى النصرانية:

«فأما ورقة فتنصر فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا كثيرًا من أهل الكتاب»[٨٠].

• • •

«وقال المرزبانى: كان ورقة من علماء قريش وشعرائهم وكان يدعى بالقس»[٨١].

وسبق لنا أن أوردنا ما قاله فى حق اليعسوب كل من البخارى فى «الصحيح» والبخارى ومسلم فى «اللؤلؤ والمرجان» وابن حجر العسقلانى فى «الفتح» والكلاعى فى «الاكتفاء» وأحمد ابن حنبل فى «المسند» وابن هشام فى «السيرة».

• • •

ولأمية بن أبى الصلت شعر ينضح بالمذاق الدينى، بل إن العبق الكتابى فيه يفوق ما فى شعر اليعسوب إنما أمر أمية لا يدخل فى سياق بحثنا إلا فيما يتعلق بمسألة توقع ظهور القادم المنتظر وأن زمانه أطل أو أظل.

قال أبو جعفر: «وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة قومها بذلك...»[٨٢].

[illegible] العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيًا يبعث من العرب[٨٣].

إن هناك من توسم فى نفسه أن يغدو هو القادم المنتظر مثل أمية والقس ورقة وأن الأخير عندما تيقن أنه لا يصلح لافتقاره إلى الصفات الجوهرية اللازمة اقتنع بحسن اختيار الطاهرة وساهم معها فى التجربة الفاذة وهى صناعة القادم المبارك وأشرف على الخطوات أو المراحل التى تنقل فيها «**الطبيب**» حتى صار هو «القادم المنتظر» بكفاية يعز نظيرها إنما لتقدمه فى السن خشى أن يموت قبل أن يرى المعجزة تتحقق فطفق يستعجل أم هند ولكنها لحكمتها وسعة أفقها ورجاحة عقلها لم توافق على التسرع وتمسكت بحبال الصبر لأنها أدركت أن التجربة تحتاج زمنًا حتى يقيض لها النجاح وهذا ما حدث بالفعل بصورة مذهلة.

وظل القس ورقة يؤدى دوره فى التجربة حتى توفى وهنا حزن عليه «**الأسوة الحسنة محمد**» حزنًا بليغاً وأسى عميقًا وأسفًا شديدًا حتى إنه هم مراراً بأن يتردى من رؤوس شواهق أجبل مكة وهو أمر بالغ الدلالة شف المعنى[٨٤]. غنى بالإيحاءات خاصة وأن دواوين السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحا م الزعفران قد وضعت بين أيدينا معطى فى منتهى الخطورة هو أن وفاة القس تزامنت مع انقطاع الوحى أو فتوره، ونظرا لارتفاع أهمية هذا الأمر وعلو قيمته وثقل ثمانته فإننا كالعادة سوف نحاول على قدر مكنتنا توثيقه:

«ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال»[٨٥].

«ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال»[٨٦].

«... قال ورقة: لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك

أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى «سكن وانقطع» حتي حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا فغدا من أهله مراراً لكى يتردى من شواهق «عوالى» جبال الحرم»[٨٧].

«فلم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى حتى حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً حتى كان يذهب إلى رؤوس شواهق الجبال يريد أن يلقى بنفسه منها»[٨٨].

ومحمد بن عبدالوهاب هذا هو شيخ الوهابيين والذى تعاون هو والأمير محمد بن سعود على توحيد الجزيرة العربية تحت قيادة الأخير والتى تحولت فيما بعد إلى «المملكة العربية السعودية» وكاتب هذه السطور يكن للشيخ محمد بن عبدالوهاب قدرًا كبيراً من التقدير لمحاربته الأساطير والبدع والخرافات وكتابه هذا «مختصر سيرة الرسول ﷺ» فيه أمانة علمية وموضوعية تفتقر إليها غالبية إن لم نقل جميع مؤلفات الكتاب المحدثين الذين كتبوا فى سيرة «المتبتل» التى هى أطيب رائحة من ورد جور[٨٩]، ودليلنا أن الشيخ محمد عبدالوهاب أورد فى كتابه هذا خبر الغرانيق العلى أو «الآيات الشيطانية»[٩٠].

ولم ينكرها أو يضبب عليها كدأب الجهابذة المحدثين وإذ إن الشىء بالشىء يذكر فإن ابن تيمية يقول بحدوث قصة الغرانيق ولا ينفيها وله بحث رائع فى أخطاء الأنبياء أو البطاركة وتوبتهم وعصمتهم وابن تيمية شيخ محمد بن عبدالوهاب فكريًا وسار الأخير على خطاه وكلاهما ظلم وألصق به ما هو براء منه، ولو أن نصيب الشيخ محمد عبدالوهاب أوفى وأوفر لأن حربه ضد البدع والخرافات والتصوف الزائف أقسى وأوعر، وننوه أن أكثر من يكتب فى الإسلاميات يعتمد للأسف على الشائعات ولا يقرأ ولا يدرس ولا يمحص بل إن أهم مصادره السماع ومن ثم فإن ما يسطره عن ابن تيمية ومحمد عبدالوهاب مصدره الأذن أى بالسماع، دون أن يكلف الواحد منهم نفسه قراءة سطر واحد مما كتبه هذان الشيخان وهو لعمر الحق أثر عميق. بعد هذه التفريعة نؤوب إلى سياقه البحث.

• • •

حتى لا يمل القارئ تكرار الخبر فى المصادر والمراجع نسرد فيما يلى ثبتاً ببعضها[٩١]:

إذن اقتران فتور الوحى بموت القس أمر مؤكد ولا يستطيع أن يمارى أو يجادل فيه أحد بعد أن حملته إلينا هذه المؤلفات التى تلقتها أمة لا إله إلا الله بالتجلة والاحترام، وكالعادة يحاول المؤلفون المحدثون أن يفصلوا بينهما أو أن يقدموا تعلات واهية لقرن القدامى بينهما، ولعلها ليست مصادفة أن المصادر جميعها تورد «ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى» أى أن فتور الوحى لاحق لموت اليعسوب.

فى كلام صاحب الخميس فى الصحيحين أن الوحى تتابع فى حياة

ورقة[٩٢].

والسؤال الذى يرد على الذهن مباشرة: لماذا حزن «**المكافى**» هذا الحزن حتى إنه «غدا منه مراراً كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال» وهو حزن لم يحزنه على أحد بعده ولا حتى على خديجة؟ صحيح أنه سمى عام وفاتها بعام الحزن خاصة وأنه اقترن بوفاة عمه وحاميه أبى طالب بيد أن دواوين سيرته التى هى أطيب من المسك لم تخبرنا أنه عقب وفاتها شرع فى إلقاء نفسه من رؤوس شواهق الأجبل ولو مرة واحدة.

لعل الإجابة على هذا لسؤال تتلخص فى أن ذلك يدلنا على المكانة الرفيعة التى احتلها اليعسوب فى عقل وقلب «**صاحب النعلين**» إذ إن من صفاته العظيمة شدة الوفاء لمن عرفهم كيف لا وقد جاء ليتمم مكارم الأخلاق ومن نعوته «**صاحب الخلق العظيم**».

والدور الذى لعبه القس فى حياته لو قام به فى حياة شخص آخر لكن له كل عرفان فكيف بالمثل الأعلى فى الوفاء.

«وهو ورقة بن نوفل بن أسد القرشى وابن عم خديجة الذى شجع محمداً ولعله أثر فيه فى السنوات الأولى من مبعثه»[٩٣].

هذه المعلومة التى أوردتها الموسوعة ملمح يشف عن فطانة بالغة الخطر من أن ورقة شجع «**المنصور بالرعب شهراً أو قريباً من شهر**» وأثر فيه خلال السنوات الأولى، ما هى إلا ما أكدناه أنه يعسوب التجربة التى قادتها أم هند.

● ● ●

إنما بأى صورة عبرّ «**سيد ولد عبد مناف**» عن وفائه وامتنانه للقس ورقة؟

تم ذلك فى أروع هيأة يتمناها أى تابع من تبعه لنفسه: الجنة «عن الزهرى عن عروة عن عائشة. سئل رسول الله عن ورقة فقالت خديجة: إنه كان صدقك أنه مات قبل أن تظهر، فقال رسول الله ﷺ: أريته فى المنام وعليه ثياب بيض ولو كان من أهل النار لكان عليه لبس غير ذلك»[٩٤].

«عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ساب أخ لورقة رجلاً فتناول الرجل ورقة فسبه فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال لأخيه: هل علمت أنى رأيت لورقة جنة أو جنتين فنهى رسول الله ﷺ عن سبه»[٩٥].

وفى رواية أبصرته فى بطنان الجنة وعليه السندس.

وفى رواية أخرى قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً وأحسبه أى أظنه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض.

«وفى رواية: لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين لأنه آمن بى وصدقنى وقد جزم ابن منير بإسلام ورقة»[٩٦].

وليس ثمة تعبير بالوفاء والعرفان والامتنان أروع من الذى صدر من «صاحب لواء الحمد».

الهوامـش

(١) القاموس المحيط: للفيروز أبادى.
(٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية هـ.أ.رب. و ج هـ كا. ترجمة د. راشد البراوى، الجزء الأول، ص ٣١٣-٣١٤، طبعة ١٩٨٥م الأنجلو المصرية.
(٣) عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٨٥ سابق.
(٤) طائر له صوت جميل ويغنى ألحانًا بديعة.
(٥) موسوعة أمهات المؤمنين: عبدالصبور شاهين وأخرى ص ٧٥.
(٦) عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩ وما بعدها.
(٧) الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزى، الأول ص ١٤٤.
(٨) السيرة النبوية: لان هشام تحقيق السرجانى، ص ١٩٣، الأول.
(٩) صحيح البخارى: كتاب بدء الوحى.
(١٠) فتح البارى بشرح صحيح البخارى: ابن حجر العسقلانى، الجزء الأول، الحديث الثالث، كتاب بدء الوحى، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، الناشر المطبعة السلفية بمصر.
(١١) فتح البارى: ابن حجر العسقلانى، الأول، ص ٣٤ سابق.
(١٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: الحديثان ٩٩، ١٠٠، ص ص ٣٢-٣٤، الطبعة الصينية.
(١٣) الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء: للكلاعى، الجزء الأول، ص ٢٦٦ سابق.
(١٤) مسند أحمد بن حنبل، الحديث ٤٤٣، ص ١٣١ - ١٣٢.
(١٥) مسند أحمد بن حنبل: الحديث ص ١٣٢ - ١٣٣.
(١٦) تاريخ الصحابة والتابعين: حمزة النشرتى وأخر، ص ٢٠ - ٢١، المجلد الأول، د.ت د.ن، مصر.
(١٧) السمط الثمين: للمحب الطبرى، تحقيق حمزة النشرتى.
(١٨) كورة من كور فارس مخصوصة بالورد الذى لا أطيب منه.
(١٩) سيرة ابن هشام: تحقيق السرجانى، الأول ص ٢٤٦ - ٢٤٧.
(٢٠) فى القاموس المحيط: خربق العمل أفسده.
(٢١) اللوذعى: الذكى كأنه يلذع بلسانه من كتاب «مختصر العين» لأبى بكر الزبيدى الأشبيلى، تحقيق وتقديم صلاح مهدى الفرطوسى، الجزء الأول، ص ٣٢٧، الطبعة الأولى ١٩٩١م، سلسلة خزانة التراث آفاق عربية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
(٢٢) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٥.
(٢٣) عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية: لحسنى يوسف الأطير، ص ٤٧، الطبعة الأولى ١٩٨٥، الناشر دار الأنصار بمصر.
(٢٤) المصدر السابق، ص ٤٨.
(٢٥) فقه السيرة: لمحمد الغزالى، ص ٨٨، الطبعة الثامنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفى عامر، القاهرة.

(٢٦) الأطير، ص ٤٨.
(٢٧) السابق ص ١٤٣.
(٢٨) موسوعة آباء الكنيسة، المجلد الأول، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨، الهرطقات النابعة من اليهودية أولا الأبيونيون والناصريون، المحرر المسئول عادل فرج عبدالمسيح، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، عن دار الثقافة بالقاهرة.
(٢٩) دائرة المعارف الكتابية، الجزء الأول، ص ٥٥، المحرر، وليم وهبة، الطبعة الأولى ١٩٨٨، دار الثقافة بالقاهرة.
(٣٠) المسيح ـ س ـ بين الحقائق والأوهام: تأليف د ـ محمد وصفى، مراجعة وتقديم على الجوهرى، ص ٤١، د.ت.ن، صدر عن دار الفضيلة بمصر.
(٣١) إظهار الحق: للشيخ رحمت الله بن خليل الهندى، ص ١٨٣، ١٣٠٩هـ المطبعة الخيرية، نقلا عن «عقائد النصارى الموحدين» الأطير ص ٣ السابق،
(٣٢) عقائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٢٩.
(٣٣) عقائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٤٨ سابق.
(٣٤) المصدر السابق ص ٥١.
(٣٥) سورة النساء الآية: ١٧١.
(٣٦) سورة المائدة: الآية ١٧ والآية: ٧٢.
(٣٧) سورة المائدة: ٧٥.
(٣٨) سورة مريم الآية: ٣٠.
(٣٩) سورة مريم من الآية: ٣٤، ٣٥.
(٤٠) فى رأى الدكتور محمد وصفى صاحب كتاب «المسيح ـ س ـ بين الحقائق والأوهام» السابق ذكره أن عدة الأناجيل ٣٧ إنجيلاً تتساوى عند المذاهب المسيحية فى التقدير، ص ٤٣، أ.هـ.
(٤١) المسيحية: أحمد شلبى، ص ١٥٣ من الطبعة الثانية، نقلاً عن «تاريخ القرآن» لعبد الصبور شاهين، ص ٢٤٢، من الطبعة الثانية، مصدر سابق.
(٤٢) عقائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٥١، سابق.
(٤٣) فى القاموس المحيط: للفيروز أبادى، الداهل: المتحير وكذا فى «المعجم الوجيز».
(٤٤) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، ص ص ١٥١ - ١٥٢، سابق.
(٤٥) خرف الرجل «بالخاء لا بالقاف»: فسد عقله لكبره «المصباح المنير» للفيومى و«مختار الصحاح» للرازى و«المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية و«المختار من صحاح اللغة» أما العامة فى مصر فتطلق «التخريف» على الكلام الفسيد ولا تربطه بالكبر وهذا ما نقصده أ.هـ.
(٤٦) محمد رسول الله: لناصر الدين آتين وينيه وسليمان بن إبراهيم ترجمة الشيخ عبدالحليم محمود وابنه الشيخ محمد، ص ١١٠، ط أولى ١٩٧٩، دار المعارف بمصر.
(٤٧) على هامش السيرة: لطه حسين، الثانى، ص ١٧٢، وما بعدها.
(٤٨) الرسول فى رمضان: لمحمد حسنى الخربوطلى، ص ٣٠.
(٤٩) الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من حياته: للشيخ عبدالحليم محمود، ص ص ٧١ - ٧٨، الكتاب الأول من سلسلة البحوث الإسلامية الطبعة الأولى ربيع أول ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، مصر.
(٥٠) مجلة الأزهر: الجزء الثانى، السنة الحادية والسبعون، صفر ١٤١٩هـ، يونيو ١٩٩٨م، ص ٢٦٩.
(٥١) السيرة النبوية: للندوى ص ٨٣ سابق.
(٥٢) حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للنبهانى، ت ١٣٥٠، المجلد الأول، ص ٣٨، تحقيق حمزة النشرتى وآخرين، د.ت.ن.د.ن. القاهرة، وبالمثل «السيرة النبوية» لابن إسحق الأول ص ١٩٣، طبعة أخبار اليوم.
(٥٣) المصدر السابق ذات الصفحة.
(٥٤) هدّن الصبى: أسكته وأرضاه من «القاموس المحيط» للفيروز أبادى و«أساس البلاغة» الثانى،

للزمخشرى، سابق.

(٥٥) **أولاً المصادر:**

١. صحيح البخارى: كتاب بدء الوحى.

٢. السيرة النبوية: لابن إسحق الأول، ص ١٩٢ طبعة أخبار اليوم.

٣. فتح البارى: لابن حجر العسقلانى، الجزء الأول، ص ٣٤ سابق.

٤. السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٣٩٥ سابق.

٥. الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٧٩، سابق.

٦. تاريخ الإسلامى: للذهبى الأول، ص ٥٩ سابق.

٧. الاكتفاء: للكلاعى، الأول، ص ١٥٢ سابق.

٨. الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول ص ٢١٤.

٩. السِمط الثمين: المحب الطبرى، ط النشرتى، ص ٤١.

ثانياً: المراجع:

١. الرحيق المختوم: للمبارك فورى، ص ٥٩ سابق.

٢. حياة محمد: لهيكل، ص ١٥٢ سابق.

٣. موسوعة أمهات المسلمين: عبدالصبور شاهين وإصلاح عبدالسلام الرفاعى، ص ٨١، سابق.

(٥٦) الإرقال: ضرب من العدو السهل. من الباب الرابع والستين فى أسماء السير، ص ١٩١ من كتاب «نظام الغريب فى اللغة» تأليف عيسى الربعى الوحاظى الحميرى، تحقيق محمد الأكوع الحوالى، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت.

(٥٧) فى المصباح المنير: القعدة بالفتح، المرّة وبالكسر، الهينة، وفى المعجم الوسيط: القعدة، الجلسة، والقعيد المجالس.

(٥٨) أساس البلاغة: للزمخشرى ظل ممدود وممتد.

(٥٩) فى منزل الوحى: لمحمد حسين هيكل، ص ٢٤٣، الطبعة الرابعة ١٩٦٧م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٦٠) فى المعجم الوجيز: النكتة – المسألة العلمية الدقيقة يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر.

(٦١) دراسات فى السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ط ثانية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الزهراء للإعلام العربى، مصر.

(٦٢) قصود جمع قصد وفى «المعجم الوسيط» قصد له وإليه – توجه إليه عامدًا، وفى «أساس البلاغة» وإليك قصدى ومقصدى.

(٦٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة: ترجمة وتحرير راشد البراوى، ص ١٢٣٧، مرجع سابق.

(٦٤) ١. سيرة ابن هشام: الأول، ص ١٩٣ مصدر سابق.

٢. السيرة الحلبية: الأول، ص ١٥٤، مصدر سابق.

٣. السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧٥، مصدر سابق.

٤. حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للنبهانى، الجزء الأول، ص ٤٧٩، سابق.

(٦٥) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، ص ١٢٩، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧١م، دار المعارف بمصر.

(٦٦) حجة الله على العالمين: للنبهانى ذات المصدر وذات الصفحة.

(٦٧) المصدر السابق ذات الصفحة.

(٦٨) القربوس: هو الجزء المرتفع المقوس من السرج من «المعجم الوجيز».

(٦٩) الوليمة طعام العرس.

(٧٠) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧٦.

(٧١) طعام العرس.

(٧٢) تقول العرب هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم للرجال الأشراف من «المذكر والمؤنث» لأبى بكر الأنبارى، سابق.

(٧٣) الإمرّ هو الرجل الضعيف الذى لا عقل له والأحمق «تهذيب اللغة» لأبى منصور الأزهرى ٢٨٢–

٣٧٠هـ، الجزء الخامس عشر تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى ١٣٨٧/١٩٦٧م، الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة مصر.

(٧٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٣٨.

(٧٥) سيرة ابن هشام: ص ٢٢٤، ط الأنوار المحمدية هامش ٣٣، من «السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين» مصدر سابق.

(٧٦) بتصرف من كتاب «أمية بن أبى الصلت حياته وشعره» دراسة وتحقيق بهجة عبدالغفور الحديثى، ص ص ٥٦ - ٦٢، الطبعة الثانية ١٩٩١م، سلسلة خزانة التراث، دار الشئون الثقافية العامة وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

(٧٧) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور: ص ٣٥٧، نقلا عن كتاب «حياة الصحابيات» حمزة النشرتى وآخرين ص ٢٧٢، طبعة ١٩٩٩، الناشر: حمزة النشرتى، القاهرة.

(٧٨) انظر الخبر مطولا فى جميع دواوين السيرة المشرقة.

(٧٩) كتاب نسب قريش: للمصعب الزبيرى، ص ٢٠٨، مصدر سابق.

(٨٠) السيرة النبوية: لابن إسحق، الأول، ص ١٨٧.

(٨١) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى: الثانى، ص ٨٥ سابق.

(٨٢) تاريخ الطبرى: الثانى، ص ٢٩٥، و«إمتع الأسماع»: للمقريزى، الأول، ص ٣٨.

(٨٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٥١٠.

(٨٤) الشف: ستر رقيق يستشف ما وراءه ويقال ثوب شف - من المعجم الوجيز.

(٨٥) مسند أحمد: الحديث ٤٤٣، ص ١٣١، الجزء الأول، دون تاريخ، إدارة المصنفين طبعة مطبعة النصر، سربوة باكستان.

(٨٦) الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزى، ص ١٦٣.

(٨٧) أخرجاه أى البخارى ومسلم ص ١٧ «السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين» محب الدين أحمد الطبرى، طبعة ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٨٨) مختصر سيرة الرسول ﷺ: لمحمد بن عبدالوهاب بمقدمة بقلم محمد حامد الفقى ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، ص ٥٧ طبع على نفقة عبدالرحمن بن الشيخ محمد بن عبداللطيف د.ت، الطبعة اليوسفية بمصر.

(٨٩) جور كورة من كور فارس مخصوصة بالورد الذى لا أطيب منه.

(٩٠) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٩١) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢١٤.

- الجامع لأحكام القرآن: ص ٧٢٠٨، جـ ١٠.
- الدر النظيم: الأول، ص ٢١٥، النشرتى وآخرون.
- فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى: الثانى، ص ص ٧٧ - ٨٦.
- محمد رسول الله ﷺ: لمحمد رضا، ص ٦١.
- فقه السيرة: لمحمد الغزالى، ص ٩٢ وما بعدها.
- السيرة الشامية: الثانى، ص ص ٢١٦ - ٢٣٠.
- دراسات فى السيرة النبوية: لحسين مؤنس، ص ٧٦.

(٩٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٦، ٤٠٧.

(٩٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة: بإشراف هـ. أ. ر. ج. ب. هـ كالموز ترجمة د. راشد البراوى، المجلد الثانى، ص ١٢٣٧، طبعة ١٩٨٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(٩٤) ص ٤٤٧.

(٩٥) أسد الغابة فى معرفة الصحابة: لابن الأثير الجزرى، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا وآخر، المجلد الخامس ص ٤٤٧ - ٤٤٨، طبعة الشعب د.ت.

(٩٦) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٢.

الفصل الخامس

موجبات الاختيار

موجبات الاختيار

أثبتنا أن الطاهرة خديجة من الصفوة فى قريش وأنها حازت ثقافة دينية لم تتح لغيرها من النسوان فى القبيلة بل من الرجال، وتمكنت صلتها بنفر من الذين وصلوا إلى درجة رفيعة ورتبة عالية ومكانة مرموقة فى سلم تلك الثقافة وملأ سمعها «قالة» قرب ظهور القادم المأمول فى العرب ومن ثم تعين أن يغدو من أهل الحرم وجيرة البيت العتيق الذى بناه إبراهيم أبو البطارقة - تلك القالة التى أجمع عليها رؤساء شئون التقديس فى سائر الملل والنحل والعقائد والأديان.

• • •

وبما لها من فطانة وزكانة وسعة أفق وسلامة فطرة وقوة بصيرة وبعد نظر فقهت أن هذا الآتى لابد أن يتميز عن أقرانه ويختلف عن لداته ويغاير أنداده.

وهذا الاختلاف أو التباين أو التمايز لا يأتى فجأة ولا يظهر بغتة ولا يرتفع على غرة بل يتدرج ويتأنى ويتمرحل والعين البصيرة والعقل المتفتح والذكاء اللماح هو الذى يلحظه ويلتقطه ويهتم به.

سيدة نسوان قريش نديدة لآمنة بنت وهب «أم محمد» وأخبرتنا بنت الشاطئ أنهما على صلة حميمة بها ولا غرابة فكلتاهما تؤوب إلى بطن سامق وإذا صح ذلك وهو صحيح فإن عمر الطاهرة على أبعد الفروض بلغ الخامسة عشرة عامًا لأن الجارية فى ذياك الزمان المعجب تتزوج فى ما بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة وحملت آمنة به فور التقائها بزوجها عبدالله بن عبدالمطلب. كما أن كتاب السيرة المحمدية التى هى أحلى من تفاح الشام يجمعون على أن الفارق فى العمر بين الطاهرة و«**سيد البلغاء**» خمسة عشر عامًا ولو أننا ارتفعنا به إلى خمسة وعشرين.

ومع التسليم الجدلى أن الفرق هو خمسة عشر عامًا فمن يبلغه يدرك ويع جميع ما يدور حوله فضلاً عن أن مكة قرية محدودة المساحة ضامرة الكثافة السكانية والمستوطنون فيها شبكتهم قرابة متينة وهم أميون ليس لديهم ما

يشغلهم سوى لوك الكلام بين النسون أما بين الفحول ففى دار الندوة أو فى المجالس بالمنازل - وليس أكثر مدعاة للكلام من حوادث الميلاد والوفاة.

أما بالنسبة لـ**«صاحب التاج»** فقد بدأت دوافع الحديث عنه قبل مولده بأعوام طوال. ومشهورة واقعة نذر عبدالمطلب ذبح أحد أبنائه لو بلغوا عشرة بعد أن تعرض هو وابنه الوحيد آنذاك الحارث لرذالة سفهاء قريش وهو يقوم بحفر المضنونة أو برة أو زمزم كما أمره الهاتف فى الرؤيا وهو ينام فى حجر إسماعيل فى حضن الكعبة وعلم الاجتماع الدينى يخبرنا أن النوم بجوار أماكن القداسة يفرز أحلامًا ورؤى تتسّم بمسحة قد سانية وتتضمخ بعبق دينى ثم وقع الذبح على سهم عبدالله «أبى محمد» فتم فداؤه بمائة من الإبل، هذه الأحدوثة ولو أن بعض المستشرقين ذهب إلى أنها ابتدعت بآخرة ليضاهوا بها شروع إبراهيم فى ذبح ابنه إسحق ثم افتداؤه بكبش أملح أقرن أتى به ملاك الرب جبرائيل من الجنة.

● ● ●

وهناك أقصوصة أخرى أو أقصوصتان أخريان وهما تعرض مرتين هما قتيلة بنت نوفل وفاطمة بنت مر الخثعمية لعبدالله «أبى محمد» ليركبهما كيما ينتقل النور الذى فى جبينه «نور النبوة» إليهما وتعطيانه مائة من الإبل «مثل النذر» ولكنه امتنع.

إن همّ عبدالمطلب بنحر عبدالله وفاءً لنذره وافتداءه بالإبل لاشك أنها قصة صكت مسامع خديجة لأن بنى مخزوم أخوال أبى **«المدثر»** عارضوا جده عبدالمطلب وثارت لهذا الشأن مشاحنات حتى رضى عبدالمطلب بتحكيم كاهنة يثرب. وكذا إغراء هاتين المرأتين لوالد **«الصابر»** لا مماراة فى أن الطاهرة علمت به خاصة فاطمة الخثعمية لأنها حسناء حلوة ملاحة يتحلق حولها شباب قريش يتحدثون معها ليتملوا جمالها وليستمتعوا ببهائها فعندما يعودون لدورهم يحكون أمورها ومن بينها محاولتها الخائبة مع عبدالله وتنتقل الحكايات من بيت لآخر حتى تصل دار خويلد بن أسد فتسمعها ابنته الذكية الفطنة خديجة.

ولشهرة هذه الأقاصيص فلا لزوم للخوض فيها خاصة وأننا فيما سبق تناولنا ما بدر من قتيلة الأسدية وفاطمة الخثعمية من زوايا أخرى.

● ● ●

يبقى سرد الوقائع السابقة على الميلاد الشريف والتي بالضرورة لفتت الأنظار وشدت الانتباه وليس معنى ذلك أن سيدة نساء الدنيا عندما أحاطت بها خبرًا أدركت أن صاحبها هو القادم المأمول ولا حتى فى حينه علمت بمسألة **«المنتظر»** وضاهت بينه وبين بطل تلك الأمور المعجزات.

هذا شطط فى التفكير وهرولة فى الاستنتاج بل يمكن أن يدعى أنه تركيب

للأمور القوادم على الشئون السوابق للوصول إلى الهدف المبتغى والقصد المرسوم والغاية المرجوة، ونحن أبعد من ذلك كله إنما الذى نقرره أن هذه المعجبات التي سوف نسردها قد مرت على أم هند ووعتها وخزنتها فى ذاكرتها ودستها فى ملكتها الحافظة وتغلغلت فى أعماق لا شعورها وحين طفقت تتنبه إلى فكرة القادم أو المأمول أو المنتظر طفت إلى السطح ومرقت من الأعماق وخرجت من الأغوار، فساعدتها على التثبت وعاضدتها على التأكد وعاونتها على الاستيثاق أن سيد المعجزات اللواحق هو نفسه بطل الخوارق إذ إن اجتماع النوعين فى شخص واحد قرينة مؤكدة ودليل دامغ وحجة ماضية على دقة الحدس وصدق الفراسة وجودة التخمين.

• • •

وعسى الوقت قد حان لنطرح أمام باصرة القارئ بعضا من شواهد.

خوارق قبل الولد المبروك:

«أخرج أبو نعيم من طريق أبى بكر بن عبدالله بن أبى الجهم عن أبيه عن جده قال: سمعت أبا طالب يحدث عن عبدالمطلب قال: بينما أنا نائم فى الحجر رأيت رؤيا هالتنى ففزعت فزعًا شديداً فأتيت كاهنة قريش فقلت لها إنى رأيت الليلة كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضرب بأغصانها المشرق والمغرب وما رأيت نورًا ظهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ورأيت العرب والعجم ساجدين فهى تزداد كل ساعة عظمًا ونوراً وارتفاعاً ساعة تخفى وساعة تظهر ورأيت رهطًا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أر أحسن منه وجهًا ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً فلم أنل فقلت لمن النصيب؟ فقالوا: النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها فانتبهت مذعوراً فزعاً، فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ثم قالت: إن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس ثم قال لأبى طالب: لعلك أن تكون هذا المولود.

فكان أبو طالب يحدث والنبى ﷺ قد خرج يقول: كانت الشجرة والله أبا القاسم الأمين، فيقال له: ألا تؤمن به؟ فيقول: السبة والعار»[1].

١- عبدالمطلب رأى هذه الرؤيا وهو نائم فى الحجر بجوار الكعبة وعلماء الأنثروبولوجيا الدينية يذهبون إلى أن الأماكن المقدسة تبعث فى نفوس من ينامون بحرمها رؤى مهولة تؤول دائما على أنها تنبؤات أو أمور مستقبلية تتعلق بمعتقدات النائم أوالحالم فالذى لاشك فيه أن عبدالمطلب ممن كانوا يؤمنون بقرب ظهور نبى أو مبعوث أو نذير... إلخ.

نذكر هنا أن الرؤيا الخاصة بحفر بئر زمزم أوهى الرؤى لأنها تكررت عدة

مرات رآها عبدالمطلب وهو نائم فى الحجر بجوار الكعبة وكلاهما «الحجر أو حجر إسماعيل» والكعبة، مكانان مقدسان بل أشد الأماكن قداسة قبل الإسلام وفى الإسلام.

٢. ذكر عبدالمطلب فى رؤياه أن النور الذى انبثق من الشجرة أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً مما يقطع بقداسة الرقم سبعة قبل الإسلام، وهذا ميراث من الديانات السامية القديمة السابقة على الديانات السامية الكتابية.

٣. كان عبدالمطلب أحد الحنفاء وكان يتحنث فى غار حراء فى شهر رمضان ويطعم المساكين وكان على صلة بأهل الكتاب «اليهود والنصارى» ومن ثم كان يأمل أن يأتى النبى أو المبعوث أو النذير المنتظر من صلبه.. ولاشك أن الكاهنة قد عرفت عنه ذلك ومن ثم فإنها بشرته به.

٤. الذى لا مشاحة فيه أن هذه الرؤيا المهمة قد فشا أمرها بين أبناء قبيلة قريش بسائر أفخاذها وعلمها جميعهم.

● ● ●

قيل: والذى دعا عبدالمطلب لاختيار آمنة من بنى زهرة لولده عبدالله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهى عمة وهب والد آمنة أمه ﷺ «وقد كانت كاهنة قريش قالت يوما لبنى زهرة: فيكم نذيرة أو تلد نذيرًا فاعرضوا على بناتكم فعرضن عليها فقالت فى كل واحدة منهن قولاً ظهر بعد حين وحين عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت: هذه النذيرة أو تلد نذيرًا له شأن وبرهان منير»[٢].

كاهنة أو إحدى كاهنات قريش طلبت عرض جوارى «الجارية الفتاة الصغيرة التى على وشك النكاح أ.هـ» بطن زهرة عليها ففعلوا فلما استعرضت آمنة «أم محمد» أكدت أنها النذيرة أو تلد نذيرًا له شأن وبرهان، وصلة رهط بنى أسد بفرع بنى زهرة وثيقة لأنهما من الذؤابة العليا من قريش، كما أوردنا رأى د.عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» أن هناك تآلفًا بين **«أم صاحب النعلين»** وبين سيدة قريش، فالأخيرة والحال هكذا نمى إلى علمها هذا الخبر إما عن طريق صلة الرهطين المتينة أو أن أم محمد أسرت به إلى صديقتها خديجة باعتبار أنه أطروفة[٣].

وعلى كلا الفرضين فإنها علمت به.

● ● ●

«روى البيهقى وأبو نعيم عن ابن شهاب ـ رحم ـ قال: كان عبدالله «أبو محمد» أحسن رجل رئى قط، خرج يومًا على نساء قريش فقالت امرأة منهن أيتكن تتزوج بهذا الفتى فتصطب «تسكب وتدخل» النور الذى بين عينيه فإنى أرى نورًا بين عينيه ـ فتزوجته آمنة بنت وهب»[٤].

اشتهر عبدالله بن عبدالمطلب بجماله الفائق وحسنه البارع وبهائه الباهر

وأحرق قلوب عذارى وأيامى قريش وكل واحدة منهن تمنت أن تنكحه ولما خطب آمنة بنت وهب من بنى زهرة حزن حزنًا فاجعًا.

ورث عنه «**ذو الميسم**» طلاقة وجهه وحلاوته ووسامته وقسامته وألمح عدد من كتاب سيرته التي هى أطيب ريحًا من الورد البلدى إلى أن هذا هو السبب فى استماتة الطاهرة لتنكحه وتغدو له بعلاً وهذه طفاسة فى الرأى[٥] وعوج فى التفكير وركس فى الاستنباط[٦].

وما صرحت به تلك المرة من أنها رأت بين باصرتى «عبدالله أبى محمد» نورًا سمعه جمع من نسون قريش وبدهى أن من شهدته منهن حكته لمن لم تحضره لأن النساء فى كل زمان ومكان خاصة فى البيئات شبه المتبدية لا شغل لهن إلا الحكى... وكذا حثها أو وهزها[٧]. للعذراوات أو الأيامى لمباعلة عبدالله «أبى البهى» أمر غير معهود مما يزيد الخبر انتشارًا فيستحيل أن يخنس عن أذنى أم هند[٨].

• • •

«فى طبقات ابن سعد ـ رحم ـ عن ابن عباس: أن نساء من أهل مكة اختلفوا فى عيد كان لهم فى رجب لم يتركوا شيئًا فى إكبار ذلك العيد إلا أتينه. فبينما هن عكوف عند وثن لهن مثل كرجل أو فى هيئة رجل حتى صار منهن قريبًا ثم نادى بأعلى صوته: يا نساء تيماء إنه سيكون فى بلدكن نبى يقال له أحمد يبعث برسالة الله تعالى فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فتفعل ـ فحصبنه النساء وقبحنه وأغلظن له وأغضت خديجة - رضى الله عنها - على قوله ولم تتعرض له فيما عرض فيه النساء»[٩].

لم نستطع أن نتأكد من سياق الخبر: هل ما وقع فى ذلك العيد قبل المولد المحمدى المبارك أم بعده إذ ربما حدث و«**فاتح الكنوز**» قد ولد بيد أننا ألحقناه بالوقائع السابقة على ميلاده الشريف لمشاكلته لما تقدمه من حيث حضه نسوة مكة على مناكحته. وأهمية الخبر الشديدة تكمن فى نصه على شهود خديجة وسماعها بنفسها ما قاله الوثن المتمثل بهيئة الرجال.

ولاشك أن مشاركتها فى ذاك العيد الذى تعظم فيه الأوثان سببه الخضوع للموجبات الاجتماعية لا عن اعتقاد أو إيمان وسيأتى أن «**المؤمل**» حضر «عيد بوانة» وهو عيد وثنى أو أوثانى تحت ضغط وإلحاح من عمه وكافله وعماته لا بدافع عبادة أو تعظيم لأوثان «بوانة» فحاشاه ـ عليه السلام ـ أن يفعل إذ ليس فى سيرته التى هى أطيب ريحًا من زعفران قم سطر واحد يشير ولو من مسافة ألف ميل إلى أنه أقدم على ذلك ولو مرة واحدة ـ وبالمثل فإنه من المحال على سيدة نساء الدنيا أن تكبر أو تنحنى لوثن بل العكس هو صحيح تمامًا فقد ورد فى سيرتها الشريفة أنها نفرت من عبادة أهل مكة للأصنام والذى يؤكد

ثقافتها الدينية - إذ كيف تتعبد للأحجار وقد قرأت واستوعبت الإصحاحات والأبعاض التى عربها ابن عمها القس ورقة الذى هو بإجماع كل من كتبوا فى السيرة المنيفة أعلم أهل مكة بالكتاب المقدس.

وكيف تفعل وهى على وشيجة حميمة بجهابذة ديانة ابن مريم فى قرية القداسة بكة بل فى الحجاز وبصرى: بحيرى وسرجيوش وعداس وورقة بن نوفل وناصح؟

جاءت البشارة بـ«**لابس الصوف**» فى الخبر المتقدم من الوثن الرجل وهو كائن غامض ولكن هناك بشارات أتت من أشخاص حقيقيين أغلبهم من أهل الكتاب أو من المتدينين مثل ابن ذى يزن أو حتى من العرافين والمتكهنين.

وإذ المبشر فى الأثر السابق فى هيئة رجل هو فى حقيقته وثن فابن إسحق جعله يهوديًا.

«ذكر ابن إسحق أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فاجتمعن يومًا فيه جاءهن يهودى وقال لهن: إنه يوشك فيكن نبى فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل.

فحصبنه بالحجارة وقبحنه وأغلظن له وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء وقر ذلك فى نفسها فلما أخبرها ميسرة بما رأت من الآيات مع ما رأته هى قالت إن كان ما قاله اليهودى حقاً ما ذاك إلا هذا»(١٠).

هذا الخبر يقدم لنا لفتة مهمة وهى أن الطاهرة شهدت الواقعة ولكنها لم تفعل ما فعلته القرشيات الأخريات من تقبيح اليهودى وتغليظ القول له ولكن لمَ؟

لأن لديها مخزونًا من العجائب والمدهشات تمحورت حول «**سابق العرب**»، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى - وهذه صرح بها الخبر - أنها ربطت مقولة اليهودى وما أسره لها عبدها النصرانى ميسرة وما عاينته هى وشاهدته عند عودة «اليتيم» مع تجارتها من الشام وهى المعجزة التى قطعت كل شك فى أنه هو «**القادم المنتظر**» ولا أحد عداه ومن ثم استماتت لتغدو له بعلاً.

• • •

حكاية التاجر اليهودى بمكة الذى تعود على مجالسة المرازبة الجحاجح من قريش وفى إحدى الليالى أنبأهم بمولود يصير هو «المأمول» هذه الحكاية مبثوثة فى دواوين السيرة المحمدية العظيمة وتكاد تصل إلى درجة التواتر: عن ابن سعد والحاكم وأبو نعيم بسند حسن وابن حجر فى الفتح عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان يهودى قد سكن مكة يتجر فيها فلما كانت تلك الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ قال فى مجلس قريش:

يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه. قال: احفظوا ما أقول لكم: ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخير بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس ولا يرضع ليلتين. فتصدع القوم من مجلسهم وهم يعجبون من قوله، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا: ولد الليلة لعبدالله بن عبدالمطلب غلام سموه محمدًا. فالتقى القوم حتى جاءوا اليهودى فأخبروه الخبر، قال: اذهبوا معى حتى أنظر إليه فخرجوا حتى أدخلوه على آمنة فقالوا: أخرجى إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا له عن ظهره فرأى تلك الشامة فوقع مغشيًا عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك مالك؟ قال: والله ذهبت النبوة من بنى إسرائيل، أو فرحتم يا معشر قريش والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من الشرق إلى الغرب»[١١].

والخبر روته عائشة بنت أبى بكر وهى معدودة من العلماء الصحابة ونقله ابن سعد والحاكم وأبو نعيم بسند حسن وابن حجر فى الفتح هذا ما أورده صاحب السيرة الشامية ثم ألفيناه فى أربعة كتب من دواوين السيرة العالية والتي تحظى بكامل الثقة وهكذا أصبح خبرًا مؤكدًا.

• • •

عندما انتصر سيف بن يزن على أعدائه سافر إليه وفد من قريش على رأسه عبدالمطلب وضم بين أفراده خويلد بن أسد، وسيف خالطته مسحة دينية وانفرد بالجد عبدالمطلب سيد قريش ورأس وفدها وسارره وبشره بالقادم المأمول وأدلى له بنعته وتأكد عبدالمطلب من صدق السيف وأدرك أن هذه الصفات متوافرة فى حفيده محمد بن عبدالله وأنه بالتالى هو ذات من عناه ابن ذى يزن فخر ساجدًا:

«وكان عبدالمطلب قد وفد على سيف بن ذى يزن مع جلة قومه لما غلب على اليمن فقدمه سيف عليهم جميعًا وآثره ثم خلا به فبشره برسول الله ووصف له صفته فكبر عبدالمطلب وعرف صدق ما قال سيف ثم خر ساجدًا فقال له سيف: هل أحسست لما قلت نبأ؟ فقال: نعم ولد لابنى غلام على مثال ما وصفت أيها الملك. قال: احذر عليه اليهود وقومك أشد من اليهود والله متمم أمره ومعل دعوته..

فقد قال: أما والله لقد نفستنى قريش الماء يعنى ما سقاه الله من زمزم وذى الهدم لتنفسنى غدا الشرف العظيم والبناء الكريم والعز الباقى والسناء العالى إلى آخر الدهر ويوم الحشر»[١٢].

وإذ إن ثلاثة من كتب التراث «المصادر» المحترمة وكتاب حديث «مرجع» صنفه شيخ الجامع الأزهر الأسبق ومعه آخر أكدت لنا هذا الخبر فإنه بذلك غدا مكينًا ثابتًا راسخ القواعد.

وهذا أسقف نجران عندما رأى «**الأواه**» لما أقبل قاصدًا جده بشره أنه هو «**القادم المنتظر**»:

«أخرج أبو نعيم عن طريق الواقدى عن شيوخه قالوا: بينا عبدالمطلب يومًا فى الحجر وعنده أسقف نجران وكان صديقًا له وهو يحادثه ويقول: إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسماعيل هذا البلد مولده من صفته كذا. وأتى رسول الله ﷺ فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى قدميه فقال: هو هذا. ما هذا منك؟ قال: ابنى. قال الأسقف: لا ما نجد أباه حيًا. قال: هو ابن ابنى وقد مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدق، قال عبدالمطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم ألا تسمعون ما يقال فيه»(١٣).

وتستمر البشارات من أهل الكتاب للجد عبدالمطلب بخروج القادم المأمول من صلبه:

«أخرج الواقدى وأبو نعيم عن عبدالله بن كعب بن مالك قال: حدثنى شيوخ من قومى أنهم خرجوا عمارًا وعبدالمطلب يومئذ حى بمكة ومعهم رجل من يهود تيماء صحبهم للتجارة يريد مكة أو اليمن فنظر إلى عبدالمطلب فقال: إنا نجد فى كتابنا الذى لم يبدل أنه يخرج من ضئضئى هذا نبى يقتلنا وقومه قتل عاد»(١٤).

راهب طبيب فى ناحية عكاظ يبطئ فى الاستجابة لنداء عبدالمطلب ومعه «**المسدد**» فيتزلزل ديره ويوشك على الانهيار عليه فأرقل إليه(١٥). وما إن وقعت عيناه على «الجواد» حتى بشره أنه هو الذى ينتظره العرب ويأملون قدومه:

«قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى الوفاء فى سنة سبع من مولده ﷺ أصابه رمد شديد فعولج بمكة فلم يغن فقيل لعبدالمطلب إن فى ناحية عكاظ راهباً يعالج الأعين فركب إليه فناداه وديره مغلق فلم يجبه فتزلزل ديره حتى كاد أن يسقط عليه فخرج مبادراً فقال: يا عبدالمطلب إن هذا الغلام نبى هذه الأمة ولو لم أخرج لخرّ على ديرى فارجع به واحفظه لكى لا يقتله بعض أهل الكتاب. ثم عالجه وأعطاه ما يعالج به وألقى له المحبة فى قلوب قومه وكل من يراه»(١٦).

• • •

وأخيرًا نصل إلى مسك الختام وهو خبر الراهب عيسى الذى أدلى ببشارة دقيقة حدد فيها يوم ميلاد «**قثم**» ويوم إبلاغه الناس دعوته ويوم وفاته وسنى عمره:

«أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان بمر الظهران «واد بين مكة وعسفان» راهب من أهل الشام يدعى عيسى وكان قد آتاه الله علماً كثيراً وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول

إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته وتالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن وحللت أرض البؤس والجوع والخوف إلا فى طلبه، وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول: ما جاء بعد. فلما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله خرج عبدالمطلب حتى أتى عيسى فوقف فى أصل صومعته فناداه فقال من هذا؟ قال: أنا عبدالمطلب فأشرف عليه. فقال: كن أباه فقد ولد المولود الذى أحدثكم عنه يوم الاثنين وهو يبعث يوم الاثنين ويموت يوم الاثنين وإن نجمه طالع البارحة.

وآية ذلك أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثاً ثم يعافى فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد حسده أحد ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه.

قال: فما عمره؟ قال: إن طال عمره أو قصر لم يبلغ السبعين يموت فى وتر دونها فى الستين. فى إحدى وستين أو ثلاث وستين أعمار أمته»[١٧].

وبعده يجىء دور نوع مختلف من حاملى البشارة لا صلة لهم بأهل الكتاب إنما هم من الكهان سدنة الأوثان والأصنام والأنصاب:

«عن أبى عباس: أننى فى نفر من قريش عند امرأة كاهنة فقالوا أخبرينا أينا شبهاً بصاحب هذا المقام «إبراهيم» قالت: إن جررتم على السهلة عباءة مشيتم عليها أنبأتكم بأقربكم منه شبهاً فجروا عليها عباءة فرأت أثر قدم محمد ﷺ فقالت: هذا والله أقربكم شبهًا. قال ابن عباس رضى الله عنه: فمكثوا بعد ذلك عشرين سنة ثم بعث محمد»[١٨].

• • •

تلك باقة من الأخبار بالتنبؤ أو التبشير بأن «**أبا القاسم**» هو «القادم المنتظر» وإذ إن وحدة موضوعية نحزمها «نشدها لبعضها البعض» فقد آثرنا أن نؤخر التعليق عليها لما بعد الفراغ من سردها:

- خبر اليهودى الذى حصبته القرشيات وقبحنه وأغلظن له يدل على أن قرية القداسة بكة ضمت نفرًا من اليهود بيد أن كثافتهم قليلة ولا تقاس بوفرة النصارى فيها.

والأمر الآخر: أن سيدة نسون قريش شهدت الواقعة وأنها ربطت قولة اليهودى بما اختزنته ذاكرتها من معجزات سوابق لـ«**راكب الأتان**» وبما رأته بعدها عند عودته من سفر الشام وما قصه عليها عبدها الأمين النصرانى «ميسرة» وانتهت إلى نتيجة مفادها أنه هو الذى رشحته للقيام معه بالتجربة ومن ثم عملت المستحيل حتى نكحته.

وهذه هى علة عدم مشاركتها سائر نسوة قريش فى اتخاذ الموقف العدائى من اليهود المبشر أو المبشر اليهودى.

ـ أما خبر اليهودى التاجر فينطبق عليه ما قلناه فى الخبر السابق عن الجالية اليهودية فى مكة بيد أنه وصل إلى مكانة عالية إذ تمكن من مجالسة سادة قريش، كما أن مخالطة هؤلاء اليهود والنصارى يؤكد دراية ولا نقول علمهم بمقالات أهل الكتاب، ومن بينها أن هناك قادمًا أطل زمانه، ومن جانب آخر أن ما بدر من اليهودى من أقوال وأفعال عندما رأى محمداً بعد أن قدمته لهم أمه آمنة بنت وهب وخاصة وقوعه مغشيًا عليه من البديهى أن يصل إلى أذنى الطاهرة لأن أباها خويلدا يحضر تلك المجالس والواقعة فاذة تستحق أن يتناقلها المكيون ويقصونها فى بيوتهم على أزواجهم وبناتهم... إلخ.

ـ قبائل جزيرة العرب اعتبرت انتصار سيف بن ذى يزن نصراً مؤزراً لسائر العرب فأرسلت وفودها للتهنئة ووفد قريش ترأسه عبدالمطلب بن هاشم وضم خويلد بن أسد وبعد خروج الأول من الجلسة الانفرادية طفق يفتخر بالنبوءة أو البشرى التى أبلغه إياها سيف.

ورجال الوفد أول من علم بها وعند إيابهم لموطنهم نقلوها للأهل فلا ريب أن سيدة نسون الأرض سمعتها من أبيها وأضافتها لرصيدها من الأخبار المعجبة.

ـ وجود أسقف لنجران قرينة على وجود أسقف لمكة أو الحجاز ولو أنها قرينة قابلة لإثبات العكس وحتى يظهر هذا العكس فهى صحيحة وهو صديق لعبدالمطلب، وربما حضر لمكة للقيام بعمل يتعلق بمهام منصبه مثل التشاور مع أسقف مكة أو الحجاز سواء هو بحيرى أم غيره ودليل على حضور قوى للنصارى فى القرية المقدسة.

وتحقق من الصفات العينية أو الجسدية فى «**الفرد.الفخم**» عندما نظر إليه وقد جاء لجده.

وعبدالمطلب إثر سماعه قولة الأسقف نصح بنيه بالمحافظة عليه وهذا الخبر قابل للإذاعة والإشاعة لأن عبدالمطلب له عشرة من البنين بخلاف العديد من البنات وكل واحد من هؤلاء من المتعذر أن يعتقل لسانه فى فمه ولا يتحدث به لأهله وأصدقائه ولداته ولصحبه فلا يخلو الحال كذلك بيت من بيوت مكة من لوكه.

ـ يهودى تيماء شأنه كالآخرين جزم بقرب القادم الذى أطل زمانه وأنه من سلالة عبدالمطلب وربما يغدو هذا خبرًا عاديًا إنما الذى نفحه نكهة ذات حرافة «لاذعة» عزم «**القتول.القتال**» قتل اليهود وقريش معاً ومن ثم ضمنت له الفرسخة والفشو.

ـ خبر الراهب صاحب الدير الذى أوشك أن ينهدم على أم رأسه أثر «غنى» بالدلالات فهو يؤكد انسياح النصارى لا فى مكة وحدها بل حولها فهو يقيم فى عكاظ «الذى يقام فيها سوق سنوى شهير» ويدعم ما ذهبنا إليه عن احترافهم

الطب لجذب أهل مكة لنصرانيتهم. أما الزلزلة التى ضربت الدير حتى أوشك أن يسقط فهى الفقرة اللافتة للانتباه والتي تضمن للخبر الانتشار.

- عيسى الراهب العالم الطبيب الشامى الذى ترك بلاده الخصبة الغنية المليئة بالخير إلى وادٍ غير ذى زرع خصيصًا ليغدو من ضمن الذين كتب لهم السعد والمستقبلين للقادم الذى تشوفت كافة الطوائف للقائه وهو «عيسى». بالإضافة إلى علمه الغزير طبيب والطب هو الأحبول الذى يصطاد به الرهبان النصارى سكان مكة ونواحيها إلى ديانة ابن مريم.

- ومقر عيسى فى مرّ الظهران شاهد على انتشار النصارى فى كل مكان فى الحجاز غير مبالين بأنه قفر جديب مليط من الخير.

هذا الراهب ذو الصومعة دأب على إعلام أهل مكة بقرب ولادة مولود تدين له العرب ويملك العجم ويؤكد لهم أنه ما جاء إلى أرضهم البائسة الفقيرة إلا فى طلبه، وعندما وضعت آمنة مولودها ذهب إليه الجد عبدالمطلب وأحاطه علماً به فبشره بأنه هو الذى يؤمه «يقصده» هذا الراهب الذى طفق يجوب دروب مكة وشعابها وفجاجها مبشراً بقرب ولادة القادم المأمول وعندما ولد أخبر عبدالمطلب أنه هو يستحق درجة الامتياز فى مادة الإعلام.

كيف يخفى على أم هند ولا تصلها أخباره ونبوءاته ونشاطه الإعلامى.

• • •

وهكذا ساهم أهل الكتاب وخاصة رهبان النصارى الذين استوطنوا الحجاز فى ذاك الزمان العجيب فى شد بصر وجلاء بصيرة خديجة إلى تحديد معالم **«المنتظر»** وملامحه وقسماته ولعبوا دورًا خطيرًا فى وقوع اختيارها على **«لابس الشملة»** لتباعله وتجعله موضوعًا للتجربة الفذة الذى لم تتكرر منذ إنجازها حتى الآن.

• • •

الأهل أو الأقارب اللصقاء لبعض البطاركة الأكابر مثل موسى ويحيى «يوحنا» المعمدان ومريم بنت عمران وعيسى ابنها أحاطوا ولاداتهم بمخاريق(١٩). وأمور معجبات غير مألوفة بيد أن **«الحكم.الحكيم»** فى غنية عنها لأن عظمته وعبقريته وفذاذته لا تحتاج إليها.

رغم ذلك فإن دواوين سيرته العطرة ذات الرتبة العالية والدرجة الرفيعة والمقام المحمود وضعت فى حجرنا العشرات من الأعاجيب رواها أصحاب وتابعون يتقاصر الشك ويخنس الريب ويحزال(٢٠) التوهين أن يحوم حولهم أو يطرق بابهم أو يقترب منهم.. ومع ذلك فإن غالبية من كتبوا حديثا فى سيرة **«الراضى»** امتنعت عن ذكرها وتجاوزتها وتخطتها أى أعرضت ونأت بجانبها عنها.

والحق أننى وقفت طويلاً إزاء هذا الموقف فهم:

إما أنهم لا يؤمنون بتلك الخوارق فى ذاتها فى الوقت الذى رأيناهم سجدوا للتى وردت فى القرآن المجيد مع أنها لا تقل عنها خرقاً للنواميس الطبيعية مثل شق القمر فلقتين إحداهما علت جبل «أبى قبيس» والأخرى استقرت على «قيعقان» وكالإسراء والمعراج والحيوان المدهش «البراق» الذى يضع حوافر قدميه عند منتهى بصره وما أدراك ما منتهى بصره.

• • •

أو أنهم لا يصدقون وقوعها لـ«**الحامد**» وهذا طعن صريح فى رواة المدهشات الخوارق أو الخوارق المدهشات وفيهم صحابة أكابر وتابعون أثبات، وتجريح لكتب الأحاديث التى وضعتها ومازالت تضعها على رأسها أمة لا إله إلا الله منها: صحيح البخارى وصحيح مسلم ومسند أحمد ومستدرك الحاكم النيسابورى، وتكذيب لدواوين السيرة المحمدية العظيمة التى تقدرها الأمة الإسلامية تقديرًا يوشك أن يصل إلى حد القداسة على رأسها سيرة ابن إسحق وسيرة بن هشام والروض الأنف والسيرة الحلبية والسيرة الشامية والدرر وسيرة ابن كثير... إلخ وسوف نتناول هذا الأمر بقدر من التوسع عندما يحين الوقت.

ولينكر الكتّاب المحدثون ما يحلو لهم الإنكار فهم وشأنهم، وتغاضيهم عن المعجزات التى سنورد غيضًا من فيض منها لا ينال منها ولا يغض من قدرها ولا يحط من شأنها.

ونبدأ بما حدث عندما حملت آمنة الزهرية «أم محمد» به وما رأته هى ليلة مولده المباركة وما وقع فيها وما رواه غيرها ممن حضرها وشهدها، والذى يضاعف من حروجة موقف أولئك المتخذلقين أن محمداً ذاته شارك فى الإخبار عن بعض تلك الأعاجيب بعدة أحاديث ومعلوم أن من ينكر أحاديثه الشريفة يتحول من تابع مطيع له إلى خصم مبين نعوذ بالله تعالى ونسأله الثبات واليقين.

«عن ابن إسحق قال: حدثنى ثور عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء له بصرى من أرض الشام.

قال الحاكم: خالد بن معدان من خيار التابعين صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة فإذا أسند حديثًا إلى الصحابة فإنه صحيح ولو لم يخرجاه»[٢١].

الحديث أخرجه الحاكم النيسابورى فى «المستدرك» وجزم بصحته ورواه عن

واحد من خيار التابعين هو خالد بن معدان وأحد تلاميذ معاذ بن جبل من جلة الصحابة - وفيه أخبر «كنديدة وهو اسم محمد فى الزبور» أن آمنة حين حملت به خرج منها نور أضاءت له بصرى وهى التي التقى فيها بالراهب بحيرى أسقف الحجاز ومكة ومقدم الحلقة الخارجية التى أحاطت بالطاهرة وهو أيضا الذى ركبت إليه من مكة لتستشيره فى الرؤيا التى رآها «برقليطس وهو اسم محمد بالرومية» وهو نائم فى غار حرى وهو «بحيرى» الذي أمر سيدة قريش بضرورة نكاح محمد قبل صيرورتها له بعلاً بعشرين حولاً، ولعل هذا يجيب على السؤال الذى ينتصب فى الذهن لماذا توقف النور الذى خرج من آمنة عند بصرى ولم يتعداها إلى دمشق العاصمة التى من البديهى أن حظها من القصور أوفر، وأحدوثة وصول النور إلى بصرى تحديدًا سوف نطالعها فى عدة أخبار مما يقطع بأن المسألة ليست صدفة ولا خبط عشواء بل لها دلالة لا تستبهم على الفطن الذكى!!

• • •

«روى ابن سعد عن يزيد عن عبدالله والبيهقى عن ابن إسحق (رحم): قال كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به آمنة كانت تقول: ما شعرت أنى حملت ولا وجدت ثقله كما تجد النساء إلا أننى أنكرت رفع حيضتى وربما ترفعنى وتعود وأتانى آتٍ بين النائم واليقظان، فقال لى: هل شعرت أنك حملت؟ فأقول: ما أدرى. فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذلك يوم الاثنين وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وضع فسميه محمدًا.

قالت: فكان ذلك مما يقن عندى الحمل.

ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك فقال قولى: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد.

قالت: فكنت أقول ذلك فذكرته لنسائى فقلن: تعلقى عليك حديدًا فى عضديك وفى عنقك ففعلت فلم يكن يترك على إلا أيامًا فكنت لا أتعلقه»(٢٢).

هذا الخبر اشترك فى روايته ابن سعد فى «الطبقات الكبرى» والبيهقى إما فى «السنن» أو فى «دلائل النبوة» وابن إسحق فى «السيرة» وجاء فى «السيرة الشامية» و«الوفا بأحوال المصطفى» و«السيرة» لابن كثير - فأنى يلحقه الوضع والضعف وبذا فلا يدعيهما إلا المعاند الشكس. وقد أطلعنا الخبر على شعيرة من شعائر الميلاد وهو أن تعلق الحامل فى عنقها وعضديها حديداً طبعاً لحمايتها وجنينها من الأرواح الشريرة وهذا حجة على تدنى الدرجة الحضارية لذياك المجتمع.

• • •

«لما حملت آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ حدثت أنها أتيت فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع على الأرض فقولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً ورأت حين حملت به أنه أن خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام»(٢٣).

أربعة مصادر من أمهات كتب السيرة تضافرت على تأكيد الخبر وأن آمنة فور حملها بـ«**الصفوح**» أتاها آت بشرها بحملها بسيد هذه الأمة وخروج النور منها وأن محطة وصوله قصور بصرى.

• • •

«روى بعضهم عن آمنة أنها قالت: سطع منى النور حتى رأيت قصور الشام ولما وقع إلى الأرض قبض من تراب ثم رفع رأسه إلى السماء»(٢٤).

انضم اليعقوبى إلى طابور المصنفين الذين وثقوا معجزة خروج النور من آمنة فور حملها بـ«الأبر».

• • •

«كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد. قال آية ذلك أن يخرج معه النور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وقع فسميه محمدًا. وعن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام.

الحديث فى سيرة ابن هشام ومستدرك الحاكم»(٢٥).

إن الذى نفحنا هذا الخبر مصدر ذو وزن ثقيل هو الدلائل للبيهقى، ومعه مرجع عربه من الفرنسية إلى اللسان العربى الشيخ عبدالحليم محمود الذى تربع على كرسى رئاسة شئون التقديس ومعه ابنه وهو أيضا شيخ أزهرى فهل يعقل أن الضمير الدينى والأمانة العلمية لدى كليهما تسمحان لهما بتسطير حديث معلول.

وأثبت صاحب «الدلائل» أن الحديث فى سيرة ابن هشام ومستدرك الحاكم النيسابورى فما الذى يريده أى باحث أكثر من هذا كيما يتثبت من صحة أى حديث؟

• • •

نقل إلينا إنجيل لوقا أن العذراء البتول مريم بنت عمران عندما علقت بعيسى أتاها ملاك الرب وبشرها بالحمل والولادة وأمرها أن تسميه يسوع وأنه سيغدو عظيمًا وسيرث كرسى داوود ويملك بيت يعقوب.

«فقال لها الملاك لا تخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه يسوع هذا يكون عظيماً وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ويملك بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية»(٢٦).

تمامًا حذوك القذة بالقذة فبعد ما يزيد قليلاً على ستة قرون: أتى آت لآمنة بنت وهب من بنى زهرة: وبشرها بحملها بسيد هذه الأمة وأمرها أن تسميه محمداً وأعطاها آية أو علامة وهى خروج نور معه يسرى حتى يملأ قصور بصرى - ونصحها أن تعوذه بالواحد من شر كل حاسد.

«نفس السيناريو» الذى حدث فى بلدة الناصرة بفلسطين تكرر فى مكة من أرض الحجاز - فهل هى مصادفة؟

ألا يتصدق علينا هذا التماثل بدلالة عميقة يفقهها اللوذعى ويدركها الفطن وينقهها الفارس(٢٧).

● ● ●

«عن عثمان بن أبى العاص رضى الله عنه قال: حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة رسول الله ﷺ ليلة ولادته قالت: فما شىء انظر إليه من البيت إلا نورًا أضاء له البيت والدار حتى جعلت إلا نوراً»(٢٨).

هذه شهادة أم عثمان بن أبى العاص بالأمور المعجبة التى رأتها بعينيها ليلة مولد «**الخالص**».

● ● ●

«قالت أم عثمان بن العاص شهدت ولادة آمنة برسول الله ﷺ وكان ليلاً فما شىء انظر إليه من البيت إلا نور وإننى أنظر إلى النجوم تدنو وإنى أقول لتقعن علىّ، ولما وضعت تركت عليه فى ليلة ولادته جفنة فانقلبت عنه فكان من آياته أن لم تحوه»(٢٩).

هذه شهادة أخرى لأم عثمان بن العاص مشابهة للشهادة السابقة بيد أن بها إضافتين **الأولى** أن نجوم السماء دنت من البيت الذى ولدت فيه آمنة «**الأدعج**» حتى إن أم عثمان خشيت أن تقع عليها.

الأخرى أنه بعد ولادته وضعوه تحت برمة أو جفنة فانقلبت عنه، وفى رواية انفلقت شطرين. «روى نعيم عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان فى عهد الجاهلية إذا ولد مولود طرحوه تحت برمة فلما ولد رسول الله ﷺ طرحوه تحت برمة فلما أصبحوا أتوا البرمة فإذا هى قد انفلقت اثنتين وعيناه ﷺ إلى السماء فعجبوا من ذلك. رواه بألفاظ متقاربة ابن سعد وسند رجاله ثقات أثبات، والبيهقى عن أبى الحسن التنوخى - رحم - وابن الجوزى عن أبى الحسين بن البراء مرسلا»(٣٠).

لقد جئنا بهذا الخبر نظرًا لتوثيقه الشديد فقد روى عن ابن عباس وتعاضد على تحمله: أبو نعيم وعكرمة وابن سعد والسيوطى وصاحب السيرة الشامية.

ولعلة أخرى هو أنه أكد وضع المولود المبارك تحت البرمة ثم وجدوها مكسورة والذى نود أن نلفت الانتباه إليه أن هذه شعيرة من شعائر الميلاد أيضاً الهدف منها حماية الوليد من مس الشيطان ويمكن ربطها بالمستوى الحضارى وإن شئت الدقة اللاحضارى لمجتمع القرية المقدسة مكة آنذاك.

• • •

ونختم معجزات الحمل وليلة الميلاد الشريف بهذا الخبر:

«قال الإمام أبو شامة - رحم - وقد كان النور الذى ظهر وقت ولادته قد اشتهر فى قريش وكثر ذكره فيهم وقال فيه عمه العباس شعراً»[٣١].

وهو أثر بالغ الثمانة عالى القيمة إذ يخبرنا أن المعجزات المذكورة علمها الدانى والقاصى فى قريش والبادى والحاضر من أهل مكة إذ إن أمرها اشتهر فيهم وبديهى أن خديجة من بينهم وبلغت ساعتها الخامسة عشرة على الأقل «وفى رأينا أنها تجاوزت الخامسة والعشرين» أى أنها أدركتها ووعتها وفهمت مغزاها وأضافت إلى الأخبار التي تقدمت المولد المبرور وسنة سنة تتراكم فى ذاكرتها البواعث الدوافع لترشيحه ليصبح «**القادم المنتظر**».

• • •

ولكن المعجزات التالية للولادة المعجبة لم تنته بعد بل إنها مازالت تتدفق. فعلى غير العادة التى جرت مع الصبيان أو الذكور خرج من بطن أمه مختوناً مسروراً «أى مقطوع السرة» والختان نوع من شعائر «طقوس» المرور الضرورية لدى البعض[٣٢].

ويؤكد أحمد أمين أن قدماء المصريين كانوا يختتون[٣٣].

ونضيف من جانبنا أن شعيرة أو طقس أو عادة الختان انتقلت من قدماء المصريين إلى الشعوب السامية بحكم الجوار والاختلاط وفى مقدمة هؤلاء الشعب اليهودى حتى إن الختان تحول لديهم إلى شعيرة مقدسة ومنهم انتقل إلى جزيرة العرب:

«عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من كرامتى على ربى أنى ولدت مختونًا ولم ير أحد سوأتى»[٣٤].

«وقد جزم بأنه ﷺ ولد مختوناً جماعة من العلماء منهم هشام بن السائب فى كتاب الجامع وابن حبيب فى المجد وابن دريد فى الوشاح وابن الجوزى فى العلل والتلقيح، وقال الحاكم فى المستدرك: تواترت الأخبار بأنه ﷺ ولد مختوناً»[٣٥].

يقدم لنا هذا الخبر كوكبة من العلماء المقدمين منهم الطبرانى وأبو نعيم

وابن عساكر والضياء المقدسى وابن الجوزى وارتفع الحاكم النيسابورى صاحب المستدرك بالحديث إلى درجة التواتر.

وقد عده «**النور**» مكرمة تكرم بها عليه ربه حتى لا يرى أحد سوأته فى عملية الختان، وهناك خبر أكيد مفاده أن أيا من زوجاته وجواريه لم ترها أثناء جماعه لها ولو حاولت لأصيبت بالعمى فوراً.

• • •

ونظراً لأهمية هذه الواقعة المعجبة فقد تتبعها السيوطى فى المصادر التى أوردتها حتى تيقن من صحتها فقد أثبت أن الحديث سالف الإلمام «رواه عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن المطلب الذى شهد أن والده عبدالمطلب شمله الإعجاب والفرح لما رأى حفيده ولد مختوناً أى أنه حديث عائلى، وهناك طريق آخر للرواية عن عطاء عن ابن عباس وخرج هذه الرواية كل من ابن عدى وابن عساكر.

وطريق ثالث عن أبى هريرة ورابع عن عبدالله بن عمر بن الخطاب وقد أخرجهما ابن عساكر، وطريق خامس عن أنس بن مالك «خادم محمد».

وقد أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والخطيب وابن عساكر فى تاريخيهما وضياء الدين المقدسى فى مختاراته[٣٦].

إن عبدالله بن العباس وعبدالله بن عمر بن الخطاب وأبا هريرة وأنس بن مالك من أعيان الأصحاب ومات **صاحب الشملة** وهو عنهم راض ولا يخلو واحد من كتب الأحاديث من مسند خاص لكل منهم وبعضهم من المكثّرين فى الحديث مثل أبى هريرة وعبدالله بن عباس وأنس بن مالك.

أما الطبرانى والحاكم وأبو نعيم والضياء المقدسى وابن الجوزى والخطيب فهم أصحاب مصنفات فى السيرة المحمدية الزكية أو فى أحاديثه التى هى أشرف الأحاديث طراً بلغت هذه «المصنفات» الغاية القصوى فى القبول والتقدير والاحترام لدى أهل السنة والجماعة.

فهل يتجاسر مسلم على أن يشكك فى أن «**المكرم**» قد كرمه ربه بتكرمة حضوره إلى الدنيا وهو مختون مسرور.

• • •

ولكن هل هذه المكرمة تقاس بالإسراء والمعراج وركوب الدابة المدهشة «البراق» والمثول بين يدى الحضرة الربانية القدسانية عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. بأى منطق يقبل الكتبة المحدثون هذه الخوارق المدهشة الفاذة فذوذًا لم يتكرر لا من قبل ولا من بعد وينكرون ختانه وهى عملية يقوم بها «حلاق» ريفى وقطع حبله السرى وهو ما تنجزه أى داية[٣٧].

كيف يصدقون أن القمر انشق إلى فلقتين حظى بهما جبلان من أجبل بكة

وهى المعجزة التى شهدها العشرات من المكيين ثم يرفضون أن «**الميسر**» جاء إلى الدنيا وقد تم ختانه كيما لا ينظر أحد إلى سوأته.

وأيهما أقرب إلى المعقولية شق القمر إلى شطرين أم إجراء الختان وقطع الحبل السرى..

لقد تريثنا قليلاً عند هذه النقطة لنسلط الضوء على تناقض الرافضين للمعجزات «ما عدا شق القمر والإسراء والمعراج» وقولهم بأن المعجزة القيمة لـ«**الأبيض**» هى القرآن العظيم، ولو أنهم طالعوا سيرة محمد التى هى أحلى من سكر الأهواز وتفاح الشام لأيقنوا أنه أغزر معجزات وخوارق ومدهشات ومعجبات من صاحب اليهود: موسى وصاحب النصارى المسيح عيسى ابن مريم، بل إن قياسه بهما فيه إجحاف شديد له. إنهم يفعلون ذلك تحت لافتة العقلانية مع أن منهجهم هذا مقطوع الوشيجة بالعقلانية الحقة التى تحتم أنه عند إصدار حكم يتعين الإحاطة بالموضوع من سائر أقطاره وكل نواحيه وجميع جوانبه، وفى موضوعنا هذا يجب وبطريق الحتم واللزوم عدم فصم المعجزة عن المجتمع الذى انبثقت فيه وولدت فى أحشائه وتخلقت فى بطنه وعلى رأسها:

المستوى الحضارى والمعرفى والثقافى والتعليمى ووعى أفراده ومدى إدراكهم ودرجة فهمهم وسعة أو ضيق أفقهم ووزن موروثاتهم وقياس ذكائهم.. إلخ.

عند سبر المجتمع بدقة يجوز لنا أن نصدر حكمنا على ظهور المعجزة فيه وتصديق أفراده لها.

وإذ نفعل يساير منهجنا العقلانية وساعتها يغدو الحكم صحيحاً أما عند مجانبة ذلك والحكم على مجتمع عتيق، وفى منطقة خاصمتها الحضارة بذات المقاييس والآليات السائدة فى مجتمعنا المعاصر فنحن نخاصم العقلانية ويعد منهجنا بعيداً تمامًا عن العلمية والموضوعية.

بعد هذه التفريعة نعود إلى سياقة الحديث:

إن ولادة «**السنا**» مختوناً مسرورًا أمر غير عادى وهى المرة الأولى التى يرى فيها المكيون مولودًا بهذه الهيأة إذن من اللازم أن يشيع خبرها ويسرى من بيت لبيت وتنتشر من دار لدار فتسمع بها الطاهرة أم هند وتندهش لها ثم تدسها فى طيات ذاكرتها لتستحضرها عند اللزوم.

• • •

لازمت المعجزات «**الناهى**» طوال أطوار حياته المبرورة حتى نكحته الطاهرة ولا يعنى ذلك أنها توقفت بعد المباعلة إنما المقصود استمرارها حتى تفطنت أم هند أنه هو «المأمول المنتظر» فالتقطته وشكلت رافدًا مهما فى عملية اختياره زوجا وبالتالى الدخول معه التجربة المذهلة. فبعد ولادته مختونًا مسروراً بدرت منه خوارق أخرى وهى الكلام فى المهد وهو رضيع:

«قال الحافظ أبو الفضل بن حجر فى كتابه «فتح البارى فى شرح صحيح البخارى»: فى سير الواقدى أن النبى ﷺ تكلم أوائل ما ولد وذكر ابن سبع فى الخصائص أن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة له وأن أول كلام له أن قال: الله أكبر والحمد لله كثيراً»(٣٨).

● ● ●

هذا الأثر المدهش ساهم فى إهدائه لنا ابن حجر العسقلانى والواقدى وابن سبع والسيوطى وأخبرونا أن أول جملة نطق بها «المعزر» هى: الله أكبر ولله الحمد.. وقد غدت بعد ثلاثة عشر قرونا ونصف شعارًا لجماعة إسلامية نشأت فى مصر ومن كم معطفها خرجت جماعات العنف التى فعلت الأفاعيل فى المحروسة وغيرها.

وكما نقل لنا السيوطى فـ«الخصائص» الخبر السابق أقره صاحب السيرة الشامية وهو الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى المتوفى سنة ٩٤٢هـ:

«قال الحافظ فى الفتح وفى سير الواقدى: النبى ﷺ تكلم فى المهد أوائل ما ولد وذكر ابن سبع ـ رحم ـ فى الخصائص أن مهده ﷺ كان يتحرك بتحريك الملائكة له وأن أول كلام تكلم به أن قال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً»(٣٩).

وفى الخبرين كليهما أو هو إن شئنا الدقة خبر واحد لأن سنده واحد فى الروايتين أن الملائكة طفقت تحرك مهد «**الألمعى**».

وحكت دواوين السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحاً مع الزعفران والكافور أن عمه العباس أخبره أنه وهو طفل رضيع فى المهد دأب على مناغاة القمر الذى أخذ يستجيب لها «=المناغاة المحمدية» فيتحرك فى الاتجاه الذى يحدده له «**آكل الشعير**» ويقف عندما يشير له بذلك وهكذا...

وأضاف العباس أن ذلك شكل سبباً من أسباب إسلامه وأتباعه فيما دعاه إليه.

● ● ●

هذه الخوارق لا مشاحة فى أن كل ما تردد على البيت الذى ولد فيه «الصنديد» لابد أن شاهدها وعجب لمرآها وعندما يغادر المنزل يقصها على أهله وجيرانه وأصدقائه فتنتقل من دار إلى أخرى حتى تسمعها سيدة نساء الأرض.

● ● ●

على عادتهم فى ذاك الزمان الرائع فإن العائلات الكريمة لا تقوم فيها الأمهات بإرضاع أطفالهن بل تتولى ذلك الأعرابيات يأخذن أطفال وجوه قريش إلى مضاربهن فى البادية لعدة أسباب منها أن جوها المنفتح المنطلق أفيد لهم كما يتعلم فيها فصاحة البدو الخالية من اللكنة والحبسة والعجمة فينشأ الطفل

فصيحاً ذا لسان ذرب ومن ناحية ثالثة تحافظ أم الوليد على جمال جسمها وسلامة قوامها ونضارة قدها... إلخ، وجرياً على هذا العرف جاءت إلى مكة نسوة من بادية بنى سعد التماسًا للوضع ومن حسن حظ حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية وجمال بختها[٤٠] أن ظفرت بـ«**الناسك**» كيما تتولى إرضاعه وتنشئته ونظراً لأن هذا المقطع من أمتع مقاطع السيرة المحمدية التى هى أحلى من تفاح الشام وفيه لمحات إنسانية تأخذ بمجامع القلوب فإننا نستميح القارئ ونستأذنه فى سرد الخبر كما حكاه السيوطى فى خصائصه وإن انضوى على قدر من التطويل:

«أخرج ابن إسحق وابن راهويه وأبو يعلى والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم وابن عساكر عن طريق عبدالله بن جعفر بن أبى طالب قال: حديث حليمة بنت الحارث أم رسول الله ﷺ التى أرضعته قالت: قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء فقدمت على أتان ومعى صبى وشارف لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذلك لا يجد فى ثديى ما يغنيه ولا فى شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم فوالله ما بقى من صواحبى إلا أخذت رضيعاً غيرى فلما لم أجد غيره قلت لزوجى والله إنى لأكره أنى أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، فذهبت فأخذته فما هو إلا أن أخذته فجئت به على رحلى فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى وقام صاحبى إلى شارفنا تلك فإذا بها لحافل فحلب وشرب ما شرب وشربت حتى روينا وبتنا بخير ليلة، فقال لى صاحبى: يا حليمة والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه فلم يزل الله يزيدنا خيراً. ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى إن صواحبى يقلن ويلك أهذى أتانك التى خرجت عليها معنا فأقول نعم، والله إنها لهى فيقلن والله إن لها لشأنا حتى قدمنا أرض بنى سعد وما أعلم أرضاً أجدب منها، فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحن وماشيتنا «فى خصب وغنى»، وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن وإن أغنامهم لتروح جياعاً ما فيها قطرة لبن حتى إنهم ليقولون لرعاتهم ويحكم انظروا حيث تسرح غنم حليمة فاسرحوا معها فيسرحون مع غنمى حيث تسرح فيروحون أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن وتروح غنمى شباعاً لبناً فلم يزل الله يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شبابا لا يشبه الغلماء، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً فقدمنا به إلى أمه ونحن أضن شىء به مما رأينا فيه من البركة فلما رأته أمه قلنا لها: دعينا نرجع بابننا هذه

السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بهم جاءنا أخوه يشتد فقال: ذلك أخى القرشى قد جاء رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاه فشقا بطنه فخرجنا أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما منتقعاً لونه فاعتنقه أبوه وقال: أى بنى ما شأنك؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه ثم رداه كما كان.

فرجعنا به معنا فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر ما نتخوف.. قالت حليمة: فاحتملناه حتى قدمنا به إلى أمه، فقالت: ما ردكما به فقد كنتما عليه حريصين، قلنا: نخشى الإتلاف والأحداث. فقالت: ماذا بكما فاصدقانى شأنكما، فلما تدعنا حتى أخبرناها خبره قالت: أخشيتما عليه من الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإنه لكائن لابنى هذا شأن إلا أخبر كما خبره؟ قلنا: بلى. قالت: حملت به فما حملت قط أخف منه فأريت فى النوم حين حملت به أنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام ثم وقع حين ولد وقعاً ما يقعه مولود على يديه رافعاً رأسه إلى السماء فدعاه عنكما»(٤١).

● ● ●

ولسنا في حاجة أن نقرر أن هذه القصة الرائعة لا يخلو منها كتاب من كتب السيرة الزكية سواء من المصادر «التراثية» أو المراجع «الحديثة» بيد أن جوانب طريفة لهذا المقطع حملته دواوين أخرى:

«قالت حليمة ولما دخلت به منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممنا منه ريح المسك وألقيت محبته ﷺ فى قلوب الناس حتى إن أحدهم كان إذا نزل به أذى فى جسده أخذ كفه ﷺ فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعاً وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو شاة فعلوا ذلك.

«وفى حديث ابن عباس رضى الله عنه كان أول كلام تكلم به ﷺ حين فطمته: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا»(٤٢).

● ● ●

ونختم بخبر أخرجه ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر عن طريق عطاء ابن أبى رباح وهو من كبار التابعين عن ابن عباس:

«أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر وابن الطراح عن طريق عطاء ابن أبى رباح عن ابن عباس قال: كانت حليمة لا تدعه «أى محمداً» يذهب مكانًا بعيداً فغفلت عنه فخرج مع أخته الشيماء فى الظهيرة فخرجت حليمة تطلبه حتى تجده مع أخته فقالت: فى هذا الحر؟ فقالت أخته: يا أمه ما وجد أخى

حراً رأيت غمامة تظلل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع، قالت: أحقاً يا بنية؟ قالت: إى والله»(٤٣).

إذن حمله إلينا أربعة من دواوين السيرة المعتبرة ولا يوجد توثيق أكثر من ذلك.

• • •

إن مقطع التحاق «أبى القاسم» ببادية بنى سعد ليرضع من ثدى حليمة والذى منحنا إياه هذا الجمع من المصادر عالية الرتبة انضوى على رتل من المعجزات(٤٤) ومن أبرزها واقعة شق الصدر - القلب التى سوف نفرد لها فقرة مستقلة بخلاف عدد آخر من الحكايا المعجبات ولكنا نكتفى بما أسلفنا.

قرأنا فى الخبر الأول أن مرضعات أخريات كن مع حليمة وأخذن أطفالاً من بيوت صناديد بكة رافقنها فى الذهاب والإياب حتى وصلن مقارهن ورأين وعاين وسمعن هاتيك الأمور الخارقة للسنن الطبيعية وللأمور المألوفة ولا ريب أنهن عند إعادة الأطفال اللائى أرضعنهن إلى أهليهم حكين لأمهاتهن طرفًا منها كما أن واقعة إرجاع «**المشاور**» إلى أمه قبل الموعد المحدد لابد أنها ذاعت وشاعت هى وعلتها.

ومكة قرية ضائقة وضاهلة «قليلة الماء» وقاطنوها أقارب وأصهار تربطهم وشائج متينة ومن ثم فمثل هذه الأخبار المعجبة يتناقلها الذكور والإناث من مختلف الأعمار وترتيبًا على ذلك يحق لنا أن ندعى أن وصولها إلى مسامع خديجة أمر محتوم لا قريب الاحتمال فحسب.

• • •

وعلى هذه الوتيرة تتواصل وتتدارك أخبار «**الحاشر**» التى لا شبيه لها، خبر وراء خبر وحدث إثر حدث وأطروفة بعد أطروفة والطاهرة تسمعها كلها وتحتفظ بها فى حافظتها الواعية وأيضًا فى وعيها الباطن لتقب فى الوقت المناسب(٤٥).

واقعة شق صدر «**أكمل البشر**» اختلف بشأنها قدامى كتاب سيرته إن فى زمانها أو فى مكانها، ففريق ويبدو أنه الأغلب اتفق على وقوعها فى بادية بنى سعد إبان رضاعه هناك ومجموعة أخرى جزمت بحدوثها فى مكة أما الفرقة الثالثة فقد وافقت على المكان ولكنها باينت فى الزمان بعضها قال فى وقت الصبا والآخر انتهى إلى أن الشق تم ليلة الإسراء والمعراج وحصرا وتحديداً فى بيت عمه أبى طالب، وقد قضى تلك الليلة هناك.

وأول من أخبره بالقصة عند عودته هى بنت عمه أم هانئ «عن أبى صالح مولى أم هانئ عن أم هانئ قالت: دخل على رسول الله ﷺ بغلس وأنا على فراشى فقال شعرت أنى نمت الليلة فى المسجد الحرام... إلخ»(٤٦).

فى حين «أن البخارى روى بسنده عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن النبى حدثهم قال: بينما أنا نائم فى الحطيم وربما قال فى الحجر بينما أنا نائم إذ أتانى آتٍ وسمعته يقول فشق ما بين هذه... إلخ»[٤٧].

وسبق أن ذكرنا أن علماء الأنثربولوجى يذهبون إلى أن النوم قرب الأماكن المقدسة ينفح النائم رؤى تحفل بالأمور القدسانية وأنها تعبر عن أشواق وأمانى النائم التى لم يتمكن من تحقيقها على أرض الواقع مع تماهيها بمعان علوية.

«ورد فى الخبر أن «**الفخر**» أخبر أن ذلك حدث وهو نائم ومضطجع فى الحطيم أو حجر إسماعيل وهما ملحقان بجوار الكعبة قدس الأقداس فى الإسلام أ.هـ».

ومعلوم أن الإسراء والمعراج من الحوادث التى وقعت بعد وفاة الطاهرة وقد درج عدد من قدامى الباحثين أو الكاتبين للسيرة وغيرهم من المفسرين والمؤرخين والفقهاء على حل مثل هذا التضارب بالجمع بين الروايات المتناقضة بأن يذهب إلى أن شق الصدر تكرر مع أن المشهور أن السبب الخبىء الكامن خلفه هو إخراج العلقة السوداء من القلب بحسبان أنها حظ الشيطان إذن فما هو الداعى لتكرارها؟

بيد أن الذى يعنينا هنا هو توثيق شق صدره وهو صغير فى بادية السعديين لأننا مازلنا معه وهو فى هذه المرحلة لم نتجاوزها بعد.

خبر واقعة شق الصدر أو القلب فى بادية بنى سعد عند مرضعته «رواه الإمام مسلم وله رواية أخرى عن أبى هريرة عند الإمام أحمد والحاكم وابن عساكر عن أبى ابن كعب»[٤٨].

فهنا نجد الشيخ عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق والذى يحلو للبعض أن ينفحه لقب الإمام يخبرنا أن حديث الشق فى بادية بنى سعد أخرجه مسلم فى صحيحه وهو التالى لصحيح البخارى، وله رواية أخرى عن أبى هريرة.

أما أحمد بن حنبل فى مسنده والحاكم فى مستدركه وابن عساكر فى تاريخه فقد نقلوه عن أبى بن كعب أحد علماء الصحابة ومن القلة الذين جمعوا «القرآن» أى حفظوه فى حياة محمد ـ مما يقطع بصحة الحديث.

• • •

ولا نكتفى بذلك مع أنه كافٍ وزيادة بل نورد الخبر الآتى:

«وحصل له وهو ببنى سعد بن بكر رهط مرضعته حليمة حادثة مهمة وهى شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته إلى أمه وحدثتها قائلة: بينما هو وإخوته فى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو وقال لى ولأبيه ذلك أخى القرشى أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه

وشقا بطنه فهما يسوطانه «يحركانه» فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه «شبهاً بالنقع وهو التراب» فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بنى؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم فأقبلا يبتدرانى فأضجعانى وشقا بطنى فالتمسا شيئًا فأخذاه وطرحاه لا أدرى ما هو؟»(٤٩).

هذا الخبر جاءت به تسعة من كتب التراث صاحبة المقام الرفيع على رأسها سيرة ابن هشام عمدة كتب السيرة بإجماع واثنان من المراجع الهامة أولهما كتاب نور اليقين لمحمد الخضرى - أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول - والذى استقبله القراء بترحاب مبالغ فيه حتي إنه طبع أربعاً وعشرين مرة وهو رقم قياسى.

والآخر من تأليف دينيه وتعريب عبدالحليم محمود الذى تحدثنا عنه أكثر من مرة وهكذا تكاملت براهين صحة هذا الخبر.

• • •

ونظراً لغرابته فمن البديهى أن يشيع ويذيع وينتشر من البادية إلى قرية القداسة خاصة بعد أن أرجعت «الظئر» أى المرضعة «**البارع**» إلى أمه قبل انتهاء المدة المتفق عليها بعد أن ألحت عليها قبل ذلك بقليل بضرورة إبقائه طرفها لما لمسته من بركاته الأمر الذى دفع آمنة لتضييق الخناق على حليمة لمعرفة السبب فاضطرت لإعلامها به، وهنا نتوقع أن أم محمد أخبرت به نساءها وصديقاتها وصواحبها ولداتها وخديجة إحداهن وحتى لو لم تخبرها مباشرة فإن الطاهرة من المؤكد التقطت الخبر الخارق للعادة بصورة مذهلة من قريبة أو جارة أو معاشرة «بكسر الشين أى مخالطة لها أ.هـ» ثم قامت بإضافته إلى رصيد المعجزات التى أحاطت بـ«**الحفى**» منذ ليلة ميلاده بل قبلها بسنوات عديدة.

وهنا ملحظ شديد الأهمية وهو أن توالى الخوارق يضاعف من لفت النظر وشد الانتباه وهذا يصح سواء لدى الطاهرة أو سواها لأن المولود الذى تحدث له خارقة واحدة سرعان ما تنسى إذ يقال عنها إنها فلتة بعكس الذى تتعدد لديه وتتنوع فلا واحد له أن يدعى أنها محض مصادفة أو ضربة حظ ويتأكد أن صاحبها أو بطلها شخص له شأن وخطر. فإن كان صغيراً جزموا بأن له مستقبلاً معجبًا مثل مدهشاته.

• • •

رأينا فيما سبق أن عددًا من أهل الكتاب أكثرهم نصارى وأقلهم يهود وأغلبهم من الرهبان بشروا بـ«**الشارع**» وأن ظهوره قاب قوسين أو أدنى فى حين أن الكهان «سدنة الأصنام» والعرافين اتخذوا منه موقفاً عدائياً إذ ملأ الحقد قلوبهم عليه وما إن يعاينه أحدهم حتى يفقد صوابه ويصيح اقتلوا هذا الغلام

فإن هلاككم سوف يتم على يديه.

«روى ابن سعد عن موسى عن عبيد رضى الله عنه عن أبيه رحمهما الله لما ولد رسول الله ﷺ فوقع على الأرض وقع على يديه رافعاً رأسه إلى السماء وقبضة من تراب فبلغ ذلك رجلاً من لهب فقال لصاحبه: اتجه لئن صدق الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض»(٥٠).

وبطن بنى لهب اشتهر نسونه ورجاله باحتراف الكهانة والعيافة والعرافة والفراسة ولئن لم يوضح الخبر تصريح اللهبى بضرورة قتل «المحلل - المحرم» ولو أنه يفهم من سياق الخبر إذ اتضح من معاينة المولود أنه سوف يغلبن أهل الأرض فما هو الداعى للإبقاء عليه - ومع كل فإن الدعوة إلى قتله صراحة سترد فى الأخبار التالية.

«قال زيد بن أسلم لما قامت سوق عكاظ انطلقت به حليمة إلى عراف من هذيل يريه الناس صبيانهم فلما نظر إليه صاح: يا معشر هذيل يا معشر العرب واجتمع إليه الناس من أهل الموسم فقال: اقتلوا هذا الصبى وانسلت به حليمة... إلخ»(٥١).

الداعى لقتله هو عراف من هذيل وهى إحدى القبائل المعروفة وعند اعتناق أبنائها ديانة الإسلام قاموا بدور ملحوظ منهم عبدالله بن مسعود وهو من السابقين الأولين، ورأس مدرسة الفقه العراقى التى انسل منها المذهب الحنفى.

• • •

«وأخرج البيهقى عن الزهرى أن النبى ﷺ كان فى حجر جده عبدالمطلب فاسترضعته امرأة من بنى سعد فنزلت به سوق عكاظ فرآه كاهن من الكهان فقال: يا أهل عكاظ اقتلوا هذا الغلام فزاغت به أمه التى ترضعه فأنجاه الله ثم شب عندها حتى إذا سعى وأخته من الرضاعة تحضنه جاءت أخته فقالت: يا أماه إنى رأيت رهطاً اجتروا أخى القرشى آنفًا فشقوا بطنه. فقامت أمه فزعة حتى أتته فإذا هو جالس منتقع لونه لا ترى عنده أحداً فارتحلت به حتى أقدمت على أمه فقالت لها: اقبضى عنى ابنك قد خشيت. فقالت أمه: والله ما ببنى مما تخافى عليه لقد رأيته وهو فى بطنى أنه خرج معتمدًا على يديه رافعاً رأسه إلى السماء»(٥٢).

جمع هذا الخبر بين حادثين:

الأول: مناشدة كاهن سوق عكاظ لأهلها أن يقتلوا «**الماحى**» وحليمة تحمله إثر مرآه مباشرة.

الآخر: شق بطنه أى صدره وهو فى بادية بنى سعد وإعادته لأمه آمنة تخوفاً عليه من حدوث مكروه.

• • •

«فمكث ﷺ سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين فقدموا به على أمه زائرين لها وهم أحرص شىء على رد مكانه لما رأوا من عظم بركته فلما كانوا بوادى السرر لقيت نفراً من الحبشة فرافقتهم فسألوها فنظروا إلى رسول الله ﷺ نظراً شديدًا ثم نظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه وإلى حمرة فى عينيه فقالوا: هل يشتكى عينيه؟ قالت: لا ولكن هذه الحمرة لا تفارقهما، قالوا: هذا والله نبى فأتت به أمه ثم رجعت به معها فمرت يوما بذى المجاز وبه عراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله ﷺ وإلى الحمرة فى عينيه وإلى خاتم النبوة صاح: يا معشر العرب اقتلوا هذا الصبى فليقتلن أهل دينكم» أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» عن طريق الواحدى.

عراف فى ذى المجاز وهو سوق مثل عكاظ ومجنة عرضته حليمة عليه فلما رآه ملأ الذعر حنايا صدره فصاح مطالبًا بقتله ولعل هذا الخبر يبرز لنا الفرق بين أهل الكتاب والعرافين، فالنفر الأحباش نصارى فلما نظروا إليه وعاينوا العلامات الجسدية أو الحسية أو العينية تيقنوا أنه «**المأمول**» الذى طال انتظاره وأخبروا ظئره بذلك فى حين أن العراف حرض على قتله وفيما بعد سجل القرآن المجيد للنصارى أنهم أقرب مودة للذين آمنوا.

«فى حديث الزهرى أن حليمة نزلت به ﷺ سوق عكاظ فرآه كاهن من الكهان فقال: يا أهل السوق اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكاً فزاغت به حليمة فأنجاه الله منهم»[٥٣].

تشابه هذا الخبر مع الخبر الثانى الذى أورده السيوطى فى «الخصائص الكبرى» فكلاهما عن الزهرى وهو من سادة التابعين وأن الحديث وقع فى عكاظ ولم ينسب الكاهن مما يرجح أنهما خبر واحد ولكن خبر السيرة الشامية لم يضف إلى واقعة التحريض على القتل شيئًا.

• • •

«عن أبى نعيم أن حليمة مرت بذى المجاز وهى راجعة برسول الله ﷺ وبه عراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله ﷺ والحمرة بين عينيه وإلى خاتم النبوة صاح: يا معشر العرب اقتلوا هذا الصبى فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم فانسلت به حليمة»[٥٤].

نحن نرجح أن هذا الخبر هو ذات الخبر الأول الذى أخرجه أبو نعيم في الحلية عن طريق الواحدى، وقد أوردناه هنا بعد أن حمله مصدران من المصادر المعتبرة ومن ثم فقد أصبح موثقًا.

• • •

ونختم هذه المجموعة بالخبر الآتى:

«أخرج ابن سعد عن أبى حازم قال: قدم كاهن بمكة ورسول الله ﷺ ابن

خمس سنين فنظر الكاهن إليه وهو مع عبدالمطلب فقال: يا معشر قريش اقتلوا هذا الصبى فإنه يقتلكم ويفرقكم فلم تزل قريش تخشى من أمره ما كان الكاهن حذرهم»(٥٥).

يمتاز هذا الخبر الخاتم بأمرين على قدر لا بأس به من الثمانة:

الأول: أن «**رحمة العالمين**» عاينه الكاهن وهو فى معية جده عبدالمطلب بخلاف الأخبار السوابق عليه فحليمة هى المرافقة له.

الآخر: أن التحريض على القتل من قبل الكاهن تم فى قلب قرية القداسة ذاتها.

● ● ●

سؤال لابد أن يثور فى ذهن القارئ اللوذعى: ما هى الصلة بين هذه التحريضات التي أصدرها الكهان والعرافون وبين التجربة العظمى التى نفذتها الهندوز بقدرة وحنكة؟

الذين دعوا الناس لإزهاق روح «**سيد الأولين والآخرين**» هم كهان وعرافون أى يحترفون عمالة دينية حتى ولو أنها ارتبطت بالأوثان فعبادتها ديانة ولو أنها باطلة وفسيدة وهم يزعمون أن لهم صلة ما بالسماء ومن ثم فإن أقوالهم وأفعالهم ليست عادية وتلفت النظر وتشد الانتباه.

ثم إن ما طالبوه به أمر غير عادى وهو القتل: قتل طفل مرة وهو رضيع وأخرى وهو صغير لم يرتكب أى جريرة تستوجبه ولم يتعود الناس منهم أن يدعوهم إلى إزهاق روح أحد وأن يتم الطلب بصورة عصبية كلها تشنج وتوتر.

وتكررت النوازل مع شخص واحد لا مع عدة أشخاص. وإذا لم تسمع الطاهرة بواحدة أو اثنتين منها فمن غير المعقول أنها لم تسمع عن باقيها خاصة وأن الأخيرة حدثت فى قلب مكة وفى مواجهة عبدالمطلب كبيرها وزعيم قريش.

فكيف تنقطع صلة هذه الأخبار بالتجربة وبطلها وهو ذات الشخص الذى طفقت تركز عليه ومن ثم بدأت الحدوس «جمع حدس» تترسب فى وجدانها قبل عقلها مؤكدة أنه هو المأمول والمنتظر؟

● ● ●

وفى نهاية هذه الفاصلة: إن تردد حليمة بـ«**الصادق والمصدوق**» على العرافين والمتكهنين وعرضه عليهم من قبلها لمعرفة طالعه وكثرتهم يتركزون فى الأسواق والمواسم والتجمعات دليل قوى على أن ذياك المجتمع يؤمن بالخرافات وغير المعقولات واللاماورائيات والعوالم غير المنظورة والكائنات غير المرئية، وهذه سمات المجتمعات البدائية والمتخلفة مما يحسب لـ«**صاحب الخاتم**» أنه فى دعوته التى بشر بها أنه حاول القضاء على تلك العادات الذميمة.

● ● ●

جامعت الخوارق والمدهشات والأعاجيب «**الأسوة الحسنة**» بعد أن تخطى مرحلة الطفولة إلى الصبا:

«كان قوم من يهود يختلفون ينظرون إليه «عندما أخذته أمه آمنة لزيارة أخواله فى يثرب» قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول هو نبى هذه الأمة وهذه دار هجرته. فوعيت ذلك كله من كلامهم ثم رجعت به إلى مكة فلما كانت بالأبواء توفيت أمه آمنة...»[٥٦].

توفيت آمنة «أم محمد» وهو فى مدارج الصبا المبكر. والواقعة التى يحملها الخبر حدثت فى قرية يثرب قبلها مباشرة حيث حملته لزيارة بنى النجار أخواله ولزيارة مثوى أبيه عبدالله وهناك رآه نفر من يهود حيث يقطنونها وحضورهم فيها غليظ بخلاف مكة فعرفوا أنه القادم الذى طال صبر العرب فى التشوف إليه وصرحوا بذلك وسمعتهم أم أيمن التي طالما قال عنها إنها أمه بعد أمه وطفق يبرها ويكرمها وفاءً منه إذ إنه أعظم الأوفياء وأوفى العظماء ومن بعد فعله خليفتاه التيمى أبو بكر والعدوى عمر وأضاف النفر اليهود أن يثرب هى مهجره[٥٧].

وقد وعته «=الخبر» أم أيمن ومن البديهى أنها عندما وصلت به مكة حكت هذا الخبر لكل من قابلها وخصوصًا الإماء من أمثالها وأبلغنه إلى سيداتهن فى بيوت عظماء مكة ولاشك أن أم هند سمعت به وقد تجاوز عمرها العشرين أما فى رأينا فإنها تخطت الخامسة والعشرين.

واقعة أخرى ترويها أم أيمن عن خارقة حدثت لـ«**الذى سيفه على عاتقه**» وهو في دور الصبا ولو أنه وصل إلى عمر متقدم عن عمره وهو فى يثرب عندما بشر به اليهود: «عن أم أيمن رضى الله عنها أنها قالت: كان بوانة عيدًا تحضره قريش وتعظمه وتنسك أى تذبح له وتحلق عنده وتعكف عليه «على الصنم بوانة» يوماً إلى الليل فى كل سنة فكان أبو طالب يحضره فكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد فيأبى ذلك حتى قالت: رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يوم إذن أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً. فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوباً فزعاً فقلن ما دهاك؟ قال إنى أخشى أن يكون بى لمم «مس من الشيطان» فقلن ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير فما الذى رأيت؟

قال: إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل «وذلك من الملائكة» يصيح بى وراءك يا محمد لا تمسه. قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ ﷺ»[٥٨].

• • •

إن الخبر متضلع بالمعطيات النفيسة ففى فاتحته أن بوانة عبد تعظمه قريش وتنسك «تنحر الأضاحى» وتحلق عنده وتعكف وكل هذه الشعائر انتقلت إلى الديانة الإسلامية فالتعظيم والذبح والحلق من الطقوس الجوهرية التى تعد ضفائر مهمة فى نسيج الحج الركن الخامس فيها أما الاعتكاف فهو من السنن والتي يقوم بها تبع محمد وترتفع رتبته فى شهر الصيام الركن الرابع وجمعيتها تؤكد ما سطرناه فى كتابنا «الجذور» أن الإسلام انتقش كثيراً من الطقوس والشعائر التي هيمنت قبل ظهوره فى مكة خاصة والحجاز عامة ونسبها إلى نفسه(٥٩).

وفى الخبر أن عمات **صاحب النسب الموصول** غضبن عليه أشد الغضب وهاتيك العمات وكن كثيرات هن اللاتى عملت لهن سيدة نساء الأرض ألف حساب وهن تسعى لتنكحه وتغدو بعله إذ فى حسبانها أن يقلن له ما الذى يدعوك للزواج من أيم فى عمر أمك وتأثيرهن عليه واضح فى أنهن ضغطن عليه حتى رضى بحضور عيد بوانة «فلم يزالوا به حتى ذهب» كما أن منظر عودته لهن مرعوبًا فزعاً عندما طفق «رجل أبيض» يصيح به: وراءك يا محمد لا تمسه. هذا المنظر يذكرنا بمنظره عندما رأى فى المنام ملاك الرب فى غار حرى وهو يأمره بالقراءة: اقرأ .. فاستيقظ وهرول إلى خديجة ترجف بوادره، وفى رواية سبق لنا تسطيرها يزحف على يديه ورجليه.

● ● ●

وهذان المنظران: منظره فى بوانة عائدًا لعماته ومنظره بعد يقظته من رؤيا غار حراء العجيبة يوثق ما سبق لنا أن قررناه أن «**قمة ذؤابة قريش**» لم يعرف عنه أى اتجاه دينى قبل أن تدخله الظاهرة التجربة الفاذة لأنه ببساطة شديدة لو امتلك رصيدًا فى هذا المجال لما أفزعه «الرجل الأبيض» بطل واقعة «عيد بوانة» ولما أخافه ملاك الرب الذى أتاه وهو مستغرق فى النوم فى قمة جبل حراء ولأدرك على الفور لا على التراخى أن لهما صلة بعوالم خبيئة مستترة ولعل ما نرقمه يزداد وضوحاً إذا قارناه بموقف سيدة نسوة قريش إذ فور ما أخبرها عن منام حرى حتى طفقت تهدئه وتطمئنه لأن لديها خلفية راسخة وهى ثقافتها الدينية العميقة التي تلقتها من ابن عمها النصرانى ورقة ومن الحلقة الخارجية «بحيرى نسطور، عداس».

ورد العمات على «**أول من يفيق من الصعقة**» عندما صاح: إنى أخشى أن يكون بى لم فعقبن.. ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير، يعيد إلى ذاكرتنا رد الطاهرة.. والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين الكل... إلخ «وهى خصال الخير» مما يتصدق علينا بدالة عميقة وهى اعتقادهم بالربط بين سلوك الشخص وما يناله من جزاء.

ورد فى الخبر أن الذى صاح فى «**المزمل**» وراءك لا تمس الصنم أو الوثن هو رجل أبيض وهو ما استقر فى الوعى الجمعى أن الكائنات الطيبة والخيرة بيضاء أو تلبس ملابس بيضاء(٦٠).

وأخيراً فإن حضور «**الأمين المأمون**» لم يأت عن رضى واختيار وطواعية بل بضغط عمه وكافله أبى طالب وعماته الأمر الذى يؤكد أنه عاش بعيداً عن الدنس الذى تمرغ فيه أصحاب فترة ما قبل الإسلام(٦١) حتى تلقفته سيدة قريش بأسرها وخاضت معه أروع التجارب التى عرفها العرب.

• • •

وعيد بوانة وقد أفصح عن أهميته سياق الخبر يشى بأن القرشيين على بكرة أبيهم اعتادوا حضوره وشهود مراسمه وعندما تقع تلك الحادثة الغريبة لـ«**محمود**» فمن المرجح أن تغدو موضوع حديث الذين شهدوا العيد الوثنى المهم وعند عودتهم لمنازلهم بعد انقضاء ليلته يتبادلون ما رأوه وسمعوه من طرائف وقعت وعلى رأسها ظهور «الرجل الأبيض» الذى حذر «**سيد ولد قصى**» من لمس الوثن. وهل ثمة أغرب من هذه الأحدوثة وبذا يحق لنا أن نسطر أن سماع خديجة إياها مسألة كبيرة الاحتمال.

• • •

«قال ابن سعد عن عمرو بن سعيد إن أبا طالب قال: كنت بذى المجاز مع ابن أخى يعنى النبى ﷺ فأدركنى العطش فشكوت إليه فقلت يا ابن أخى قد عطشت وما قلت له ذلك، وأنا أرى شيئًا إلا الجزع قال: ركبته ثم قال: يا عم عطشت؟ قلت: نعم فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا أناب الماء فقال: أشرب فشربت»(٦٢).

هذا الخبر أورده صاحب السيرة الشامية وابن سعد فى طبقاته الكبرى والكتابان يحظيان بتقدير وفير فى دنيا الثقافة الإسلامية بعامة وفى نطاق السيرة المحمدية المجيدة بخاصة وهو = الخبر يحكى لنا عن معجزة وقعت لـ«**سيد خير البرية**» إذ فجر الأرض بعبه فانبجست عين أو بئر شرب منه عمه وكافله أبو طالب حتى روى بعد أن كاد يهلك عطشًا وبعد أن ركبه الجزع.

• • •

«قال ابن الجوزى فى الوفا: لما أتت لرسول الله ﷺ بضع عشرة سنة فى سفر مع عمه الزبير فمروا بواد فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز فلما رآه البعير برك وحك الأرض بكلكله فنزل عن بعيره وركبه فساروا حتى جاوزوا الوادى ثم خلىّ عنه فلما رجعوا من سفرهم مروا بوادٍ مملوء ماء يتدفق فوقفوا.

قال رسول الله ﷺ: اتبعونى ثم اقتحمه فاتبعوه فأيبس الله الماء فلما وصلوا إلى مكة تحدثوا بذلك فقال الناس إن لهذا الغلام شأناً»(٦٣).

هذه واقعة معجبة أو هما واقعتان مدهشتان جرتا على يد «**صاحب الخلق العظيم**» وعنده بضع عشرة سنة وهو فى سفرة مع عمه الزبير وجمع من قريش ذلك أن فحلاً هائجًا يقطع الطريق ويمنع من المرور فما إن رآه البعير حتى استنوق بل برك وحك الأرض بكلكله فنزل من دابته وامتطاه وبذا استطاع الركب المصاحبون له أن يواصلوا سيرهم.

• • •

وهم فى طريقهم مروا بوادٍ يفيض ماءً فتعذر عليهم المسير فتوقفوا خشية الغرق فتقدمهم «**ديان العرب**» بكل جسارة واقتحم الماء فحدثت معجزة إذ جف الماء وتحول الوادى الغزير الماء إلى أرض يابسة فواصلوا سيرهم فى أمان.

الذين شهدوا وعاينوا بأبصارهم ولمسوا بأنفسهم عندما عادوا إلى قرية التقديس مكة تحدثوا به إلى كل من قابلهم وهذا ما ورد بالخبر وليس تخمينا أو حدساً، والذين سمعوا هذه الأخبار الخارقة لكل ما ألفوه صاحوا معجبين «إن لهذا الغلام شأناً».

• • •

ومادامت بكة كلها تناقلت هذه المعجزات فلا مشاحة أن أم هند علمت بها شأنها شأن أى فرد فى القرية المباركة وفى ذياك الوقت جاوزت الثلاثين فى مذهب من يرى أن الفارق العمرى هو خمسة عشر عاماً ونحن نرى أنها ناهزت الأربعين وعلى كلا الفرضين فهى فى قمة نضجها العقلى والوجدانى والنفسانى.

فقدرت هذه الأخبار حق قدرها ووضعتها بجوار مثيلاتها وسائرها عاضدها على اختيارها لـ«**المعطى مفاتيح خزائن الأرض**» كيما تخوض معه التجربة.

• • •

فى مسيرة حياة «**المزمل**» وقائع صغيرة بيد أنها تشى بأن الخوارق لازمته ولم تفارقه ليؤكد أنه هو «القادم المأمول» الذى تقطعت الأعناق فى انتظار ظهوره والذين فعلوا هم فئة المثقفين أو الأنتلجنسيا العرب بعد أن اتصلوا بأهل الكتاب وعلموا منهم بأنه قد أطل زمانه وعلماء أهل الكتاب رهبان وأحبار وقساوسة بل والكهان سدنة الأصنام حسب ما ذكره الإخباريون.

ومن هذه الخوارق الصغيرة ما حدث له وهو صبى يافع يلعب مع لداته لعبة نقل الأحجار التى تستلزم أن يخلع الواحد منهم إزاره ويضعه على عاتقه ليقى به قسوة مس الحجارة وما تسببه من خدوش وتسلخات وجروح... إلخ.

وهنا تنكشف عورته ويراها أقرانه وغيرهم من المارة وعابرى سبيل والقارئ الذى لا معرفة له بأحوال المجتمع المبتدى يدهش ويسأل كيف: ألا يرتدى الواحد منهم لباساً يستر عورته؟

وتأتى الإجابة هنا بالنفى ففى المجتمع المبتدى لا يعرف رجاله ونسوانه السروالات لا فى داخل الخيام والأخبية والمنازل والدور ولا فى خارجها إلا استثناء، والاستثناء لا يقاس عليه ولولا مخافة الإطالة والخروج البين على السياق لأوردنا وقائع مشهورة مؤيدة ولعل تعود أبناء مجتمعهم إناثا وذكورًا على البقاء بدون سراويل وهو أحد الأسباب المهمة «ولا نقول السبب الوحيد» فى التهاب الغريزة الجنسية لديهم وتماس النوعين بمنتهى السهولة(٦٤).

• • •

ونعود إلى السياق:

وإذ لا يليق بـ«**القادم المنتظر**» أن يرى الناس عورته - فما إن فعل «**أول من يفيق من الصعقة**» حتى لكمه لاكم غير منظور بقسوة وأمره بأن يشد إزاره عليه فامتثل وطفق من دون زملائه يحمل الأحجار على عنقه رغم ما فيه من عنت ومشقة عليه.

«قال ابن إسحق: وكان رسول الله يحدث عما كان يحفظه فى صغره من أمر الجاهلية أنه قال: لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الصبيان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فإنى لأقبل معهم وأدبر إذ لكمنى لاكم لكمة شديدة ثم قال شد عليك إزارك، قال فأخذته فشددته علىّ ثم جعلت أنقل الحجارة على رقبتى وإزارى علىّ من بين أصحابى...»(٦٥).

إن لعبة الأطفال الصغار بنقل الحجارة لعبة قاسية ولكنها تتفق مع مستوى البيئة الصحراوية المتجهمة الخشنة ومع الدرجة الحضارية العجفاء للمجتمع المتخلف.

كما أن اعتياد الصبيان على كشف عوراتهم بحضور لداتهم والسابلة يؤكد مألوفيته عندهم وعدم عده عيبًا أو إخلالاً بالحياء أو خروجاً على الأدب ويقدم لنا مقطعاً من أخلاقيات تلك النوعية من البشر.

ويؤكد لكل من له عينان مدى النقلة الحضارية التى نقلهم إليها «**سيد الخلق**» بإعلانه الديانة الإسلامية التى دعا إليها.

• • •

ثم تكررت ذات الحادثة وهو مع عمه وكافله وحاميه أبى طالب إبان مساعدته فى معالجة البير المقدسة زمزم ونحن نعرف أن الذى حفرها عبدالمطلب والد عبد مناف «أبى طالب» وجد «**الحبيب المصطفى**» ومن ثم فإن رعايتها والعناية بها فرض واجب عليهما وعلى كل هاشمى:

«أورد الحلبى فى سيرته أن هذه الواقعة حدثت لـ«**صاحب القبلتين**» وهو غلام فى كفالة عمه أبى طالب الذى طفق يعالج زمزم وأخذ هو يساعده بنقل

الحجارة فأخذ إزاره ليتقى به الحجارة فوقع له ما فصله الخبر السابق»[٦٦].

ولم يشفع لـ«أحمد» أنه اشتغل لصالح أكثر البيار قداسة سواء قبل الإسلام أو بعده فإنه فى نظر الكائنات العلوية التى تكلأه بحفظها ليس مبرراً لإظهار عورته لأن ذاته مصونة على أى حال وأثناء أى عمل حتى لو اتصل برمز مقدس.

● ● ●

وفى مرة ثالثة رفع **«أول من تنشق عنه الأرض»** إزاره فانكشف فوقعت عليه القوى اللامرئية جزاءً من نوع آخر بخلاف المرتين السابقتين أشد وأنكى «السقوط مغشيًا عليه» وهذا راجع طبقاً لما نرجحه أن الجزءين الأول والثانى لم يكفاه عن تكرار العمل الذى نبهه الهاتف المخبوء إلى خطئه.

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة فى حياة الرسول ﷺ مبينة لهذه القاعدة فيقول: «وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف فسقط مغشيًا عليه حتى استتر بإزاره»[٦٧].

خلف العباس والده عبدالمطلب فى رعاية أمور الكعبة ويبدو أنها فى ذياك الوقت احتاجت لبعض الترميم لا بنائها بناءً كليًا لأن بناء الكعبة حدث لمرات معروفة ليس من بينها واحد تم على يد العباس ولا بمعرفة عبدالمطلب أبيه.

واستدعى الأمر أن يساهم أى يقدم **«المحمود فى الأرض والسماء»** يداً بل ربما هو الذى تطوع لما عرف عنه من أخلاق رفيعة.

فما إن رفع إزاره ووضعه على عاتقه ليتقى به مس الأحجار حتى انكشف فسقط مغشيًا عليه حتى أرخى عليه إزاره واستتر به.

● ● ●

إن الكعبة قدس الأقداس إن فى الإسلام أو قبله وترميمها عمل طيب يثاب عليه من ينجزه لا أن يعاقب إنما **«المنصور بالرعب قرابة شهر»** أشد حرمة منها ومن ثم لا يجوز له كشف عورته ولو فى سبيل إصلاحها ولذا فإن سقوطه مغشيًا عليه هو الجزاء الوفاق كيما لا يعود إلى مثلها أبداً وهو ما تم بالفعل.

وختامًا لهذه الفقرة فهذه الحوادث وهى غريبة من اللازم شيوعها بين أهل بكة وترتيبا عليه لابد أن الطاهرة قد أحاطت بها خبراً.

هذه محطة مهمة فى صبا **«الحاشر»** وعمره آنذاك جاوز الثانية عشرة بقليل ولو أن البعض ذهب إلى أنه لم يتخط العاشرة بيد أنه قول ضعيف.

وهى تتمثل فى رحلته أو سفرته مع عمه أبى طالب وعدد وفير من أشياخ قريش مع القافلة المتجهة إلى الشام وهى «رحلة الصيف» حسبما أسماها القرآن الكريم فى سورة قريش.

وترجع أهميتها لما وقع فيها من أحداث وأقوال وأهمها مقابلة بحيرى الراهب ولو أنه من الصعب أن نجزم هل هو مقدم الحلقة الخارجية التى

أحاطت بسيدة نساء الأرض والذى أمرها بمباعلة «**البشير**» والذى كتبت إليه أو ركبت إليه حتى الشام لتأخذ رأيه فى الرؤيا المنامية التى قصها عليها بأن الملاك جبريل ظهر له وهو نائم فى غار حراء وحفظه الشطر الأول من سورة ﴿اقرأ﴾ أول سور القرآن العظيم التى تلاها أولاً على خديجة ثم صحابته من بعده. وهل هو أسقف عموم الحجاز أم أن الأسقفية اقتصرت على مكة أم هو راهب غيره.

والسبب فى عدم الجزم هو أن مصنفات سيرة محمد التى هى أطيب ريحًا من المسك الأذفر عجزت عن أن تضبط أسماء كثير ممن ظهروا فيها حتى أبناءه.

● ● ●

وعلى أى حال فإن هذا الراهب هو الذى سعى بذاته لـ«**القادم المنتظر**» وأعلن أنه كذلك على رؤوس الأشهاد وعلى مسمع ومرأى من أشياخ قريش وعشرات غيرهم من أفراد القافلة الأمر الذى أدهشهم وحيرهم فى آن واحد.

● ● ●

وفى إحدى فواتح الكتاب رفعنا الستار عن خطل رأى بعض المستشرقين الفطير الذى ذهب إلى أن الراهب فى هذا اللقاء انفرد بـ«**صاحب الشملة**» ولقنه الموضوعات والمبادئ والقواعد والأصول والأسس... إلخ التى اعتمد عليها القرآن المجيد، ولقد فندناه وكشفنا عواره وبينا فسولته وأوضحنا ركته.

● ● ●

والآن حان الوقت لرقم خبر هذه الرحلة(٦٨)، وذلك كى يطالع القارئ بنفسه ويدرك ثراء الخبر بمعطيات بعيدة الغور هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليقتنع بأن ذلك النفر من المستشرقين جانبه الصواب وزايله التوفيق وفارقه الصدق عندما فاه بالرأى الطفس، وخبر هذه الرحلة لا يخلو منه مصنف تراثى أو حديث ولكننا آثرنا الرواية التى حملتها سيرة ابن هشام طليعة السير وأحظاهم بالتقدير:

فضلاً عن اختصاره وتركيزه بالقياس إلى نده الذى انضوت عليه السيرة الحلبية:

«قال ابن إسحق: ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجر إلى الشام فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صب به رسول الله ﷺ فيما يزعمون فرق له وقال والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً أو كما قال. فخرج به...

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له وكان أعلم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها، فيما يزعمون يتوارثونه كابرًا عن كابر، فلما

نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيراً ما يمرون به من قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شىء رآه وهو فى الصومعة، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم، قال: ثم أقبلوا فنزلوا فى شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها فلما رأى ذلك بحيرى نزل من الصومعة وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال: إنى قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرى: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعامًا فتأكلوا منه كلكم، فاجتمعوا وخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة. فلما نظر بحيرى فى القوم الصفة التى يعرف ويجد عنده فقال: يا معشر قريش ألا يتخلفن أحد منكم عن الطعام، قالوا له: يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا فتخلف فى رحالهم، فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش يا قوم واللات والعزى إن كان لؤم بنا أن يتخلف ابن عبدالله بن عبدالمطلب عن طعام من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم»(٦٩).

إن كتاب «الروض الأنف» للسهيلى هو أميز الكتب المعلقة أو الشارحة لسيرة ابن هشام ومن ثم فإننا نرتدف ما جاء به بخصوص هذه الرحلة المعجبة كتتمة له:

«روى الترمذى فى مصنفه قال: حدثنا الفضل بن سهل أبو العباس الأعرج البغدادى.. عن أبى إسحق عن أبى بكر أبى موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى ﷺ أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحطوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، فجعل يتخللهم الراهب وهم يحلوّن رحالهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له: أشياخ من قريش، ما علمك؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروف كتفة غضروف مثل التفاحة. ثم رجع فصنع لهم طعامًا فلما أتاهم به وكان هو فى رعية الإبل قال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فىء الشجرة فلما جلس

ومال فىء الشجرة عليه، فقال انظروا إلى فىء الشجرة مال عليه. قال فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه.. قال: أنشدكم أيكم وليّه؟ قالوا أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب.. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب»(٧٠).

وهكذا يبين أن الخبرين يكمل أحدهما الآخر ومعا يوضحان قسمات ما أطلق عليه مصنفو السيرة العطرة «رحلة الشام الأولى» تمييزًا لها عن «رحلة الشام الأخرى - الثانية» التى صحب **«المعصوم عن الناس»** فيها ميسرة غلام «عبد» خديجة النصرانى.

• • •

وأول ما نبدأ به فى تحليل الخبرين الخاصين بهذه السفرة أو الرحلة هو التساؤل: هل بحيرى هذا هو رأس الحلقة الخارجية التى تحوطت خديجة وشكلت مرجعيتها فى الشئون الثقافية وهل هو الذى أصدر إليها أمره صريحاً بأن تنكح **«راكب الحمار»** وتغدو هى له بعلاً وشاركه فى هذه النصيحة غلامها النصرانى ناصح عضو الحلقة الداخلية. والذى يؤكد الإجابة بنعم هو أن أم هند صرحت لمبعولها **«النذير»** بعد أن نكحته أن الأمر أو المشورة مضت عليها عشرون حولاً. فإذا لم يتجاوز وقتها الثالثة عشرة فمعناه أنه عندما أخبرته بالمشورة بلغ الثالثة والثلاثين أى مضى على نكاحها إياه ما يقرب من عشر سنوات، أى سلخ فى التجربة ما يزيد على سبعة أعوام إذ من العسير مصارحته قبلها.

ونستمر فى السياق فنسأل هل بحيرى هذا هو ذاته أسقف الحجاز أو مكة؟ الإجابة على هذه الأسئلة بردود قواطع أمر وعر غاية ما تجىء الوعورة ومرجعه كما قلنا: افتقار أصحاب السير للدقة ولأنهم عرب وعهدهم بالعلوم وتدوينها قريب.

• • •

ورد فى القصة أن **«الساجد»** أنه ما إن قرب من الشجرة الكائنة فى حرم صومعة الراهب وجلس تحتها حتى أظلته وتهصرت أغصانها ومال فيئها عليه وليس هذا فحسب بل إن الراهب اتخذه دليلاً على أن **«سبيل الله»** هو الذى طال انتظار الناس لقدومه وفى روايات أخرى بأنه ما جلس تحت الشجرة إلا نبى أى أنها مقدسة.

والشجرة المقدسة حاليًا ترتبط بأضرحة أولياء الله الصالحين فهناك العديد منها يضم حرمه شجرة من هذا النوع يتبرك بها الناس وقد ينسبون إليها بعض الكرامات، وهذا لاشك ميراث من العقائد السوابق «الأشجار المقدسة التى ترتبط بضريح أحد الأولياء ارتباطًا وثيقًا به حيث إن الولى وروحه لا تكون لها أى فاعلية أو تأثير إلا من خلال الشجرة وفى هذه الحالة تظل

الرابطة بين الولى والشجرة شديدة القوة بحيث تصبحان شيئًا واحداً تقريبًا ولا يكون للولى وجود إلا بسبب من الشجرة والعكس بالعكس»[٧١].

والدور الذى لعبته الشجرة هنا هو أنها شكلت دليل ثبوت على أن «**المانع**» هو «المأمول» وتقديس الأشجار إرث من الديانات السامية القديمة، وقد درج عرب ما قبل الإسلام على تقديس الأشجار بل تعبدهم إياها وأبرز مثل نقدمه «ذات أنواط» فهى شجرة كانت بالقرب من مكة وكانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيمًا لها فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها»[٧٢].

• • •

والشجر الذى حول الكعبة فيه قدر من القداسة فلا يقطع ولا يعضد وقد انتقل تقديسه إلى الإسلام من الحقبة التى تقدمته «ولهذا كانت أشجار حمى الكعبة أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها...»[٧٣].

وفى حى المطرية بالقاهرة توجد شجرة ينظر إليها أهلها بعين القداسة بمقولة أن العائلة المقدسة «مريم ويوسف النجار وابنها عيسى» قد استظلت بأغصانها فى الرحلة المباركة من الناصرة من أعمال فلسطين إلى صعيد مصر هرباً من بطش الطاغية الرومانى حاكم فلسطين.

وهكذا فإن جلوس «**الموقن**» تحت شجرة حمى صومعة الراهب بحيرى أصبح مؤشراً على أنه القادم الذى طال انتظاره، وثبت اليقين لديه بالإضافة إلى علامات أخر مثل: إظلال الغمام عليه فأخذه وأعلن صائحًا أو صاح معلناً وبأعلى صوته أن هذا سيد العالمين ورحمة الله لهم وأنه الذى انتظره هو وسلفه الذين سبقوه فى سكنى الصومعة وكذا عاين بين كتفيه خاتم النبوة فلم يعد لديه شك.

• • •

وإذ أطبق مصنفو السيرة المحمدية التى هى أطيب رائحة من زعفران قم على أن تظليل الغمامة عليه ثم الخاتم الكائن أسفل غضروف كتفه الشريف هما الآيتان اللتان دفعتا الراهب النصرانى على التصريح بأنه هو الذى تشوف الناس إليه من آماد بعيدة، ولكننا نخالفهم فيه لأن الغمامة قد يقال إنها قطعة غيم مثل غيرها من مئات قطع السحاب التى تملأ السماء، أما الخاتم فما هو إلا قطعة لحم وكثير غيره لديهم قطع لحم زائد فى العديد من المواضع فى أجسادهم، إنما الذى لا مرية فيه هو جلوسه تحت ظل الشجرة «المقدسة» التى لم يستظل بها أحد بعد المسيح ابن مريم سواه وتهصر أغصانها وميل فيئها عليه. فالكائن «المقدس» ما فعله إلا بأمر من السماء وإشارة من كائن علوى وبالتالى فهو ذاته شخص غير عادى له كينونة خاصة، ونحن نستند فى هذا إلى ما تقوله الأنثروبولوجيا عن مقام الشجرة لدى غالبية الشعوب فى عقائدها

وخاصة لدى الساميين ودياناتهم القديمة السابقة على الديانات السامية الإبراهيمية.

● ● ●

إنما الذى يعنينا فى هذا الخبر وتكملته فى المقام الأول هو أن ما صرح به الراهب علانية ثم على مرأى ومسمع من جميع أفراد القافلة وعلى رأسهم «أشياخ قريش» بل إن بعضهم حاج بحيرى وطلب منه البرهان على ما قاله إن **«حبيب الله»** هو سيد العالمين والمنتظر والرحمة المهداة من رب العالمين، «فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟» فرد عليه.

إن هؤلاء جميعهم عندما قفلوا راجعين إلى وطنهم مكة لابد أنهم أخبروا أهلهم وخلانهم وأصدقاءهم بما فعله الراهب معهم وما قاله فى حق **«أبى القاسم»** لأنه كلام غريب على أسماعهم، فهم قد مروا عليه عشرات المرات فلم يعبأ بأى واحد ولم يقدم لهم فى أى مرة شربة ماء قراح فما الذى دفعه هذه المرة على قراهم وعلى التفوه بما تفوه به؟ والذى أدلى بهذا الكلام ليس شخصاً عادياً بل هو راهب له باع طويل وقدم راسخ فى ديانة ابن مريم، وهؤلاء الأعاريب يكنون احتراماً يفوق الوصف لهؤلاء «النصارى» خاصة لرهبانهم الذين «عندهم علم الكتاب» فحازوا رتبة منيفة، وهناك احتمال أن أشياخ قريش أولئك رأوا بحيرى فى مكة وغيرها من قرى الحجاز وعلموا أنه أسقفها المبجل.

فما الذى دفعه إلى قول ما قال فى حق **«راكب الأتان»** إلا إذا قرأه فى كتبهم المقدسة أى أنه حقيقة وهذا لاشك أثار دهشتهم.

وهذا الإكبار وهذه الدهشة هما اللذان دفعاهم إلى رواية هذا الحديث لكل من قابلهم وفى خيامهم وأخبيتهم وبيوتهم ودورهم ومنتدياتهم ومجالس سمرهم التى لعبت دوراً بارزاً فى نشاطهم الاجتماعى.

فسيدة نسوة قريش بطريق الحتم واللزوم سمعته من أبيها خويلد أو عمها عمرو أو أخيها واسمه عمرو أيضًا أو غيرهم من رجال بنى أسد. وأمر متوقع أن أحدهم ضمته القافلة وسمع إعلان بحيرى بأذنيه وعاين صنيعه بعينيه لاسيما وأن له فى نفسها مكانة لا يساميها فيها أحد وما يصرح به لديها يعتبر حجة مسلمة وكله غدا حافزاً لسعيها الحثيث لنكاح محمد تنفيذاً لقراره الذى أصدره من سنوات.

● ● ●

فى روايات أخرى: انتحى بحيرى بـ**«المثبت»** جانباً وسأله عن بعض أحواله واستحلفه باللات والعزى فرفض أن يقسم بهما وأكد أنه يبغضهما بغضًا لا مزيد عليه والأمور التى سأله عنها قصد منها مزيداً من التثبت والتأكد أنه هو دون غيره الذى نصت عليه الكتب المقدسة وليرشحه لسيدة نساء قريش كيما

تنكحه وتصيير بعله دون غلط لأنه شأن ذو خطر جسيم يتعين التثبت منه إنما بعض المستشرقين الحاقدين على «المستغنى» والذين وقعوا فى حاص باص بشأن القرآن المجيد(٧٤) وخابوا واختلفوا فى معرفة كنهه وكيفية ظهوره وكيف أعلنه للناس **«الراضع»** فادعوا أن الراهب بحيرى «أسقف الحجاز ومكة» هو الذى غذاه بموضوعاته وأنه هو الذى عبر عنها بلغته العربية الفصحى..

وهو زعم فسيد يبعث على الضحك حتى الاستلقاء على القفا..

إذ كيف فى هذ اللقاء القصير يتمكن الراهب الأسقف أو الأسقف الراهب من تزويده بكل هذه الموضوعات المختلفة والمتباينة والمتعددة التى احتواها القرآن الحكيم؟ وأنىّ لمحمد أن يستوعبها وهو فى سنه الصغيرة «نسبيًا» والمشار إليه آنفًا وأن يحتفظ بها فى ذاكرته لمدة تزيد على ربع قرن، لأن الإجماع انعقد على أنه تلا أول سورة ﴿اقرأ﴾ وهو فى الأربعين من عمره؟؟

إن هذا الادعاء يثير الإشفاق المقرون بالسخرية ويقطع بإفلاس أولئك المستشرقين فكرياً، ونحن ننصح من بقى منهم على قيد الحياة وتلاميذهم ومشايعيهم ومقتفى آثارهم والسائرين على دربهم أن يقرأوا كتابنا هذا بدقة وإمعان وتأن لتنفتح بصائرهم ويعرفوا كم بلغت بهم العباطة عندما طرحوا رأيهم الفطير(٧٥).

• • •

أسلفنا بعض الخوارق التي رافقت **«الراضى»** فى صغره ويفاعته وصباه وكلها تؤكد مذهبنا أن الأعاجيب والمدهشات ظلت تحادثه منذ قبل التقاء أبيه بأمه ثم بعده وفى مراحل المتعاقبة مرحلة إثر مرحلة وجميعها تقطع أنه «المنتظر» والأهم أن خديجة طفقت ترقبها وتلاحظها.

بيد أن التي رفعت كل شك هى المعجزة التي سوف نبحثها بقدر واضح من الإسهاب تستحقه لأنها غدت الباب الملكى الذى دخلت منه التجربة التى فاقت كل تجارب القرون الوسيطة فى سموها وعظمتها.

• • •

من جماع ما تقدم من خوارق ومدهشات ومعجبات لفتت نظر خديجة وقد أوردنا أنها وضعت **«المنقذ»** تحت رقابتها وقدمنا سندنا ودليلنا أخذ اليقين يتسرب إلى داخلها أنه هو المأمول والمنتظر فأخذت تقترب منه كيما تختبره عن قرب لأن المعجزات وقد انتهت إليها ممن تثق فيه واستفاضت وانتشرت فغدت أخباراً متواترة إلا أنه كما يقول المثل ليس الخبر كالعيان وليس راء كمن سمع، وحتى تنتقل من اليقين إلى عين اليقين كما يحكى السادة الصوفية بدأت باستئجاره ليخرج بشطر من تجارتها إلى سوق حباشة وعند قفوله تنتظره وقد خبأت له تحفة أو طرفة من طعام وقد أثنى عليها خيراً لهذا الصنيع ووصفها

بأنها أحسن صاحب عمل وسبق طرح الأسانيد المؤيدة.

وفى أثناء تناول التحفة الأطروفة وتبادل الحديث تتفرس فيه وتلاحظه عن قرب، وهنا توثق لديها اليقين وبقى الارتقاء إلى موقف عين اليقين، فأرسلته أجيراً لها ليضارب فى أموالها فى القافلة المسافرة إلى الشام وقد بلغ نصيبها فيها شطر «نصف» عروضها وهو مال جسيم، وبعثت معه غلامها وموضع سرها ميسرة عبدها النصرانى الذى يعمل لديها لسنين عديدة لا ليغدو عيناً عليه، حاشا وكلا فهو **«الصادق الأمين»** الذى اشتهر بالصدق فى القول والأمانة فى العمل، إنما ليرقب أحواله الأخرى التي تهمها فى المقام الأول وما يحكيه عنه رهبان الشام النصارى والعبد المذكور ربطته بهم علاقة متينة لاتحادهم فى العقيدة.

• • •

ولقد تحدثنا عن هذه الرحلة فى الفصل الحامل العنوان «هذا الشاب لابد أن أباعله» من الزاوية الخاصة بموضوعه «=الفصل» بيد أن هناك زوايا أخرى يتطلب جوهر هذا الفصل «الحالى» تمحيصها والتنقير فيها ولا نريد أن نكرر أن هذه السفرة هى الفرقان الذى فرز بين التردد والحسم والحيرة والاطمئنان والتخبط والاستقرار.

• • •

وخير ما نبدأ به هو رواية مقدم المصنفين فى السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحاً من بخور الهند نعنى سيرة ابن إسحق: البحر الذى اصطف على ساحله من جاء بعده ليغترفوا منه.

حدثنا أحمد: حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال: وكانت خديجة ابنة خويلد امرأة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم وكانت قريش قومًا تجارًا. فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مالها تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة فقبله منها رسول الله ﷺ، وخرج فى مالها ذلك ومعه غلامها حتى قدم الشام فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة قريباً من صومعة من الرهبان فاطلع الراهب على ميسرة فقال: من هذا الرجل الذى نزل هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى ثم رجع قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة فكان ميسرة فيما يزعمون يقول إذا كانت الهاجرة فى الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما

قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً وحدثها ميسرة عن الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة مع أراد الله عز وجل به من كرامته، فلما أخبرها ميسرة عما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك منى، وشرفك فى قومك وسطتك فيهم، وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفًا وأكثرهم مالاً كل قومها قد كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر على ذلك(٧٦).

إن هذا الخبر كنز نفيس ملىء بالمعطيات التى من الصعب استقصاؤها لذا سنكتفى ببعضها:

- الطاهرة هى التى سعت لاستئجار «صاحب الشملة» لصدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فهذه هى صفات «القادمين والمأمول فيهم... إلخ» كما قرأتها فى الصحائف المقدسة التى عربها ابن عمها ابن نوفل والتي درسها إياها أعضاء الحلقة البرانية، بيد أنه لابد من تكميلها بعلامات إيجابية هى التي سوف يخبرها بها عنه علماء نصارى الشام والتى سوف يحكيها لها عبدها المخلص ميسرة، أنه نزل فى ظل الشجرة قريباً من صومعة الراهب ومنذ قليل رفعنا الستار عن أهمية الشجرة التى تقع فى حرم الصوامع والأديرة والكنائس وحالياً فى حرم أضرحة الأولياء.
- إن الراهب أصيب بما يشبه الصدمة لأنه «ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى» وهذه أول الدلائل للوصول إلى درجة عين اليقين إذ صرح «الراهب» ولم يجمجم أن **«راكب الحمار»** وقد فعلها فهو لابد أنه الذى طال انتظاره ونفد الصبر فى ظهور هلاله.
- فى الهاجرة منذ بدء الرحلة ما انفك ميسرة يرى ملكين إذا اشتد الحر وتفاقمت حمّاره «شدة القيظ» يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره.
- ورد فى الخبر أن سيدة نساء الأرض ما إن أخبرها الرقيق النصرانى بالذى رأى وسمع حتى هرولت تخطب **صاحب النعلين** وتنقل إليه رغبتها فى نكاحه وأن تصير له بعلاً.

● ● ●

عدد من المصنفات أكد أن عقدة النكاح انعقدت بعد حوالى شهرين فحسب وهنا يرتفع سؤال على مستوى رفيع من الوجاهة: لم هذه العجلة؟

لأنها صعدت من درجة اليقين إلى التالية لها وهى عين اليقين فلم التريث والتأنى والتباطؤ.

هذا بالإضافة إلى الأسباب التى وضعناها فى حجر القارئ فى فصل «هذا

الفتى» التي دعت الطاهرة إلى سرعة نكاحه ومباعلته.

يطلق على تفسير الطبرى «عمدة التفاسير» ونحن قلنا عن سيرة ابن إسحق «عمدة السير» ورائدتها بيد أننا لا نكتفى بها بل نأتى ببعض ما جاء فى عدد من المصنفات عن هذه الرحلة الفارقة.

لماذا؟ لأنها ألقت الضوء على جوانب تجاوزها ابن إسحاق ونجد فيها أقباسًا منه تنير الطريق ونحن نمضى فى التحليل.

- «فى سفرته الثانية للشام لحساب خديجة قالت لغلامها ميسرة لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً... فخرج هو وميسرة وعليه غمامة تظلله وجعل عمومته يوصون به أهل العير فخرج حتى قدم الشام فنزلا فى سوق بصرى فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له نسطورا فاطلع الراهب إلى ميسرة فسأله عنه فقال: رجل من قريش، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى أفى عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه، قال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء ويا ليت أنى أدركه حيث يؤمر بالخروج»(٧٧).

● ● ●

حمل إلينا هذا الخبر عدد من المصادر ذات قدر رفيع يجىء على رأسها سيرة ابن هشام والسيرة الشامية وتاريخ الطبرى وعيون الأثر، ومرجعان يتعذر علينا أن ندعى أنهما من المراجع العالية المكانة بيد أنهما نقلا من مصادر محترمة.

وقد أهدوا لنا وقائع تخبئ مدلولات عميقة:

- أم هند أصدرت أوامر مشددة لرقيقها النصرانى ميسرة أن يطيع «**الحبيب المصطفى**» ولا يعصى له أمراً ولا يخالف له رأياً وهذا يدل على أنها لم ترسل عيناً عليه بل ليتعرف على أحواله الأخرى.
- اسم الراهب نسطور وسبق رصد الاختلاف البين فى اسم الراهب الذى التقاه فى سفرته الأولى.
- جاء ذكر الحمرة التى لم تفارق عينيه والتى عدها نفر من علماء أهل الكتاب علامة مادية أو جسدية لابد من وجودها فى «المنتظر» ويبدو أنه منصوص عليها فى كتبهم.
- نزوله تحت الشجرة التي يضمها حمى صومعة الراهب وأن ذلك دليل لا يقبل المماراة على أنه القادم المنتظر وأنه آخر المنتظرين «بفتح الظاء».
- تأكيد نسطورا أنه «هو» وأن يطول عمره حتى يدركه عندما يؤمر بالخروج، وأن من نافلة القول أن نسطر أن الرقيق النصرانى أخبر سيدة نساء قريش بها جمعاء إذ إنها ما أرسلته معه إلا من أجلها «=الأخبار».
- ربط نسطور بين شجرة صومعته والنازل تحتها وصيرورته الآتى الذى أمضهم

انتظاره.

- لم يذكر أن ميسرة رأى ملكين أظلاه من حر الشمس بل هى غمامة ولا معجزة فيها لأن وجودها أمر شبه مألوف ويمكن أن يُدعى أن القول بأنها خصت «المدنى» بظلها فيه قدر من التوهم أو التخيل.

أما أن ملكين هما اللذان أظله فمن الصعب تلفيقه خاصة وأن سيدة قريش رأتهما وأرتهما نفيسة بنت منية «سفيرة الزواج» وسائر نسوانها وهن جلوس فى علية الدار وهو أحد أسباب وصولها إلى حالة عين اليقين أنه «هو».

- «فلما كانوا بمرّ الظهران قال ميسرة للنبى ﷺ: هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بالذى جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك، فركب النبى ﷺ قعوداً أحمر فتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهر وهى فى علية «غرفة» لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية، فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها فعجبن «تعجبن» لذلك.. فركب رسول الله وصعدت خديجة تنظر فرأته علي الحالة الأولى فاستيقنت أنه ... هو»[٧٨].

ونعود إلى سياقة الخبر الثانى:

إذا صح ما جاء به أن غمامة هى التى قامت بدور الإظلال فكيف نوفق بين الخبرين؟

كل المقصود أن قوة عليا سعت لحمايته فسخرت ما يمنع عنه حر الشمس الحارق فسيان تمثل فى صورة ملكين يحملان مظلة أم فلا أهمية له.

بيد أن وجود الملكين المظلين هو الغالب لدى أمهات كتب السيرة التى هى أفيح من المسك الخالص.

• • •

«ثم انصرف أهل العير جميعاً وكان ميسرة يرى رسول الله إذا كانت الهاجرة واشتد الحريرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره وكان الله تعالى قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة كأنه عبد لرسول الله ﷺ»[٧٩].

فهنا ثلاثة كتب من أهم دواوين السيرة:

«سيرة ابن هشام» و«السيرة الشامية» و«طبقات ابن سعد الكبرى» أوردت أن المملوك النصرانى أحب **«صاحب الهراوة»** حتى تحول إلى رقيق له أو كاد.

إنما لم يؤثر على المهمة التى كلفته بها سيدته؛ فقد لازمه كظله لا يفارقه ومن ثم يعرف كل صغيرة وكبيرة عنه وهو ذاته ما هدفت إليه الطاهرة وندبته إليه.

• • •

وهو ما حدث بالفعل ورأينا العبد النصرانى يقص على مالكته وقائع بعضها ليس كبير الأهمية:

«ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى وكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعته فقال الرجل: احلف باللات والعزى. فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلابه: يا ميسرة هذا نبى هذه الأمة والذى نفسى بيده إنه هو تجده أحبارنا منعوتاً فى كتبهم فوعى ميسرة ذلك»(٨٠).

الرجل هنا يستحلف «المزمل» باللات والعزى فيرفض ولا غرابة فيه فقد عاش حتى الثامنة من عمره وهى سن الإدراك لا البلوغ مع جده عبدالمطلب أحد الأحناف الذين نبذوا عبادة اللات والعزى وغيرهما، وبالتالى فإن الحلف بهما فى نظره كبيرة من الكبائر وركس من الشيطان.

• • •

أما عجز الخبر فهو الذى يستحق وقفة عنده:

كيف عرف الرجل أن «رحمة الله للعالمين» هو الذى طال انتظاره، إنه ليس راهباً ولا حبراً بدليل قوله: «إنه هو تجده أحبارنا... إلخ» فلو أنه منهم لقال: «الذى نجده منعوتاً فى كتبنا».

وما الذى دعاه للخلوة بميسرة لكى يخبره؟

هل هو سر؟ أم يتعين ألا يسمعه «هو»؟ ولماذا؟

لا توجد إجابة مقنعة لهذه الأسئلة إنما الأمر المؤكد أن الرجل له معرفة سابقة بالرقيق إذ ناداه باسمه ثم خلا أو انفرد به شأن من يعرفون بعضهم بعضاً.

• • •

وآخر قليل الأهمية:

«وقبل أن يصلوا إلى بصرى أعيا بعيران لخديجة وتخلف معهما ميسرة وكان رسول الله فى أول الركب فخاف ميسرة على نفسه وخاف على البعيرين فانطلق يسعى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأقبل رسول الله ﷺ إلى البعيرين ووضع يده على أخفافهما وعوذهما فانطلقا فى أول الركب ولهما رغاء»(٨١).

وترجع ضآلة هذا الخبر إلى أنه لا يرتبط بمجريات السفرة ارتباطًا عضوياً إذ يمكن أن يحدث فى أى زمان وأى مكان ولكن ذكره للطاهرة قد يزيدها اقتناعًا بأن «المطهر» هو المأمول وأن الحادث المعجب يضاف إلى رصيد الخوارق التي دأبت سيدة نساء قريش على اختزانها فى ذاكرتها الحافظة.

بيد أن عبارة وردت فيه شدت الانتباه وهى «وعوذهما» ولم يضف «بالله» وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه بعد استقراء سيرته التى هى أحلى من سكر الأهواز أنه قبل أن تنكحه خديجة لم يعرف له اهتمام عقائدى.

قال ابن إسحق: «فلما رأت خديجة أن تجارتها قد ربحت أضعفت ما سمت له وكانت قد ذكرت لورقة وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه. فقال ورقة: يا خديجة إن محمداً نبى هذه الأمة وإنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر هذا زمانه وقال فى ذلك شعراً»(٨٢).

هذا الخبر الذى نختم به أقصوصة السفرة الثانية «الأخيرة» للشام يشكل بداية تعاون الهندوز واليعسوب فى معالجة التجربة المدهشة.

إذ سبقت الزواج الميمون.

قبل قراءتى لهذا الخبر اعتقدت أن بدءها الفعلى وقع عند إتمام عقدة النكاح فى دار خديجة وقد رقمنا «كتبنا» التفصيلات فى حينه إنما بعد أن وقع بصرى عليه أدركت أن التعاون العملى انطلق من لحظة ذهاب أم هند إلى القس لتحيطه علما بدقائق السفرة ففيها صرح لها بأنه «هو» وأنه المنتظر وأنه خص بهذه الأمة.

وقد جاء فيه أن ما كان يظله هما الملكان لا غمامة؛ مما يقطع بأن الخبر الذى ضم بين طياته مسألة الغمامة جانبته الصحة أو ربما هو سبق قلم وكما ذكرنا لا يغير من مغزى الخبر.

إذن هذه هى رحلة الشام الثانية أو الأخيرة وكما استبان تستأهل الوقفة المستأنية والتفصيل المطول والتحليل المستقصى لأنها شكلت مفترق الطرق إذ بما حدث فيها أرست لدى الطاهرة عين اليقين أنه «هو»، الأمر الذى وزّها وعلى عجل أن تنكحه وتصبح بعله ولتبدأ معه تجربة رائعة من أروع تجارب التاريخ الوسيط.

• • •

سؤال هام:

لماذا تجاهل كتاب السيرة المحدثون المعجزات والخوارق. التى سبقت وواكبت وأعقبت ولادة محمد واستمرت معه فى طفولته وصباه بل وشبابه والتى أثبتتها كتب التراث بكم هائل.

ولم أعرضوا عن التنبؤات التى أطلقها الكهان الوثنيون ورجال الديانتين اليهودية المسيحية عن قرب ظهور قادم جديد والعلامات التى يتميز بها؟

دعك من أخبار الجن وأشعارهم... إلخ مع أنها كلها جاءت فى كتب تراثية على قدر وفير من الاعتبار والاحترام مثل مؤلفات ابن إسحق وابن هشام والواقدى وأحمد بن حنبل وابن سعد وأبى نعيم والبيهقى والطبرانى والحاكم والدارمى وابن عساكر والسيوطى والقاضى عياض ومن بين رواتها رجال يحظون بدرجة عالية من التوقير مثل على وابن عباس وابن عمر وعائشة وعمار ثم الزهرى ومجاهد ونافع بن جبير وعطاء، بل إن بعضًا إذا شئنا الدقة لا بأس

به من هذه المعجزات والخوارق والتنبؤات حملها عدد من الصحاح الستة على رأسها البخارى ومسلم؟

بماذا نعلل هذا المسلك من قبل هؤلاء الكتاب؟

هناك عدة افتراضات:

أولها: العقلانية وهى أن هذه المعجزات والخوارق والتنبؤات لا تتفق مع العقل وتند عن المنطق وتنبو عن التفكير السليم.. إلخ وهذا فى رأينا منهج فطير لأنه يقيس عقلانية القرن السابع الميلادى بعقلانية القرن الحادى والعشرين هو قياس مع الفارق بل الصادع العميق لاختلاف الأحوال الثقافية والإدراكية والمعرفية والدرجة الحضارية بين كل منهما..

فالمنهج العلمى السديد يتطلب وضع هذه الفروق فى الحسبان.. وكما أن إنسان القرن السابع الميلادى - خاصة فى منطقة الحجاز - له تقاليده وأعرافه وعاداته وأنساقه الاجتماعية والاقتصادية إلخ، وله طرائقه فى المأكل والملبس والمركب.. إلخ إذن بطريق الحتم واللزوم لابد أن يكون له نظامه الخاص فى التفكير والإدراك والفهم والاستنباط.. إلخ وبإيجاز له عقلانيته الخاصة به.. وعلى هذا فقياس طرائق الإدراك والمنطق والمعقولية الخاصة بالقرن العشرين على مثيلاتها منذ أربعة عشر قرناً هو عقلانية متوهمة.

ثانيها: فى رأيهم أن هذه المعجزات والخوارق والتنبؤات تغض من قدر محمد وتنال من مكانته وهذا افتراض ينافى المسلك الذى سار عليه محمد ذاته ذلك. إننا عندما نقرأ سيرته ولو حتى قراءة عجلى نجد أنها انطوت على شطر وسيع من المعجزات والخوارق بدأت بمعجزة شق القمر فى مكة والتى أشار إليها القرآن فى إحدى سوره.. ثم استؤنفت تارة أخرى فى منتصف المدة التى مكثها فى يثرب واستمرت إلى ما يقرب حتى ساعة انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضيًا[٨٣].

ثالثها: إن جل الكتاب المحدثين ينظرون إلى هذا الجانب من المؤلفات التراثية نظرة تعال تصل إلى حد الامتهان والازدراء وهذا تصرف يتسم باللاموضوعية ربما يًنتصب دافعه من قبل التظاهر بالحداثة أو غيرها، وأيا كان الباعث الحثيث عليها فإن اللاموضوعية تدمغها..

ليس معنى ذلك أننا ندعو إلى الأخذ بكل ما فى تلك المؤلفات وتبنيه والدعوة إليه.. فهذا ما لا يقول به من لديه أدنى مسكة من إدراك أو ذرة من عقل... ولكن ما نتطلبه من المحدثين أنهم عندما يتناولون بالدرس والتنقير والتمحيص مسألة تاريخية خاصة التى تتميز بالتوهج والطزاجة والبكارة والدهش.. إلخ ألا يغضوا الطرف عن النوازل والأخبار والوقائع التى سبقتها وحادثتها وأعقبتها والتى نفحتها فرادتها وخصوصيتها وتوحدها ذلك أنها تجربة معجبة ليس لها نديد أو نظير أو مثيل فى التاريخ الإسلامى كله على طوله وعرضه.

إن فصم هذه المعجزات والتنبؤات والخوارق من سياقها التاريخى فضلاً عن أنه مسلك يتسم بمجافاة الموضوعية ومنافاة المنهج العلمى فإنه سوف يفقد التجربة حرارتها ونبضها ويحولها إلى جسد هامد فقد الحياة، ونحن لا نطلب منهم التسليم ولا التصديق بها بموازينهم هم، إننا إذا فعلنا ذلك نطلب منهم شططًا ونكلفهم فوق ما يطيقون.

بيد أن الذى ندعوهم إليه هو أن يتمنوا فى تلك الخوارق والمعجزات والتنبؤات فى وقت حدوثها وفى مجتمعها وبيئتها.. إلخ ثم يعللونها.. لا أن يرفضوها وينبذوها..

إن نأيهم والالتفات والإشاحة جانبا عنها لا يقضى عليها ولا يرفعها من كتب التراث التى وثقتها ولا من الصحاح التى روتها ولا المؤلفات التي ظلت تتناقلها قروناً عديدة.. لأنه من اليسير على أى شخص أن يسألهم: لماذا اعتمدتم على كتب التراث فى نقل عشرات من الأخبار والوقائع والنوازل ثم تركتم روايات هذه الكتب ذاتها التى تحدثت عن الخوارق والمعجزات والتنبؤات؟

ما هو المقياس الذى سمح لكم بتبنى الأولى وشلح الأخرى؟

• • •

وسواء صح هذا الافتراض أو ذاك من هذه الافتراضات أو صحت جميعها فإن تجاهل الكتاب المحدثين لتلك التنبؤات والخوارق والمعجزات يعيب مؤلفاتهم ويسمها بنسبة كبيرة من اللاموضوعية والبعد عن المنهج العلمى الرصين.

ولعل هذا يجرنا إلى تناول مسألة نرى أنها على جانب من الخطر والأهمية وهى إقدام الكثيرين على تناول موضوعات هى فى حد ذاتها تنوء بحمل كم وفير من جينات الخروج عن المألوف والدهش والعجب بل والإعجاز... إلخ دون الالتفات لذلك فهى خارقة للعادات المتعارف عليها وخارجة عن النواميس التى استقرت لدى الناس ونادة عن الأمور المألوفة فى المجتمع.. هى فاذة ونادرة ولا تتكرر ولا يشهدها الأفراد إلا كل بضع مئات من السنين... إلخ فكيف يصح فى منطق العقل نفسه التغاضى عن ذلك كله؟ لذا فإن هؤلاء «الذين يخوضون فى هذه الأمور المدهشة» يتعين عليهم أن يضعوا هذه الحقيقة فى بؤبؤ عين اهتمامهم وفى بؤرة مركز عنايتهم، فهم لا يدرسون حدثا عاديًا مثل انقلاب عسكرى أو احتلال دولة لأراضى أخرى أو ثورة... إلخ، فمن الطبيعى والحال كذلك أن تحايث النازلة الفاذة خوارق ومعجزات، فإذا نأوا بجانبهم عنها ودرسوها كما يدرسون الوقائع العادية «الانقلاب الاحتلال للثورة.. إلخ» فإنهم بذلك يكونون قد طابقوا بين شأنين غير متساويين، وهذا محض الخطأ وأس الخطأ وجرثومة الانحراف ومعدن البطلان وركيزة الفساد فى محررات المحدثين الذين أفرغوها من الخوارق والمعجزات والنبوءات وهم يتناولون تلك اللحظة المبهرة التي تمركزت فى واقعة غار حرى.

هذا السؤال ثار فى ذهنى وأنا اقرأ المراجع الحديثة التي تناولت السيرة المحمدية التى أزكى رائحة من الألوة، وهى مرقومة بالثبت المسطور فى عجز هذا الكتاب، فقد لفت نظرى أن غالبيتها تجاهل المعجزات مع أن أصحابها من طوائف شتى ومشارب متنوعة واتجاهات مختلفة، فى حين أنهم اعترفوا بالمعجزتين اللتين وردتا بالقرآن المجيد وهما شق القمر فلقتين والإسراء والمعراج ويندرج ضمنها ركوب الدابة المدهشة «البراق» مع أنهما أشد خرقاً للنواميس الطبيعية وأوعر شأنا من الأعاجيب الأخرى التى سطرناها فيما سبق.

• • •

إذن ما علة هذا الموقف المتناقض؟ كيف يصدقون ويؤمنون بما يصعب وقوعه وإذا شئنا الدقة قلنا يعز تكرار حدوثه ويكفرون بالذى يحتمل تشيؤا على أرض الواقع؟

وسبق أن خضنا فى هذه الخصوصية ومن ثم فلا مزيد.

إن الإجابة بسيرة المثال وهى:

إن المعجزتين اللتين اعترفوا بحدوثهما جاءتا فى القرآن الكريم والذى ينكر حرفاً واحداً منه فقد مرق من الملة وخرج من الإسلام وغادر حظيرة الإيمان - نعوذ بالله من ذلك ونبرأ منه - فيغدو حلال الدم بخلاف العقوبات التبعية التى ترتدفه. إذن الشأن فى جانبهم لا شأن له بالمعقولية أو المنطقية أو احتمال الوقوع أو القابلية للتصديق ولكنه الرعب من القتل والخوف من الإعدام والهلع من التصفية الجسدية والجزاءات المصلية[٨٤].

ونزيد الأمر إيضاحًا:

لنفرض فرضًا جدليا - لو أن من أنكر حديثاً ورد فى الصحاح الستة أو على الأقل فى أحد الصحيحين «البخارى ومسلم» أو فيهما معا، اعتبر مرتداً وتحول من الإيمان إلى الكفر الصراح - نسأل الله أن يثبتنا علي الإيمان ويرزقنا حسن الخاتمة - وعومل معاملة المرتد لأرقلوا[٨٥] إلى الإقرار والتصديق والإيمان بها ولبادروا إلى تسويغها وتبريرها حتى ولو من باب التمحل والمماحكة والتحايل والالتفاف.. إلخ وهذا هو النفاق الفكرى والانتهازية الثقافية والالتواء البحثى.

إن المفكر أو المثقف أو الباحث المستقيم الخلق لا يكيل بكيلين ولا يزن بميزانين ولا يقيس بمقياسين فعندما يقف أمام معجزة فإما أن يرفضها ويصرح بلا معقوليتها أو يسلم بها.

أما أن يقبل معجزة واضحة الإعجاز ثم يأتى لأخرى أقرب منها قبولاً وأدنى تصديقاً ثم يرفضها أو يتجاهلها ويطوشها[٨٦]. فهذا هو التذبذب المقيت الذى تمجه الأخلاق وتأباه قواعد البحث وألف باء الموضوعية، ونحمد الله أن عصمنا منه كله. فقد رضينا بكلا النوعين: ما حمله القرآن العظيم وما ورد بكتب السنة

المشرفة والسيرة المحمدية، وولجنا بوابة التصديق لا من بوابة المعقولية ومدخل المنطقية، ولكن من طريق اتفاق المعجزات مع المستوى الحضارى والثقافى والمعرفى والعلمى والإدراكى ومطابقتها لخصائص مجتمعهم وبيئتهم ووسطهم وتفكيرهم.

من هذه المناظير تصبح صحيحة بل ونصدقهم ونفهم علة تصديقهم إياها أو قبولها ممن يتفوه بها.

لماذا؟

لأننا قسناها بمقاييسهم ووزناهم بموازينهم وكلناهم بمكاييلهم ونظرنا إليها بعيونهم وعايرناها بمعاييرهم.

وكما أننا نصدق - دون دهشة واستغراب واستنكار أو سخرية.. إلخ أن ذكرانهم وإناثهم يخرجون من خيامهم وأخبيتهم وفساطيطهم بغير سراويل وأنهم يتداوون بالسنا والسنوت وشرطة محجم وشربة عسل والحبة السوداء(٨٧). وأن الكسوف والخسوف عندهم من علامات غضب السماء ويتعين الدعاء لرفعهما وأنهم يعتقدون أن الأمطار من الممكن أن تهطل بمجرد ترديد بعض الأدعية وتحويل الرداء من جانب لآخر والدعاء للسماء وهو بهذه الهيئة وأن الرقى تشفى من عدد من الأمراض وأن النوازل التي صبت على فرد أو عشيرة هى نتيجة لعين حسودة شريرة وأنه يمكن إبطال فعلها وأن المرة والدار والفرس قد تجىء منحوسة أو محظوظة.

نقول كما نصدقها جميعها عنهم فبنفس القدر نتقبل منهم إيمانهم بالمعجزات وتأكيدهم هم بوقوعها فعلاً، وأن الذى رأى منها شيئًا فقد عاينه حقيقة وعلى الطبيعة وهو عندنا غير متهم بكذب أو تلفيق أو اختراع(٨٨). فهم أبعد الناس عنها ومن ثم فإن حكوهم عنها ملىء بالدفء والحماس.. الناشئين عن التلقائية والعفوية والبساطة.

وترتيباً على ذلك فيحق لنا أن نضيف أنهم لو لم يقصوّا علينا لبدا الأمر شديد الغرابة ظاهر الدهش بادى العجب، إذ كيف لا يفرز ذياك المجتمع صاحب كل هذه الملامح والقسمات ذاك الجمع من الخوارق والمعجبات والأعاجيب، لأنها من ألزم لوازمه وأبسط موجباته ولو لم يطرحها لناقض طبائع الأمور؟

إذن نحن نؤمن بمخاريق ذياك المجتمع ومعجبات البيئة وبأمانة أفرادها الذين نقلوها إلينا وهذا هو الفارق الصادع بيننا وبين الكتبة المحدثين إياهم الذين تجاوزوها وقفزوا عليها بحجة الاستنارة والعقلانية فى حين أنه ليس لهم فيها خلاق(٨٩).

• • •

هناك زمانان للمعجزة يتعين التفرقة بينهما:

الأول: هو زمن حدوثها وتلقيها من قبل من عاينها أو شهدها أو حضرها ونسميه الزمن «المعاصر» لها.

الآخر: هو زمن من سمع بها أو قرأ عنها ونسميه الزمن «اللاحق» لها.

ولكل منهما أحكامه على الحدث ـ وهما بالضرورة مختلفان ـ وكلما تباعدت المسافة بينهما تباين النظر إليه «الحدث» وبالتالى تقديره.

فإذا جاء الزمن اللاحق بعد الزمن المعاصر «=لحدث المعجزة» بمائة سنة فإنه مقارب له إذ لازالت أصداؤه تتردد وربما يودج من الأشخاص من قابل فرداً أو أكثر من الذين شاهدوه أو عاينوه ومن ثم يتلقاه منهم وهو لازال فيه نبض وأثارة من حياة وبقايا من الانفعال به ـ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فالظروف الاجتماعية والثقافية والمعرفية والفكرية.. إلخ تحمل بعض قسمات وملامح الزمن المعاصر «لحدث المعجزة».

أما إذا تباعدت المسافة بين الزمنين ـ ألف سنة مثلاً - فالأمر يختلف تماماً.. الحدث أصبح ذكرى بعيدة فإن تسيدت فى الزمن اللاحق الثقافة الشفاهية ولم يعرف التدوين وجانب الكتابة، فإن صورة الحدث تغدو شاحبة وباهتة، لا نقول إنها منبتة الصلة بينها وبين الصورة الأصلية للحدث إنما تشبهها من بعيد، وعندما تتغلب فى الزمن اللاحق للثقافة الكتابية وسبقه تدوين الحدث، فإن تم عقبه بفترة معقولة فإن هيئة الحدث تحتفظ إلى حد كبير بملامحها وقسماتها مما يتيح الفرصة لتقييمها تقييماً قد لا يجىء دقيقًا تماما بل قريب من الدقة.

ونوع الثقافة هنا هو الذى حدد الفارق بين الصورتين.

كذلك تباعد المسافة بين الزمنين ـ بغض النظر عن الثقافة المهيمنة ـ يخلق هوة من الصعب وربما من المستحيل تجاوزها أو تخطيها بين أحوال مجتمع كل زمن من كافة الأقطار والنواحى والجوانب، وهذا يساعد كثيراً على تسرب دواعى التوهين وبواعث التهزيل ودوافع الإضعاف للحدث بالنسبة للمعجزات التى لها خصوصية اعتقادية وهو ما يفسر لنا قول بعض الباحثين: هذا أمر تعجز عقولنا عن إدراكه إذ كيف تستطيع أفهامنا القاصرة استيعابه فنكل أمره إلى الله..

وهذا ما قرأناه لبعضهم وهو يفسر آية انشقاق القمر.

أما إذا تعلق بحدث ليس له مسحة اعتقادية بحت مثل اقتحام الجيوش العربية فى غزوها الاستيطانى لأنهار البلاد المفتوحة أو تناول أبى سليمان خالد بن الوليد[٩٠] السم دون أن يصاب بأى أذى. فهنا لا بأس أن ينتقل، أولئك الباحثون إلى مرحلة الشك والريبة فالإنكار.

إن التفرقة بين الزمنين فى غاية الأهمية.

لماذا؟

لأن الخلط بينهما هو الذى يفرز البلبلة والتخليط اللذين وقعت فيهما الغالبية العظمى من الباحثين بتجاهلها تماما والإعراض عنها أو رفضها دون سند واضح إلا العقلانية الزائفة، ونعيد لفت النظر إلى أن ذلك تم بخصوص المعجزات التى حملتها الأحاديث الشريفة والسيرة المطهرة التى هى غذاء الروح والوجدان.

أما المعجزات التي جاءت بها الآيات البينات من الذكر الحكيم فهى معصومة من أدنى ذرة تشكيك أو ارتياب بجزاء عقوبة الردة وظلت هذه الحماية سارية المفعول منذ قرأها «الميسر» على أتباعه حتى الآن أى ما يقرب من أربعة عشر قرناً وربع القرن.

• • •

ثم نصل إلى المحطة الأخيرة فى هذا البحث الذى ربما طال قليلاً فى الفاصلة الخاصة بالمعجزات وموقف الكتبة المحدثين منها فكما فرقنا بين حدوث المعجزة فى ذاته وبين حدوثها فى مقالة أصحابها ومتلقيها.

فإن تشيؤ الواقعة على الأرض أمر يختلف تماماً عما يقصه عنها أصحاب أو معاصروها عنها.

وهذا ما يقول به أو قريباً منه جهابذة الحديث وصيارفته بخصوص الأحاديث الشريفة فهم يفرقون بين أمرين: صحة الحديث لذاته، وصحته فى نظر راويه أو رواته.

بحسب ما ظهر للمحدث من تحقق شروط الصحة أو الحسن أو عدم تحققها أى ليس المراد أنه صحيح فى الواقع(٩١).

ونضيف تأييداً لوجهة النظر السابقة أن الحاكم النيسابورى فى كتابه المتميز «المستدرك» يصف بعض الأحاديث أنه «صحيح على شرط الشيخين وهما البخارى ومسلم ولم يخرجاه» ولا يقول إنه صحيح صحة مطلقة.

بيد أن الكتبة المعاصرين عجزوا عجزًا كلياً عن التفرقة بين زمنى الحدث أو المعجزة «المعاصر» و«اللاحق» وأخضعوا المعجزة لموجبات زمنهم «اللاحق» ومن ثم جاءت أحكامهم مجافية للموضوعية، منافية للطريقة العلمية فى البحث ومخالفة للمنهج الصحيح، وبتطبيق هذه القاعدة بالغة الخطورة نجد أن سيدة نساء قريش خديجة نظرت إلى المعجزات التى لازمت «**الظفور**» من قبل التقاء والديه ببعضهما حتى نكحته بباصرة «عين» الزمن المعاصر لحدوثها وهذا أمر بديهى لا طبيعى فحسب إذ هى عاشت فيه ومن ثم هيمنت عليها أدواته وآلاته التى يزن بها الأحداث أى أنها اعتبرتها معجزات ومخاريق(٩٢). ورسخت لديها اليقين بعينه على أن «**الفاضل.الفائق**» هو «**القادم المأمول والآتى المنتظر**».

الهوامش

(١) دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ: تحقيق عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف عن «الخصائص الكبرى» للسيوطى ، الأول، ص ١٠٣، وعيون الأثر: لابن سيد الناس، المجلد الأول، ص ص ٢٦ - ٣١ مصدر سابق.

(٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٧٤.

(٣) فى المعجم الوجيز: الأطروفة : الملحة والتحفة.

(٤) السيرة الشامية: الأول، ص ٣٨٩.

(٥) فى القاموس المحيط: الفيروز أبادى، الطفاسة القذر والنجاسة.

(٦) وفى المصباح المنير: للفيومى: الركس هو الرجس وزنا ومعنى.

(٧) فى أساس البلاغة: للزمخشرى: وهزة ، دفعه.

(٨) فى المعجم الوسيط: خنس ، تأخر.

(٩) السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين: للمحب الطبرى، ص ٣٠، تحقيق حمزة النشرتى وآخرين، هـ.ع/د. مصدر سابق، و«الخصائص الكبرى: للسيوطى، المجلد الأول، ص ١١٢، ط النشرتى مصدر سابق.

(١٠) حجة الله على العالمين: للنبهانى الأول، مصدر سابق.

(١١) السيرة الشامية: الأول، ص ص ١١٢ - ١١٣.

(١٢) تاريخ اليعقوبى: المجلد الثانى، ص ص٧ - ١٢، د.ت.ن، دار صادر، بيروت - أخبار مكة: للأزرقى، الأول، ص ص ١٥١ - ١٥٤، سابق - الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٩٣- دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، تحقيق الإمام عبدالحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف وبالداخل الإمام عبدالحليم محمود منفرداً ص ٢٦٢، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م ، كتاب الشعب، بمصر.

(١٣) الخصائص الكبرى، للسيوطى، الأول، ص ١٩٢.

(١٤) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٩٤.

(١٥) فى المصباح المنير: للمقرى الفيومى، الإرقال: ضرب سريع من المشى.

(١٦) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ١٨٢ - إمتاع الأسماع: للمقريزى، الأول ص ٣٥، سابق.

(١٧) الخصائص الكبرى للسيوطى: الأول، ص ١٢٥، طبعة حمزة النشرتى.

(١٨) الدرر فى اختصار المغازى والسير: لابن عبد البر، ص ٢٩.

(١٩) فى حديث على رضى الله عنه ، البرق مخارق الملائكة، من «مختار الصحاح» للرازى، وفى أساس البلاغة: للزمخشرى أصابه برق وخرق أى دهش.

(٢٠) فى القاموس المحيط: للفيروز أبادى: إحزأل: اجتمع فؤاده خوفاً.

(٢١) المستدرك على الصحيحين: للإمام الحافظ أبى عبدالله محمد - الحاكم النيسابورى: تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الجزء الثانى، الحديث ٤١٧٤/٦٥٦٥١٨٤، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

(٢٢) السيرة الشامية: الأول، ص ٢٩٣، ٢٩٤، سابق، و«الوفا بأحوال المصطفى» ابن كثير، الأول، ص ص ٢٠٧-٢١٠، مصدر سابق.

(٢٣) أعلام النبوة: أبو الحسن على الماوردى (ت٤٥٠هـ) ص ص ١٩٥ - ١٩٦، ط أولى ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، و«السيرة الحلبية»: الأول، ص ٧٦، سابق و«أنساب الأشراف» للبلاذرى، الجزء الأول، ص ص ٨٠ - ٨١، مصدر سابق، و«الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول ص ١١٦، طبعة النشرتى، سابق.

(٢٤) السيرة النبوية: ابن كثير الأول، ص ٢٠٨ سابق - تاريخ اليعقوبى: المجلد الثانى، ص ص ٧-١٢، د.ت.ن، دار صادر بيروت - السيرة الحلبية: الجزء الأول، ص ١٥٥.

(٢٥) الحديث فى سيرة ابن هشام ومستدرك الحاكم - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى ٣٨٤ - ٤٥٨هـ بتحقيق السيد أحمد صقر، الجزء الأول، ص ص ١٩-٢٠، ط أولى ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م، نشرته لجنة إحياء أمهات كتب السنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - وزارة الأوقاف بمصر - محمد رسول الله: آتيين دينيه وآخر، ص ص ٧٤-٧٧، مرجع سابق.

(٢٦) إنجيل لوقا: الإصحاحان ٣١ - ٣٣.

(٢٧) فى أساس البلاغة: للزمخشرى، نقه الشىء: فهمه والفارس هو صائب الفراسة، وفى «مختار الصحاح» للرازى: يتفرس: يتثبت وينظر ومنه رجل فارس النظر وفى الحديث «اتقوا فراسة المؤمن».

(٢٨) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١١ - الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزى، ٩٤ الأول، سابق ولكنه نسب قولاً مشابهاً للشفاء أم عبدالرحمن بن عوف.

(٢٩) أعلام النبوة: أبو الحسن على الماوردى، ت ٤٥٠هـ، ص ص ١٠٩٥-١٠٩٦، ط أولى ١٢٩٣/١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - والخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١١٦، طبعة النشرتى - وعيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ٢٦ - ٣٠، المجلد الأول، سابق.

(٣٠) السيرة الشامية: الأول، ص ١٤٨ - والخصائص الكبرى: للسيوطى، المجلد الأول، ص ص ١٢٥-١٢٦ طبعة النشرتى، الأولى عن ابن عباس «أوردها أبو نعيم فى الحلية» والأخرى عن عكرمة أوردها ابن سعد فى طبقاته الكبرى - الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ٨٣ - ٨٥ مصدر سابق.

(٣١) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١٣.

(٣٢) الموالد - دراسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر: د. فاروق أحمد مصطفى، ص ٢٠١، الطبعة الأولى ١٩٨٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية.

(٣٣) قاموس العادات والتقاليد المصرية: لأحمد أمين ، ص ١٨٨، الطبعة الأولى ١٩٥٣، مطبعة التأليف.

(٣٤) رواه الطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر من طرق وقال فى الزهر سنده جيد أ هـ. وصححه الحافظ ضياء الدين المقدسى.

(٣٥) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٣١، ط النشرتى.

(٣٦) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٣١، ط النشرتى ، سابق.

(٣٧) فى المعجم الوجيز: الداية هى القابلة.

(٣٨) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٣١.
(٣٩) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد - المعروف بالسيرة الشامية: لمحمد بن يوسف الصالحى الشامى، الأول ، ص ٤٢٣ مصدر سابق.
(٤٠) فى المصباح المنير: للمقرى الفيومى: البخت هو الحظ وزناً ومعنى.
(٤١) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، صفحات ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.
(٤٢) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧١ - والسيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨ سابق.
(٤٣) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٤٣ - والوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزى، الأول، ص ١١٤ سابق - والطبقات الكبرى: ابن سعد، الأول، ص ص ١٣٣ - ١٣٤ سابق - والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٢٢٥ سابق.
(٤٤) الرتل: الكثرة مع التنسيق.
(٤٥) فى المعجم الوسيط: المقبب : ما كان كالقبة.
(٤٦) السيرة النبوية: للذهبى ت٧٤٨هـ، تحقيق حسام الدين القدسى ص ١٥٦ط، أولى ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، دار الكتى، بيروت، لبنان.
(٤٧) خاتم النبيين: لمحمد أبو زهرة، الأول، ص ٤٧٤، سابق.
(٤٨) دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ: عبدالحليم محمود، ص ٤٣ سابق.
(٤٩) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين: للشيخ محمد الخضرى بك، ص ٧، الطبعة الرابعة والعشرين ١٩٧٨م، المكتبة التجارية الكبرى بمصر - السيرة النبوية: لمحمد بن أحمد عثمان الذهبى: تحقيق حسام القدسى، ص ص ٢٠ - ٢١، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان - السيرة الحلبية، الجزء الأول، ص ١٥٧- السيرة النبوية: ابن هشام، الأول ١٨٧.
(٥٠) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١٤.
(٥١) الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزى، الأول، ص ١١٤، مصدر سابق - والطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ١٣٣-١٣٤.
(٥٢) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٣٨.
(٥٣) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧١.
(٥٤) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧٣ - والوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزى، الأول، ص ١١٧، مصدر سابق.
(٥٥) الخصائص الكبرى: للسيوطى، ص ١٩٤.
(٥٦) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٨٧ - الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزى، الأول ص ١١٧، سابق.
(٥٧) الوهم الشائع لدى خاصة البحاث وعامتهم أن يثرب هى المدينة فى حين أن المدينة جزء من يثرب فحسب.
(٥٨) السيرة الحلبية: الأول، ص ٢٠١ - الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزى، الأول، ص ١٣٨، سابق - و«عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٤٤-٤٥، المجلد الأول، مصدر سابق.
(٥٩) انظر تفصيلات ذلك فى كتابنا «الجذور الإسلامية للشريعة الإسلامية» سبقت الإشارة إليه، وفى «مختار الصحاح» للرازى: انتقش: استخرج - والعامة فى مصر تقول نقشها أ.هـ.
(٦٠) كثيراً ما نسمع فى الحكم الشعبى عبارة «لابس أبيض فى أبيض» أ.هـ.
(٦١) يسمونها جاهلية هى تسمية يشيع فى حناياها العبق الذرائعى يقصد تشويه صورتها والتنفير منها واستهجانها أ.هـ.

(٦٢) السيرة الشامية: الثانى، ص ص ١٨٥ - ١٨٦ - الطبقات الكبرى: لابن سعد، المجلد الأول، ص ص ١٤٣- ١٤٤ سابق.

(٦٣) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ١٧٨ - والوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزى، الأول، ص ١٠٠، مصدر سابق - والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٢٢٥ - ٢٣٣ سابق.

(٦٤) لمزيد من التفصيلات انظر كتابنا «مجتمع يثرب - العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى» من إصدارات دار سينا بمصر ومؤسسة الانتشار العربى. بيروت، لبنان. علما بأنه طبع مرتين.

(٦٥) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ص ١٩٩ - ٢٠١ - السيرة النبوية: للذهبى، ص ٣٠ - عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٤٤ ، ٤٥، الأول، مصادر سابق - محمد رسول الله: لناصر الدين آتيين دينيه وآخر، هامش صفحة ٩٢ وهو من تصنيف الشيخ عبدالحليم محمود وابنه اللذين عربا الكتاب، مرجع سابق ذكره.

(٦٦) السيرة الحلبية: الأول - والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٢٥٠، سابق.

(٦٧) دلائل النبوية ومعجزات الرسول ﷺ: عبدالحليم محمود وأخرها ص ٤٦، سابق.

(٦٨) فى المصباح المنير: للفيومى، رقمت الكتاب أى كتبته.

(٦٩) السيرة النبوية: لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٠٥، ط شقرون.

(٧٠) الروض الأنف: للسهيلى، الأول ص ص ٣٠٧-٣٠٨، ط شقرون.

(٧١) علم الفولكور: الجزء الثانى، دراسة المعتقدات الشعبية، ص ٧٣، تأليف د. محمد الجوهرى، الطبعة الأولى ١٩٨٠، دار المعارف بمصر.

(٧٢) معجم البلدان: لياقوت الحموى مادة أنواط نقلاً عن بحث بعنوان «يا طالع الشجرة» لـ د. صابر العادلى «مجلة الفنون الشعبية» عدد ٥٦-٥٧ يوليه، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٤١، من إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٧٣) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد على، السادس، ٤٤ مرجع.

(٧٤) القاموس المحيط: للفيروز أبادى: وقع فى حاص باص فى ضيق وحرج وشدة حتى لا يدرى كيف يتصرف.

(٧٥) فى المعجم الوسيط: العباطة: البله وعدم النضج - وفى مختار الصحاح: للرازى: الفطير - ضد الخمير وهو كل شىء أعجلته عن إدراكه.

(٧٦) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ص ١٥٣-١٥٤، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق.

(٧٧) السيرة الشامية: الثانى، ص ٢١٤ - الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ٢١١، طبعة النشرتى - السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجانى، الأول، ص ١٩٣، طبعة ١٩٧٨، المكتبة التوفيقية، مصر - تاريخ الطبرى: الثانى، ص ص ٢٨١-٢٨٢، مصدر سابق - عيون الأثر: لابن سيد الناس ، الأول، ص ص ٤٩-٥٠ سابق، - حياة سيد المرسلين: للأبراشى، ص ٣٠ سابق - أوائل العرب عبر العصور واحلقب - الخلافة الراشدة: حبوش، الثانى ص ١٠٩، سابق.

(٧٨) السيرة الشامية: الثانى، ص ٢١٦ - والخصائص الكبرى: الثانى، السيوطى، ص ٢٠٢/.

(٧٩) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ٢١٦ - السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجانى، ص ١٩٣ - والطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ١١١-١١٣، سابق.

(٨٠) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ٢١٥.

(٨١) حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للنبهانى، تحقيق حمزة النشرتى وآخرين، الأول، ص ٤٩٧، ط أولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الناشر حمزة النشرتى بمصر.

(٨٢) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ٢١٧.

(٨٣) انظر فى هذه الخصوصية كتابنا «بصائر فى عام الوفود وفى أخباره» الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سيناء للنشر بمصر، ومؤسسة الانتشار العربى، بيروت، لبنان.

(٨٤) فى مختار الصحاح: للرازى: المصلى هو التالى للسابق.

(٨٥) سبق شرح الفعل: أرقل.

(٨٦) فى القاموس المحيط: طوشّ غريمه – مطله والعامة فى مصر تقول: «طنشه» أ.هـ.

(٨٧) العامة فى مصر تسميها حبة البركة أ.هـ.

(٨٨) العامة فى مصر تقول: فبركة.

(٨٩) فى المصباح المنير: للفيومى: الخلاق: النصيب والعامة فى مصر تقول «مالهوش حظ» أ.هـ.

(٩٠) ذلك الذى فعل الأفاعيل فى حروب الردة وغيرها من الحروب الاستعمارية الاستيطانية.

(٩١) هذا الموضوع مطروق فى كتب علوم الحديث وانظر على سبيل المثال «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين» لـ د. محمد محمد أبو شهبة، ص ٥٤، السنة الثلاثون، الكتاب الثانى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، من سلسلة البحوث الإسلامية التى يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الثانية وهو رد على كتاب «أضواء على السنة المحمدية» لأبى رية ومن الطريف أننى اشتريت الطبعة الأولى التى ظهرت فى أول الستينيات بخمسة قروش أما الطبعة الثانية فيبيعها الأزهر بستة جنيهات. أ.هـ.

(٩٢) سبق ذكر المعنى الصحيح لهذه الكلمة ولسنا ملزمين بالأخذ بالمعنى الشائع المغلوط. أ.هـ.

الفصل الســادس

أطوار التجربة الكبرى

أطوار التجربة الكبرى

كيف تحول محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب من فتى هاشمى قرشى/ ماجد إلى (المنتظر) أو (المأمول) أو (القادم) الذى تشوفت جزيرة العرب عامة ومنطقة الحجاز خاصة وتحديدا وحصرا النخبة أو الإيليت أو الأنتلجنسيا إلى ظهور هلاله؟

لا يكفى أن نقول إنها أروع تجربة ظهرت فى القرون الوسيطة أو أن آثارها وتوابعها وأصداءها مازالت وبعد مضى أكثر من أربعة عشر قرنا تشغل التاريخ وتملأ الدنيا أو أنها أنتجت ديانة نافست الديانتين الإبراهيميتين اللتين سبقتاها بجدارة واستحقاق أو أن تبعها بلغ البلايين فى كل بقاع المعمورة أو أن ذاك كله وغيره لم يخطر على بال الثلاثى المعظم أطرافها.

فهذه عبارات إنشائية قد تصلح مادة طيبة لخطبة منبرية ولكنها أبدا لا يجوز أن يضمها بحث علمى موضوعى يتحرى الدقة ويحرص أشد الحرص على التوثيق، وقد وصف البعض كتاباتنا بالإفراط فى المبالغة فى التوثيق[1].

رغم مرور هذا الزمن الطويل عليها وصدور مئات الألوف بل ربما آلافها من المصنفات أو البحوث والدراسات الحديثة وبكل اللغات الحية فإنها لم توف السيرة العاطرة حقها من التمحيص والتدقيق والتنقير والحفر فهى فى نظرنا عذراء بكر وطازجة من الممكن أن تمنح الكثير.

بيد أن العقبة الكؤود بالنسبة للتجربة ندرة الأخبار والوقائع ثم تناثرها فى مختلف الكتب التراثية: حديث ـ سيرة ـ تاريخ ـ تفسير ـ أسباب نزول ـ طبقات ـ فقه.. إلخ.

وسبق أن ذكرنا منذ عدة سنوات أن الفترة من نكاح سيدة النساء زمانها خديجة (المعصوم من الناس) وتبعلها إياه حتى حدوث واقعة غار حراء هى أشد فترات السيرة المحمدية ـ التى هى أطيب ريحا من المسك الأذفر ـ تعتيما ـ وأشحها معطيات.

ففى حين نجد الفترة السابقة التى تبدأ منذ مولده المجيد بل قبله حتى

اتصاله بالطاهرة تعج بالأخبار والنوازل والوقائع.

ثم الحقبة المصلية (التالية لها) وهى من زمن حدوث واقعة الرؤيا فى مغارة حرى إلى وقت انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا - تنفح بانوراما عريضة فيها تطالع الأخبار من كل لون ووزن.

إنما هذا التوصيف لا ينطبق على المقطع المكى من أحدوثة الغار المعجبة لغاية نزوحه إلى يثرب إذ هى أيضا تتميز بالقلة والنزورة إنما أبدا لا تصل إلى حد إبان التجربة ولا نصيفه.

نقول إنه فى الوقت الذى نرى فيه هاتين الحقبتين على الشكول التى طرحناها، نلقى سنوات التجربة الرائعة على النقيض ناضبة من الأخبار وشلة من النوازل، مليطة من الوقائع، معراة من الحوادث.

والسؤال الذى يدّب بقوة فى الذهن:

لماذا غدا وقت التجربة بهذه الصورة المفردة من دون مراحل السيرة المحمدية المعظمة من جهة الندرة فى الكشوف والهزال فى المعطيات والشحوب فى الإبانة والضمور فى التوضيح؟

وسؤال آخر يرتدف سابقه:

ولم هو دون غيره من فصول السيرة الحميدة تلقيناه بهذه الأياة (الهيأة وزنا ومعنى) المعتمة؟

• • •

فى رأينا أن التجربة حرص أطرافها الثلاثة الأماثل على تكتمها وسريتها وإخفائها عن الأعين وإبعادها عن الآذان والقيام بها وراء الحجب وخلف الستائر.

حتى الذين قدموا أيادى لفلجها أثبتوا أنهم لايقلون حنكة ودربة وخبرة ودراية عن أبطالها الثلاثة المفخمين فى حفظ السر ودفنه فى أعماق حنايا الصدور.

ذلك أنهم جميعا سواء الأطراف أو المساعدون يعلمون علم اليقين أن هناك أعداء بلغوا الذروة فى الشراسة والنهاية فى الغشم والقمة فى الجبروت إن من داخل قرية القداسة أو خارجها، خاصة أصحاب الديانتين الساميتين السابقتين وعلى وجه التحديد الأولى والأقدم والأعرق منها الذين عقدوا الخناصر وأبرموا العزم على أن يصبح كل (القادمين) منهم أى من بنى إسرائيل ولو خرجت إلى غيرهم فلن تعود إليهم ما بلّ بحر صوفة.

ومن ثم فلو أقدم نفر وحتى واحد على تغيير هذا المسار فالجزاء الوفاق الذى من الحتم أن يلاقيه هو الموت الزؤام.

قرأنا فيما سبق أن الراهب بحيرى عندما عاين (الشثن) مع عمه عبد مناف

أو أبى طالب فى سفرته الأولى للشام نصحه بأن يعود به فورا إلى مكة لأن يهودا لو تحققوا مما فيه من علامات (القادم المنتظر) لقتلوه على الفور.. أ.هـ.

● ● ●

من أجل هذا كله تمت التجربة الفاذة وهى مغلفة بالضباب ومكسوة بالعتمة ومدثرة بالظلول ونتيجة لذلك فلم يعلم بها إلا أفراد لايعدون على أصابع اليد الواحدة أو اليدين.

بخلاف المعجزات والخوارق التى بدأت قبل ولادة (**الرؤوف**) وحايثته وواكبته حتى التقطته أم هند ثم نكحته فتلك (المعجزات) شاهدها العشرات بل المئات من الجنسين منهم الأحرار والعُبدان والإماء والموالى ومن ملل شتى وعقائد متباينة.

وكذا نزوحه إلى يثرب فقد شاهده المئات من بنى قيلة[٢] وغيرهم وأيضا غزاة بدر ومعركة أحد وصلح الحديبية.. إلخ شهدها المئون بل إن حجة الوداع شهدها عشرات الألوف.

تلك النوازل وقد انضوى حضورها على كثافة عددية من الطبيعى بل البديهى أو البدهى أن تصير مبخوتة من ناحية القص، محظوظة من زاوية الحكى ومجدودة من جانب النقل حتى رست على ميناء عصر التدوين فجاء نصيبها منه وفيرا وحصولها غزيرا وناتجها كثيفا ومن ثم تضلعت منها كتب السيرة المحمدية التى هى أطعم من تفاح الشام ودواوين السنة المشرفة ومؤلفات التاريخ.

● ● ●

إن اثنين من أطراف التجربة المجيدة هما الهندوز واليعسوب انتقلا إلى رحمة الله قبل أن تتاح لهما الفرصة للحديث عنها بعد نجاحها وإعلانها للملأ والقبيل.

أما الثالث وهو (الرحيم) فقد التزم الصمت وكل ما ذكره عنها أحاديث شريفة عن واقعة الغار وبعدد قليل للغاية.

ربما يؤوب ذلك إلى انشغاله فى مسئوليات جسام بعد أن غدا سيد الجزيرة كلها دون مدافع وديان العرب جميعهم بلا مزاحم.

أو لأنه لم ير أدنى فائدة من الكلام عنها لأنها فى رأيه لن تتكرر إذ هو آخر (القادمين) وخاتم (المنتظرين) وعليه أيضا نص القرآن المجيد والذكر الحكيم والنبأ العظيم.

● ● ●

وهناك سبب آخر لايقل عن سابقه إقناعا ولا يتخاذل عنه منطقا ولا يقصر عنه عقلا وهو اختلاف طبيعة التجربة عن غيرها من الوقائع (الميلاد - النزوح -

القتال ـ الصلح ـ الهدنة ـ الوفود ـ وأحداث الأحوال الشخصية مثل الزواج خاصة إذا تعدد)[٣].

وهذا أيضا ما ردده باحثان آخران:

(ولما بنى بأولى زوجاته خديجة لم تكن لذات الحسن هى التى سيطرت على هذا الزواج لأنه بنى بها وهى فى نحو الأربعين وهو فتى فى ريعان صباه وعنفوان شبابه لم يتجاوز الخامسة والعشرين وهو رجل جميل الخلقة طليق المحيا تتطلع إليه الأبكار وتتمناه العذارى لكنه كان ملهما بأمر ربه فنظر إلى مكانتها من قومها وموقفها من عشيرتها وطهرها وعفتها وكانت هى التى عرضت نفسها عليه فقضى معها الشباب والفتوة وزمن الرجولة والقوة قضى زهرة عمره معها خمسة وعشرين عاما زمن الحيوية والشهوة الجنسية ليس له من زوجة غيرها ولم يفكر قط أن يشرك معها غيرها فى فراشه)[٤].

وهذا ما ذكره أيضا شيخ الجامع الأزهر وفى ثنايا كلامه تلميح ولو من بعيد إلى دور الهندوز فى إنجاز أروع التجارب التى حظى بحدوثها فى تضاعيفه القرن السابع الميلادى:

(وعاش معها زهاء خمس وعشرين سنة دون أن يجمع معها زوجة أخرى وكانت أحب الناس إليه وأقربهم إلى نفسه ـ ص ـ لإيمانها العميق ووفائها النادر وحرصها التام على ما يرضى الله تعالى ويرضى رسوله ﷺ)[٥].

• • •

من الأسباب القوية التى حالت دون زواج محمد بزوجة أخرى على الطاهرة هو أن «الثقافة الدينية» التى هيمنت على بنى أسد، رهط أم هند تحرم الجمع بين بعلتين، كما أنها تحرّم الطلاق لأن ما ربطه الرب لا يفكه العبد (المربوب/ المخلوق).

هذا الملحظ البالغ الأهمية والثر بالدلالات غاب عن فطانه كل من زبر (نسخ) سطورا فى السيرة المحمدية المعطار سواء من القدامى والمحدثين من العرب والأعاجم والفرنجة!!!

فالتجربة لها كنه مستقل وقوام فذ وكينونة مفردة فهى والكتمان صنوان والسر توأمان والخفاء شقيقان، يصلح لها الظلام وتنفعها العتمة ويقويها التوارى ـ عن الأعين ـ ويعينها الصمم وإن شئت الدقة وتحريت الصح وابتغيت الصواب قلت: التصامم.

فى حين أن الوقائع الأخرى التى أوضحناها آنفا من طبيعتها أن تعيش فى النور وتظهر إلى الملأ، وتوكى الأبصار[٦]. وتصك الآذان، وتحشو الأفواه ثم تنتقل من فم إلى أذن وهكذا، فالعلانية قوامها والظهور رداؤها والوضوح دثارها والانتشار لحمتها والذيوع سداها، يعرفها الدانى ويسمع بها القاصى ويحيط

بها القار ويلتقطها البادى ويظل ينشرها فى كل مكان يصل إليه، ومن هنا دونت وقرأناها بصيغ متباينة وبطرائق شتى وبكيفيات مختلفة، وهذه هى العلة فيما نلمسه بأيدينا قبل أن نراه بأعيننا من تناقض رواياتها وتضارب أقوالها وتنافر صورها.

• • •

وبالمقابل تحققت ندرة أخبار التجربة لأن هذا ما يتسق مع طبيعتها ولذا أصبانا الجهد والإعياء ونحن نلهث وراءها (أخبار التجربة المجيدة) فى ما استطعنا قراءته من مصادر كلها من الدرجة الأولى ومع ذلك فقد اضطررنا اضطرارا للجوء لبعض الفروض التى تتناغم مع السياق كيما تكتمل الصورة وتسد الثغرات وتملأ الفجوات مع ملاحظة أن ذلك جاء فى حالات قليلة لا تخل بالسرد والتحليل المعتمدين على أوثق المصادر وأعلاها رتبة.

• • •

.عاش طفولة قاسية إذ فقد آباه وهو حمل مستكن فى بطن أمه وقيل وهو فى السنة الثالثة ثم أمه وهو فى السادسة فانتقل إلى جده عبدالمطلب سيد البطحاء وبعد عامين توفى، وهكذا ذاق مرارة اليتم ثلاث مرات إن صح هذا التعبير[٧].

ثم كفله عمه عبد مناف أبوطالب وهو تاجر مستور الحال، ولكن تغير الظروف بمكة وغلبة النزعة المادية هبطت به إلى طبقة الفقراء والمعوزين، بيد أن ذلك لم ينل من مكانته الأدبية فقد ظل من سادة قرية التقديس وغطريفها وقد قيل عنه إنه من القليلين الذين تبوأوا مقام الصدارة رغم خلو يده من المال.

ولعبد مناف أبو أبى طالب ولد كثير عانى الأمرين فى إعاشتهم فلما انضم إليهم (اليتيم) ازداد عبؤه، ومن ثم عاش طفولته وصباه وشبابه الباكر وهو يعانى شظف العيش وضيق ذات اليد...

ومن هنا دفعته أوقاته الخشنة الجافية إلى امتهان عُمالات لا تليق به شخصيا ولا بالفرع السامق الذى ينتمى إليه فقد صرح فيما بعد أنه اشتغل برعى الغنم فى أجياد وهو حىّ فى مكة ثم عاملا تجاريا بيد أنه فى جميع الأحوال ظل كريم النفس معتدا بذاته يضرب به المثل بعيدا عن نزوات الشباب وانحرافات الفتيان مع أن المجال مفتوح على مصراعيه لذلك خاصة أنه امتاز بالقسامة والوسامة والبهاء.. إلخ.

• • •

إن أحداث الطفولة الحزينة (اليتم المتكرر وفقد العائل الأول وحوجة الكافل الآخر) تركت ظلالها الكئيبة على نفسيته فأحب العزلة وآثر قلة الكلام ونكرر ما قلناه: إنها عزلة اجتماعية لا خلوة عقائدية تعبدية.

(اعتاد بعض الحنفاء والمؤمنين بالله تعالى أن يتحنثوا ويخلوا لأنفسهم وكانت عبادة هؤلاء تشمل إطعام المساكين ممن يلجأون إلى الغار لأنه كان فى نسك قريش فى الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين فى هذا المكان.

وكان لمحمد ـ ص ـ شغف بالوحدة منذ الصغر ولكن وحدته طفلا وفتى ويافعا وصبيا كانت وحدة الحزن والألم إذ ولد ونشأ يتيما، ولكن وحدته فى غار حراء بجبل أبى قبيس كانت من نوع آخر، فقد كان ينشد المعرفة بطريق الاستشراف ويستلهم ما فى الكون من أسبابها ثم أورد المصنف ما سطره الطبرى فى تاريخه عن ذلك)[8].

أخطأ المصنف د. الخربوطلى إذ ذكر أن غار حراء بجبل أبى قبيس فى حين أن هذا الأخير هو الذى (يشرف على الصفا إلى السويداء إلى الخندقة وكان يسمى فى الجاهلية الأمين لأن الركن «الأسود» كان مستودعا فيه زمن الطوفان أما غار حراء فهو أعلى جبل حراء وبينه وبين مكة ميل ونصف الميل وهو جبل منفرد على طريق حنين/ مكة وهو منيف صعب المرتقى لايصعد إلى أعلاه إلا فى موضع واحد فى صفاء ملساء والموضع الذى نزل فيه جبريل عليه السلام فى أعلاه من مؤخره)[9].

فـ**(صفوة البادى والقار)** لم تعرف عنه اهتمامات تيولوجية قبل تماس خديجة به ونكاحها إياه ولا يفهم من ذلك بأى صورة من الصور انشراح صدره أو حتى إقباله بصورة عادية على عقائد وعبادة وطقوس قومه بل على العكس نفوره منها ومرد ذلك رجاجة عقله وفطانته وسعة أفقه ونقاء فطرته إذ أدرك فسادها وعطنها ولا معقوليتها.

لقد طالعنا فى سيرته التى هى أطيب من ريح الخُزامى أنه فى سفرته الأولى للشام عندما استحلفه الراهب بحيرى - مختبراً إياه - باللات والعزى - جاء رده الفورى = ما كرهت شيئا قدر كرهى لهما. علاوة على معيشته فى صباه الباكر مع جده شيبة الحمد عبدالمطلب مقدم المتحنفين وأول من سن الاعتكاف فى غار حراء وسننا أخرى نقشها[10] حفيده وأدخلها فى الديانة التى نشرها بين أهل مكة.

• • •

إن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع الذى ترعرع فيه بما عمها من فساد وتهرؤ واختلال وانحلال واستئثار الملأ بجماع الثروات والجاه واللذائذ والشهوات والمتع فى حين أن «القبيل» الذى يضم الأحرار (المليطين من النشب) والعُبدان والموالى والصعاليك واللصقاء والزعانف.. يكابدون الأهوال للحصول على الفتات الذى يلقيه لهم الطواغيت المستكبرون: يأكلون الطعام الجشب ويلبسون الخلق والأسمال ويسكنون الجحور والشعاب ويكدحون طوال النهار

وطرفا من الليل تلهب ظهورهم السياط وتعمل نساؤهم فى الخدمة والعيهرة لحساب سادتهن.. إلخ.

تلك الأحوال ألقت بذور الثورة فى نفس (**الأسوة الحسنة**) وهذا ظهر جليا وبدا واضحا فى السور المكية الأوائل من القرآن العظيم - حصيلة التجربة المذهلة - فهى تدعو بالويل والثبور وتصب النقمة وتدلق اللعنة على أولئك الصناديد المترفين الذين تمتعوا بكل شىء وحرموا القاعدة الشعبية العريضة من كل حق.

فى صورة اقرأ وهى أول سورة قرأها (سيد الخلق) على من تابعه فى ديانته ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ (١١).

و﴿ **الهاكم التكاثر** ﴾ (١٢).

و﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين** ﴾(١٣).

و﴿ **ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده** ﴾(١٤).

﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾(١٥).

وهكذا تتضح مشاعر النقمة وأحاسيس الغضب على جبابرة مكة. ثم يصك مقدم جحاجح قريش واعتاهم مالا وأغلظهم رقبة وأشمخهم أنفا وأمعنهم فى التكبر والتعاظم وأشدهم عداوة ولددا فى الخصومة واسترسالا فى المعارضة = الوليد بن المغيرة فيقول القرآن المجيد فى حقه (ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا)(١٦).

ومن بين أولئك البنين الشهود خالد بن الوليد أبوسليمان ذلك الذى فعل الأفاعيل فى حروب الردة وفى الغزو الاستيطانى لبلاد الجوار.

ولقد أدرك بعض الكتبة المحدثين كمون الثورة لدى محمد إنما حاول (=ذلك البعض) التمويه والمراوغة.

(من أخلاق النبى عطفه الشديد على الفقراء وحنوه على المحرومين والأرامل واليتامى وأبناء السبيل شهد بذلك الأصدقاء والأعداء على حد سواء)(١٧).

ولا يغير من الأمر شيئا أن يطلق على ذلك مولاهم محمد على (المؤلف) أخلاقا أو شمائل أو فضائل فهى علامات الغضب وشارات الحنق وآيات الاحتجاج على مجتمع مكة وخاصة أن المؤلف بعد سطور أورد آيات من صورة الماعون.

● ● ●

ونكتفى بهذه الأمثلة التى تقطع بفساد مجتمع مكة وضرورة إصلاحه لاستحالة دوام تلك الأحوال من ناحية، ولكشف الغطاء عن جانب شديد

الأهمية فى تكوين البنية النفسية لـ(**لأبى إبراهيم**) وانغراس بذرة الثورة من ناحية أخرى فى وجدانه.

وفى تقديرنا أن سائر البطارقة الأعاظم الذين سبقوه: إبراهام - موسى - يوحنا - عيسى هم ثوار على مجتمعاتهم الفسيدة المتفسخة إن من ناحية العقيدة أو غيرها من المناحى.

هذا يتضامن مع هيمنة النظرة الحزينة على ذاته لنشوئه يتيما فقيرا محروما من نوال الوضع الاجتماعى الذى يتوافق مع نسبه الرفيع ورهطه الشامخ وأرومته العريقة وشخصيته الفريدة التى لم تتكرر.

• • •

هذان العاملان اللذان لم يلتفت إليها أغلب البحاث هما اللذان شكلا أمرين لهما قدر من الخطر:

أ - ترجيح ترشيحه من طرف سيدة نسون قريش كيما يغدو (القادم المنتظر).

ب - صلاحيته وجدارته ليصبح موضوع التجربة المعجبة عن كفاية واستحقاق.

بداهة بالإضافة إلى العنصر الجوهرى الذى بسطنا القول فيه وهو حداثة السن - مجاوزته العشرين بأشهر قليلة.

كلها تجامعت وتماهت بعد أن تشابكت فتداخلت لكى تطرح الثمرة الناضجة لتجربة من أكمل التجاريب فى العصور الوسطى الأولى.

• • •

من المؤكد أن خديجة الطاهرة سمعت عن فصاحة (أبى القاسم) وأبلغنا الإخباريون أنها دأبت على استقباله عند عودته من سفريته من سوق حباشه إما منفردا أو بصحبة زميل له فى العمل وأنها تخبئ لهما تحفة من طعام، الأمر الذى دفعه إلى الثناء عليها وأن هذا الصنيع منها لم يفعله غيرها ممن استأجروه وهو مما حببه فيها.

وفى أثناء تناول تلك الأطروفة تجلس معه ومع زميله فليس من أدب الضيافة تركه أو تركهما منفردين إذ فيه قدر من الاستخفاف أو الاستهانة إذ لا يعامل كذلك إلا الرقيق.

وفى تلك الجلسات توثقت أم هند من طلاقة لسان (جد الحسنين) وحسن بيانه وبلاغته فى التعبير وقدرته على التوضيح ومكنته على الإبانة.

وازداد عندها ذلك ثبوتا إثر عودته من رحلة الشام التى صاحبه فيها عبدها الأمين ميسرة وما حكاه لها عنه إذ لاشك أنه تطرق إلى رهافة مذرب[١٨] (محمد) وعذوبة حديثه وكيف أنه سحره وسائر من فى القافلة وكل من تعامل معهم من المشترين والبائعين وغيرهم بجمال منطقه وحسن كلامه، وتيقنت

سيدة قريش على بكرة أبيها بنفسها فقد التقت هى به قبل وصول المملوك (إذ الأخير هو الذى أشار عليه فى مر الظهران أن يسبقه إليها) واستمعت إليه يشرح لها ما وقع فى الرحلة ويقدم لها كشف حساب الأرباح التى حققها لها وقامت فصاحته بدور فعال فى اكتسابها.

• • •

إن طلاقة لسان (**الظفور**) أمر مجمع عليه ومعترف به حتى من خصومه الألداء وهى من الأمور البدائه فهو من قريش ولهجة قبيلته خلاصة لهجات الجزيرة وزبدتها وسبق أن أوضحنا الأسانيد فيما أورده الثعالبى فى (المضاف والمنسوب) بشأن قريش.

كما أنه استرضع فى بنى سعد ومن ثم سلم من اللكنة والحبسة والعجمة ثم مشى فى الأسواق والتقى بالأعاريب والعرب الذين يحضرون موسم الحج والأسواق (مجنة) و(ذا المجاز) واستمع إلى الخطباء الفصحاء والشعراء المفلقين والمنافرين ذربى الألسنة فى (عكاظ) وجماعهم أصحاب ذلاقة وإبانة وبلاغة فازداد بل تضاعف محصوله المعجمى ومخزونه اللوى ورصيده البيانى.

دعك مما ذهب إليه أبو عثمان بحر الجاحظ (مع تقديرنا البالغ له) فى (البيان والتبيين) من أن مرجع ذلك إلى عصمة وتأييد وتوفيق من قوى غيبية وتابعه من المحدثين مصطفى صادق الرافعى فى مصنفه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).

فنحن نميل إلى الأسباب الموضوعية التى تلمس باليد قبل أن ترى بالبصر أو تدرك بالصيرة.

فالوسط الاجتماعى والموقع الجغرافى (قرية القداسة وما حف بها من أسواق) والاختلاط بحملة اللجهات المتباينة والنشأة الأولى فى البادية حيث النقاء من السوقية والهجنة والحوشية مجموعها ينأى بـ(الكريم) عن العىّ والغتمة[١٩] والفهفهة[٢٠] والرتم[٢١]..إلخ.

إن هذه الأسباب الموضوعية أقرب مثالا وأدنى قبولا وأحكم منطقا ولماذا نترك الجُنب ونلتمس المفارق وندع اللزيق ونبحث عن القاصى ونذر القار ونطلب البادى وننصرف عن المقيم وننقب عن الظاعن.

أليس هذا المسلك يتسم بالبعد عن الحكمة والنأى عن المنطق والمجافاة للفطرة السليمة والإعراض عن المنهج القويم.

إذن الأسباب الموضوعية دون غيرها (إذ لا لزوم لهذا الغير) هى التى جعلت من (أبى الأرامل) أعظم الفصحاء وسيد البلغاء ومقدم المبينين وزعيم اللسنين وقائد الذربين.

• • •

(عن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه قال رجل: يارسول الله ما أفصحك ما رأيت الذى هو أعرب منك، قال حق لى وإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين)[٢٢].

وليختزن القارئ ما جاء بهذا الحديث الشريف وخاصة فى عجزه أو مؤخره الذى ربط حسب تعبيره بين فصاحته هو وبين مجىء القرآن المجيد بلسان عربى مبين.

وفى حديث آخر مرفوع إليه ردا على سؤال مماثل أجاب كيف لايغدو كذلك، وهو من قريش واسترضع فى بادية بنى سعد.

إن أحدا لايجرؤ على أن ينكر (أنه أفصح الناس لسانا وأوضحهم بيانا وأصحهم معانى، لا يظهر فيه هجنة التكلف ولا يتخلله فيهقة التعسف)[٢٣].

أما عباس العقاد فهو لم ينزلق إلى ماذهب إليه معاصره وغريمه الرافعى فى رد علل فصاحة (**قطب الأقطاب**) إلى قوى ماورائية وغيبية ولا منظورة بل آب بها إلى أسباب موضوعية (فمحمد العربى القرشى الناشئ فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة يحتاج تبيانه إلى مراجعة... قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة ولم يكن فى كلامه غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة)[٢٤].

ومن الغريب أن (**سيد الكائنات**) أرجع بلاغته إلى الأسباب الموضوعية - (إنه من قريش وقضى طفولته فى البادية) وهو منهج علمى ومع ذلك يأتى من بعده من يحاول أسطرة سيرته فيزعم أن ذلاقة اللسان عنده ربانية والفصاحة هبة إلهية ونصاعة البيان عطية سماوية.. يتساوى فى ذلك القدامى (الجاحظ مثلا) والمحدثون (الرافعى على سبيل المثال).

وبداهة لم يتوقف الأمر عند حلاوة منطق (صاحب الخلق العظيم) بل تعداه إلى غالب مقاطع سيرته المعطاءة التى هى أطيب ريحا من (الألوة مع الكافور والزعفران) وهم إذ يفعلون هذا الفعل الغلطان ويسلكون هذا المسلك الفسيد وينتهجون هذا المنهج الخطىء يتوهمون أنهم به يعلون من قدره ويرفعون مقامه ويحمدون مكانته مع أن العكس هو الصحيح والنقيض هو الصواب فهو أولا ليس فى حاجة إلى من يفعله له وآخرا فإن الكتابة الموضوعية هى وحدها التى تقنع من هو فى حاجة إلى إقتناع بعظمته وسموه وعبقريته وفذوذته.. إلخ بعكس العلل الغيبية إذ يرد المعاند ويجيب اللجوج ويقول الخصيم =وما هو دوره إذا وهبته السماء الفصاحة ونفحته البلاغة ومنحته ذرابة اللسان؟

أما إذا قيل لذلك اللدود المعارض المناوى: إن تلك جماعها من كسبه الشخصى وبجهده الذاتى وإرادته الفولاذية ودأبه الذى لا يكل.. إلخ.

طأطأ رأسه له إجلالا وأحنى قامته له تعظيما.

سبق لنا أن دعونا الكتبة المحدثين: كفوا عن هذا المنهج الفطير الذى يضر ولا ينفع فإن فى السيرة المحمدية الزكية ما يغنيكم عن اللجوء إلى الماورائيات ولكن (لقد أسمعت لوناديت...).

ولا يخفى السبب الكامن خلف الاستعانة بها فهذا لا يحتاج إلى بذل جهد أو مكابدة عناء أو تحمل مشقة بل يكفى بضع عبارات إنشائية وجمل خطابية وفقرات بيانية وخطب منبرية..

بخلاف البحث الموضوعى فهو يستنفر الحفر فى المصنفات والتنقير فى المؤلفات والتدقيق فى الكتب مع استعمال طرائق الاستقراء والاستدلال والتحليل والسير والاختبار والمقارنة والشك فى بعض الأحايين وسبيل هنا كله شاق ومجهد ومتعب.. إلخ.

ولم كل هذا وفى الغيبيات ميدان متسع دون بذل عرق ونطاق فسيح بلا إرهاق ومجال عريض بغير نصب؟

• • •

ثم نأتى إلى السؤال المهم الذى تعين علينا تأخيره إلى خاتمة هذه الفقرة التى خصصناها لفصاحة (أحمد):

لأية علة تحتم على سيدة نسون قريش الالتفات إليها بل والتثبت منها فيه والتى فى نظرنا شكلت باعثا حثيثا لاختياره؟

نحن نرجح أن القارئ اللقن الفطن لا يغيب عن ذكائه الاهتداء إلى الجواب الصحيح.

• • •

إن المرشح كيما يغدو (القادم المنتظر) لابد أن يمسك بيده كتابا يعلنه على أهل مكة. (هاؤم اقرأوا كتابيه) - مثلما قالها موسى ليهود وابن مريم للنصارى.

والعرب المخاطبون (بفتح الطاء) به أهل لسن وفصاحة وبلاغة.. ليس لديهم من سمات الحضارة غيرها هذا مع التجاوز الكبير فى عدها من شارات الحضارة، فهم عراة من العلوم والآداب والفلسفة.. ومن ثم فإن الكتاب الذى يطرح عليهم يجب أن يجىء مثلا أعلى لهذه السمة اليتيمة المفردة التى يمتلكونها..

وإلا فلا يؤمنون به ولا بمن قدمه إليهم بل إنهم سوف يستهزئون به إذ يصير فى مقدورهم أن يأتوا بمثله أو حتى أبعاض منه.

• • •

إن دروس أو معارف أو معلومات الليالى الطويلة والذى ستختزنها الذاكرة الحديدية ذاكرة الشاب الأمى العبقرى العرى عن الضروب عديم النظير، يتعين بطريق الحتم واللزوم أن تتلى على أهل مكة والحجاز وغيرهما وبتعبير الذكر

المحكم: (الناس) بلسان عربى بلغ القمة فى الفصاحة والذروة فى اللسن والذؤابة فى البلاغة كيما يأتى (الكتاب) بمفعوله الأكيد دون ذرة من شائبة أو حبة من كدارة.

• • •

من هنا وصل إلى إدراكنا حرص خديجة على الاستيثاق من فصاحة **(صاحب لختم)** وهذا وإن نقدمه كأحد الفروض إلا أنه فى نظرنا واقع لا محالة وإن سكتت عنه المصادر بيد أنه من بدائه العقول أن تحتمه طبائع الأمور ويستدعيه ترابط الظروف ويستنفره مقتضى الحال ومن ثم فهو فرض معقول ومقبول.

• • •

فوارق عديدة صدعت مابين سيدة قريش و(راكب الأتان):

فى العمر: مالا يقل عن خمسة عشر عاما فى رأى جمهور الباحثين.

فى فهرست كتابه (خديجة أم المؤمنين ـ رض) أورد المؤلف أن هناك فقرة ص ٤٩ عنوانها (تحقيق عمر خديجة عند إتمام هذا الزواج).

وبالرجوع إلى هذا التحقيق نجد أنه لم يستغرق أكثر من ثلاثة أرباع صفحة انتهى فيه إلى أن أنها قد بلغت الأربعين واعتمد فى ذلك (التحقيق!!!) على مقولة لحكيم بن حزام بن خويلد بأن رواتها لا ترقى إليهم الشبهات ولم يبين لنا المؤلف كيف؟

وهو لم يذكر منهم سوى مولى للزبير بن العوام وموسى بن عقبة ولم يوضح لنا عدالتهم؟

ويضيف أن كبار مؤرخى السيرة والمغازى أخذوا به وهذا غير صحيح فقد أوردنا من بين أولئك الكبار من أكد أنها عند الزواج وصلت إلى سن السادسة والأربعين.

وتابع المؤلف أن حكيم بن حزام صاحب القولة قد أكرمه واحترمه التيمى أبوبكر والعدوى عمر فى خلافتيهما.

أما أن **(الجامع)** فعل ذلك فهذا مرجعه لقرابته من خديجة وقد دأب على إكرام كل من يمت إلى سيدة نسون قريش بأوهى صلة ولأنه من المؤلفة قلوبهم مثل أبى سفيان وابنه معاوية(٢٥) ومن الذين اسلموا يوم الفتح فإما أن المؤلف عرف ذلك ودسه وأخفاه وأما أنه لم يعرفه وهذا ما نشك فيه.

إذن هو تعمد إغفال ذكر أن حكيما هذا من المؤلفة قلوبهم حتى لا يوهن مقولته بأن أم هند عندما غدت بعلا لـ(لجهضم) بلغت الأربعين.

واستطرد يقول إنه لا يشك أن حكيما حضر زواج عمته خديجة ولا ندرى من أين أتاه هذا اليقين مع أن كتب السيرة الذكية لم تورد اسمه بين حضور عقدة النكاح وحتى على الفرض الجدلى أنه فعل ذلك فهل هذا مبرر لترجيح مقولته؟

إن أبسط قواعد التحقيق أن يجمع الروايات التى قيلت بشأن الواقعة ويرجح إحداها ويقدم الدليل أو الأدلة على الترجيح، أما أن ينتقى رواية واحدة ويأخذ بما جاء بها فهذا ليس تحقيقا لأنه خالف أبسط قواعد منهج التحقيق.

ونحن نقدم صنيع صاحب كتاب (خديجة أم المؤمنين - رض) كمثال لما يعلو كتابات المحدثين من خفة وهشاشة وتسطيح ومجانيه(٢٦).

ورحم الله الشيخ عبدالحليم محمود (يسمونه إماما!!!) الذى تربع على كرسى رئاسة شئون التقديس فى مصر منذ سنوات فقد أدرك مدى ركاكة وفهاهة ما يدبجه الكتبة المحدثون عن خديجة وحقيقة صلتها بـ(**الجواد**) فكتب:

والسيدة خديجة - رض - فى صلتها برسول الله تستحق دراسة أوسع وتفصيلا أكثر(٢٧).

ثم نؤوب لاستئناف متابعة سياقة البحث(٢٨).

وفى المكانة الاجتماعية فهى التاجرة الموسرة ذات الحسب والنسب ورغم هيمنة النظرة الذكورية آنذاك على مجتمع مكة فقد استطاعت بصفاتها الشخصية أن تحتل فيها مكانة رفيعة.

وهو واحد من ناشئة قريش فقير يحترف رعى الغنم مرة والعُمالة التجارية لدى الغير تارة أخرى.

ومن ناحية المال فهى صاحبة القافلة التى لها فيها ما يساوى سطر ما لسائر أساطين قريش. وهو أجير لديها ونذكر هنا بترجية عبدمناف أو أبى طالب عندها أن تستأجره فى سفرة الصيف إلى الشام وتعطيه ضعف ما تنفح غيره من العسفاء(٢٩).

وفى جانب النسب أم هند من فرع مليء: بنى أسد وفى يقين نفر من البحاث أنه فاق الهواشم مزلة ولو أن هؤلاء ارتفعوا إلى الذؤابة العليا لا فى قريش وحدها بل فى جزيرة العرب جميعها بعد أن تحول (**المستقيم**) إلى القادم المأمول والمنتظر المرتقب.

ولا بأس تدليلا وإثباتا للفوارق التى طرحناها حتى الآن (هناك أخرى سوف تتواتر) أن نعيد ما أسلفنا: أنه ما صدق أن الطاهرة تقبل أن تباعله وأن الخبر إثر ما وصل مسامع عبد مناف أو أبى طالب ركبه الفرح وعمه السرور وهيمن عليه الحبور وفيما تقدم وضعنا أدلة الثبوت الموثقة على ذلك فى حجر القارئ.

● ● ●

وهى ذات تجارب عميقة وخبرات مكينة.

وهى دروب حاذقة مرنت على شتى الوجوه من العديد من الأمور:

فهى صاحبة تجارة وسيعة وهو أجير ولا يقارن ذو لب بين خبرة رب العمل والأجير.

وهى تزوجت مرتين أنجبت فيهما أولادا وبنات وهو لم يدخل دنيا[٣٠].

وهى تجيد القراءة والكتابة وقد طرحنا البراهين على ذلك وهو أمى لم يمسك قلما ولا ورقة ولم يطالع صحيفة.

وهى ذات ثقافة دينية متميزة فى حين لم يعرف عنه ذلك.

وهى من فرع (بنى أسد) مرق منه نفر ممن قرأوا الكتب وتبحروا فى العلم فى حين لم يعهد فى بنى هاشم من ذلك شئ.

وأحاطت بسيدة نسون قريش حلقة من أهل الكتاب تقابلهم وتناقشهم وتدارسهم وتباحثهم وهو آثر العزلة وأحب الانطواء ورغب فى الابتعاد لأن ظروف نشأته قست عليه وحرمته وظلمته.

• • •

وهى حسبما أبلغنا الإخباريون امرأة برزة تجالس الرجال مع عفة بالغة وطهارة كاملة وتحادثهم وتسامرهم وتسمع منهم وهو خجول كالعذراء المخدرة. وهى ذات حاسية وسيعة من الصواحب والصديقات يحضرن مجلسها ويتجاذبن معها أطراف الحكى وينقلن إليها أخبار قرية القداسة وما حولها وما وقع من الأطروفات والأحدوثات والأعجوبات وخلت مدونات سيرته الفائحة بريح المسك الأصهب من أسماء من خاله (صادقه) فى ذياك الوقت سوى ما رواه عمار بن ياسر عن نفسه أنه خدنه[٣١].

ومعلوم أن الاختلاط خاصة فى ذياك المجتمع يضاعف المعلومات وينمى المدارك ويزيد المعارف ويوسع الأفق ويعمق النظرة ويحد البصيرة ويصقل القريحة.. إلخ.

• • •

ذاك غيض من فيض من الفوارق التى باينت بين الهندوز و(قدم صدق) بيد أنها لما تمتعت به من عقل راجح وذكاء حاد وفطانة بالغة ولب عميق وحجى وفير نقهت أن هذه الفوارق سوف تغدو عونا صادقا لها فى إدارة دفة التجربة إلى الاتجاه الذى تتغياه والوجهة التى تؤمها والمنحى الذى تريده. ذلك أنه بهذه الصورة التى هو عليها وبما بينها وبينه من مسافة وسيعة وبون شاسع وبُعد واضح يراه بعينيه الشريفتين ويلمسه بيديه الكريمتين ويدركه بفطرته الذكية أو بذكائه الفطرى سوف يغدو خير موضوع للتجربة التى عقدت عزمها الصلب وشكيمتها القوية وإرادتها الحديدية على إنفاذها وسيصبح بلا جدال سلسا مطواعا هينا لينا رقيقا رفيقا.. إلخ.

ولقد ثبت بما لايدع مجالا لأى معارضة ولا فسحة لأى مشاكسة ولا موطئ قدم لأى مخاصمة أنها تمتعت بفراسة ليس لها ضروب وصدق حدس يعز عن النديد ونظرة مستقبلية تند عن الشبيه وبرهاننا على ذاك موقف **(الخاشع/**

الخاضع) فى حكاية اختبار ذلك الذى يأتيه: هل هو ملاك الرب أو شيطان ولا نبغى أن نكررها فقد تقدم سردها مع حجج توثيقها.

• • •

تلك فرشة لازمة للدخول فى محراب[٣٢] أروع تجربة أفرزتها العصور الوسيطة المبكرة وطرحت هى بدورها هذه الثمار التى لا تقدر بثمن ومن بعد تولدت عنها حضارة عظيمة وعلوم متنوعة.

ونحن نقدم محاولة غير مسبوقة لفك طلاسمها وحل ألغازها وفهم شفراتها وقراءة رموزها التى حيرت منذ قرون عديدة ألوف الباحثين من القدامى والمحدثين والعرب والعجم والفرنجة والصقالبة.. إلخ والتى ملأت الدنيا وشغلت الناس.

فهى قد أنتجت معجزة وهى معجزة بكل المقاييس خاصة فى ذلك الإبان وعلى يد من قدمها وهو بإطباق البصيرين ودعك من المتحذلقين والمتفيقهين والمتنطعين - أمى..

وقدم نفر من المستشرقين محاولات ساذجة وطروحات عبيطة وأقوالا خائبة لإزالة الغموض وكشف الحجاب ورفع الستار بيد أنها اتسمت بالفهامة واتصفت بالرك وعلاها التهافت مثل أن مقابلة قس مدة يوم كامل لصبى يافع تكفى للتفسير.

• • •

والذى أوقع السابقين واللاحقين والخلف والسلف فى هذا المرج وساقهم إلى هذا الخلط ودفعهم إلى هذه الخربقة هو عدم التفاتهم إلى الفترة التى نستطيع أن نسميها (الحقبة الغامضة) فى السيرة المحمدية التى هى أطيب من عسل الموصل وهى تبدأ منذ أن أصبحت خديجة له بعلا حتى الرؤيا المنامية التى رآها فى غار حرى بمقابلة ملاك الرب جبريل وأمره إياه بأن يقرأ باسم ربه الذى خلق.

فى ذلك المقطع يكمن السر ويتوارى اللغز وتختبئ الأحجية.

ولعدم الانتباه إليه تضاربت الطروحات وتناقضت الحلول وتخبطت الأقوال، وهم معذورون لأن دواوين السيرة المعطار التى هى أحلى مذاقا من تفاح الشام شحيحة بوقائعها بخيلة بأحداثها، كزة بأخبارها يابسة بنوازلها بيد أننا تمسكنا بأحبال الصبر وطالعنا العشرات منها وقرأناها قراءة هادئة مستأنية وخاصة التراثية عدة مرات (يتضح ذلك من ثبت المصادر) ولسنوات طويلة فانفتحت الأبواب المغاليق واستطعنا بعد عناء وجهد وتعب أن نضع أيدينا على السر ونحل اللغز ونفك الشفرة.

• • •

ولكن قبل أن تتابع خطوات أو مراحل أو مقاطع التجربة الفريدة نعرج على نقطة مهمة وهى:

هل دخول القادم المأمول والآتى المنتظر التجربة ينزع الموضوع جانبه التيولوجى أو الغيبى أو السماوى إلى آخر هذه التوصيفات التى تعنى فى نهاية المطاف: المفارق أو المباين أو المفاصل للفعل البشرى؟

الدوجماطيقيون أو المتمسكون بالحروف أو الظاهرية (لا نعنى سلاح التفسير الظاهرى للنصوص.أ.هـ). هم وحدهم الذى يذهبون إلى ذلك أما الواسعو الأفق والمستنيرون فلا يرون فى ذلك تناقضا ودليلنا على ذلك ما جاء فى القرآن الكريم نفسه (ولتصنع على عينى)[٣٣]. فالفعل مبنى للمجهول أى أن الصانع غير معلوم بيد أن الصناعة تتم تحت رعاية ربه وكيما يزداد المعنى وضوحا نقرأ الآية المذكورة كاملة فبعد قذف موسى فى التابوت ثم فى اليم يأخذه آل فرعون وفى القصر الملكى ينشأ موسى ويشب ويترعرع وينهل من منابع حكمة كهان مصر القديمة ويتضلع من علومهم وهذه هى الصناعة وهذا هو السر فى بناء فعلها للمجهول لأنه ربما يغدو من غير المناسب الكشف عن هنادزة وأساتذة ومعلمى موسى، المهم أن هذا التصنيع هو الذى أهل موسى لكى ينشئ الديانة الموسوية التى تدين بالكثير الذى لايحصره أويعده أو يحصيه إلا الله إلى مصر القديمة صاحبة أعظم حضارة عرفها التاريخ حتى الآن وصاحبة الفضل العميم على البشرية جمعاء فى العديد من النواحى من الحكمة والفلسفة والآداب إلى العلوم والهندسة والطلب والفلك.. إلخ.

المهم الذى نقصده أن العلوم التى تلقاها موسى على أيدى كهان قدماء المصريين ومعلميه فى قصر فرعون أو البيت الكبير (برعو) كلها وسائر خطوات الصقل والصنفرة والإعداد والتأهيل والتحضير والتدريب والتمرين والتلميع.. إلخ والتى عبر عنها الذكر الحكيم بالصناعة (ولتصنع على عينى) تمت تحت رعاية ربه.

وهى ذات الخطوات التى حققتها الهندوز فى التجربة مع (**المُخبْت**) بإشراف اليعسوب أيضا وبذات القدر يمكن أو هى حقيقة الصناعة التى ورد ذكرها فى الآية المذكورة إنما تحت رعاية الرب وبتوفيقه.

إن الذى حدث لموسى فى البيت الكبير - برعو - قصر فرعون على يد الكهنة والمعلمين والأساتذة والحكماء.. تكرر مع (المجيب) على يد الطاهرة والقس وفى الحالتين وقعت التجربتان وهما مكلوءتان برعاية الرب وتحت بصره وبتوفيقه.

ونحن لا نسوى بين كهان وحكماء ومعلمى وأساتذة مصر القديمة بالطاهرة واليعسوب بل ولا نرى وجها للمقارنة بين الفريقين ولعل هذ يظهر بمقارنة الديانة الموسوية بديانة الإسلام.

بيد أن الذى جمع بينهما ودفعنا إلى قرنهما ببعض هو أن السماء دأبت على النظر إلى كل منهما والعناية بهما ورعايتهما حتى كتب لكل الفلج والظفر والفوز.

• • •

وقد لايلقى هذا الرأى قبولا خاصة أن كلمة (ولتصنع) هناك من يذهب إلى أنها بفتح التاء وهو رأى أعجف لأن الرب يرى ما يصنع موسى وغيره ممن خلق فايرادها بالفتح عبث والذكر الحكيم منزه عنه وعن كافة المطاعن وجمهور السلف والمفسرين مطبقون على أنها بالضم.

ولننقر قدر جهدنا ووسع طاقتنا فى كتب التفسير العوالى التى تلقتها أمة لا إلا إلا الله بالتجلة والتقدير كيما نثبت أن ما ذهبنا إليه من إمكان بل ضرورة تصنيع النبى - أى نبى - بالطرق البشرية تحت رعاية الله له سنده وعليه برهانه وتقوم حجيته من آراء السلف الصالح.

إذا أفلحنا فى ذلك بالأدلة القواطع فلا يحق لأى شخص أن يتعرض بل فرض واجب عليه أن يسلم حتى ولو استغرب الفكرة الأولى مرة بل وحتى ولو صدمته لأنه لم يسمعها من قبل.

• • •

نستفتح بحبر الأمة وترجمان القرآن[٣٤].

(عبدالله بن عباس فى تفسير جملة (ولتصنع على عينى) أى وما صنع لك كان فى منظرى)[٣٥].

(ومعنى فى منظرى أى أمام عينى وهذا ما أخبرنا به القرطبى: قال ابن عباس يريد أن ذلك بعينى)[٣٦].

أما الإمام الفخر الرازى فيزيد الأمر إيضاحا.. (قوله تعالى: (ولتصنع على عينى) قال القفال لترى على عينى أى وافق إرادتى ومجاز هذا أن من صنع الإنسان شيئا وهو حاضر ينظر إليه صنعه له كما يحب... المراد من العين الحراسة لأن الناظر إلى شىء يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فأطلق اسم السبب على المسبب مجازا)[٣٧].

فهناك إذن من يصنع ولكن عين الرب ناظرة إلى تصنيعه للقادم المأمول وهى تلاحظه وترقبه وترعاه.

وهذا ما أكده الإمام العلامة الحافظ المفسر محمد بن أحمد بن جزى الكلبى: (ولتصنع على عينى) أى تربى ويحسن إليك بمرأى منى وحفظ والعامل فى لتصنع محذوف)[٣٨].

ومعلوم لدى أهل اللغة أن حذف العامل لا يعنى نفيه أو عدم وجوده بل يتم لأسباب عديدة منها ضرورة السياق أو ترك معرفته لتفطن القارئ.

أبو عبيدة معمر بن المثنى من أقدم الذين تناولوا القرآن العظيم بالتفسير إذ أنه توفى سنة ٢١٠هـ وقد أطلق على كتابه (مجاز القرآن) وفى شرحه (ولتصنع على عينى) يقول: (مجازه ولتغذى وتربى على ما أريد وأحب)[٣٩].

فهو هنا يذكر التربية التى تلقاها موسى فى طفولته وصباه وشبابه وكيف أنها حدثت وفق ما أحب وما أراد ربه.

أى أن هناك من باشر التربية والتعليم بيد أن ذلك بنظر الرب وعنايته. ويفصل لنا الإمام النسفى ذلك ويوضحه:

(ولتصنع على عينى) أى لتربى بمرأى منى وأصله من صنع الفرس أى أحسن القيام عليه. يعنى أنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشىء وبعينه إذا اعتنى به)[٤٠].

ومفاد ما سطره أن آل فرعون قد ربوا موسى أحسن تربية وأجادوا القيام بشئونه كلها وراعوه واعتنوا به على أكمل صورة بيد أن ذلك كله تم تحت رقابة رب موسى وتوجيهه.

ونفحنا العلامة النسفى بنكتة لفظية من الضرورى الالتفاف إليها لعلاقتها الحميمة بهذه النقطة (من البحث) التى نبحث فيها وهى أن تولى إنسان أو حيوان بالتربية والقيام بأموره على أميز أياة (هيأة) يسمى صناعة أو صنعا. ويخبرنا أبو البركات أن العرب تقول إن من يقوم بالاعتناء بفرسه كيما يصنع كاملا معجبا يقول عنه إنه صنع الفرس.

وتفريعا على ذلك فإن موسى تلقى صناعة أو تصنيعا أو صنعا ممتازا فائق الجودة فى قصر فرعون ولا غرابة فى ذلك فمصر مهد الحضارات والعلوم والآداب وعلى أرضها الطيبة تعلم فلاسفة اليونان وغيرهم إنما تم تحت عين الرب.

(ويؤكد الإمام البيضاوى زاوية التربية وإحسانها فيقول (ولتربى وبحسن إليك) ثم يزيد فالشرط الجوهرى وهو رعاية الله له (وأنا راعيك وراقبك)[٤١].

أما شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبرى فذهب إلى أن هذا المقطع من الآية (قيل لتغذى ولتربى على محبتى وإرادتى.. وقيل بعينى فى أحوالك كلها)[٤٢].

فالطبرى ممن يرون أن تغذية موسى وتربيته بشتى ضروبها ومختلف أنواعها وسائر صورها أنجزها أو قام بها فرعون وأسرته ومن ندبهم ولكن على عينى الرب.

ودار فى الفلك نفسه مصنفا (تفسير الجلالين).. (أى تربى على رعايتى وحفظى لك)[٤٣].

وكذلك الإمام الختم محمد عثمان الميرغنى:

(ولتصنع تربى.. على عينى.. رعايتى)[٤٤].

ثم نختم برأى رئيس مؤسسة شئون التقديس فى مصر فى معنى هذا الجزء من الآية (... ولتصنع على عينى أى تحت رعايتى)[٤٥].

ففضيلته هنا يؤكد أن تربية آل فرعون لموسى بدأت وختمت مشمولة برعاية رب موسى وعنايته وحفظه.

ونكتفى بهذا العدد من التفاسير وهى كما اتضح من أوثقها وتتمتع بمكانة طيبة وقد أجمعت على أن هناك من ينشئ ويربى ويعلم ويدرس ويثقف موسى ويلقنه الحكمة والعلوم اللازمة لكل قادم مع الوضع فى الاعتبار الكامل أن ربه ينظر إليه ويراعيه ويرقبه.

إذن هناك قطبان فى عملية التصنيع أو بحسب تعبيرنا: (التجربة):

من يتولى التنشئة والتربية والتعليم .. إلخ.

والذى يهيمن ويرعى ويبسط العناية والحماية.. إلخ.

وإذ انطبق هذا على موسى وهو رأس الديانة اليهودية ومن أولى العزم وأحدوثته لها حيز وسيع فى القرآن المجيد، فأى مانع يحول دون أن ينطبق على من سار على دربه وأتى بعده من البطاركة المفخمين؟

• • •

وأخيرا فهناك مفسر من المحدثين تناول مكان صنع موسى بما لا يدع مجالا لذرة من شك (فهو كبر وشب فى قصر فرعون وتحت عين فرعون ولكن ربه فى ذلك الوقت لم يكف عن حمايته ورعايته)[٤٦].

وما دام موسى نشأ فى قصر فرعون وتحت بصر الأخير فلابد أنه وفر له كافة وسائل التربية الطيبة والتعليم العالى من كهنة وحكماء وعلماء ومدرسين وهذا يبين للوهلة الأولى من قراءة توراة موسى وتعاليم كهنة مصر وحكمائها ويخرج عن سياق بحثنا عقد مقارنة بينهما لإبراز أوجه المماثلة وجوانب المطابقة ونواحى المشاكلة رغم توافر المصادر بين أيدينا.

• • •

إذن نخلص إلى أن أى قادم جديد أو مأمول منتظر من الحتم اللازم أن يمر بفترة إعداد وتهيئة وتشذيب وصنفرة وتعليم وتدريس ليغدو أهلا لحمل ما سيضطلع به والذى وصفه القرآن المجيد بـ(القول الثقيل).

هذا التصنيع ومن البديهى أن يتولى عبئه بشر من اللزيقين به تظل السماء تراقبه فهو عملية بالغة الرهافة والحساسية.

ولكن أن تنفذها القوى العليا بنفسها فهذا مالا يحبكه عاقل.

حتى من ناحية الصلاحية أوالكفاية فإنه يتعين أن يصير (المأمول) محيطا بمجريات بيئته وما يدور فى مجتمعه وما يحدث فى وسطه وهذا لا يتأتى له إلا

إذا جاء صانعوه من قلب البيئة ومن باطن المجتمع ومن داخل الوسط وهو مالا يتحقق إلا فى بشر مثله.

بعكس ما إذا تولت صناعته أو تصنيعه كائنات هابطة من الغيب ومجردة أثيرية فهى بالضرورة غير معجونة بتفاعلات زمنه وتجهل مشكلات وقته ولا تدرك احتياجات عصره..

إن هذه الكائنات المعجبة لو باشرت صنفرة القادم وقلوظته [٤٧] لتحول إلى صورة قد تبدو كالتحفة الغالية أو الطرفة الثمينة إنما لا توائم التعامل البشرى.

ومن هنا فإن التعبير الذى ورد بالقرآن المجيد عن البطاركة أنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق - بالغ حد الروعة - لأنه يشى بأنهم أفراد من مجتمعهم طبيعتهم بشرية مثل طبيعة سائر الناس ومغروزون فى قومهم عليمون بهمومهم وخبراء بعضلاتهم وعارفون بأحلامهم ومدركون مايسرهم وما يسوؤهم.. إلخ.

وبالإضافة إلى عدم معقولية أن تباشر السماء بنفسها أو بواسطة مندوبين عنها تصنيع أو صناعة (المنتظر) فما هو الخطأ أو الخطيئة فى أن ينهض بهذا العمل واحد أو نفر من المحيطين به ممن اتصفوا بالشمائل اللازمة.

لا يوجد فى الذكر الحكيم ولا فى السنة المحمدية المطهرة نص واحد يحول دونه بل بالعكس فقد رأينا آية من القرآن المجيد تدل على أو تقطع بوقوعه.

● ● ●

ومن جانب آخر، فإن نهوض فرد أو اثنين أو ثلاثة.. نفر أو جماعة بتهيئة (المنتظر) لـ(لقول الثقيل) لايغض من مكانته ولا يخدش كرامته ولا يقلل من مقامه.

وبالنسبة لـ(سيد ولد قصىّ) فقد سبقه فى الطريق سلفه الكرام من البطاركة الأماجد فقد أثبتنا بالأدلة الموثقة أن موسى تمت تربيته فى (برعو) أو البيت الكبير أو القصر العالى وأن فرعون ذاته أشرف بنفسه على أطوار التنشئة ومراحل التعليم وأشواط التربية فأحضر له الكهان والعلماء والحكماء الذين ليس لهم ضريب فى العالم المتحضر آنذاك ولا نبدو مبالغين إذا قلنا وفى هذا الزمام أيضا.

أما عيسى ابن مريم فالذى تطوع بصنفرته وقلوظته وتلميعه هم:

زكريا وابنه يحيى أو يوحنا (هو الذى تولى تعميده ومن ثم سمى المعمدان) وأمه الصديقة التى قضت شطرا من حياتها الأولى فى بيت المقدس وزوج أمه يوسف النجار الذى حصل قدرا لا بأس به من العلوم الدينية وعندما وجاء المسيح إلى مصر هربا من بطش الطاغية الرومانى مكث فيها حتى بلغ الثالثة عشرة فاتصل بالكهنة المصريين واغترف من علومهم الكثير ومنها الطب (إبراء

الأكمه والأبرص) والسحر (إحياء الموتى) وسواء صح هذا المقطع المُصلى من التصنيع لابن مريم أم لأ فإنه يكفى الشطر الأول.

وهكذا ثبت بالحجة القاطعة أن موسى وعيسى دخلا بوابة التصنيع واجتازا مراحلها وما نال ذلك من قدريهما أو حط من مكانتيهما بل إنهما رغم مضى قرون عديدة على ظهورهما فإنهما يزدادان تألقا وتعاليمهما وحكمتها تترسخان يوما بعد يوما.

وخلاصة القول إن كشف الحجاب عن مرور (المنصور) بـ(التجربة) وقطعة لأشواطها واحدا وراء الآخر ليس فيه أدنى مساس بمقامه المحمود ومنزلته السامية وقدره الرفيع الذى يغبطه عليه الأولون والآخرون ويصبح مثله كمن تقدموه.

وطالما نادى هو بمشابهتهم بعضهم بعضا وأنهم بنو علات(٤٨).

وكثيرا ما نهى عن تفضيله على غيره منهم.

فلماذا لا نطبق حديثه عملا وواقعا فلا نفرق بينه وبين موسى وعيسى إذ نقر أنهما خاضا تجربة التصنيع التى أنجزها بشر ثم نستهول ونستفظع ونحوقل ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذ نثبت لهم بالبرهان المبين أنه كسابقه حذوك القذة بالقذة سار فى (تجربة) وقطع أشواطها.

● ● ●

ولقد أردك سلفنا الصالح ضرورة خضوع القادم أى قادم لمرحلة التصنيع التى تتم فى أحشائها أدوار الصنفرة والقلوظة والتهيئة والتدريب والتأهيل.. ولكنهم استكثروا أن يحمل ثقلها - فى حالة (المنقذ)- ناس من الناس فهم من ناحية لا يرون أن واحدا أو نفرا من المخالطين له يصلح لهذا الشرف المنيف ومن ناحية أخرى يتوهمون أنه يغض من قدره ويحط من شأنه ويهبط بمستواه. فماذا فعلوا؟

هداهم خيالهم الخصيب إلى أن السماء لم توكل بشرا بمهمة التصنيع أو الصنع أو الصناعة، كما فعلت مع موسى وابن مريم، بل تفرغت هى لإنجازها بواسطة ملاك يسمى (إسرافيل) اضطلع بها على أكمل وجه بأن لازم (**المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض**) لمدة ثلاثة أعوام قبل أن يظهر له جبرائيل فى حرى فى المنام ويغته غتا كيما يقرأ باسم ربه الذى خلق.. إلخ.

● ● ●

(وفى حديث عبيد بن عمير فى خبر نزول جبريل - س - قال رسول الله - ص - فجاءنى وأنا نائم فهذه حالة وحديث وغيرها أنه كان فى اليقظة فهذه حالة ثانية ولا تعارض لجواز الجمع بينهما بوقوعهما معا ويكون الإتيان فى النوم توطئه للإتيان فى اليقظة وقد قالت عائشة: أول مابدئ به - س - من الوحى

الرؤيا الصادقة. وعن الشعبى أن رسول الله ﷺ وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحى ثم وكل به جبريل فجأة بالقرآن والوحى فهذه حالة ثالثة لمجىء الوحى: عن قتادة قال: كانت خديجة أول من آمن بالنبى ﷺ من النساء والرجال وهو قول موسى وابن اسحق والواقدى والأموى وغيرهم قال ابن إسحق كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقت ما جاء من عند الله عز وجل وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عن رسوله فكان لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت رضى الله عنها)(٤٩).

والشعبى من خيار التابعين ولكن واضح من سياقة الخبر أن هذا مجرد رأى ارتآه ومن هنا فمن حقنا ألا نأخذ به نزولا على السنة القولية التى استنها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان شيخ المذاهب: أما (إذا جئنا إلى التابعين فهم رجال ونحن رجال وعبارة يتراءى له غامضة فهل هى من الرؤيا (أى فى المنام كما جاءه جبريل فى الغار وأمره بالقراءة مع أنه يعلم أو المفروض أنه يعلم أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب أ.هـ) أم هى من الرؤية الواقعية العيانية - ثم جملة ويأتيه بالكلمة من الوحى ماتفسيرها ولأى سبب من الأسباب كتم (المسعود) الكلمات التى أتاه بها إسرافيل وهو منهى بصرامة عن الكتمان.

● ● ●

والذهبى فى السيرة أتحفنا بنفس الأثر:

(عن سعيد بن المسيب قال: أنزل على رسول الله - ص - وهو ابن ثلاث وأربعين سنة فمكث بمكة عشرا وبالمدينة عشرا وعن الشعبى قال: ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنوات فكان يعلمه الكلمة والشىء ولم ينزل القرآن فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة وقبض وهو ابن ثلاث وستين)(٥٠).

وفيه أضاف الذهبى (كان يعلمه الكلمة والشىء) فنسب التعليم إلى ذلك الكائن المدهش ولم يقل (الكلمة من الوحى) فهل كلمة إسرافيل الذاتية تعد وحيا من الله أم هى اجتهاد منه ولم يبين لنا الراوى ما هو هذا الشىء الذى علمه إياه:

هل هو من الاعتقاد أو التعبد أو الطقوس أو الشعائر؟ ولماذا لم يورد الذكر الحكيم تعليم إسرافيل لـ**(لقتول/ القتال)** كما نص على تعليم جبريل إياه (علمه شديد القوى)(٥١).

وفى طبقاته ساق إلينا ابن سعد مايلى:

(حدثنا سفيان الثورى قال: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) قال كان على أمر قومه أربعين عاما.

عن داود بن أبى هند عن عامر أن رسول الله ﷺ أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة وكان معه إسرافيل ثلاث سنين ثم عزل عنه إسرافيل وقرن به جبريل عشر سنين بمكة وعشر سنين مهاجره بالمدينة فقبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال محمد بن سعد فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر فقال ليس يعرف أهل العلم ببلدى أن إسرافيل قرن بالنبى ﷺ وأن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه الوحى إلى أن قبض ﷺ)[٥٢].

وعامر الذى جاء فى الخبر هو عامر الشعبى أى الراوى فى الأخبار الثلاثة واحد وهو الشعبى وبعد قراءته لابد أن تحركت فى رأس القارئ الأسئلة الآتية:

لماذا عزل الملأ الأعلى إسرافيل؟ هل قصر فى عُمالته (بضم العين أى وظيفته)، أم أن عقد عمله انتهت مدته؟ وإذا صح هذا الفرض: فلماذا لم تجددها له السماء؟

• • •

(ونقل الماوردى عن الشعبى أن الله قرن إسرافيل - س - بنبيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشئ بعد الشئ ولا يذكر له القرآن فكان فى هذه المدة مبشرا بالنبوة وأمهله هذه المدة ليتأهب لوحيه)[٥٣].

صاحب (الحلبية) روى هذا الخبر عن الشعبى دون سواه بيد أنه يمنحنا صورة مغايرة فهو لم يقل (يتراءى) له ولكنه جزم بعدم الرؤية وبسماع الحس ومعاجم اللغة تشرح لنا أن الحس والحسيس هو الصوت الخفى فلماذا دأب إسرافيل على وشوشة (**سعد الله**) وما هى ضرورتها ثم يضيف (ويعلمه الشئ بعد الشئ) كما أسلفنا فهو لم يوضح لنا هذا الشئ.

بيد أن الخبر وضع فى حجرنا معطى مهما هو أن ما نسبه الشعبى (لاغيره) إلى ملاك الرب إسرافيل إنما بقصد (ليتأهل (محمد) لوحيه) وهو ذات ما أطلقنا عليه عملية التصنيع فراوى الخبر يعترف بضرورة خضوع أى (قادم) لالتزاماتها ودخولها وولوج مدخلها... حتى يغدو أهلا لحمل (القول الثقيل).. ولكنه يرفض بإصرار أن يجئ منفذوه والمشرفون عليها (الصناعة أو التصنيع) من ذرية آدم ولابد من كائن يحير الألباب فهو مختف لايرى وإذا تحدث فكلامه حسيس وهو يتراءى وهى هيأة ملغزة فلا هى رؤيا (حُلم) ولا هى رؤية (واقع) إنما هى بين بين حسب التعبير الشهير للعميد الدكتور طه حسين حتى مادة تعليمه أحجية[٥٤].

وعلى الماديات (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا)[٥٥].

وعلى المعنويات (لو كان لنا من الأمر شئ)[٥٦].

ودليلنا على إلغاز هذا الشئ أن صاحب (الحلبية) أصابته الحيرة وركبه الدهش وعمه الريك إزاء هذا الشئ فقال:

- (قيل إنه ﷺ مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصا وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا غير ذلك وأن المدة التى بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التى هى اثنتان وعشرون سنة وهذا الشئ الذى كان يعلمه له إسرافيل لم أقف على ماهو)[٥٧].

- (عن عامر الشعبى أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة وقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة، والشئ ولم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة عشرا بمكة وعشرا بالمدينة فمات وهو ابن ثلاث وستين.

فهذا إسناد صحيح إلى الشعبى وهو يقتضى أن إسرافيل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثم جاءه جبريل)[٥٨].

وبالمثل ضمن الماوردى كتابه (أعلام النبوة) ذات الخبر عن الشعبى:

(روى الشعبى وداود بن عامر أن الله تعالى قرن إسرافيل بنبوة رسوله ﷺ ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشئ ولاينزل عليه القرآن فكان فى هذه المدة مبشرا بالنبوة)[٥٩].

• • •

الخبر الآتى أرجأناه وتعمدنا تأخيره نظرا لأنه انطوى على معلومات ذات قدر كبير من الخطر والأهمية وكعادة صاحب (الشامية) فإنه يستقصى ويطنب فى إيراد الأخبار ومن ثم تعد سيرته من أطول السير:

- (روى الإمام أحمد فى تاريخه بسند صحيح عن عامر الشعبى قال إن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشئ ولم ينزل القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة: عشرا بمكة وعشرا بالمدينة فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وهذا يقتضى أن إسرافيل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثم جاءه جبريل.

- وقال الإمام أبو شامية - رحم - وحديث عائشة لا ينافى هذا فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا ثم وكل به إسرافيل فى تلك المدة التى كان يخلو فيها بحراء فكان يلقى إليه الكلمة بسرعة ولا يقيم معه تدريجا إلى أن جاءه جبريل فعلمه بعدما غطه ثلاث مرات فحكت عائشة ما جرى له مع جبريل ولم تحك

ماجرى له مع إسرافيل اختصارا للحديث أو لم تكن وقفت على قصة إسرافيل. انتهى.

وقد أنكر الواقدى - رحم - خبر الشعبى قال ولم يقرن به من الملائكة إلا جبريل [٦٠].

نلاحظ على الخبر مايلى:-

١ - إن الإمام أحمد أورده فى تاريخه لافى مسنده أى أن رفعه من مسنده أو لم يذكره فيه ومعلوم أنه تحرى فى المسند الأحاديث والأخبار الصحائح.

٢ - الخبر منسوب إلى عامر الشعبى أى هو مصدره الوحيد كما ثبت من سائر المصادر التى ذكرناها.

٣ - أن الملأ الأعلى وكل إسرافيل بـ(حرز الأميين) وهذا يوثق ما قلناه أن الشعبى يستكثر أن يضطلع بالتجربة (التصنيع) إنسان فابتدع حكاية إسرافيل.

٤ - إسرافيل طفق يخلو بـ(محمود) فى غار حراء أى أنهما كانا على انفراد فلماذا إذن طفق طول ثلاثة أعوام على أن يخاطبه بطريقة الحس أو الوشوشة!!

٥ - كيف غابت حكاية إسرافيل عن عائشة وهى من أعلم الصحابة وانفرد بها الشعبى دون غيره.

٦ - من هنا أصبح خبر الشعبى عن إسرافيل موضع نقد عدد من السلف منهم الواقدى وهو أستاذ ابن سعد الذى أطلق عليه (كاتب الواقدى) وكتابه (الطبقات الكبرى) معروف بل مشهور وصاحب مقام رفيع أما الوافدى ذاته فله اسم لامع بين مؤلفى السيرة المحمدية التى رائحتها أزكى من ريح العود الصنفى.

• • •

خلاصة القول إن أحدوثة إسرافيل خبر آحاد طلع به علينا الشعبى ونحن لا نبخسه حقه ولا نستهين بقدره ولا ننحف مكانته كل ما فى الأمر أننا فى المصادر التى رجعنا إليها وهى بحمد الله تعالى غزيرة وعديدة لم نجد من يعاضده.

بل هناك علماء أثبات أنكروه وجزموا أن ملاك الرب الوحيد الذى التقى بـ(أبى قاسم) هو جبريل فحسب وهو نائم فى مغارة حرى.

• • •

إن الذى ينقض خبر الشعبى من أساسه أنه لم يرد فى الأحاديث المحمدية الشريفة حتى الضعيفة ولم يأت ذكره فى القرآن العظيم ولا ندرى كيف يقص علينا وقائع أقل قدرا مثل الإعراض عن ابن أم مكتوم (عبس وتولى أن جاءه الأعمى)[٦١].

ويغفل هذه الواقعة المهمة خاصة أنها - حسب زعم الشعبى سامحه الله - استمرت أعواما ثلاثة بل إن القرآن المجيد خلا تماما من اسم إسرافيل فى حين أنه ذكر اسم جبريل ثلاث مرات اثنتين فى سورة البقرة والثالثة فى التحريم وهما سورتان مدنيتان.

وإذ إن الشىء بالشىء يذكر فإن واقعة مغارة حرى ومقابلة جبريل لمحمد فيها مناما لا نقرأها فى المصحف الشريف الأمر الذى دعا بعض البحاث لعدم تصديقها أو الأخذ بها (٦٢).

كما أنه من اللافت للنظر أن السور الملكية التى ظل (الأمى) يتلوها على تابعيه لمدة ثلاثة عشر عاما خلت تماما من اسم جبريل!!

بعد هذه التفريعة السريعة نؤوب إلى مسلسل الحديث:

إذن هناك من السلف من أدرك ضرورة سبق التجربة أو التصنيع لبزوغ المأمول المنتظر وأنه يستحيل عقلا أن يظهر فجأة دون إعداد وتهيئة وشحن وصنفرة وقلوظة... إلخ بيد أن ذلك إن النفر (من السلف) خربق(٦٣) وضل الطريق وتيهه وهمه وخيره فكره فادعى أن الذى مارس التجربة واضطلع بالتصنيع وباشر الإعداد.. إلخ كائن غامض لا يرى لا فى منام ولا فى يقظة كلامه حسيس وحديثه وشوشة مع أنه فى خلوة مع من يخاطبه لا تستدعى الإسرار ولا تتطلب الخفوت وما يلقيه من علم مجهول ولم يجد من نسبه إليه وصفا له سوى أنه شىء ولم ينبس عنه من التقاه بكلمة واحدة بل حتى لم يلحن ولم يشر إليه ولو مرة واحدة.

كل هذا يقطع باستحالة قيام هذا الكائن المعجب بما أضيف إليه وإنما الذى حمل عبء التجربة الثقيلة على كاهله هم بشر ولكنهم امتازوا بمناقب رفيعة.

• • •

هناك أمر آخر تعين على الهندوز أن تقدم عليه إذ بدونه لا تنجح التجربة أو على الأقل يتأخر فلجها أو يصيب نتيجتها المبتغاة قدر من التلبيس وشىء من التخليط وهو تفريغ قلب (القرشى) من هم الرزق تماما وتفريده للتجربة وموجباتها أو التزاماتها إذ إن الجمع بينهما ضرب من المستحيل وتكليف بما لايطاق وأمر بما لا يستطاع وفى القرآن العظيم (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)(٦٤).

وفى الإنجيل أنه من المستحيل أن يخدم عبد سيدين فى ذات الوقت أو فى وقت واحد والعامة فى مصر تقول (صاحب بالين كداب)..

وهذا أمر بديهى فالتجارة التى امتهنها (المكىّ) قبل أن تنكحه أم هند تستنزف وقت من يتعاطاها ولا تترك له فسحة لغيرها من الشئون. لهذا قررت سيدة نسون قريش أن ينفرد للتجربة ويوليها كل اهتمامه وينفق فيها وقته كله

فأقالته من عُمالته واضطلعت هى بمشغوليات التجارة ووضعت فى حجره أموالها يصرف منها كما شاء دون معقب منها أو من غيرها.

وذلك بعد أغرقته بطوفان حبها وألبسته الحرير وأطعمته الخمير فصار لها عاشقا كما قال وكيف لايفعل وهى قد نقلته نقلة لم يحلم بها مجرد حلم: من عسيف يكدح من مكة إلى حباشة ومن قرية القداسة إلى الشام لقاء بكر أو بكرين إلى واحد من السادة الغطاريف الذين يلبسون أغلى الثياب وأرقها ويتلذذون بأشهى الأطعمة وأحلى الأشرب وكظته[٦٥] إلى التجربة ليرتع فيها على مهل ويمرح على ريث.

...(عن الزهرى قال: قال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى أطعمنى الخمير وألبسنى الحرير وزوجنى خديجة وكنت لها عاشقا)[٦٦].

ولبس الحرير وأكل الخمير بعد رعى الغنم تطور مذهل بكل المقاييس.

(فى الهدى أنه ﷺ أجر نفسه قبل النبوة فى رعيه الغنم.. قال رسول الله - ص - وأنا راعى أهلى بأجياد وأجياد موضع بأسفل مكة من شعب بها)[٦٧].

ولم يحدث ذلك خبط عشواء بل عن رسم وتخطيط ليلقى (المفتاح) دبر أذنيه زمن المعاناة وسنوات الفقر ومرحلة الشظف ولايفكر فيها أدنى تفكير.

(روى البلاذرى أن محمدا بعد أن جاءته الرسالة وبدأ يدعو لها جاءه رجل يكلمه عن مال كان له أى لمحمد عنده فقال محمد شيئا فيه معنى أن ذلك الأمر والمال لم يعد يعنيه)[٦٨].

هنا نجد أن مدينا أقبل عليه ليوفى ما عليه فيرد عليه بما يفهم منه أن ذياك المبلغ لا يساوى فى نظره شيئا!!!

وكيف لا؟ أليست ثروة خديجة (صاحبة نصف قافلة قريش) أصبحت ملك يديه وفى حوزته ورهن إشارته.

وكيما ننقه عظم النشب الذى أباحته إياه ورحابة التفويض الذى نفحته نقرأ الخبر الآتى:

- ويروى أنه ﷺ دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك؟ قال الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحى منك وإن أنا لم أبذل أخاف الله.. فدعت قريشا ومنهم الصديق قال الصديق فأخرجت دنانير حتى صبتها وبلغت مبلغا لم يقع بصرى على من كان جالسا قدامى ثم قالت اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه)[٦٩].

● ● ●

وشد انتباه أغلب الباحثين فى سيرته التى هى أذكى رائحة من الند الهندى هذا الملمح البالغ الأهمية فأدرجوه فى مؤلفاتهم:

وشغله هذا الدأب عن تجارة خديجة فلم يخرج فيها إلى الشام كما فعل قبل أن يتزوجها بل كفاه منها أن أغناه الله بها وانصرف يلتمس هذا الحق الذى

شغلت نفسه بالبحث عنه والتفكير فيه يريد أن يراه واضحا صريحا لا لبس فيه ولا غموض.

وكاتب آخر يرى أنه انشغل فى تجارة بعله خديجة قليلا ثم تركها لها ونحن نخالفه فى منحاه لأن الأمر وتدبيره ليس فى يد (ذى الهراوة) بل هو من إعداد وإحكام من باعلته فهى صاحبة مشيئة تفريغه (وتزوج محمد خديجة بنت خويلد وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين فكان زواجا هادئا، وبقى يعنى بأمر تجارتها قليلا من الزمن ثم ترك لزوجته شأن هذه التجارة أخيرا فجعلت تقوم عليها كسابق عهدها)[٧٠].

• • •

أما هيكل (محمد حسين) فهو يوافقنا على ماانذهب إليه ويضيف إلى أن ذلك التفريغ لم يمنعه عن الاختلاط وما درى هذا الباحث أن ذلك (التفرغ) قننته الهندوز ليغدو مقدمة للاختلاط والمشى فى الأسواق كما سنوضح فى أول مقاطع التجربة الفذة.

(أقام محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة فى ذروة من النسب وسعة من المال وأهل مكة ينظرون إليه نظرة غبطة وإكبار.

ولكن ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب فى الحياة العامة على ما كان يفعل من قبل)[٧١].

وأن المرء ليتولاه العجب ويتساءل:

كيف أن مؤلفا (بكسر اللام) فى قامة هيكل لم يلتفت إلى أن حل خديجة يدى (أحمد) من القيود فى ثروتها يزعبقها كما يريد تم عن وعى كامل وبقصد محدد؟

• • •

(كما أن عدم زواجه بأخرى طالما خديجة على قيد الحياة يمكن أن يربط بارتفاع مركزها الاجتماعى ولأن ثروتها كانت عونا كبيرا له خلال صراعه ولكن يبدو أن شخصيتها كان لها وزن كبير بالنسبة إلى زوجها. على أى حال فالأخبار ترسم صورة جذابة جدا للتأييد الأدبى الذى وفرته فى أثناء القلق الذى انتابه عندما نزل الوحى عليه لأول مرة)[٧٢].

ونمسك مؤقتا عن التعليق على ماجاء بفاتحة هذه الفقرة بصدد عدم زواج (الشافع المشفع) على خديجة طوال حياتها إذ سنطرح له تفسيرا جديدا غير مسبوق. والذى يهمنا الآن نص أصحاب الموسوعة الإسلامية الميسرة على أن ثروة سيدة قريش شكلت عونا له خلال صراعه أى إبان مروره بمحطات التجربة.

• • •

(لقد أصبح بعد تزوجه من خديجة هادئ السر وأصبح له منزل يأوى إليه وأهل يسكن لهم)[٧٣].

فى تلك الأيام البواهر استقر العرف على سكنى الزوجة بمنزل زوجها الخاص أو بمنزل أسرته بيد أن سيدة نساء الدنيا فى سبيل أن تظفر بنكاح (الخافض/ خافض الجناح) وتفوز بمباعلته ضربت بهذا التقليد العربى الراسخ كالأجبل عرض الحائط وأسكنته فى دارها هى: والإقدام على ذلك جزء من التخطيط الذى أحكمته بشأن التجربة فمن ناحية ليشعر بلذة وجد المسكن بعد الافتقار إليه. ومن ناحية أخرى ليصبح ويمسى بأعينها وتحت رقابتها وفى رعايتها.

تقول بنت الشاطئ:

(... فمنذ أن استقرت به الحياة فى رعاية الزوجة الرءوم وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومى، أتيح له أن يستجيب لما فى نفسه من نزوع إلى التأمل وميل إلى التفكير)[٧٤].

لا بأس أن تتحدث الدكتورة بنت الشاطئ عن التأمل والتفكير وهما مرحلة متقدمة نوعا فى مسيرة التجربة لكن المهم أنها فطنت إلى أن إعفاءه من عناء الكدح اليومى هو قيدام لما نذرته أو ندبته إليه بعله.

• • •

وفى تفسير القرآن الكريم بيانيا قالت عائشة عبدالرحمن وهى بصدد تفسير سورة الضحى إن الله أغناه بمال خديجة.

- ولذلك فسر جمهور المفسرين آية الضحى بأن الله أغناه فى صباه بتربية أبى طالب ولما اختلت أحواله أغناه بمال خديجة، واختصر الشيخ محمد عبده هذه السلسلة الطويلة من الاختلال والإغناء مكتيفا بربح التجارة ومال السيدة خديجة قال: (وكان رسول الله فقيرا لم يترك له والده من الميراث إلا ناقة وجارية فأغناه الله بما ربحه فى التجارة وبما وهبته خديجة من مالها)[٧٥].

ثم أوردت أن الأستاذ الإمام محمد عبده أجرى مقارنة بين ما ورثه (الفلاح) من أبيه عبدالله بن عبدالمطلب والقدر اليسير الذى اكتسبه من احترافه العمالة التجارية للغير وبين الثروة الأسطورية التى وضعتها سيدة نسون قريش فى حجره وبحسب تعبير الشيخ (وهبته) والهبة فى قواميس اللغة: (المال يعطى بلا عوض) وهذا تأكيد وتوثيق أن أم هند دفعت له بدون أى مقابل وذلك قطعا لأى معارضة قد يطرحها لجوج بأن تلك الأموال مقابل عمله لديها فى التجارة بيد أن الإخباريين لم يذكروه إما سهوا وإما أنه معلوم ببدائه العقول.

• • •

إن ما فعلته خديجة فى هذا الصدد أمر محتوم كيما يشعر (الخاشع)

بالاستقرار الذى بدونه يتعذر عليه أو يستحيل عليه أن يعطى نفسه وعقله ووجدانه للتجربة لأن الجرى وراء لقمة العيش يهد الجبل ويؤرق العين ويجلب الهم ويستحضر الغم.

(وتم الزواج بوفاء سابغ للاثنين وهناء عامر واستقرار ورزقهما الله بالأبناء)[٧٦].

ويؤكد الخربوطلى على أن (جد الحسنين) تلقى من خديجة هدوء السر وراحة البال وأنها منحته المنزل الذى يأوى إليه والأهل الذين يسكن إليهم:

(لقد أصبح بعد تزوجه من خديجة هادى السر والبال وأصبح له منزل يأوى إليه وأهل يسكن إليهم)[٧٧].

أما جلال مظهر فيقطع بأن أم هند أخلته من مشاغل العمل ومؤونته وإرهاقه وقرفه[٧٨] وأنها هى التى حملت على كتفيها كاهل العمل التجارى.

ويؤكد أنها نقلته من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء.

وهى حقيقة لاينكرها إلا معاند ولا يرفضها إلا مشاكس ولا يمارى فيها إلا لجوج.

وبدأت مرحلة جديدة تماما فى حياته فها هو يتعرف على المرأة ودفئها وحنانها لأول مرة فى حياته وها هو ينتقل من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء.

(خديجة إذ كفت حبيبها محمدا مؤونة العمل وإرهاقه ومشاغله فقامت هى بشئون البيت وشئون تجارتها وتركت هذا المتأمل حرا كامل الحرية لا يحمل من هموم الدنيا شيئا لينصرف إلى أفكاره وتأملاته التى كانت تشغل الجزء الأكبر من وقته)[٧٩].

• • •

ولكن كم نفحت سيدة قريش (المسعود) من مالها؟

أى ما هو مقدار المنيحة التى أفاضت بها عليه؟

يذهب باحث عراقى إلى أنها دفعت إليه بكل ثروتها:

(هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى أبوها من أشراف قريش فى الجاهلية وأمها فاطمة بنت زائدة القرشى كانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة وتكنى بأم هند، كانت تحت أبى هالة واسمه هند بن النباش فولدت له هندا وهالة ذكرين ثم خلف عليها بعد وفاته عتيق بن عابد بن عبدالله المخزومى وبعد وفاته ظلت حتى لقائها بالنبى محمد ﷺ ومتاجرته لها بأموالها فتزوجته آنذاك وكانت أول من صدق به وصلى خلفه من النساء ووهبته ما تملك فى سبيل الدعوة وكانت له الصدر الحنون ساعات روعه ومحنته.

وظلت إلى جانب الرسول ﷺ تعاضده وتعينه على أمور الدعوة حتى توفاها

الله قبل الهجرة بثلاث سنين لعشر خلون من رمضان وهى بنت خمس وستين وقد سمى ذلك العام بعام الحزن)[٨٠].

وقد انضم إليه فى هذا الرأى باحثان من إخوتنا الشيعة:

١ ـ (كان من الطبيعى بعد ذلك كله أن تكون أول من يصدقه ويؤمن بدعوته وتضحى فى سبيلها بكل ما تملك)[٨١].

٢ ـ (وكانت (يعنى خديجة) إلى جانب حبها امرأة شريفة ذات بصيرة تحسن تصريف الأمور.. ثم كانت من أوائل من صدق رسالته وبذلت كل ثروتها من أجل دعوته)[٨٢]. ونحن من جانبنا نؤيدهم فى هذا الرأى. كيما تضمن تفرغه الكلى والجزئى للتجربة فلا يشغله غيرها ولا شىء يشتت الذهن ويحير الفكر ويقض المضجع قدر الحوجة.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى

فقد ذاق الحرمان وكابد المسغبة وكواه الفقر فلا يسكن روعه من هذا الجانب ويهدئ باله ويطمئن نفسه ويريح خاطره سوى أن يوضع المال جميعه بين يديه.

ومن ناحية ثالثة:

بهدف أن تحكم قبضة رعايتها وتشد وثاق عنايتها له وتضاعف من لحظها إياه وجماع ذياك كله يؤدى إلى سهولة المطاوعة ويسر المهاودة وسلس الموافقة مما يوصل فى نهاية الأمر إلى نجاح التجربة.

● ● ●

إن توفير مسكن لـ(المتين) من قبل الطاهرة وإيواءه فيه مخالف للتقاليد المستقرة لا فى مكة وحدها بل فى سائر أنحاء الجزيرة العربية إذ حتم لازم على الزوجة أن تنتقل إلى بيت زوجها ولو فرضنا أن هذا البيت فى نجع أو محلة أخرى نقلت إليها أو إليها وتسمى (الأخيذة) الذى أخذها زوجها من مضارب أهلها إلى مضارب عشيرته أو رهطه واللفظة ترشح بالمعانى العديدة منها الأسر والاغتراب والبعد والانقطاع ومن ثم درجت النسوة على كراهيتها.

● ● ●

ثم نستأنف القول:

إذن هو الموضع الثانى الذى تضرب فيه أم هند عرض الحائط بالأعراف (جمع عرف) الرواسخ وسبق أن ذكرنا الموضع الأول.

وهناك الموضع الثالث:

أن تقوم هى (الزوجة) بالعمل وتصر على أنه (وهو الزوج) ألا يمارس أى عمل من أى نوع بل إنها تصب كل ثروتها وما تربحه بعد أن بعلته فى جيبه دون

أن تسأله ولا لمرة وحيدة فيم أنفقت هذا المبلغ؟

فمن البديهى أن نسطر أن المنحى ترفضه التقاليد لا فى مجتمع مكة ولا فى قبيلة قريش بل وفى غيرهما من المجتمعات والقبائل.

إذ من المعروف والمجمع عليه أن الزوج هو الذى يكد ويكدح ويعرق لا الزوجة وهو الذى يمنح ويعطى لا الزوجة!!

بيد أن خديجة لم تعبأ بذلك كله ولم تلتفت إليه ولم تعره اهتماما ولم تأبه لأية أقاويل لابد أنها أثيرت فى (الندوة) وغيرها من مجالس الرجال والنسون عن تلك الأفعال التى مارستها بنت خويلد ولم يسبقها فيها أحد.

ولا مشاحة أن تفسيرات شتى وتأويلات عديدة تناثرت هنا وهناك وقد سمعتها وأعرضت عنها جمعاء لأن الهدف السامى الذى تتغياه أكبر من أى اعتراض وأنبل من أى احتجاج وأعظم من أى امتعاض.

● ● ●

يبقى موقف (الأواه)

كيف يقبل أن زوجته هى التى تهيئ أو توفر مسكن الزوجية؟

وكيف يوافق أن بعله هى التى تعمل فى حين يظل هو بلا عمل خاصة أنه آنذاك فى مطلع شبابه وعز فحولته وقمة فتوته وذروة قوته ونحن نعلم عنه أنه يعتز بكرامته ومن رهط (بنى هاشم) الذى يأبى الضيم وينفر من الذل ويتمسك بحبال العزة؟

الذى نرجح أنه فى البداية عصلج[٨٣] وامتنع واحتج.. إلخ ولكن الطاهرة بما لها من كيس وفطانه ولباقة وتجربة فى معالجة البعول استطاعت أن تثنيه عن موقفه وتستل مدافعته وتلين قناته وتأخذ منه صك القبول وشارة الرضى وعلامة الوفاق، بداهة هى لم تفاتحه بشأن التجربة مباشرة إنما أفهمته بطريقة خبيئة أن هناك ما هو خير من العمل والتجارة وأن عليه أن يثق فيها، وفعلا وثق فيها فربح ماهو أعظم من التجارة ربح خلودا على مدى الدهر.

● ● ●

بقيت النقطة الخاصة بانفراد خديجة بعلا لـ(صاحب الشملة) ما يزيد على خمسة وعشرين عاما وهو فى ذياك الإبان كما أوردنا فى ريعان الشباب فضلا عن تمتعه بقسامة ظاهرة ووضاءة بالغة وجمال باهر وراثة عن أبيه عبدالله الذى أحرق قلوب العذارى والأيامى فى قريش لحسنه وطلاقة وجهه.

وسبق أن طرحنا تعليلات عديدة لذلك الأمر المحير لبعض الكتبة المحدثين خاصة أن تعدد الزوجات فى ذلك المجتمع يرقى إلى مرتبة العرف المستقر والعادة المرعية والتقليد الراسخ. يقدم عليه الذكر ويفتخر به ويعده من شارات غناه وعلامات رجولته ودلائل فحالته.. حتى إن بعضهم احتبس عشر زوجات

فى وقت واحد مثل غيلان الثقفى الذى تزوج عبدالرحمن بن عوف إحدى بناته واسمها بادية التى وصفها هيت المخنث للمسلمين وهم يحاصرون الطائف أنها تقبل بأربع وتدبر بثمانية، وأضاف فمن استطاع منكم فليبادر وينكحها وابن عوف بدوره تزوج فى الإسلام عشرين من الحرائر بخلاف ملك اليمين مع المحافظة (الشكلية) على قيد عدم تجاوز حبس أربعة منهن [٨٤].

إذن العرف والشباب الوضىء فى جانب (القمر) لابد أنهما وزاه على الزواج على أم هند بيد أن هناك ماقيد حركته عن السير فى الاتجاه بل ربما أوقفاه نهائيا حتى لا يستطيع أن يمضى فيه خطوة واحدة ولو بمقدار فتر[٨٥] منها المكانة الاجتماعية لخديجة ذاتها ولعشيرتها بنى أسد ومنها وضعها الاقتصادى فهى إحدى ركائز أو عمد الاقتصاد فى بلدة التقديس إذ لها كما كررنا نصف القافلة، وثقلها المالى فهى تملك من النشب جميع أنواعه =العروض والعقار والعبدان والإماء.... إلخ إذن لابد له أن يضع هذا فى اعتباره ويعمل له ألف حساب . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فليس بيده الشريفة وقت ذاك (طول الحرة) بفتح الطاء والواو[٨٦] ولا (ثمن الأمة) [٨٧].

هل من المقبول عقلا أن يصرف مال سيدة قريش فى الإضرار بها ضرا فاحشا إذ لا يغيظ المرة وينكد عليها عيشها قدر نكاح زوجها غيرها عليها أى وهى فى عصمته.

ولعل من دوافع إغراق سيدة الدنيا لـ(آكل الشعير) فى بلهنية العيش وإلباسه الحرير وإطعامه الخمير وتسليمه مفاتيح خزائن ثروتها الطائلة هو ألا يمد عينيه إلى غيرها من النسون أو الجوارى فهى تعرف عنه شمائله الرفيعة ومناقبه السامية وأخلاقه الحميدة ويتربع على رأسها العرفان بالجميل ومن ثم فيستحيل عليه أن يقدم على مثل هذه الفعلة.

(ولما بنى بأولى زوجاته خديجة لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج لأنه بنى بها وهى فى نحو الأربعين وهو فتى فى ريعان صباه وعنفوان شبابه لم يتجاوز الخامسة والعشرين وهو رجل جميل الخلقة طلق المحيا تتطلع إليه الأبكار وتتمناه العذارى لكنه كان ملهما بأمر ربه فنظر إلى مكانتها من قومها وموقعها من عشيرتها وطهرها وعفتها وكانت هى التى عرضت نفسها عليه فقضى معها الشباب والفتوة وزمن الرجولة والقوة وقضى زهرة عمره معها خمسة وعشرين عاما زمن الحيوية والشهوة الجنسية وليس له من زوجة غيرها ولم يفكر قط أن يشرك معها غيرها فى فراشه)[٨٨].

فطن الباحثان إلى سبب من أسباب إحجام (الفهم) عن الزواج على خديجة أو التسرى فقالا (نظر إلى مكانتها من قومها وموقعها من عشيرتها) والحق أن غيرهما من الباحثين المحدثين (على الأقل الذين طالعنا كتاباتهم) لم يجرؤ على

البوح به. ولو أنهما عادا مثل سائرهما إلى كن (بكسر الكاف) الغيب يستترون به أو وراءه ويتمسحون بحيطانه والظروف المادية مجرد ظاهرة تقترن ولا تؤثر والعلل التى تتولد عنها هى والعدم سواء ومن ثم ذهب الكاتبان إلى أن نظر (الراضى) إلى مكانة خديجة من قومها أى (وضعها الاقتصادى) وموقعها من عشيرتها (مكانتها الاجتماعية) ثم بإلهام من ربه وأمره لا أن هذا (الوضع الاقتصادى) و(المكانة الاجتماعية) هما اللذان حبساه عن مجاوزة الحد والزواج بغيرها. وأنه ببصره الثاقب وبصيرته النافذة وعقله الراجح أدرك أنه لو فعل لآثار عليه (الملأ) الاقتصادى وأسخط الحامة (النخبة الاجتماعية) وهو أذكى من أن يستنفر غضب أولئك أو هؤلاء.. فالمسألة بسيطة ليست فى حوجة إلى إلهام سماوى إنما هذا هو ديدن الكتبة المحدثين وهو : إرجاع كل الأسباب والعلل إلى قوة غيبية وكفى المؤمنين عناء البحث ومشقة التحليل ووعورة التنقير.

ومن هنا طالما نادينا بضرورة دراسة السيرة المحمدية المعطار والحقبة الخليفية بل وسائر مقاطع التاريخ الإسلامى دراسة منهجية موضوعية تنأى بها عن الدروشة والشطحات والماورائيات أو تعليل الأحداث بطريقة الوعاظ وآئمة المساجد وخطباء المنابر.

عود إلى السياق:

نحن لا نرفض تلك التعليلات التى سيقت فى الفقرة السابقة لتبرير امتناع محمد عن الزواج بغير خديجة حتى توفيت إلى رحمة الله راضية مرضية. بيد أننا نرى أنها غير كافية، إذ فى شباب محمد ووضاءته ورفعة نسبه ما يجعل البطون المنافسة لبنى أسد مثل بنى مخزوم وبنى أمية تقبل مصاهرته بذات الطريقة التى استنتها أم هند بل ابتدعتها.

أما النظر بعين الاعتبار لـ(ملأ) التجارة والمال و(نخبة) المجتمع فإن أصهاره الجدد لن يتخلوا عنه بل سوف يؤازرونه.

أما قول المحدثين الكتبة أو الكتبة المحدثين إنها عصمة من الله فإن الرد عليها: هل هى خطيئة ومن قال إنه (نعنى الزواج بأخرى) خطيئة سواء قبل الإسلام أو بعده؟

ولو أن الأمر كما تقولون (عصمة ربانية) فلماذا تخلفت عنه عندما نزح إلى يثرب فقد أبلغنا الإخباريون أن عدد زوجاته ناهز الخمسة والعشرين بخلاف ملك اليمين ولو أنه لم يدخل ببعضهن وانتقل إلى الرفيق الأعلى وعلى ذمته تسع منهن (٨٩).

وقد صرح هو أكثر من مرة أن من أحب الأشياء إليه من شئون الدنيا النسون.

إذن تلك التعليلات ليست كافية فى سبب عزوفه عن اتخاذ ضرة للطاهرة فما هو السبب المانع القاطع فى ذلك؟

• • •

خديجة الهندوز المحنكة الدروب لم تضع وقتا فى إدخال (الفلاح) فى مصنع التجربة وإذ إنه لديه ما يؤهله لقبول هذا العرض فضلا عن فارق السن بين الطرفين (قلنا إنه يبلغ ربع قرن)، وكذا موضعية سيدة قريش كأم رءوم له ثم فطانته رويدا رويدا لسمو الدور الذى سيضطلع به وعظم المهمة التى سيحملها على كتفيه ثم إنجازه لما سيوكل إليه من موجبات والتزامات ثم انشغاله فيها على مدى الأربع والعشرين ساعة فى اليوم صباحا المشى فى الأسواق والاجتماع بأصحاب الملل والنحل والأديان والعقائد ومحاورتهم وعند انعقاد الأسواق والمواسم الانتقال إليها وسماع خطبائها وشعرائها من سائر الاتجاهات ثم القيلولة وبعدها فى المساء والليل حلقات الدرس والتعليم والتحفيظ من الإصحاحات التى ترجمها القس الذى أتقن اللسانين والكتابين العربى والعبرانى.

والحصة التالية تتم بحضور اليعسوب مرة فى منزل خديجة وأخرى يذهبان هما إليه وفيها تتم المراجعة والاستفسار فالتفسير والتسميع والشرح والتوضيح حتى ينفلق الصبح وهكذا.

فى هذه البانوراما التى رسمناها فى عجالة أين تتموضع الزوجة الأخرى أو الثالثة؟

يوما بعد يوم تتفتح الآفاق أمام باصرتى (العطوف) ويزداد وعيه ويتعمق إدراكه ويتضاعف فهمه للعمل الجليل الذى تباشره به أو معه سيدة نسون قريش فيعشقها أكثر وأكثر ويتوله لها ويذوب فى هواها، كيف لا وهى قد أغنته ماديا وفى طريقها إلى إثرائه روحيا.

ومن الجانب الآخر الخاص بالتجربة ذاته فإنه يزداد تماهيا فيها أى لا يكتفى بالقيام بها بل إنه يندمج (تعبير حديث شائع فى مصر المحروسة) فيها فتملك عليه أقطار نفسه وتملأ عقله وتشبع إحساسه وتشحن وجدانه فيزداد بها تعلقا حتى إنه يغدو أخيذا لها لا يستطيع مفارقتها ولا طاقة له على مباينتها ولا حيلة له فى الابتعاد عنها.

إذن هو بدخوله أو بمعنى أصح وأدق إدخاله التجربة:

تضاعف وتعمق هيامه بالطاهرة وأحاطته التجربة بسياج روحى متين ليس فى مكنته الخروج من بابه أو القفز على سوره فأنى له الزواج بأخرى؟

• • •

هذا هو التعليل السليم والسديد لعزوفه عن نكاح بعلة أخرى، ونحن نؤكد أنه

لم يسبقنا أحد إليه لا من القدامى ولا من المحدثين ولا نزعم أنه التعليل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بيد أن الذى نؤكده أنه حمل آيات صدقه وبراهين ثبوته وحجج يقينه.

هناك سبب آخر نختم به فاصلة تبيان علل اقتصار محمد على زوجة واحدة هى خديجة فى تلك الحقبة المعجبة من سيرته العطرة، هو أن الثقافة الدينية التى سيطرت على عشيرة بنى أسد آن ذاك تحرم تحريما قاطعا الزواج بأخرى، فحتى لو فرضنا فرضا جدليا أنه فكر فى ذلك، فإن الرد سوف يجىء من الطاهرة أم هند: أذكرك يا أبا القاسم (هكذا دأبت على مناداته أ. هـ) بأن ثقافتنا الدينية تحظره حظرا باتا. وماذا يقول بحيرى وورقة وعداس وناضح وميسرة عنى!!!

وحتى يزداد القارئ بهذا السبب - الذى لم يسبقنا إليه أحد - اقتناعا نلفت انتباهه: إن الذى تولى مراسم العقد هو ورقة بن نوفل وهو (قس)، أليس كذلك؟!

• • •

(الشكار) عندما نكحته الطاهرة فى مقتبل شبابه وتمتع بالصفات الجسدية التى ألمنا بشطر منها وبشمائل باهرة ومناقب منيفة وخصائص حميدة منها: طلاقة اللسان وقوة العقل وسلامة الفطرة ونفاذ البصيرة وسعة الأفق وحدة الذكاء وصلابة الشكيمة ومضاء العزيمة واستقامة الخلق وصدق القول وأداء الأمانة والوفاء بالعهد ونكتفى بهذا لأننا لا نستطيع حصرها وكاتب هذه السطور يؤمن أن أمة العرب عقمت عن إنجاب ضروب له.

بيد أنه من جانب آخر فهو أمى لم يقرأ صحيفة ولم يكتب كلمة ولم يمسك قلما ولم يخط حرفا وذلك بشهادة القرآن العظيم. إنما عوض الأمية بذاكرة واعية وحافظة تسمع الجملة فتختزنها وتستوعبها لا تخرم منها لفظة مفردة. هذه الذاكرة العبقرية لعبت دورا لا مثيل له فى الخطورة إبان التجربة فقد وسعت جميع الدروس والمعلومات والمعارف التى طفقت تتلقاها فى جلسات المدارسة وحلقات التعليم وليالى المراجعة إن على يد الهندوز أو اليعسوب. إن اعتماد الأمى على ذاكرته أمر شائع معروف ليس فى حاجة إلى دليل. كما يبدو أن بنى هاشم امتازوا بها فقد حكيت عن الإمام على كرم الله وجهه فى هذا المضمار الأعاجيب ثم عن (مسائل نافع بن الأزرق) رأس فرقة الأزراقة من الخوارج أنه: فى مقطع من حياته تلقى العلم عن حبر الأمة عبدالله بن العباس فى المسجد الحرام.

أن الحبر حفظ قصيدة غزل ملتهب طويلة لعمر بن أبى ربيعة ألقاها عليه مرة واحدة.

وقيل إن الإمام الشافعى ويرتفع نسبه إلى بنى هاشم حفظ حوارا جرى بين يونانيين حدث بينهما خلاف فاستشهد به أحدهما فأدلى بالحوار كما هو أمام القاضى فأحضر مترجما وبعد أن أقر الخصمان بصحة الشهادة وسلامة الترجمة قضى لصاحب الحق(٩٠).

• • •

وفى وقت لاحق امتاز البخارى صاحب الصحيح الذى يوصف بأنه أصح ما كتب بعد القرآن المجيد بذاكرة حديدية وقد ورد فى سيرته أنه حفظ سبعين ألف حديث وبداهه لايعنى هذا أن البخارى أمى ولكن نقدم الخبر لنثبت أنه وجد من يتمتع بحافظة واعية تثير العجب والدهش:

وقد جاء فى حق البخارى صاحب (الصحيح) مايلى:

(يقول سليمان بن مجاهد كنت عند محمد بن سلام البيكندى فقال لو جئت قبل لرأيت (صبيا) يحفظ سبعين ألف حديث فخرجت حتى لحقته فقلت له: أنت تحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين إلا ولى من ذلك أصل أحفظه من الكتاب والسنة)(٩١).

ونحن لا نقارن البخارى بمحمد فأين الثرى من الثريا؟

إنما من حق المرأ أن يتساءل إذا تمتع هذا الأعجمى بهذه الذاكرة المعجبة فكيف حال ذاكرة (راكب الأتان) العبقرى الذى لايفرى فريه أحد وذلك باعتراف جميع خصومه وأعدائه.

• • •

ولقد أطلنا فى التفريعة الخاصة بأمية (الفارق) وفى مقابلها ذاكرته الفاذة عديمة النظير لأنها شكلت ركيزة هامة فى بنية التجربة العظيمة وسببا مؤثرا فى فلجها وهى التى دعت الناس فى المشرق والمغرب فى القديم والحديث يسألون ويلحفون فى السؤال وما انفكوا يسألون: أنى لأمى كل هذا الثراء فى المعارف والغنى فى العلوم والملاءة فى المعطيات؟

وإذ إنهم لم يتفرسوا فى الحقبة المتوارية من السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحا من نشر القطر ونعنى بها منذ أن غدت أم هند له بعلا حتى الرؤيا المنامية العجيبة التى خايلته فى مغارة حرى، ولم يمعنوا النظر فيها ولم يحدقوا فى قوادمها وخوافيها ولم ينفذوا إلى باطنها ـ كما فعلنا نحن، واستنفد (بالدال) ذلك من عمرنا سنين عددا انقطعنا فيها لها بالكلية حتى قراءة الصحف امتنعنا عنها، ودعك من مشاهدة التلفاز وغيره من وسائط الميديا، نقول إذ إنهم لم يفعلوا تجنبا للإرهاق وفرارا من المجهود وضنا بالعرق وهروبا من التعب وإيثارا

للراحة وتفضيلا للسهولة وأخذا بالمجانية.. إلخ لجأوا إلى الماورائيات واعتصموا بالقوى الخبيثة والعوالم المحجوبة والكائنات غير المنظورة والآفاق الخفية ونسبوا إليها ما حدث وأضافوا إليها ما وقع وألصقوا بها ماتم، ووقى الله الكتبة والبحاث مؤونة الحفر ومصاعب التنقير ومعاناة إعمال العقل فأمنوا على التفسير اللاعيانى(٩٢). والتأويل اللاحياتى والشرح اللامعاشى واستكانوا إليه عاما بعد وعام وعقدا وراء عقد وقرنا إثر قرن حتى تكلست تلك الحكايات وتجمدت وتحجرت وغدت حقيقة مطلقة.

قط لم تقف أمية (أبى إبراهيم) حجر عثرة فى طريقه ولا عائقا أمامه ولا سدا فى وجهه فقد تسابق معاونوه ـ الذين مكنتهم ظروفهم من الإفلات من الأمية التى هيمنت على مجتمع القداسة ـ فى كتابة ما يمليه عليهم ورصده وتدوينه بكل قداسة ورهبة.

• • •

كالمرات السابقات نعود أدراجنا إلى سياقة القول:

فى تلك الأيام المعجبة (المضخم) شاب مكتمل الفتوة على أبواب مرحلة الشبيبة سوى الخلق (بفتح الخاء وسكون اللام) رضى الخلق (بضم الخاء واللام) يتمتع بأعلى المواهب العقلية وهو أمى بيد أن الأهم من ذلك كله ليست لدية ثقافة دينية من أى نوع.

وتراكمت الأسباب لتقنعنا بالمسبب:

فهو قد تجرع مرارة اليتم صغيرا فطبعه بطابع الحزن ثم ذاق شظف العيش مع راعيه وكافله فاستشعر بأن الحياة ظلمته مما ضاعف أساه وانتهى به الأمر إلى إيثار العزلة والبعد عن الناس، والنفور من الاختلاط بهم.

ولما شب وغادر أيام الطفولة اضطرته ظروفه المادية إلى امتهان حرفة فوق أنها لا تليق به شخصيا ولا تناسب مكانته أو رتبته مما زاد الأزمة النفسية فإنها بطبيعتها تستلزم مفارقة الناس وهى رعى الغنم فالراعى يتسلم القطيع من صاحبه ويسوقه إلى موضع يصلح للرعى وفى حالة (المصطفى) هو أجياد ـ ويظل معه حتى الغروب فيعيده إلى مالكه ويتسلم منه جعالته وهى زهيدة قال عنها قراريط ثم يعود إلى داره، وبالنسبة إليه دار عمه عبد مناف (أبى طالب) ويعطيه ما حصل عليه من أجر مساهمة منه فى تكاليف المعيشة وهكذا لم تتح له هذه المهنة فرصة أن يغدو خليطا(٩٣).

• • •

وبعدها عمل أجيرا تجاريا وحفظت لنا دواوين سيرته التى هى أطيب رائحة من بنفسج الكوفة سفرتين له إلى سوق حباشة ورحلة إلى الشام مع ميسرة لحساب خديجة. وحدثنا العبد عن عزوفه عن الاجتماع برجال القافلة، وحتى

لو فرضنا أنه لم يفعل واندمج معهم ومع المشترين والبائعين فهم جميعها بلا ريب مليطون من أى ثقافة وخاصة الدينية وجل حوارهم ينحصر فى المعاملات التجارية وأثمان البيع والشراء.

• • •

والسبب الثالث والأخير أن الذى حاز الثقافة الدينية آنذاك هم نفر من النخبة القرشية، أما الآخرون وهم العامة الذين يكدون فى سبيل لقمة عيش جشب «خشن» فلا يفكرون فيها مجرد تفكير إذ هى بالنسبة إليهم ترف لا يقدرون عليه، ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة عقلانية مجردة لابد أن نتساءل: أنىّ لفتى صغير خرج بالكاد من مرحلة الطفولة واشتغل برعى الغنم ثم لما شب قليلاً عمل أجيرًا تجاريًا ببكر من الإبل.. أنى له أن يحوز ثقافة دينية أو ثقافة من أى نوع؟

ونرجّح أن السيدة خديجة تحققت بنفسها فقد دأبت على استقباله غب إيابه من سوق حباشة منفرداً أو مع زميله فى العمل وتقدم الأطروفة التى خبأتها له أولهما كما أسلفنا، وفى أثناء تناولها لابد أنها تحادثت معه فعرفت خلوه من أى منزع ثقافى.. دينى..

وعند عودته من الشام إلى دارها يسبق ميسرة الذى تخلف بالبضاعة مع القافلة فى مرّ الظهران جلست إليه وحاورته فيما حدث وسألته عمن التقى، فتأكد لها أن صفحته الثقافية الدينية بيضاء من غير سوء(٩٤)، فضلاً عن أنه لم يعرف شىء من ذلك عنه وإلا لوصل إلى مسامع أم هند.. ولقد رضيت كل الرضا لأنه بهذه المثابة يغدو هو المطلوب تماما لأن حاويته أو وعاءه فارغ بالكلية من أى أخلاط عقائدية أو شوائب ومن ثم فهو الأصلح لأن يمتلئ بما تصبه فيه تحت إشراف اليعسوب الماهر المجرب.

• • •

وربما يحق لنا أن نعتبر ما تقدم توطئة أو فرشة أو تمهيدة ننتقل منها على مهل شديد وريث بالغ وتأن مضاعف لندلف إلى مقاطع التجربة الفاذة التى لم تشهد العصور الوسيطة لها مثيلاً ورغم دخولها القرن الخامس عشر من ميلادها المجيد فهى ما انفكت عذراء طازجة تستنفر الباحثين للحفر فى أعماقها والدارسين للغوص فى بحورها لاستخراج لآلئها.

المرحلة الأولى التى رأت هندوز التجربة أنها تناسب «**راكب الجمل**» وهى فى الحالة التى وصفناها هى الاختلاط بالناس وأمت «قصدت» أمرين:

الأول: أن تكسر طوق العزلة التى تعود عليها قبل أن تنكحه فـ«**القادم المنتظر**» من باب الحتم واللازوم لابد أن يعى أحوال مجتمعه ويتعرف على الذين سوف يخاطبهم ويلمس بيديه عقلياتهم وهمومهم ومشاكلهم وآلامهم وآمالهم ويزداد

علماً بطبقاتهم وطرائق تفكيرهم وآليات فهمهم كيما يجىء خطابه إياهم موائما وهناك حديث شريف منسوب إليه نصح فيه تبعه أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم وهذا الكم الرائع ثمرة للخطوة البدائية التى قطعها وهو يخب ويضع فى مشوار التجربة.

الآخر: من بين من سوف يخالطهم أصحاب شتى الملل والنحل والعقائد والأديان مثل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس الذين ماجت وازدحمت بهم مكة علاوة على سدنة وكهان الأصنام.. إلخ.

«إن محمداً كان فى هذه الفترة يختلف إلى الأسواق والمنتديات يستمع إلى أحبار اليهود وكهنة النصارى ما يبشر به كل منهم فى أمر دينه وما يعارضون به العرب فى شأن الأصنام»(٩٥).

والتماس بهم على قدر وفير من الأهمية إذ من البديهى أن «**أعظم الكائنات**» ناقلهم الحديث واستمع منهم معتقداتهم واستوضحهم إياها ورويداً رويداً حاورهم فيها.. إلخ.

الأمر الذى يرضى أصحابها لأن من بينهم نسبة كبيرة من الدعاة إليها والداعى لا يسره شىء قدر إنصات الناس له والتفاتهم إلى ما يدعو إليه والإقبال على ما يبشر به.

ويوماً بعد يوم تنمو ثقافته الدينية ويزداد معجمه العقائدى ويتعمق فهمه لسائر الأديان وفروعها والنحل ومذاهبها والملل وانشقاقاتها.

● ● ●

إن القرآن الكريم سجل هذه الفترة من حياة «**المعطى الوسيلة**» وهو شأن بالغ الثمانة عظيم النفاسة. مديد الغلاء مرتفع السعر، كبير القيمة لأن ما ينص عليه الذكر الحكيم فى آياته البينات تعنو له جبهة كل مسلم ولا يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة من معارضة(٩٦).

وقد جاء كرتين:

الأولى: فى سورة النحل وهى مكية فى الآية الثالثة بعد المائة وقد علقنا عليها فى «القيدام» وليس ثمة موجب لتكراره فليتفضل القارئ بالرجوع إليه.

الأخرى: فى الآية السابعة من سورة الفرقان وهى أيضا مكية ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾ (٩٧).

وبديا يلفت النظر أن القرآن الحكيم ذكر المشى فى الأسواق دون غيره من شئون الحياة الدنيا مثل الزواج والإنجاب وتملك العقار والسفر والنوم والصحة والمرض. إن العبارة تنفح دلالة أعمق من المتاجرة أى البيع والشراء، إن القرآن المجيد لا يعجزه أن ينص: ويتاجر أو يبيع ويشترى. ولذا فنحن نعارض من ذهب إلى أنها تنحصر فى هذا المعنى وتسبح داخله، منهم ابن كثير «ويمشى فى

الأسواق أى يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة»[٩٨].

خاصة وأن كلمات البيع والشراء والكسب والتجارة لها وجود كثيف فى المصحف الشريف.

• • •

ومن المؤسف أنه حتى من فسر القرآن من المحدثين لم يفطن إلى هذا الملحظ الدقيق «وانظر إليهم وقد ساقوا صفات للنبى ﷺ زعموا أنها تتنافى مع الرسالة وهذه الشبه إن دلت على شىء فإنما تدل على قصر فى العقل وسوء فى الرأى ومادية غالية أضلتهم السبيل وأعمتهم عن الصراط المستقيم: - أكل الطعام - يمشى فى الأسواق... إلخ»[٩٩].

وهو إن لم يصرح بأن «المشى فى الأسواق» يعنى التجارة فحسب إنما يفهم من سياق سرده.

ومفسر آخر ذكره دون مواربة «... ما باله يأكل الطعام كما نأكله ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد؟»[١٠٠].

ونكتفى بهما لأنهم جميعا دأبوا على النقش[١٠١]، ممن سبقهم مع تحوير فى الألفاظ وتغيير فى الكلمات إلا قلة أندر من الكبريت الأحمر.

وهذا الحكم ينسب على من يصنفون فى سائر العلوم: الفقه - أصول - الناسخ والمنسوخ، أسباب النزول، القراءات... إلخ ونرجعه فى المقام الأول إلى الكسل العقلى، ثم بعده إلى الرعب من أصحاب العقلية الدوجماطيقية سدنة الإسطير وحراس النص وأحلاس النقل[١٠٢].

ثم نعود فنستأنف الدراسة:

إذن الفصل الأول من كتاب التجربة المذهلة هو الاختلاط بأهل مكة بكافة طبقاتهم وأجناسهم وألوانهم وألسنتهم دون تفرقة بين مللهم وعقائدهم وأديانهم والاستماع إلى سائر طروحاتهم حتى أساطيرهم ومخاريقهم وشعبذاتهم، بل نرجح أن أم هند أوصت بهذا الشق بل إن تشديدها بلغ الغاية وأوفى على النهاية فى الإلحاح والإلحاف والتأكيد، ليكسب ما نطلق عليه حديثا موسوعة أو دائرة معارف دينية للزومها له.

إذ كيف يتصور «بضم الياء أى بصيغة المبنى للمجهول» أن تعلنه لأهل بكة **«المأمول»** الذى طال شوقهم إلى مجيئه وهو مليط من الفكر الدينى مرت [١٠٣] من الثقافة العقائدية، قفر من المعرفة بالملل والنحل والمذاهب.. فإذا حاجوه وخاصموه وجادلوه وحاوروه فكيف يرد عليهم وجعبته خالية وكنانته فارغة ووعاؤه فاض؟

وبداهة اعتمدت على ذكاء **«أول من تنشق عنه الأرض»** وفطنته وبالأخص على ذاكرته الفاذة فى فهم واستيعاب وتخزين كل ما يصل إلى سمعه الشريف لا تند

عنه كلمة ولا تلفت منه لفظة ولا تفوت منه عبارة.

ولك أن تحسب بدقة مدى ما حصّله من معلومات ومعارف طوال أعوامها لأننا فى حلقة التحنث بالمغارة سوف نرى أنه ينجزه فى مدة محدودة فى السنة لا تزيد على أسابيع.

• • •

إذن هو كما أثبتنا تفرغ لـ«المشى فى الأسواق» لا يشغله عنه شىء ولا يحول دونه مانع بعد أن ضمنت له أم هند العيش الرغيد.. ومداومته عليه فى كل يوم صيفاً وشتاء لفتت أنظار المكاكوة «أهل بكة» فصاحوا قائلين أو قالوا صائحين:

ما له يأكل الطعام كناية عن توفير الطاهرة المعاش له، وما يقض مضاجع الناس ويتعبهم ويشقيهم مثله، وبعد أن اطمأن نفساً وارتاح بالاً وقر عينا ما له بعده «يمشى فى الأسواق»؟

فهم ذكروا الحالتين اللتين هو عليهما إبان هذا المقطع:

«يأكل الطعام» الذى أمنته له بعله خديجة البالغة الثراء، ثم «يمشى فى الأسواق» إذ لم يعرفوا له شغلة سواهما. وبه شهدت دواوين السيرة المنيفة التى هى أطيب من رائحة الألوة مع الكافور والزعفران.

إن العادة جرت على أنه لا يقال «ما ل كذا» إلا بصدد أمر غير عادى. مثل: ما لك مسرع؟ أو ما له مسرور؟ أو مالها مريضة؟ وهو بعينه أتى فى الذكر الحكيم: ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) ﴾(١٠٤).

فالإنسان عندما أحس أن الأرض زلزلت سأل: ما لها.. ما حكايتها؟

كذلك القرشيون عندما لاحظوا أن «المعصوم من الناس» دأب ولسنوات متواترة يجول فى دروب مكة وفى أسواقها لا يكل ولا يمل.. تساءلوا ما له وما حكايته؟

لعطن تفكيرهم وضيق أفقهم وركاكة فهمهم وضحالة عقولهم وفهاهة ذكائهم لم ينقهوا أنه وهو يفعله إنما يؤدى بمهارة أحد الأدوار المهمة فى التجربة العظمى التى بموجبها يتأهل كيما يصبح الذى طالما تحدثت حامتهم = «نخبتهم» عنه وعن قدومه وتقطعت أعناقهم تطلعاً لمجيئه الميمون.

• • •

فى زمن التجربة دأب العرب على إقامة أسواق فى كافة بقاع جزيرتهم المباركة والذى يتصل بدراستنا التى تنصب على منطقة الحجاز ومنها عكاظ ومجنة وذو المجاز وأشهرها هو الأول وعلاوة على البيع والشراء والمقايضة وسائر ضروب التجارة، انتهز الشعراء الفرصة لنشر قصيدتهم والدعاة من مختلف الأديان والملل والنحل للدعاية إلى عقائدهم ومنافرة من يخاصمهم والرد على مناوئيهم، أى أن الأسواق مجال انتعاش اقتصادى ورواج فكرى من

جانبه الدينى إذن فلابد ألا تفوت هذه المناسبات الثرة بالأفكار «المصطفى» والعقل يحتم أنه لابد أن يؤمها من أول ساعة تبدأ فيها حتى تنفض لا يتخلف عنها يوما ويدور عليها أينما أقيمت لا ليبيع ويشترى ويتاجر ويفاصل، إذ لا حاجة له بها بعد أن دلقت الهندوز الدروب مالها بين يديها كما أخبرنا التيمى عتيق أو أبو بكر بن أبى قحافة ليتمم طقسًا من الطقوس المهمة فى مجال التجربة وهو الاستماع لكل من يدعو إلى دين ومن يبشر بملة وينشر عقيدة ويذيع نحلة ويروج لمذهب ويتعمق أقوالهم ويختزن معلومها فى حافظته الواعية ويحاورهم ويجادلهم حينا ويستوضحهم ويستفهم منهم حينا آخر.

والمبشرون فى الأسواق - كما فى كل زمان ومكان - أطول باعاً وأشد تمكنا وأرسخ قدماً من أندادهم المحليين «إن صح التعبير» لأهمية مناسباتها وكثرة عدد شهودها وكثافة حضورها ممن اعتنقوا المسيحية قبل ظهور الإسلام تأثير نصارى نجران الذين سكنوا بلاد العرب وأرسلوا دعاتهم إلى الأسواق والمواسم التى كان يجتمع فيها العرب للتجارة وغيرها.

وجاء عن أولئك الدعاة أنه كانوا يقصون على الناس حالات البعث والحساب والجنة والنار ويدعون إلى التنكر للدنيا وملذاتها وإلى النظر إلى الكون والاستفادة من تقلباته وأحداثه»[١٠٥].

إذن حتم على هندوز التجربة أن تشير على «**إمام الأولين والآخرين**» بضرورة إلفها ووجوب ملازمتها وحتمية اللزوق بها مع استحضار الوعى الكامل لما يقال جميعه واليقظة التامة لكل خطبة والانتباه البالغ لأى محاورة أو منافرة أو مجادلة حتى لا تفوته شاردة ولا واردة ثم برمجته جميعا فى الذاكرة المدهشة ليخرج وقت الحوجة إليه ويصير مدداً إبان الاقتضاء إليه وعونا ساعة العوزة له وسندا عند طلبه ووجوه أخرى للفائدة أو إن شئت الدقة للفوائد:

إن يصبح جماعها كنزاً ثميناً وبحرا زاخراً ومحصولاً وفيرا أغلى من الجوهر والذهب عندما تحين بعد سنوات معدودة ساعة الإملاء ووقت الكتابة وزمن التدوين.

● ● ●

ذكر فى وقت متقدم أن معطيات دواوين السيرة المحمدية التى هى أطيب رائحة من مسك تبت[١٠٦]. عن الحقبة الخبيئة والتى حددناها منذ أن صارت السيدة خديجة بعلاً لـ«**الشاهد الداعى**» حتى رؤياه الملاك فى مغارة الجبل «حرى» وهو نائم «المعطيات» شحيحة ونادرة ومتناثرة هنا وهناك.

وكدأبنا فى كل ما نكتب نحرص أشد الحرص على التوثيق تمسكاً بالمصداقية واحتراما لعقلية القارئ المثقف الواعى الذى يفرق بين الغث

والسمين والردىء والجيد والرخيص والثمين فنحن نطرح الخبر وفى ذيله دليل ثبوته أما الرأى فلا يحتاج إليه.

وقدمنا منذ قليل البرهان على اختلاط «محمود» بأهل مكة وجاء هذه المرة من أوثق المصادر وأجلها قدراً وأصدقها قيلا وهو القرآن الكريم عندما أخبرنا أنهم تعجبوا لمشيه فى الأسواق بعد تناوله الطعام.

● ● ●

أما الأمر بالنسبة لحضور «**أحمد**» الأسواق الموسمية التى ذكرناها فهو أكثر وعورة والحجة القوية التى تؤيده هى ما جاء فى كتب التراث من مقابلته لقس بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ وإنصاته لخطبته وبداهة حفظه إياها «وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال رجل منهم: «يبدو والله تعالى أعلم أنه رأى محمداً فى عكاظ يستمع إلى قس. أ.هـ» هل تعرف قس بن ساعدة فقال رسول الله ﷺ: ليس هو منكم هذا رجل من إياد تحنف فى الجاهلية فوافى عكاظ والناس مجتمعون فيعلمهم بكلامه الذى حفظ عنه»[١٠٧].

هذا الخبر ينقل إلينا أن «**المعصوم من الناس**» ذاته هو الذى تحدث عن قس ابن ساعدة وخطبه فى سوق عكاظ واستماع الناس إليه وحفظهم إياه ومن الطبيعى أنه واحد منهم:

«قس بن ساعدة الإيادى من شخصيات ما قبل الإسلام «يسمون هذه الفترة الجاهلية» من الحنفاء أو المتحنفين الذين رفضوا عبادة الأصنام وبحثوا عن دين إبراهيم وقيل إنه اعتنق النصرانية وكان يخطب فى الأسواق مثل عكاظ خطباً بليغة يدعو فيها إلى التوحيد وثبت أن محمداً سمع عدداً منها...»[١٠٨].

إنما حتى هذه اللحظة ما قدمناه لا يبلغ إلا إلى مرتبة القرينة البسيطة لا إلى الدليل القاطع بيد أن الأصفهانى صاحب الأغانى يهدى إلينا هذا الخبر.

«عن ابن عباس قال: لما قدم وفد إياد على النبى ﷺ قال ما فعل قس بن ساعدة. قالوا: مات يا رسول الله. قال: كأنى انظر إليه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام ما أجدنى أحفظه فقال رجل: أنا أحفظه يا رسول الله. قال: كيف يقول. قال: سمعته يقول: أيها الناس اسمعوا وعوا.... إلخ. فقال النبى: يرحم الله قسا إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده»[١٠٩].

ولا يغض من قيمة ما رددناه عن قوة ذاكرة «**خيرة قرابين الله**» قوله فى الخبر «ما أجدنى أحفظه» ذلك أنه مضى على إنصاته لتلك الخطبة أكثر من عشرين عاماً مرت فيها عليه أهوال وخطوب وشدائد وحروب، ولنتكئ على ما جاء بعجز الخبر من رجائه أن يبعث قس أمة وحده وما ذاك إلا بسبب أن ما وعاه أو استوعبه من خطب «قس» وقع فى نفسه «**لابس الصوف**» موقعاً طيباً.

● ● ●

نحن نعلم أن ابن الجوزى طعن فى صحة حديث قس لأن طرائقه ضعيفة فى نظره، ومع تقديرنا لابن الجوزى فإن كتب التراث عددت خطباً لابن ساعدة والطعن فيها جميعا بالبطلان أو الضعف فيه شطط ومغالاة لم يفلت منهما ابن الجوزى كما يعرف عنه علماء الحديث.

هذا من ناحية.

ومن أخرى فالجاحظ على ما عرف عنه من حرص على تحقيق الأخبار ونقدها لم يشك فى حديث قس وقد فضل قساً على خطباء العرب جميعا وجعل لإياد خصلة ليست لأحد من العرب «لأن رسول الله ﷺ» هو الذى روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمل بعكاظ وموعظته وهو الذى رواه لقريش والعرب وهو الذى عجب من حسنه(١١٠).

ونضيف أن الجاحظ ليس أديبًا مفلقًا ومن أعلام أدب العرب فحسب بل تضلع فى العلوم الإسلامية وهو أحد كبار فرقة المعتزلة ورأس شعبة منها سميت بـ«الجاحظية» فعندما يجزم ويؤكد ويصحح خبر لقاء «**المهاجر إلى يثرب**» بقس وسماع خطبه وروايته إياها لقريش وللعرب فلا يناقضه إلا شكس لجوج.

• • •

بهذا يغدو مشى «**من تنام عيناه ولا ينام قلبه**» فى عكاظ حقيقة تاريخية ومن ثم فمشيه فى غير عكاظ مثل مجنة وذى المجاز أمر طبيعى لأنه من غير المعقول أن يقتصر عليها دونهما ـ حقيقة أن عكاظ أشهر منهما لأنها أكثر وافادة بيد أنه ليس هذا مسوغاً لإغفالهما إذ ربما يضمان دعاة أفصح لساناً وأعمق ثقافة وعلينا أن نفرق بين كثافة الحضور فى السوق ونوعية المبشرين بالعقائد والخطباء والبلغاء والفصحاء والشعراء فقد يوجد منهم فى السوق التى هى أقل شهرة أو أضعف شاهداً ما لا يتوافر للأشهر والأكثف.

وهكذا فالشطر الأول من المرحلة الأولى أو المقطع الأول من التجربة الفاذة المدهشة وهو الاختلاط بأهل الأديان وسائر الملل والنحل والاستماع إليهم وحفظ كلامهم وخطبهم ومحاورتهم قامت الشواهد على صحته وجاء فى القرآن المجيد ما يسانده وفى مؤلفات السلف ما يؤازره ويعاضده.

إن إشارة الهندوز الدروب بضرورة البدء به أمر بديهى فضلاً عن أنه يدل على حنكتها وفراستها فإن حالة «**الصادق المصدوق**» فى فجر التجربة لا تصلح لها إلا هذه الجرعة الخفيفة الوزن السائغة الطعم وكأنى بسيدة قريش «بما فيهم بنو هاشم آنذاك ولندع جانباً ارتفاع أسهمهم بعد ظهور ـ المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض ـ وعلو شأنهم فيما بعد أ.هـ» تناديه من موقع الأم الرؤوم التى تكبره بربع قرن وتقول له:

اذهب يا أبا القاسم واختلط بأهلها والوافدين عليها وناقلهم الحديث

واستمع إليهم واحفظ عنهم واستوعب كلمهم خاصة أصحاب الأديان والملل والنحل مثل اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وافهم عقائدهم وحاورهم واستفسر منهم ولا تدع صغيرة أو كبيرة دون فقه وإدراك وتمحيص.

وعندما تشتد حمارة القيظ فى الهاجرة سوف تجدنى مهيأة فى انتظارك وقد أعددت لك طعاماً طيبًا.

فيسأل متعجبًا: ولكن ماذا عن البيع والشراء والمتاجرة؟

وقبل أن يكمل كلامه تقاطعه اطرح كل هذا وراء ظهرك ودبر أذنك ولا تفكر فيه البتة فسوف أكفيك مؤونته كله فإنك لم تخلق للصفق فى الأسواق بل لما هو أعظم منه وأجل شأناً وأسمى قدراً.. هيا يا حبيبى يا أبا القاسم(١١١).

● ● ●

وهذا يؤكد ما قلناه أنها هى هندوز التجربة وهو موضوعها وإذ إن الشىء بالشىء يذكر فإن «**نؤابة قريش**» بشر عشرة من أصحابه «ثلاثة منهم حاربوا بعضهم بعضاً حربًا ضروساً» بالجنة إنما لم يصف لهم بيوتهم فى الجنة كما وصف لسيدة نسون قريش بيتها الرائع فيها.

● ● ●

وبعد أن يسير شوطًا كبيراً فى الفصل الأول من فصول التجربة تتدرج به فى الشطر الآخر من ذات الفصل وهو مدارسته فيما سمع وحفظ واستوعب ومذاكرته فيما جمع فأوعى وتبسيط الصعب وحل المعقد وفك الملغز وتقريب البعيد وشرح المشكل وتفسير الغامض وتوضيح المتشابه... خاصة أن الأديان والعقائد والملل حوت كل منها الثر الغزير منها، حتى إنه يمكنك أن تقول بغير افتئات إنها تقوم على الإبهام وتبنى على المحير «بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الياء» وتأسس على الخارق للمألوف ولولا المروق عن السياق لوضعنا فى حجر القارئ العشرات من الأمثلة من الديانتين الساميتين الإبراهيميتين.

● ● ●

ونستأنف البحث:

نذكر بأننا ألمعنا إلى أن أم هند تمتعت بثقافة دينية ذات قدر معقول جاء متوافقًا لسد موجبات الشطر الآخر، هذا بمعنى أنه أتى كفيئا للإجابة على استفسارات واستيضاحات وتساؤلات «**سيد أهل الله**» ونأسف للتكرار إذ لابد أن نكرر أنه فى ذياك الوقت جاوز العشرين من عمره المبارك بما لا يزيد بحال من الأحوال عن ثلاثة أعوام فضلاً عن حداثة عهده بهذه المسائل التيولوجية العميقة ومن ثم فإن ما يطلب الرد عليه لا يرتفع عن مستوى ما حصلته هى من معارف دينية - ولا مشاحة أنها بلماحيتها وزكانتها نقهت ووعت وأدركت أنه «سيد ولد عدنان». بدأ يغوص رويداً رويداً فى أمواج التجربة ويستمرئ طرحها

وطفقت أسئلته تتعقد واستبياناته تتعمق واستيضاحاته تتشابك وهنا أيقنت أن ديك المرحلة الثانية أوشك على الصياح بأن فجرها على وشك البزوغ وأنه قاب قوسين أو أدنى من الطلوع.

• • •

العلاقة الحميمة التى ربطت بين الطاهرة خديجة والقس ورقة وقد شرحناها ودللنا عليها آنفًا أباحت لها أن تستعير الأبعاض والإصحاحات التى نقلها الأخير من اللسان العبرانى إلى لسان العرب من التوراة ومن إنجيل العبرانيين أو إنجيل متى قبل أن يفسده شاؤول أى بولس وتبعه. يضيق المجال عن حصر أو حتي ضرب الأمثال لمخاريق هذا البولس والخريقات التى أدخلها على الدين الذى جاء به ابن مريم فحوله من دين توحيدى خالص إلى عقيدة تثليث وجعل عيسى إلهاً يعبد فى الأرض فى حين أنه واحد من البطاركة أولى العزم مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم بشر، ومن أطرف الشعبذات التى روجها بولس فى الديانة العيسوية فكرة روح القدس أو الروح الأمين التى جعلها ترفرف دائما على اجتماعاته المبروكة بيد أنه لم يقل إن لها أجنحة[١١٢]. ويستمر فيذكر فى حين «أن الصدوقيين فى عهد المسيح لم يكونوا يؤمنون بالروح ولا بالملائكة إذ كانوا متشبثين بالدين العتيق»[١١٣].

وقد انضوت التوراة على قصص الخلق وأحدوثة[١١٤] آدم وحواء وإبليس والجنة والإغراء على الأكل من الشجرة المحرمة والطرد من الجنة والطوفان ونوح وسفينته المذهلة التى أنقذت نسل آدم من الفناء ثم إبراهيم وإسحق ويعقوب وخلفائهم الأكارم وقصصهم وأطروفاتهم.

أما البشارة الفاذة والمشهورة بالإنجيل فقد احتوت على الحمل الخارق لمريم والولادة العذراوية لها وكيف أنها ولدت ابنها عيسى ولم تفض وظلت بكراً والمعجزات والمخاريق المتنوعة التى تمت على يديه الميمونتين وصلبه وقيامته المدهشة من قبره ورفعه إلى السماء ثم ظهوره لتلاميذه أو حوارييه بتعبير القرآن الكريم.

• • •

فى ليالى مكة الطويلة وخاصة فى الشتاء والربيع تشمر أم هند عن ساعديها وتجلس إلى ابنها وزوجها «**الأمين**» تقرأ له على مهل وتطالع له بتؤدة صفحات من تلك الأبعاض والإصحاحات وتشرحها له بقدر ما تتسع ثقافتها الدينية التي حصلتها من المنبع والروافد الأخرى التى رفعنا الستار عنها فيما سلف وسنوردها فيما يأتى.

وتطلب منه أن يجد معها «يعنى يحفظها» كلها لا يترك منها شيئًا وتستقبل هى استيضاحاته وتربط له ما قرأته عليه مع ما ينقله لها مما وعاه متعلقاً

بذات الموضوع وما سمعه بخصوصه، كل هذا مع استمراره في المشى فى الأسواق والسماع والمحاورة لأن هذه شعيرة أساسية قنواتها متباينة ودائمة الفيض.

• • •

وإذا أشكل عليها أمر أو التبس عليها شأن أو أعجزتها مسألة هرعت إلى اليعسوب ورقة تستوضحه ليفسر لها ما أبهم ويبين لها ما غمض ويشرح ما خفى، إذن ابن نوفل هو المرجعية التي توضع على أعتاب بابها التساؤلات والاستفهامات والاستفسارات والاستبيانات... إلخ.

هو الذى ينهض بعبء الشروح والتفسيرات والكشوف والتأويلات إلخ، أى تتسع حلقة المذاكرة بانتقال خديجة و«أحمد» إلى بحر العلوم وكهف المعرفة نعنى ورقة بعد أن تقدم به العمر وأخذ بصره يخبو وفى داره تأسست مدرسة من أميز مدارس العلم الدينى التى عرفها تاريخ القرون الوسطى والتى غفل عنها مؤرخو هذا النوع من المدارس، بيد أنه من الآن فصاعداً سيكفرون عن خطئهم وينفحونها حقها من العناية والاهتمام.

• • •

فى تلك المدرسة أعطى اليعسوب خلاصة علمه وحشاشة معارفه وزبدة تحصيله إلى «**المعصوم**» بحضور الطاهرة واستمع إلى ملاحظاته وتساؤلاته واستبياناته فشرحها وأوضحها وكشف الستار عن غوامضها وأزاح الغمة عن معضلاتها وسلط الأضواء الكواشف على خوافيها.. وخديجة تنصت وتلاحظ وتشجع «**بطل التجربة**» على مزيد من التدقيق ومضاعفة التمحيص والإكثار من المراجعة وتدفعه إلى التعمق فى الحفر والانغماس فى التنقير والانهماك فى البحث.

لأنها بما قرأته قدر طاقتها أوسع مكنتها وحصلته حسب جهدها أيقنت أن «القادم المأمول» من باب الحتم واللازوم يتوجب أن يجىء مخزونه من الثقافة الدينية وفيراً فهى لاشك قرأت ما ترجمه ابن عمها من البشارة أو الإنجيل فعرفت ما لقيه ابن مريم من رؤساء الكهنة والفريسيين من سفالات ورذالات وتحديات وإحراجات ومن ثم نقهت أنه إذا لم يقف «**صفوة البادى والقار**» على أرض صلبة من المعارف الدينية فلن يصمد لمنازلات أحبار اليهود ومنافرات قساوسة النصارى فتنهار التجربة على رؤوس أصحابها هذا الثلاثى الباهر المبهر.

• • •

وقد صدق حدسها فقد وقف ـ فيما بعد ـ علماء بنى إسرائيل له بالمرصاد وسألوه عن أصحاب الكهف والرقيم وعن الروح... إلخ.

وتحققت فراستها فعندما جاء وفد نصارى نجران إليه فى يثرب فى عام الوفود وظلوا بضعة أيام ينازعونه ويحاورونه ويناقشونه وأثبت بجدارة منقطعة النظير أنه كفيئ لهم ولما أيقن عنادهم وتشبثهم بعقائدهم الفواسد طلب مباهلتهم فأصابهم الذعر وركبهم الخوف وشملهم الهلع فتراجعوا وخنسوا وتقهقروا.

فلولا الثقافة الدينية التى حصلها فى ذلك الزمن المضيىء لما استطاع أن يلقمهم حجراً ولما صار نداً لأحبار يهود الذين أكثروا من جداله فى يثرب بعد أن نزح إليها وعدن فيها(١١٥).

• • •

ولعله بعد أن كتب له الفلج على هؤلاء وأولئك ترحم علي الهندوز واليعسوب فلولاهما لما تم له شىء منه. إن هذا الجانب الممتاز من حياة أم هند يوضح لنا لماذا سمى عام وفاتها بـ«عام الحزن» وظلت ذكراها حية نابضة في عقله وقلبه ووجدانه ونفسه حتى آخر نفس من حياته المباركة لأنها لم تكتف بإسداء الفضل المادى «وهو إعفاؤه من الجرى وراء لقمة العيش وإطعامه الخمير وإلباسه الحرير» بل أضافت إليه جميلاً معنوياً يبزه ويفوقه.

إن المذاكرة مع خديجة ثم المدارسة والمراجعة مع ابن نوفل هما عماد الشطر الآخر من المقطع أو الباب الأول من التجربة ولا يعنى هذا التقليل بأى حال من الأحوال من الشطر الاستهلالى ونعنى به المشى فى الأسواق أو الاختلاط بالناس وخاصة أصحاب الأديان والعقائد فهو التوطئة والتمهيد والمدخل الذى ظل ممتداً ومستمراً حتى نام محمد فى مغارة حرى وظهر الملك له فى المنام وبعدها أعلنت خديجة أنه هو «**القادم المنتظر**».

• • •

شكل القس المرجعية المباشرة لسيدة نساء الدنيا وهى تنتقل بـ«**أكرم الخلق**» من شوط إلى شوط ومن مرحلة إلى أخرى فى مسيرة التجربة الفذة، ووجد إلى جانبه نفر من ذوى الثقافة الدينية يتفاوتون فى استيعابها أى ليسوا على درجة واحدة من التضلع منها.

يأتى فى مقدمهم بحيرى وهو الذى أشار على الطاهرة منذ سنوات طوال أن تنكح «**راكب الجمل**» ويبدو أنه فعله غب مقابلته إياه وهو فى أولى سفراته مع عمه عبد مناف وهو ما دلته عليه فراسته فيه من أمارات تشير إلى أنه القادم المأمول.

«بحيرى الراهب الذى توسم فى رسول الله ﷺ النبوة وهو مع عمه أبى طالب حين قدم الشام فى تجار من أهل مكة وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة فرأى الغمامة تظله بينهم فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم...

وذكر ابن عساكر أن بحيرى كان يسكن فى قرية يقال لها الكفر بينها وبين بصرى ستة أميال وهى التى يقال لها «دير بحيرى» قال ويقال: إنه كان يسكن قرية يقال لها ميفعة بالبلقاء وراء زيرا»[١١٦].

وقد رجحنا أن بحيرى هذا هو رأس الكنيسة النصرانية فى إقليم الحجاز.

• • •

« ... فإنى لا أقف نفس الموقف من حديث بحيرى الراهب ومن الجائز أن يكون قد رأى النبى إذا صح أنه سافر إلى الشام مع عمه أبى طالب وهو فى الثالثة عشرة من عمره أو فى تجارة خديجة مستقلاً عن عمه أبى طالب ولكن دوره معه إذا صح أنه قد التقى به لا يعدو أن يكون دور من يترقب له النبوة عندما وجد فيه بعض العلامات التى وصفته بها الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما»[١١٧].

هذا الباحث المعاصر يرجح لقاء بحيرى مع «**صاحب النعلين**» فى سفرته الأولى بصحبة عمه عبد مناف «أبى طالب» إلى الشام وأن مأمورية الراهب انحصرت فى تنبؤه بأنه القادم المنتظر ولنطرح جانباً ما ذهب إليه من تحجيم مهمة بحيرى إلى هذا الحد القمىء بيد أننا نلقى نظرة واسعة على الخبر عموماً: فما دام بحيرى تفرس فى «**صاحب المدرعة**» أنه المأمول الذى تشوق الناس لظهوره فيصبح ما رقمناه قبل الآن أنه مع ناصح عبدها أشارا عليها بأن تتخذه بعلاً له وجاهته إذ ما دام الأمر هكذا فحتم لازم عند بلوغه سن الزواج أن تنكحه كيما تغدو له أما رؤوماً ثم ما يأتى مصليًا «تاليًا» بعده مباشرة عملية التصنيع وطبعاً يتم كله بعين الله وحمايته وحراسته.

أما الخبر الآتى بعد فيشف عن علاقة أم هند ببحيرى الوطيدة:

«وذكر ابن دحية أيضا أنه ﷺ لما أخبرها «خديجة» بجبريل ولم تكن سمعت به قط كتبت إلى بحيرى الراهب فسألته عن جبريل فقال لها: قدوس قدوس يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعلى وابن عمى أخبرني بأنه يأتيه فقال إنه السفير بين الله وبين أنبيائه وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يسمى باسمه»[١١٨].

إذن بحيرى لم يوجد فى مكة على مقربة من الطاهرة عندما ظهر ملاك الرب فى النوم لـ«**النجم**» فى مغارة حرى وطلب منه أن يقرأ ... إلخ.

وإذا بها تكتب إليه «بحيرى» تخبره بأن الشجرة أثمرت، ونحن نسأل هل تكتب له عن هذا الأمر المدهش فجأة؟

إن العقل يرفضه ويحتم وجود فرشات[١١٩] سوابق له وهى أن بحيرى من المتابعين والموجهين لسيدة قريش وهى تغزل خيوط التجربة بحنكة وإحكام مع العزم الحديد والصبر الجميل.

ونلاحظ أنه ناداها بلقبها الذى يخاطبها به أهل مكة مما يقطع بمعاشه فى قرية التقديس وأنه يردح «يقيم» فيها شطراً من كل عام.

وفيما تقدم اتخذنا من كتابة أم هند لبحيرى قرينة قوية على إجادتها الكتابة والقراءة ولم نقل دليلاً قاطعاً لأن صاحب «فتح المبدى» أورد خبراً فيه «أنها ركبت إلى بحيرى بالشام فسألته عن جبريل ﷺ فقال لها: يا سيدة قريش أنى لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعلى وابن عمى أخبرنى أنه يأتيه.

وقال: ما علم به إلا نبى فإنه السفير بين أنبيائه وأن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى باسمه[١٣٠]. أن ركوبها إليه ينفحنا بمعطيات عديدة منها:

١. اهتمامها المفرط بنجاح التجربة حتى إنها تجشمت عناء الركوب إليه والسفر من بكة إلى الشام وسنها فى ذياك الوقت جاوزت الخامسة والخمسين بل إنها شارفت الستين وهى التي تعودت على العيشة الهنية.
٢. لهفتها الشديدة على معرفة التفسير الدينى الصحيح للرؤيا المنامية التى حدثت لبعلها الحبيب فى مغارة حرى.
٣. لم تذكر لنا كتب السيرة التى هى ألذ طعماً من عسل الموصل أن خديجة ولو مرة يتيمة سافرت مع قافلة قريش التى تملك نصفها لا إلى اليمن ولا إلى الشام ومع ذلك فإثر سماعها الرؤيا المنامية المدهشة التى حدثت فى المغارة لم تتردد فى أن ترقل[١٣١] وتسافر على عجل إلى بحيرى لتحيطه بها علماص ولكى تستوثق من فلج التجربة.

إذن هذه الأخيرة أهم لديها بما لا يقاس من تجارتها وأموالها.

وهذا الخبر أورده الزبيدى والشرقاوى وهما من هما ثم حققه الشيخ أحمد عمر هاشم وهو من ناحية متخصص فى علم الحديث المحمدى الشريف ومن أخرى فهو رئيس الجامعة التابعة للأزهر فلو أن الحديث معلول لكشف عن العلة فى التحقيق لكنه لم يفعل مما يقطع بصحته ويؤكد سلامته من الجرح وبراءته من العيوب وخلوه من العوار.

• • •

ونحن نقوله لأن د. حسين مؤنس وهو أستاذ تاريخ حاول أن يطعن فى خبر مشابه حول ركوب أم هند وسفرها لبحيرى ويوهنه ويحيطه بالريب ويلطخه بالشكوك مع أن مؤنسًا ليس ابن بجدتها فلا هو من علماء الحديث الشريف ولا حتى ممن يؤخذ برأيه فيه إنما قد تعودنا من الكتبة المحدثين خاصة من جوقة المداحين والمفخمين والمهللين والمعظمين مثل هذا الصنيع الأعوج والفعل الذميم والمسلك الردىء والمنحى الفسيد والاتجاه العطن وخلاصته أنه عندما يقف خبر أو أثر أو حديث حجر عثرة فى سبيلهم ولا يوائم كتاباتهم الإنشائية غير

الموضوعية يطعنون فيه بلا برهان ويعيبونه دون دليل ويهزلونه من «التهزيل» بغير حجة.

• • •

ثم نعود إلى سياقة التنقير:

إذن ثبت بأسانيد راسخة رسوخ الأجبل أن سيدة قريش كبيرها قبل صغيرها ركبت إلى بحيرى أو كتبت إليه واستبعدنا أن يأتى على غرة أو يتم فجأة بل بمقدمات أو تمهيدات.

ودلالته أنها على علاقة سابقة حميمة به وأنها دأبت على مدارسته أحوال التجربة ومذاكرتها معه والاستماع لنصحه والانتباه لإرشاده والإنصات لتوجيهه كيف لا وقد أشار عليها وكدت أكتب أمرها بنكاح محمد.

• • •

ولكن من هو بحيرى؟... هل كان بحيرى الذى مر ذكره راهباً نصرانيًا؟

إنه راهب نسطورى على مذهب أريوس ونسطور وكان ينكر لاهوت المسيح، وبدأ هذا التعريف بداية خاطئة إذ إن بحيرى ليس مسيحياً ولم يعتنق عقائدها بل هو نصرانى وبرهاننا على عواره أنه لا أريوس ولا نسطور اللذان يقال إن بحيرى هذا على مذهبهما من المسيحيين وأن بحيرى ولو صدق عليه وصف مسيحى لما أنكر لاهوت المسيح لأن أول ركن فى المسيحية الإيمان به بل اعتباره إلهاً، وإنكار لاهوت المسيح هو ما جاء به الذكر الحكيم بل حمل على القائلين بنقيضه حملة شعواء وسفه أحلام من يأخذون بهذه العقيدة الفسيدة.

• • •

«بحيرى أو نسطورا ونحوهما ممن صدق بأنه ﷺ نبى هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام لأنهما لم يدركا البعثة»[١٢٢].

صاحب السيرة الحلبية يؤكد أن بحيرى صدق بأن «الخاتم» هو القادم المأمول الذى طال انتظاره وهذا يعطى أدلة الثبوت على عدة أمور منها:

أولاً: أنه لإيمانه به وز الطاهرة أم هند أن تباعله ولا يقدح فيه أنه تم قبل الزواج بسنوات طويلة.

ثانياً: متابعته للتجربة التى بدأتها خديجة بعد أن نكحته إذ لا معنى لإيمانه بأنه «**القادم المنتظر**» ولا بإشارته لها بأن تغدو بعلاً له دون أن يعطى يدًا مؤثرة لإنجاح التجربة.

ثالثاً: أنه «بحيرى» له علم غزير بالكتاب ومن نافلة القول أن نرقم أنه قرأ فى التوراة والإنجيل أن أى قادم جديد لابد أن تسبق ظهوره فترة تأهيل وإعداد وهى التي سماها القرآن المجيد «التصنيع» على عين الله وأن هذا حدث مع البطاركة العظام مثل موسى وعيسى ومن ثم فإن «بحيرى» قد شارك بصورة أو

بأخرى فى التجربة المفردة بأن عاون خديجة الطاهرة أو الطاهرة خديجة بكل ما استطاع إليه سبيلاً من ضروب المعاضدة وأشكال المساعدة وأنواع المؤازرة.

● ● ●

سطرنا فى الفصول الأولى أن «سيرة الزهرى» مفقودة ويبدو أنه تفرد بذكر الأخبار الغريبة التى لم يؤيده فيها أحد كما أوضحناه فى أحدوثة إسرافيل الذى نسب إليه دون غيره من الرواة والإخباريين عملية تصنيع محمد كأنما استهول أن تنجز على أيدى بشر أى أناس عاديين وأنها كلما نسبت إلى قوة غيبية وكائن غير مرئى عظمت مكانة «**المتوكل**» مع أن عظمته ليست فى حاجة لهذا الدليل المنحول.

فى الخبر التالى يطلع علينا الزهرى فى سيرته بتوصيف مغاير لبحيرى فهو «حبر من يهود تيماء» وكل الشواهد تقطع بعدم صحة هذا الخبر وأنه راهب نصرانى.

● ● ●

السهيلى صاحب «الروض الأنف» الذى كشفنا عن مكانته بين كتب السيرة المحمدية التى يفغم «بفتح» طيبها سدة المزكوم فى الخبر نفسه ربط بين بحيرى والثالث المنتظر أى محمد وهو تعبير له دالته التى لا تخفى عن الفطن وإذ أنه وجد رباط فى النتيجة إذن لابد وحتماً من قرينة فى السبب نعنى التجربة الفاذة.

«فى قصة بحيرى وسفر أبى طالب بالنبى ﷺ وقع فى سير الزهرى أن بحيرى كان حبراً من يهود تيماء، وفى المسعودى: أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس، وفى المعارف لابن قتيبة قال: سمع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة: بحيرى ورباب بن البراء والثالث المنتظر فكان الثالث المنتظر رسول الله ﷺ»(١٢٣).

ما ذكره المسعودى أن بحيرى من عبد القيس ربما اقترب من الحقيقة أى أنه عربى وقبيلته تدخل فى زمرة قبائل الجزيرة العربية التى اعتنقت ديانة ابن مريم مما يهدى الفرض الذى قدمناه أنه تولى أبرشية الحجاز مزيداً من الصدق إذ سبق أن وثقنا خبرًا عن وجود قسُس لمضارب الخيام.

فكيف لا تعيّن الكنيسة الأم أسقفا لعموم الحجاز؟ ومن هو أكثر صلاحية لهذا المنصب من عربى؟ ومن هنا تصبح الألفة بينه وبين الطاهرة أكثر معقولية وأدنى إلى القبول وأشد سوغاً.

أما أن المسعودى ذكر أنه اسمه سرجيس فقد بينا فى ما تقدم أنه حدث اختلاف كثير فى هذا الشأن بل إن الأسماء فى مرحلة التاريخ الإسلامى المبكر امتازت بهذا الاختلاف الشديد ولنضرب مثلاً سريعاً باسم الصحابى المعروف

أبى ذر الغفارى(١٢٤).

• • •

عالم دين ثالث اتصلت به أم هند إبان اضطلاعها بأعباء التجربة الفريدة ولو أن علاقتها به وإن شئت دوره فيها يقل عن دورى القس والراهب، أى ورقة وبحيرى ونعنى به سرجيوس وهو راهب نصرانى تمرد على خريقات شاؤول أو بولس ومخاريقه وشعبذاته وإفساداته لدين ابن الصديقة، ومن ثمة جاء وصفه بالزنديق لأن شيعة المفسد للمسيحية نعنى شاؤول أو بولس تعطفت ولاحقت معارضيها بباقة من الألقاب البذيئة منها المارق والزنديق والهرطيق... إلخ.

«يقص تيوفانيس «طبعة كلاسن» وجورجيوس «طبعة بيكر» أنه بعد أن ارتجف محمد بعد ظهور جبريل له أول مرة ـ توجهت خديجة وقد استولى عليها قلق شديد إلى سرجيوس وكان راهباً زنديقًا منفيا فطمأنها بأن أكد أن «الملك» كان يرسل إلى كافة الأنبياء»(١٢٥).

وهناك احتمال لا نستبعده أن يصدق اسم سرجيوس على بحيرى ولعل ما يؤيده ما جاء فى خبر المسعودى «واسمه سرجيس» ويغدو ما جاء فى خبر الموسوعة الإسلامية قد تعلق ببحيرى.

• • •

أما آخر المعاونين وخاتم المعاضدين ونهاية المساعدين فهو الراهب عداس وله حضور متميز على صفحات كتب التراث، وأمر غريب أن تتجاهله المؤلفات الحديثة والمعاصرة فى السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحاً من مجمر المسك المخلوط بالعنبر ولا تذكر سوى لقائه بـ**«الإنسان الكامل»** فى الطائف بعد أن صده غطاريف ثقيف بعنف وأن هناك مسجداً فى الطائف يسمى «مسجد عداس» بنى فى مكان اللقاء المبرور، وتشيح «تلك المؤلفات» وتعرض بجانبها عن لقب حمله بجدارة وهو «الراهب» وقد سطرناه قبلا وفى ذيله سنده.

ولقد وقفت ملياً أمام هذه النقطة علىّ أجد لها تعليلاً مقبولاً.

هل إعراضها عنه ينفيه أو يرفعه أو ينسخه من كتب السلف الصالح؟

لعل فى نظرهم أن تسطيره فى كتبهم وإطلاع عامة القراء عليه سيلفت الأنظار ولو بدرجة واحدة أو يلقى بصيصًا من الضوء ولو نحيلاً على التجربة الفريدة وهم يؤمون «يقصدون» أن تظل فى الظلام وتبقى فى العتمة وتستمر فى الغبش أو أنهم ـ وهذا الراجح أو المؤكد أن التجربة لم تخطر لهم على بال ولم يتنبهوا إليها ومن ثم لم يدركوا أهمية سهم عداس فيها.

• • •

«وفى بعض الروايات أن خديجة قبل أن تذهب إلى ورقة ذهبت إلى عداس وكان نصرانياً من أهل نينوى: قرية سيدنا يونس ـ عليه السلام ـ فقالت له: يا

عـداس أذكـرك الله إلا مـا أخبـرتنى هل عندكم علم عن جبـريل - أى فـإن هذا الاسم لم يكن مـعروفاً بمكة ولا بغيـرها من بلاد العـرب - فـقـال عـداس: قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التى أهلها أهل أوثان؟ فقالت: أخبرنى بعلمك فيـه؟ قـال: هو أمين الله بينه وبين النبيين وهو صـاحب موسى وعيسى - عليهما السلام - ثم رأيت أن عداسًا المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبير السن قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له أنعم صباحاً يا عداس، فقال: كأن هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش، قالت: أجل. قال: ادنى منى فقد ثقل سمعى فدنت منه ثم قالت له: ما تقدم.

ففى كلام ابن دحية: عداس كان غلاماً لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى عنده علم من الكتاب فأرسلت إليه خديجة تسأله عن جبريل فقال: قدوس قدوس... الحديث»(١٢٦).

هذا الخبر ثرى فقد أجزل لنا العطاء فى دلالاته:

فهو يقطع بأن عداسًا راهب وعلى صلة وثقى بسيدة نساء قريش ونظراً لقدمه فى السن وسقوط حاجبيه على عينيه فقد عرفها من صوتها وناداها باللقب الذى يناديها به أهل مكة كلها وهو برهان على متانة العلاقة بينهما، وعلى كثرة ترددها عليه أو بالأقل تعدد مقابلاتها له ولو باستضافته فى دارها.

وإذ إنها أرقلت «هرعت» إليه فهذا يشى بقوة الوثاق بينهما إذ لو أنه واه لما جرؤت على مفاتحته فى أمر بلغ الذروة فى الخطر والقمة فى الأهمية وسنام السرية ونعنى الرؤيا المنامية لـ«**المنصور بالرعب مسيرة شهر**» فى مغارة حرى ودليل على ائتمانها إياه.

ونحن نرى أنه ما انفك يقوم بأعباء البديل أو القائم قام لأسقف الحجاز ومكة «بحيرى» فى حالة غيابه أو سفره خارجها ولا يقدح فيه أنه عبد أى مملوك لكل من عتبة وشيبة ولدى عتبة ابنى ربيعة إذ قرأنا فيما بعد أن نافعاً مولى ابن عباس بلغ من العلم شأواً جعل العديد من الجلة من التابعين يجلسون بين يديه يأخذون منه فقه ومسند الحبر.

«وفى رواية أن عداسًا قال لها: يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أمورًا خذى كتابى هذا فانطلقى به إلى صاحبك فإن كان مجنوناً فإنه سيذهب عنه وإن كان من الله فلن يضره فانطلقت بالكتاب معها فدخلت منزلها فإذا هى برسول الله ﷺ مع جبريل يقرؤه الآيات ﴿ن والقلم...﴾ فلما سمعت خديجة قراءته اهتزت فرحاً ثم قالت للنبى ﷺ: فداك أبى وأمى امض معى إلى عداس فلما رآه عداس كشف عن ظهره فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه فلما نظر عداس إليه خرّ ساجداً يقول: أنت والله النبى الذى بشر بك موسى وعيسى»(١٢٧).

من أراد حجة على تردد عداس على أم هند أو كثرة زياراتها هى إليه فليتمعن فى مطالعة هذا الأثر فسوف يلقاها بين سطوره فهنا عداس يعطيها كتابا لاختبار ذاك الذى يأتى «**الفائق**» أهو طائف من الجنة أم غيره؟

ولما وصلت دارها سمعت آيات سورة القلم تتلى بين جنباته ومعلوم أن «**أحمد**» قرأها على تبعه بعد سورتى ﴿اقرأ﴾ و﴿المدثر﴾ أى أنها تأخرت تسببًا مما يشف عن استمرار العلاقة بعد واقعة رؤيا المغارة وأثبتنا متانتها قبلها.

ومناولة عداس لها كتاباً فيه الشفاء لتنطلق به لصاحبها على حد عبارته لمعرفة ما إذا ألم به مس شيطانى أم لا دليل يرتفع بذاته دون حاجة إلى سواه على قوة العلاقة وأنها منفتحة على الجانب الدينى أو اللاهوتى تحديداً وأن الراهب عداسًا حريص على فلج أم هند فى عملية التصنيع التى تمارسها بعونه ومن سبق ذكرهم.

وأيضاً مضت «بمحمد» إليه فلما تثبت من أمارات مادية فيه قرأها فى أسفاره المقدسة بالإضافة إلى أنه بالقطع جرت محاورة بينهما عرف منها أحواله المعنوية فانحنى له تقديراً إذ ثبت فى يقينه أنه «المنتظر» وهو بهذا الصنيع يؤكد للطاهرة نجاحها بامتياز فى إدارة سكان سفينة التجربة الفذة بتمكن واقتدار حتى رست على شاطئ الفلج وميناء الفوز وبر الأمان.

• • •

ينكر د. هشام جعيط المعجزات التى حدثت لمحمد شأنه فيه شأن الكتبة المحدثين المعاصرين فيقول: «وقصة علامة النبوة بين كتفيه ونبوءة بحيرة الراهب وتظليله بالسحابة كل هذا مختلق ولا أساس له فى التاريخ إنما يدخل فى المخيال الدينى الشعبى الذى أخذ يتنامى فى آخر العهد الأموى»(١٢٨).

ومما يؤسف له أن هذا مجرد كلام وبعيد عن العلم والموضوعية ونفنده على وجه السرعة بالآتى:

١. من قال إن المخيال الدينى الشعبى أو غير الدينى مثل المخيال الشعبى الملحمى كسير أبى زيد الهلالى وعنتر بن شداد والأميرة ذات الهمة مختلق ولا أساس له؟ كل ما فى الأمر أنه لا يخلو من المبالغة لزوم الإبهار ولضرورات الحكى والقص.

٢. أى تاريخ هذا الذى استند إليه جعيط فى الاستعلاء على تنبؤ بحيرى وعلامة النبوة فى الكتف ولماذا لم يشر إلى المصادر التاريخة المعتبرة والمحترمة التى تقول بالاختلاق واللاأساسية وما رأيه فى المصادر التاريخية التى تحظى بكل الاحترام وبالغ التقدير التى تؤكدها، هل نقذفها فى المحيط ونأخذ باستكباراته هو ومن على شاكلته؟

وبالمناسبة شك هشام فى وجود موسى تاريخياً (ص١٢٤) ونحن لا نصادر حق

أى باحث فى وصف حادث تاريخى بالاختلاق والافتقار إلى الأساس ونفى وجود أى شخصية تاريخية ولكن بشرط أن يقدم أسانيده النقلية والعقلية معا أما إلقاء الكلام على عواهنه فهو لا يليق بباحث جاد رصين مثله.

٣. من المعلوم أن العهد الأموى بفرعيه السفيانى والمروانى ليس من صالحه تضخيم صورة «**المصطفى**» وأسطرتها فى المخيال الشعبى لأنهم لو فعلوا لزادوا إقناع المحكومين بأحقية بنى هاشم رهطه فى الحكم بدلاً منهم.

٤. اختلاق هذه المعجزات وأسطرتها فى زمن بنى أمية علاوة على سقوطه عقليًا فإنه باطل تاريخياً لأن من أوائل من كتب فى سيرة «خيرة ولد قصى» هو عروة بن الزبير بن العوام أخو عبدالله بن الزبير أحد أشد أعداء بنى أمية الذى انتزع منهم الخلافة فى الحجاز والعراق وغيرهما لمدة سبع سنوات كما أن عروة كاتب السيرة ولد قبل أن يغتصب بنو أمية الخلافة من أصحابها الشرعيين بنى هاشم.

• • •

وفى الخبر أن الطاهرة إثر سماعها «أكرم الخلق» يتلو آيات سورة ﴿ن والقلم﴾ اهتزت فرحاً، ونذكر القارئ أنها فى تلك اللحظة شارفت الستين مع رصانتها ورزانتها.. إلخ، ألا يدل هذا الفرح الاهتزازى أو الاهتزاز الفرح على شدة الحبور وعمق السرور وقوة الانبساط وعساه ينضوى على تفنيد مُفحم للذين يرددون كالببغاء دون أدنى تفكير ولا أقل مسكة من تدبر ولا ذرة من تعقل أن الطاهرة أول من آمن به وبعضهم يقول من الرجال والنسون والآخر يقدمها على النساء فحسب!

إن عجبى لا ينتهى من هؤلاء ومن المؤسف أن ينقلها الخلف عن السلف والمصلى عن المجلى واللاحق عن السابق الأمر الذى يقطع بأنهم طالعوا السيرة المحمدية التى هى أذكى رائحة من نفحات المسك الأصهب مطالعة خفيفة هوجاء.

• • •

والأخبار التى حملتها إلينا دواوين السيرة المحمدية المعطار تدلنا على استمرارية لقاء أم هند بعداس فبعد أن أخبرها «محمود» بمنامه المدهش في المغارة وهرولتها إلى عداس تسأله عنه إذا بها فور أن يخبرها باستعلاء جبريل إليه تسرع إليه «إلى عداس» مرة أخرى وتقص عليه الواقعة الجديدة.

«قال الزهرى: كانت أول من آمن بالله وقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه وانصرف إلى بيته وجعل لا يمر على شجر ولا صخرة إلا سلمت عليه فلما دخل على خديجة قال: أريتك الذى كنت أحدثك أنى رأيته فى المنام فإنه جبريل استعلن على أرسله إلى ربى، وأخبرنا بالوحى. فقالت: أبشر فوالله فلا يفعل

الله بك إلا خيراً فأقبل الذى جاءك من الله فإنه حق.

وانطلقت به إلى عداس غلام عتبة بن ربيعة نصرانيًا من أهل نينوى فقالت: أذكرك الله ألا ما أخبرتنى هل عندك علم بجبريل؟ فقال عداس: قدوس قدوس. قالت: أخبرنى بعلمك فيه. قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى - عليهما السلام - فرجعت من عنده إلى ورقة وذكر الحديث»(١٢٩).

إن الذى وضع تحت أبصارنا هذا الأثر الثمين هو الذهبى فى «السيرة النبوية» والذى شد انتباهى فيه أيضاً علاوة على توثيقه لمتانة الصلة بين الهندوز والمعاون أنها بعد أن سمعت منه «رجعت من عنده إلى ورقة» إلى اليعسوب، وهذا يقطع بأن أم هند أيام ذاك لم تهدأ ولم تكل بل فى حركة دائبة نشيطة رغم سنها ورفاهية عيشها ومكانتها الاجتماعية السامقة ولحرصها المضاعف على سرية الأمر لم ترسل مرسالاً من قبلها بل انطلقت بنفسها رغم ما فيه من مشقة.

ألا تقدم كل هذه الوقائع التى تفضلت بها علينا أمهات مؤلفات الأكابر فى سيرة «سعد الله» أدلة ثبوت قواطع على حدوث التجربة فعلاً وواقعاً وعلى قيادة سيدة قريش لحركتها؟

● ● ●

نظراً للأهمية الشديدة لإحكام الرباط بين كل من خديجة وعداس فإننا نستميح القارئ عذراً فى أن نعرض عليه فيما يلى ما جاء «بخلاف ما سبق» فى ثلاث من القمم الشوامخ التى تناولت سيرة «**الحبيب**» ونرجى التحليل التعقيبى أو التعقيب التحليلى فيما بعد:

«عن الواقدى عن نجيح أبى معشر عن محمد بن قيس: أن خديجة لما أتاها رسول الله ﷺ فأخبرها بما بدئ به جمعت عليها ثيابها وأتت ورقة فحدثته وقالت له: ما جبريل؟ فقال ورقة: سبحان الله القدوس جبريل ناموس الله الأكبر وسفيره إلى أنبيائه لئن كان صاحبك رأى هذه الرؤيا إنه لنبى لوددت أن يكون ذلك فأكون له وزيراً وابن عم، ثم خرجت فحدثت عداس غلام عتبة بن ربيعة وكان نصرانياً فقالت: يا عداس أخبرنى عن جبريل؟ فقال: قدوس قدوس وما ذكر جبريل فى البلد الذى أهله عبدة أوثان؟ جبريل ناموس الله الأكبر ولم يأت قط إلا إلى نبى، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بما قال الرجلان وبشرته بذلك»(١٣٠).

«ثم انطلقت من مكانها فأتت غلاماً لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له عداس فقالت له: يا عداس أذكرك بالله ألا ما أخبرتنى هل عندك علم عن جبريل. فقال: قدوس قدوس، ما شأن جبريل يذكر بهذا

الأرض التى أهلها أهل الأوثان. فقالت: أخبرنى بعلمك فيه؟ قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى - عليهما السلام - فرجعت من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فذكرت له ما كان من أمر النبى وما ألقاه جبريل فقال لها ورقة: يا بنية أخى.. ما أدرى لعل صاحبك النبى الذى ينتظر أهل الكتاب الذى يجدونه عندهم فى التوراة والإنجيل وأقسم بالله لئن كان إياه ثم أظهر دعواه وأنا حى لأبلين الله فى طاعة رسوله وحسن مؤازرته للصبر والنصر، فمات ورقة رحمه الله»(١٣١).

«ثم انطلقت حتى أتت غلاماً لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له «عداس» فقالت له: يا عداس أذكرك بالله ألا ما أخبرتنى هل عندكم علم من جبرئيل؟ فقال عداس: ما شأن جبرئيل يذكر بهذه الأرض التى أهلها أهل الأوثان؟ فقالت: أخبرنى بعلمك فيه؟ قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى، فرجعت خديجة من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فأخبرته فقال: لعل صاحبك النبى الذى ينتظره أهل الكتاب الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ثم أقسم بالله لئن ظهر دعاؤه وأنا حى لأبلين الله فى طاعة رسوله وحسن مؤازرته، فمات ورقة»(١٣٢).

لا يمارى أحد فى القيمة العلمية لهذه المؤلفات الثلاثة ولا أن الأمة تلقتها بالقبول ولم يطعن فيها طاعن ولا غض من مكانة مصنفيها فرد أما الطريقة الانتقائية التى يلجأ إليها جل الكتبة المحدثين والمعاصرين بعيدة عن الموضوعية بعد السماء عن الأرض، ونعنى بها أخذهم لبعض ما فيها إذا راق لهم وناسب طريقتهم التفخيمية ونبذ البعض الآخر لا طعناً فى الرواة أو السند إنما بسبب أنه يعارض منهجهم الفسيد ويناؤى منحاهم الباطل ويضاد مسلكهم المعوج.

إن البلاذرى وابن كثير والسيوطى شموس ساطعة فى سماء الفكر الإسلامى ينحنى لهم كبار رجال الدين الإسلامى المعاصرون إجلالاً فإذا اتخذناهم سنداً لنا فى تدعيم أفكارنا وآرائنا فيتعين على هؤلاء إذن أن يسلموا بها لأننا لم نتوكأ على مؤلفين مغمورين أو متهمين ببدعية أو مغموز فى دينهم وأخلاقهم.

فبالإضافة إلى ما قدمناه من مصادر تساميها فى الدرجة وتساويها فى الرتبة وتناظرها فى المكانة فإنها جمعاء تتضافر على القطع بانعقاد حلقة متينة ثلاثية الأطراف «القس - الراهب - الطاهرة» موضوع حلفها هو التجربة وما يقع فيها من وقائع وإصدار مشورتها بشأنها وأن مهندستها اجتازت الامتحان بكفاية عليا وأن نتاجها هو القادم المأمول «الذى ينتظره أهل الكتاب الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل».

نسأل الكتبة المحدثين والمعاصرين:

لماذا لم تسأل الطاهرة «نساءها» وعلى رأسهن نفيسة بنت منية التى لعبت

دوراً بارزاً فى صيرورتها بعلاً لـ«**صاحب التاج**» وأمينة سرها؟

أو إحدى زوجات أعمامه مثل فاطمة بنت أسد زوجة عبد مناف «أبى طالب» وهى فى ذات الوقت أم علىّ، أو أم الفضل زوجة العباس ابن عبدالمطلب وهما من لداتها فضلاً عن أن مستقبل «**الشاهد**» يهمهما؟

ولا نذهب بعيداً فلماذا لم تتجه إلى عمه وكافله عبد مناف «أبى طالب» أو إلى عميه الآخرين العباس وحمزة ولدى عبدالمطلب خاصة وأن الأخير حضر عقد القران والحفل الذى أعقبه؟[١٣٣].

الإجابة معروفة: لو أن الأمر عادى وليس خارقًا ولم تتكتمه مدة تقرب من عشرين عاماً لأغذت إليهم أو إلى أحدهم إغذاداً[١٣٤].

ولكن من المحال أن تفعل، وقد يرد معترض أن الشأن يخص مسألة دينية أو تيولوجية ولم يعرف عن هؤلاء رجال ونسون أى اهتمام بمثل هذه الشئون!

فنجيبه أن قرية القداسة آنذاك عجت باليهود والنصارى ولو أن الأخيرين أصحاب النصيب الأوفر فى الكثافة لا فيها وحدها بل فى أطرافها كما وضحناه فى حينه، ومنهم رهبان أطباء فى عدة نواح ومنهم من ربطته صلة بعلية القوم أو بالملأ القرشى كما سطرناه فى وقته فلم لم تهرع الطاهرة إليهم أو إلى نفر منهم أو إلى أحدهم وتستشيرهم فيما وقع لزوجها فى المغارة أو فيما بعدها أو فيما قبلها؟

نعتقد أننا لن نسمع رداً مقنعاً أو إحاطة شافية.

• • •

إذن الحقيقة التاريخية الموثقة أن هناك علاقة وطيدة ربطت بين الطاهرة والقس وبحيرى وعداس وإلى حد ما سرجيوس لأن ما جاء بشأنه من آثار قليل حتى يمكن التغاضى عنه دون أن يؤثر على التجربة أو يمس بها أدنى مساس، وأنها اقتصرت عليهم وأنهم أخفوها وأسدلوا عليها ستائر ثخينة كيما لا يتسرب خبرها إلى أحد خاصة وأن أعداء كثيرين وشرسين يقفون بالمرصاد وعلى استعداد لبذل كل مسعى وسلوك أى طريق ودفع أغلى ثمن لا لإجهاضها فحسب بل لتدميرها عن آخرها حتى لا يبقى لها أثر.

• • •

فرد واحد من غير هؤلاء أسندت إليه هندوز التجربة دوراً صغيراً حقيقة إنه لا يعدو ما يؤديه «كومبارس» فى شريط سينمائى أو مسرحية بيد أنه بكل المقاييس يعد مشاركة ولو أنها عجفاء هزيلة ضامرة ناحلة. إن السبب فى خروج الطاهرة عن قاعدة السرية ومبدأ التكتم والتزام الحذر يؤوب إلى أمرين: ثقتها فيه وحميمية الصلة التى ربطته ربما منذ أعوام بـ«**سيد ولد عدنان**» والفرد الذى نعنيه هو أبو بكر بن أبى قحافة وكنيته «عتيق» من تيم[١٣٥]. والأخبار التى

طالعتنا بها مصنفات السيرة المحمدية الأطيب رائحة من بنفسج الكوفة عن علاقة صاحبها بابن أبى قحافة تشى بمتانة الصلة بينهما:

«وأخرج البيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عن أبى ميسرة أن النبى ﷺ كان إذا برز سمع من يناديه يا محمد فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فأسر ذلك إلى أبى بكر وكان نديماً له فى الجاهلية.

وأخرج أبو نعيم من وجه آخر عن أبى ميسرة أن النبى ﷺ كان إذا برز سمع من يناديه يا محمد فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فأسر ذلك إلى أبى بكر وكان نديماً له فى الجاهلية وأخرج أبو نعيم بسند موصول عن بريدة مثله»(١٣٦).

فى الخبر أن «**صاحب السيف**» وعتيقا نديمان قبل الإسلام ومن ثم أسر إليه بالذى ما أنفك يسمعه من أصوات تناديه إذا جاوز العمران.

والسيوطى نقله عن البيهقى وعن أبى نعيم وثلاثتهم من الوزن الثقيل والمقام الطيب.

أما عن ثقة سيدة نسون قريش بابن أبى قحافة فإنها تتمثل فى مناداته بكنيته «عتيق» فإن من يفعلها يقدم القرينة على أنه رفع الكلفة بينه وبين من يخاطبه(١٣٧).

«فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ثم ذكرت له خديجة فقالت: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة»(١٣٨) وبقية الخبر أنه امتثل لأمر الطاهرة وأخذ بيد محمد «هكذا!» وانطلق به إلى ورقة بعد أن سأله: من أخبرك فأجاب: خديجة.

ولنرجع إلى قصة مغزى وهى أن المراحل التى تنقل فيها «الشهم» فى مسيرة التجربة وقصص أنبياء بنى إسرائيل التى دأبت الطاهرة وابن عمها القس يحكيانها له مترجمة عن التوراة ما انفكت تؤتى ثمارها المرجوة بأن تفرز إيحاءات متنوعة عليه منها سماع أصوات إذا أبعد وخلا دون أن يرى مصدرها، وقد عبر عنها مرة بـ«نداء» وثانية تخاطبه باسمه ففزع وخشى على نفسه إما من الجنون أو أنها مس من الشيطان فينطلق هارباً وكالعادة لا يجد ملجأ أو منجى إلا بين ذراعى الأم الرؤوم، وفى الحضن الدفىء للبعل الحبيب. خديجة فتهدئه وتنهنهه وتطمئنه وسنرى أن الفعل تكرر مرات عديدة وأهدته إيانا مصادر كثيرة بيد أن كل واحد منها يقص علينا رواية مغايرة مما يؤازرنا فيما نذهب إليه عن «تكرار الواقعة».

«عن ابن إسحق بسنده إلى أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداءً وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر. قالت: معاذ الله ليفعل ذلك به فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثم ذكرت خديجة له فقالت يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده وقال:

انطلق بنا إلى ورقة، فقال: من أخبرك؟ قال: خديجة.

فانطلقا إليه فقص عليه فقال: إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداءً من خلفى يا محمد يا محمد فانطلق هاربا فى الأرض، قال: لا تفعل إذا أتاك فأثبت حتي تسمع ما يقول لك ثم ائتنى فأخبرنى، فلما خلا ناداه يا محمد يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربي العالمين.. حتى بلغ ولا الضالين.. قل: لا إله إلا الله.

فأتى ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة: اثبت فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبى مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

فلما توفى ورقة قال رسول الله ﷺ: لقد رأيت القس فى الجنة وعليه ثياب من حرير إنه آمن بى وصدقنى - يعنى ورقة»(١٣٩).

فى هذا الأثر سمع **«خيرة بن هاشم»** نداءً ثم أضاف أنه تكرر بالاسم مرتين والمناسبة هى البعد عن الناس أو العزلة عنهم «إذا خلوت وحدى» وأن الذعر أصابه فوخد السير(١٤٠). إلى الطاهرة ليجد عندها الأمن والأمان.

وإن ابن أبى قحافة من المترددين على دارهم وأن أم هند نادته بكنيته بيد أنها أمرته بالذهاب مع محمد إلى ورقة ولا ننسى أنهم فى مجتمع ذكورى الهيمنة فيه للرجال مما يقطع بمكانتها السامية التى أتاحت لها أن تأمر الرجال فينصاعون على الفور لا على التراخى إذ ما إن يدخل «الضحّاك» حتى يأخذ بيده ويهرول به إلى القس.

وإن ورقة هو يعسوب التجربة الذى تعوذ به عند كل حدث فيسمع منه ويطلب إليه أن يثبت ولا يهرب لأن «القادمين» وخاصة من يؤهلون لتأسيس ديانة جديدة لا يزوغون.

وهذه الواقعة تعلقت بها سورة فاتحة الكتاب وهى بإجماع لاحقة لسورة ﴿اقرأ﴾ وإن جاء ترتيبها فى المصحف الشريف أنها المجلية أو السابقة أو المتقدمة.

وإنه امتثل لما أشار به القس وثبت وسمع ما قاله الصوت وإن لم يعين مصدره ولما انتهى من قصه كرر القس شهادته له بأنه الذى بشر به ابن مريم.. إلخ.

وقد أوردها البلاذرى بكلمات مشابهة أو مطابقة ووثق تعلقها بسورة الفاتحة(١٤١)، ومثله صنع ابن كثير(١٤٢).

● ● ●

إنما صاحب السيرة الشامية يحدد مصدر الصوت ويذكر أنه جبريل، إنما لم يذكر أن حواراً دار بينهما بل مجرد تعريف من ملاك الرب بنفسه.

وفيه أيضاً: أمرت سيدة قريش كلها أبا بكر «هذه المرة خاطبته باسمه لا بكنيته» بالتوجه مع محمد إلى ورقة.. الذى أمره بالثبات أى عدم الهروب ففعل ولكن لبرهة يسيرة بقدر السلام عليكم، ثم هرع إلى أمه الحنون ونظراً لما تمتعت به من ثقافة دينية جيدة فقد أدركت على الفور أن الذي خاطبه كائن خير لأن الأشرار لا يعرفون السلام.

«فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل فإنه رجل يقرأ الكتب فيذكر ما يسمع فانطلقا إليه فقصا عليه فقال:

إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى: يا محمد أنا جبريل فانطلق هارباً، فقال ورقة: سبوح وما لجبريل يذكر فى هذه الأرض التى يعبد فيها الأوثان، جبريل أمين الله بينه وبين رسله، لا تفعل فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى.

فخرج ذات ليلة فسمع: السلام عليكم. قال: فظنها فجأة الجن فجاء مسرعاً حتى دخل على خديجة فقالت: ما شأنك فأخبرها، فقالت: أبشر فإن السلام خير»(١٤٣).

وواضح من ثنايا الخبر أنه يحكى عن حادث مغاير لما سبق وأن اللجوء إلي اليعسوب مستمر ومتكرر مما يثبت صورته كمرجعية لا غنى عنها.

أما السيوطى: فإن الأثر الذى نفحنا به فى خصائصه الكبرى جمع بين تعليم الصوت الخفى «راكب الأتان» للركن الأول فى الإسلام ونعنى به الشهادة وبين قراءة فاتحة الكتاب معا بعد أن شدد عليه القس على ضرورة الثبات، وأنه لما نقل إليه الحدث شهد أنه المأمول المنتظر الذي بشر به ابن مريم ـ كما علم من مطالعاته فى التوراة والإنجيل ـ وعندما تمضى سنوات عديدة نسمع «المصطفى» يحدث أنه بشرى عيسى.

وصحبه أبو بكر بأمر صارم من سيدة نسون قريش كما حدث فى الكرات السوابق.

– فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه وقالت له: اذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا فقصا عليه، فقال: إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً فى الأرض، فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى.

فلما خلا ناداه قال: يا محمد قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين، ثم قال: قل لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم وإنك على مثل ناموس موسى وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركنى ذلك

لأجاهدن معك.

فلما توفى ورقة قال رسول الله ﷺ: لقد رأيت القس عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى - يعني ورقة»(١٤٤).

• • •

هذا هو الدور اليتيم الضعيف الذي اضطلع به ابن أبى قحافة فى التجربة ولا نعرف له سواه.

الآثار التى طرحناها فى هذه الخصوصية أطلعت القارئ على مقطع مهم فى التجربة وهو مرجعية اليعسوب الأكيدة والتى لا غنى عنها لا من ناحية الطاهرة ولا من جانب **صاحب المرعة** وزادت فى قناعته «القارئ» بصدق ما ذهبنا إليه والذى آزرناه بمصادر تقف على أرض صلبة.

• • •

«حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(١٤٥).

هذا الحديث فى نظرنا يعلن بداية مرحلة جديدة وهامة من مراحل التجربة العظيمة ورغم أنه يكفى لصحة وروده فى صحيح البخارى فإن دواوين السنة المحمدية العوالى وثقته وعلى رأسها صحيح مسلم وهو المصلى «التالى» للبخارى فى مجموعة الصحاح الستة.

«حديث عروة بن الزبير عن عائشة: أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة.. أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه، وأحمد فى مسنده والبخارى ومسلم فى صحيحيهما وابن جرير الطبرى وغيرهم فى سند متصل»(١٤٦).

ويؤكد لنا السيوطى فى الخصائص الكبرى أن الشيخين أخرجاه فى صحيحيهما والشيخان فى نطاق علم الحديث هما البخارى ومسلم، أما الشيخان فى التاريخ الباكر للإسلام فهما التيمى أبو بكر بن أبى قحافة والعدوى عمر بن الخطاب - أخرج الشيخان «عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

«أخرج أبو نعيم عن على بن الحسن قال: إن أول ما أتى رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئًا فى المنام إلا كان كما يرى»(١٤٧).

وأهدانا السيوطى مصدراً آخر هو أبو نعيم صاحب حلية الأولياء وأن راويه على بن الحسن ونرجح أنه من العترة الطاهرة آل البيت عليهم أزكى السلام.

• • •

مؤلفات السيرة المحمدية الزكية كما المسك الفائح نستطيع أن نؤكد أنها أجمعت على صحة الخبر الذى جاء على لسان التيمية عائشة بنت أبى بكر:

١. «السيرة النبوية» لابن إسحق، ص ١٩١، من المجلد الأول، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق.

٢. «السيرة النبوية» لابن هشام، الأول، ص ٢٣٤ سابق.

٣. «السيرة الحلبية» الجزء الأول، ص ٣٧٧، سابق.

٤. «السيرة الشامية» الجزء الثانى، ص ٣٠٨ سابق.

٥. «مولد النبى ﷺ» للبرزنجى، ص ١٣ سابق.

٦. «السمط الثمين» للمحب الطبرى، الأول، ص ٤١ سابق.

٧. «السيرة النبوية» لابن كثير، الأول، ص ٤١ سابق.

٨. «إمتاع الأسماع بما للنبى ﷺ من الأبناء والحفدة والمتاع» للمقريزى، الأول ص ٣٨ سابق.

٩. «السيرة النبوية» لأبى الفداء إسماعيل بن كثير، الأول، ص ٣٨٥ سابق.

وفى مضمار المراجع ونعنى الكتب الحديثة فى السيرة المعطرة:

١. «تهذيب سيرة ابن هشام» الأول، ص ٥٨، لعبد السلام هارون، سابق.

٢. «خديجة أم المؤمنين» لعبد المنعم محمد عمر، ص ٩١، سابق.

٣. «خلاصة السيرة النبوية وحقيقة الدعوة الإسلامية» تأليف السيد محمد.

٤. «خاتم النبيين ﷺ» لمحمد أبو زهرة، الأول، ص ٣٠٣ سابق.

٥. «فقه السيرة» لمحمد الغزالى، ص ٩٢، سابق.

٦. «سيرة النبى محمد» تأليف كارين آرمسترونج ترجمة د. فاطمة نصره، د.محمد عنانى، ص ١٣١، ١٩٩٨م كتاب «سطور» الأول.

ولكنها تضيف الآتى:

– وفيما بعد كان يتلقى الرؤى إلى جانب الجبل وكان أيضا فى كل مرة يسرع إلى خديجة راجياً إياها أن تحتضنه وتدثره فى عباءته(١٤٨).

• • •

لقد عمدنا إلى هذا التوثيق الشديد الذى ربما يرى فيه البعض مبالغة لأهمية مرحلة «الرؤيا» لأن موضوعها شديد التركيب والتعقيد إذ له جذور فى العقائد القديمة وله أصل فى الديانتين الساميتن الإبراهيميتين السابقتين على ظهور الإسلام، كما أن الفلاسفة والمتصوفة وأهل الشريعة لهم فيه نظريات وقدم علم النفس فى دائرته إضافات ثرة عميقة. وجماعها من الحتم اللازم لا نقول الإحاطة به بل على الأقل الإلمام به.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن «الرؤيا الصادقة أو الصالحة» هى التي أدت بالتدرج إلى الرؤيا التى أخبر **«الصادق المصدوق»** أنه رأى فيها بمغارة حرى الملاك أو جبريل أو الكائن العلوى الذى أمره بأن يقرأ فقرأ، وأفرزت طاعته له أو استجابته للأمر افتتاحية لأخطر ما أنتجته أو ولدته التجربة وعليه بصفة رئيسة تمحورت الديانة التى أسسها محمد، فإذا عد هو من مؤسسى الديانات الكبرى مثل إبراهيم وموسى وعيسى وكونفوشيوس ومانى وبوذا فإن الكتاب الذى بدأه بسورة ﴿اقرأ﴾ يعد من أعظم الكتب التى خلفها المؤسسون الأكابر والبطارقة الأماثل المذكورون.

و«رؤيا» مغارة حرى اعتبرتها سيدة نسون قريش إعلاناً على نجاح التجربة بدرجة امتياز وأنه قد آن لها الأوان أن تهدأ بالاً وتستقر نفساً وتستريح خاطرًا وتتأكد أنه القادم أو المنتظر أو المأمول من «العرب» وقد غدا حقيقة بعد أن ظل سنوات حلماً وطيفًا.

• • •

أما أن ما حدث فى المغارة مع ملاك الرب أو جبريل أو الشخص أو الكائن العلوى فهو مجرد «رؤيا» فهذه حقيقة مؤكدة جاءت بها المصادر العوالى فى سيرة **«سيد الناس وديان العرب»** ولا شأن لنا بالمعارضين الذين يناوئون دون دليل أو حجة أو بالتجاهل أو لىّ أعناق النصوص أو بالتعليل المضحك أنها وقعت فى المنام مرة ثم فى اليقظة كأنما الحضرة الإلهية انحصر اهتمامها فى مغارة حرى ولديها من الفراغ ما يسمح لها أن تكرر الحدث مرتين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وسوف نقدم الأدلة الدوامغ فى الفاصلة القادمة الخاصة بـ«الخلوة» على صحة ما نذهب إليه.

بيد أنها وهى «رؤيا» فقد تحتم علينا هنا أن نعرج عليها ونمسها ولو مسا رقيقا. ثم كالعادة نعود إلى سياقة البحث.

• • •

يلزم فى البدى أن نورد تعريف «الرؤيا» كما سطره أصحاب كتب المفردات والتعريفات والمعاجم:

١. «الرؤيا ما يرى فى المنام وهو فعلى»(١٤٩).

٢. «رأيته بعينى رؤية ورأيته رأى العين ورأيته فى المنام رؤيا»(١٥٠).

٣. «الرؤية المشاهدة بالبصر حيث كان أى فى الدنيا والآخرة»(١٥١).

٤. «ورؤية العين معاينتها للشىء ـ يقال رؤية العين ـ ورأى فى منامه رؤيا على فعلى غير منصرف لألف التأنيث»(١٥٢).

فى هذه التعريفات نلغى تركيزًا شديداً على أنها «=الرؤيا» مجالها المنام فى

حين أن «الرؤية» مضمارها اليقظة والتها العين أو البصر.

أمـا الأولى «الرؤيا» فـإذ إن الشـخص نائم فـإن بصـره مـعطل ومن ثم فـإن إدراكها يتم بالمخيلة ولهذه العلة «يرى المعتزلة أن الأحلام أصغاث وأوهام»[١٥٣].

والمعتزلة هم فرسان العقل فى كتائب الفكر الإسلامى.

وباحث حديث ذهب إلى أوعر مما قرره المعتزلة إذ أنكر بجرأة فكرية نادرة المثال أن «الرؤيا الصادقة» جزء أو مقدمة أو إرهاص للنبوة لأنها تقع للفاسق والخمير والمدنس وناقص الأهلية فكيف يصح فى حكم العقل أن واحداً منهم يحوز على شطر من النبوة لأن الرؤيا الصادقة أو الصالحة فى رأى الفكر الإسلامى جزء من ستة وأربعين أو سبعين من النبوة «ولكن هذا الحكم الإسلامى شرعى بحت إذ الرؤيا الصادقة تقع للكافر وكذلك للفاسق أو السكير وغير الطاهر والطفل من المسلمين فتكون صادقة أحيانا ولكنها فى هذه الأحوال لا تكون جزءًا من النبوة»[١٥٤].

أما أن الإسلاميين يرون أنها جزء من النبوة فهذا لا مشاحة فيه.

«كانت الرؤيا ستة أشهر ومدة النبوة ثلاثاً وعشرين سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا.. فى رواية أنها جزء من سبعين جزءًا - لاحظ أن السبعين عشرة أضعاف السبعة أ.هـ - وذكر الحافظ ابن حجر أن أصح الروايات مطلقا رواية ستة وأربعين ويليها رواية أنها جزء من سبعين جزءًا.. فعلم أن الرؤيا المذكورة جزء من مطلق النبوة»[١٥٥].

يبين من هذا الخبر وجود حديث محمدى عنه له روايات عديدة أصحها فى تقدير الحافظ ابن حجر العسقلانى صاحب الفتح أنها جزء من ستة وأربعين فعندما يتصدى الدكتور توفيق الطويل أحد أساتذة الفلسفة فى مصر والذى أقام له المجلس الأعلى للثقافة ندوة خاصة وأصدر له كتاباً تذكارياً - نقول عندما يتصدى فينكر اعتبار الرؤيا الصادقة جزءًا من النبوة فإما أنه لم تثبت لديه صحة الحديث أو أنه يرفض أى حديث ينسب إلى **«راكب الأتان»** إذا تناقض مع العقل لأنه «لا ينطق عن الهوى» ومجافاة المنطق ومخالفة العقل ومنافاة الإدراك السليم تدخل جميعها فى دائرة النطق بالهوى الذى عصمه الذكر الحكيم منه.

• • •

وعند أهل الكتاب نجد أن معنى «الرؤيا» قريب جداً من الذى أمه «قصده» الإسلاميون:

«رؤيا وجمعها رؤى وفيها يرى النبى ما لا يراه غيره من إعلانات الله عن ذاته ويسمع ما لا يسمعه غيره من أقواله بطريقة الإلهام المعصومة - أن الله لا يمكن أن يعرف إلا بإعلان منه وقد سر الله أن يعلن أفكاره سواء فى الحلم أو

فى منظر «رؤيا» عندما يكون النبى تحت تأثير روح الله لما كان صموئيل صبيًا صغيراً أعلنت له كلمة الله فى وقت لم تكن رؤيا كثيرة - وقد رأى دانيال النبى رؤى كثيرة وكذلك غيره من الأنبياء.

وفى المستقبل عندما ينسكب الروح القدس سيتنبأ بنوهم وبناتهم ويرى شبابهم رؤى سفر الرؤيا فى العهد الجديد هو سلسلة رؤى»(١٥٦).

ولا غرابة فى الأمر فإن النبوة فى الإسلام سارت على منوال النبوات اليهودية - المسيحية واتخذت «النسق الدينى» وفاصلت «النسق الميثولوجى» الذى سارت عليه نبوءات عرب ما قبل الإسلام.

وإذ إن مسار حركة «النسق الدينى» تهبط من أعلى إلى أسفل أو من الله إلى الإنسان فتعين أن تغدو «الرؤيا» إحدى الوسائل المهمة فى نقل رسالة الأعلى إلى الأسفل ولذا نجد للرؤى مكاناً فسيحاً لدى أنبياء بنى إسرائيل وسنأتى بمثل أو اثنين.

• • •

«يبدو أن فعالية الإنسان هى البنية الجوهرية التى تبلورت حولها طرق التنبؤ عند العرب مما يؤكد أن نبوءات عرب ما قبل الإسلام تنتمى إلى نبوءات «النسق الميثولوجى» الذى تتأسس فيه النبوءة على «مبادرة إنسانية خالصة» يكون «الرد الإلهى» جوابًا مباشرًا عليها، ولذا كان ضرورياً أن تتناقض «نبوة الإسلام» مع نبوءات «النسق الميثولوجى» إذ تنتمى «نبوة الإسلام» إلى ما أسميناه نبوءات النسق الدينى الذى تتخذ فيه النبوة مساراً لحركتها يتجه - على عكس «النسق الميثولوجى» - من الأعلى «الله» إلى الأسفل «الإنسان» أو بعبارة أخرى تتأسس فيها النبوات على مبادرة «إلهية خالصة» دون طلب مباشر من الإنسان»(١٥٧).

لم يقدم صاحب كتاب النبوة تعليلاً لسياحة النبوة العربية فى مجرى النبوة اليهودية المسيحية بل اكتفى بالتوصيف ولعله وقف حائراً ينبش عن السبب الخبىء الكامن وراء مفاصلة النبوة العربية نبوات عرب ما قبل الإسلام(١٥٨) بيد أننا على ثقة أنه بعد أن يقرأ مؤلفنا هذا سيعثر عليه وربما يضيفه إلى مصنفه إذا قرر أن يطبعه مرة أخرى.

• • •

من بين الرؤى التى رآها «**الأكرم**» آنذاك والتى لها دلالتها العميقة وهى فى ذات الوقت تعاضد على فهم الشروح التى سنطرحها بعد قليل: رؤيا شق بطنه.

«عن ابن عبدالله بن أبى بكر بن عمرو بن حزام قال: كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى فى المنام فشق ذلك عليه فذكر ذلك لصاحبته خديجة رضى الله عنها بنت خويلد فقالت: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً قال فذكر لها أنه رأى بطنه أخرج فطهر وغسل ثم أعيد كما كان. قالت: هذا خير فأبشر -

أخرجه الدولابى»(159).

هذا المصدر من علوم القرآن من أمهات كتب التفسير.

وإذ أخبرنا القمى النيسابورى صاحب الغرائب أن الشق حدث للبطن فإن السيوطى فى «الزهر» جاءنا بموضع مغاير وهو القلب وأنه غسل من ماء زمزم البئر المقدسة التى حفرها جده عبدالمطلب والتى كاد أبوه «عبدالله» أن يدفع حياته ثمناً لها وفاء لنذر الجد وليس هذا فحسب بل أضاف: نفحه الخاتم الذى يوثق أنه القادم المنتظر وأنه مسك ختامهم.

«قال الحافظ ابن حجر وهو أثبت من القولين الأولين: وفى حديث عائشة عند الطيالسى وابن أبى أسامة وأبى نعيم فى الدلائل:

أن جبريل وميكائيل لما نزلا إليه عند المبعث هبط جبريل فألصقانى بحلاوة الفقا ثم شق على قلبى فاستخرجه ثم غسله فى طشت من ذهب بماء زمزم ثم أعاده مكانه ثم ألقانى وختم فى ظهرى حتى وجدت مس الخاتم فى قلبى وقال: اقرأ»(160).

وروى الزهرى عن عروة عن عائشة بنت التيمى ابن أبى قحافة ومن وجهة أخرى رواها كل من البيهقى وصاحب الحلية أبو نعيم عن عروة أيضاً أى أن للحديث راوية فرد هو عروة إنما بطريقين نقلها إلينا أعلام فى ميدان الحديث المحمدى وقد جمعه السيوطى وأورده على الوجه التالى:

«ثم خرج البيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عن عروة بن الزبير نحو هذه القصة وفى أولها بعد فشق عليه ورأى أنه بينما هو فى مكة أتى إلى سقف بيته شبحة «عوداً عوداً» حتى إذا نزع أدخل فيه سلم من فضة نزل إليه رجلان قال رسول الله ﷺ: فأردت أن أستغيث فمنعت الكلام فقعد أحدهما إلى رأسى والآخر إلى جنبى فأدخل أحدهما يده فى جنبى فنزع ضلعين منه فأدخل يده فى جوفى وأنا أجد بردها فأخرج قلبى فوضعه على كفة فقال لصاحبه: نعم القلب قلب رجل صالح ثم أدخل القلب مكانه ورد الضلعين ثم ارتفعا ورفعا سلمهما فاستيقظت فإذا السقف مكانه هو فذكرها لخديجة فقالت: إن الله لن يفعل بك إلا خيراً.. ثم إن جبريل فجر عيناً من ماء فتوضأ ومحمد ﷺ ينظر إليه فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين ثم نضح فرجه وسجد سجدتين مواجهة البيت ففعل محمد كما رأى جبريل يفعل»(161).

وأخرجه أبو نعيم من وجه ثالث عن الزهرى عن عروة عن عائشة.

وفى الثقافة التى هيمنت أيام **«صاحب النعلين»** يستقر العلم والفكر والحفظ والفقه فى القلب أو الصدر ومن ثم نقرأ فى الذكر الحكيم: ﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ** ﴾(162).

وعن الصدر: ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ (163).

هذه الرؤيا المعجبة أوردناها بأكثر من رواية كيما تغدو المنطلق الذى نبدأ منه تعليل حدوث «الرؤيا» أو «الرؤى» بالجمع لـ**سيد ولد عدنان**» وهذا يستلزم لفتة خاطفة إلى الخلف وهى أن التجربة بدأت بالمشى فى الأسواق ثم بالمدارسة بسائر ضروبها من قراءة عليه وتحفيظ وشرح وتفسير.. إلخ، جماع كله شكل شحنة بالغة الكثافة فى نفسه وطفق بعد أن أدرك غاية المسعى وهدف التجربة وقصد المجهود، ولسنا بحاجة أن نذكر أنه عبقرى فطن لماح جعلته يتوق أن يصبح واحداً من أولئك الرجال الذين أحاط خبراً بحكاياتهم.

وإذ إن الأمر يحتاج للوصول إلى الملأ الأعلى والكائن الأسمى فلابد وبطريق الحتم واللزوم أن يصير الجسم حصراً وتحديداً الأعضاء أو الأوعية التى تتلقى فيوضانه وإشراقاته مهيأة لاستقبالها فمن الضرورى غسلها وتطهيرها وحبذا لو تم بماء مقدس. هذه الطلبة العارمة التى ملأت عليه أقطار نفسه وحنايا عقله وجوانب قلبه وبواطن وجدانه يقول لنا علم النفس إنها تتحول إلى حلم أى رؤيا.

«تسمى نظرية فرويد بنظرية «الحافز النفسى» وهى بهذا الاعتبار تقابل نظرية «الحافز النفسى» التى ألمحنا إليها من قبل وهو يحصر نظريته بكلمتين حيث يقول بأن الحلم ليس سوى «تحقيق رغبة».. جعل «تحقيق الرغبة الأساس التى تقوم عليها الأحلام»(١٦٤).

أما أدلر تلميذ فرويد فينضم إلى أستاذه فى أن غرض الحلم الرئيسى هو أن يحقق النائم وهو وسنان ما يشتهيه بقوة فى اليقظة بيد أنه بذا يفاصل أدلر أستاذه فى الغرض «يعنى هدف التحقيق» ويذكر أنه التعالى والسيطرة.

«ويفسر أدلر الأحلام فى ضوء ما جاء به من نظرية الشعور بالنقص فالأحلام فى رأيه ليست سوى تحقيق لما كان الإنسان يشتهيه أثناء يقظته من التعالى والسيطرة»(١٦٥).

• • •

ولكن ما هو دور الهندوز واليعسوب فى هذه المرحلة؟

لا نظن أن الإجابة على هذا السؤال فى حاجة إلى فطانة كبيرة فهما اللذان يتوليان وخاصة خديجة ملازمته وإعداده وحفزه ودفعه وتشويفه وتشويقه كيما يتشكل إلى «المنتظر» و«المأمول».

• • •

ابن خلدون سبق فرويد وأدلر وخطا خطوة أوسع وهى أن الإنسان المتشوف أو المتمنى لا يجىء موقفه سلبياً حتى تتحقق الرؤيا بل قبل أن يضع جنبه على السرير ليضطجع عليه أن يشحن بطاريته النفسية بالفكرة التى يحن إليها ويرجوها ويؤكد ابن خلدون أنه سيراها فى نعاسه.

«يقول ابن خلدون: إن الإنسان إذا أعد نفسه قبيل النوم إعداداً نفسيًا فى سبيل فكرة فإنه سيرى تلك الفكرة فى منامه ويستفيد منها...

فهو يعتقد أن النفس البشرية إذا تشوفت إلى شىء قبيل نومها وقع لها فى المنام ما كانت متشوفة إليه»(١٦٦).

فما بالكم إذا انضم إلى الشخص المتشوف اثنان من اللزيقين به أحدهما يظل معه حتى يأوى إلى فراشه ويستمر فى تعبئته حتى يداعب الكرى جفنيه الشريفين.

• • •

يتهادى سؤال مهم:

ما أهمية ذياك العمل «الشحن والتعبئة والحفز... إلخ» بالنسبة لأم هند بالدرجة الأولى ثم للقس فى المقام المصلى «التالى»؟

لأنهما - بما لهما من علم بثقافة أهل الكتاب - فإن «**الحميد**» سيرى فى البداية رؤى تمهيدية مثل شق البطن أو القلب أو الصدر ثم تتدرج حتى تظهر على شاشة مخيلته وهو وسنان رؤيا الإعلان أو التدشين.

«وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا وطلبت المعين إذا به شبه إنسان واقف قبالتى وسمعت صوت إنسان بين أولادى فنادى وقال: يا جبريل فهم هذا الرجل الرؤيا فجاء إلى حيث وقفت، وقال أما الكبش الذى رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادى وفارس والتيس العافى ملك اليونان»(١٦٧).

الإسرائيليون ليسوا هم الذين ابتدعوا تلك الفكرة بل نقشوها أو اقتبسوها كما فعلوا فى الكثير من العقائد والعبادات إما من قدماء المصريين أو من الديانات السامية العتيقة وأخصها البابلية والآشورية، وتلك الفكرة بالذات جاءت إليهم من الأخيرين فيما نرجحه:

«أما البابليون فقد اعتقدوا «أن الإله يكشف عن نفسه فى الحلم» معلناً إرادة السماء وكاشفاً المستقبل».

فى هامش الصفحة: ومن هنا اتسم التنبؤ فى إطار المدن بطابع شخصى جعله يقوم أساسًا على الأحلام - وهكذا التنبؤ مرآة عصره - أو كما قال هيجل عن الفلسفة - وليد عصره»(١٦٨).

• • •

ويرى د. توفيق الطويل أن المفكرين المسلمين توصلوا إلى فكرة أن الحلم أو الرؤيا تتحقق عندما ينام الشخص وتفكيره مستغرق فى موضوع معين وصرفه عن استخدام حواسه ففى هذه الحالة تقوى مخيلته وتنشط فى القيام بمهام وظيفتها فتطبع عليها صور ومعانى الموضوع الذى استحوذ عليه وهو يقظان.

«وإذا كان المفكرون المسلمون قد أنكروا على أرسطو رفضه للرؤيا وصدقه

فإنهم قد تأثروا برأيه فى المرئيات الغيبية بوصفها أحلاماً من صنع المخيلة وهذا ما أخذه عنه الكندى الذى رأى أن المخيلة كقوة تتوسط القوة الحساسة والقوة الناطقة أداة تحصل بها المرئيات من غير مادة أى فى غيبة موضوعاتها عن الحواس لأن المخيلة على عكس الحواس تقوى على تركيب الصور وبخاصة عندما تنشط أثناء النوم ودليل ذلك أن الإنسان كلما استوعبه التفكير فى موضوع ما وصرفه عن استخدام حواسه قويت مخيلته وصارت أنشط فى أداء وظيفتها وما النفس إلا طابع الصور التى تركبها المخيلة ومحل معانى الأشياء معقولة أو محسوسة»[١٦٩].

• • •

تأثر محمد تأثراً عميقاً إذن بما قرئ عليه بمعرفة الطاهرة من الإصحاحات والأبعاض التى ترجمها ورقة إلى اللغة العربية وما حصله قبلها وهو يجوب الأسواق من قصص أنبياء بنى إسرائيل والرائين جمع «راءٍ» «من رؤى : جمع رؤيا بالألف» وما يسمعونه من أصوات مثل أشعيا وعاموس:

«والرائي: كان النبى قديماً يقال له «الرائى» لأن الله أعطاه أن يرى الحوادث مقدماً قبل أن تحدث وهذا ما قيل أيضا فى إش ٣٠:١٠ أن الإسرائيليين المتمردين قالوا للرائين: لا تروا ولم يروا شيئًا»[١٧٠].

«اسمعى أيتها السموات وأصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم»[١٧١].

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة»[١٧٢].

فهنا سمع أشعيا صوتاً اعتقد أنه كلام الرب فنقله بدوره إلى بنى إسرائيل. ومثله عاموس «فقال إن الرب يزمجر من صهيون ويعطى صوته من أورشليم...»[١٧٣].

«اسمعوا هذا القول الذى تكلم به الرب عليكم يا بنى إسرائيل على كل القبيلة التى أصعدتها من أرض مصر... إلخ»[١٧٤].

وجدير بالذكر أن هذا العاموس راعى غنم وهو يفتخر بعُمالته هذه «فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل»[١٧٥].

ونكتفى لأننا لسنا بصدد بحث فى علم الأديان المقارن.

• • •

هذه القصص المعجبة التى سمعها «**المصطفى**» سواء فى أسواق مكة أو التجمعات الموسمية أو فى جلسات القراءة فى لياليها الطويلة أو فى حلقات المدارسة والمراجعة على يدى اليعسوب، تركت فى نفسه ووجدانه أخاديد عميقة وأصبح على اقتناع بأن «القادمين» و«المنتظرين» بفتح الظاء و«المأمول مجيئهم» لابد أن يسمعوا أصواتاً يقولون عنها آتية من الملأ الأعلى.

وإذ استمر جميعه بلا كلل ومن غير ملل ودون نصب سنين عدداً وأعواماً طوالاً تسربت الفكرة إلى الأعماق وتغلغلت فى الغور وهو ما سوف يحدث مع الخطوة القادمة ونعنى بالفكرة: الرؤى التى بدأت بأصوات يسمعها تماماً مثلما حدث مع أشعيا وعاموس وغيرهما من بنى إسرائيل. فيحق للمنتظر العربى أن يؤكد لمن يتحلقون حوله أنه يسمع أصواتاً ويرى أضواءً معها فى بعض الأوقات، إنما لم يحل زمان البوح بمصدرها أو لأن «أحمد» أمين فلم ينسبها لشخص معين أو جهة مخصوصة.

- «أخرج أحمد وابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال لخديجة: إنى أسمع صوتاً وأرى ضوءًا، فذكرت ذلك لورقة قال: هذا ناموس موسى فإن يبعث وأنا حى فسأعزره وأنصره وأعينه»(١٧٦).

هذا المقطع بمقدورنا أن نسميه «فترة الصوت والضوء» فقد نقل إلينا ابن سعد فى كبرى طبقاته أخبارها من روايتين الأولى عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام أى ابن أخت التيمية عائشة بنت ابن أبى قحافة وهى من أكثر زوجاته رواية لأحاديثه.

والأخرى عن طريق حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن العباس(١٧٧).

«عن هشام بن عروة أن رسول الله ﷺ قال: يا خديجة إنى أرى ضوءًا وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناء فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله إنك تصدق الحديث...

عن ابن عباس: أن النبى ﷺ قال: يا خديجة إنى أسمع صوتاً وأرى ضوءًا وإنى أخشى أن يكون بى جنن.

فقالت: لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبدالله.

ثم أتت ورقة فذكرت له ذلك فقال إن يك صادقاً فهذا ناموس موسى فإن يبعث وأنا حى فسأعزره وأنصره وأؤمن به»(١٧٨).

• • •

وفى عجز الخبر أن الطاهرة بعدما سمعت من المكى رؤيته للصوت والضوء وأنه خاف على نفسه وظن أنه ألم به جنن أو سيتحول إلى كاهن من كهان الوثنية لاذ بالطاهرة الملجأ الوحيد لها فهدأت روعه وطمأنته أن ربه لن يسمح بأى شر يمسه لأنه يصل الرحم ويصدق الحديث.. ثم اندفعت إلى اليعسوب تستخلص منه المشورة.

«زملته فانجاب عنه كل شىء ودعته فثاب إليه هدأه كى يسمعها تقول له: والله ما يخزيك الله أبداً فأخذ يبثها هواجسه الباقية فى نفسه ويقول: إنى أرى ضوءًا وأسمع صوتاً وإنى لأخشى أن أكون كاهناً فنفت عنه هذا الخوف. قالت: كلا يا ابن عم لا تقل ذلك.. إن الله لا يفعل ذلك أبداً إنك لتصل... إلخ»(١٧٩).

• • •

طلع علينا صاحب «السيرة الحلبية» بأثر فيه إشكال ملخصه أن «الحبيب» ما انفك يرى الضوء ويسمع الصوت وهو يقظان وليس نائمًا، مما يشى بأن غيره من الآثار يفهم منه أنهما يتمان فى النوم وبرجوعنا إلى الأخبار التى مسحت هذا المقطع من مقاطع التجربة الهائلة لم نجد ما يفهم منه على الإطلاق حدوثهما وهو وسنان.

وفى أثر صاحب السيرة الحلبية لفتة تقدم دليلاً على تمكن الطاهرة من الثقافة الدينية بقدر لم يتح لكثير من رجال زمنها فهى ربطت بين حسن الخلق وبين الانعتاق من أسر الشيطان والوقوع فى حبائله وشباكه.

وقد جاء هذا المعنى فيما بعد فى القرآن العظيم: ﴿ **وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ (١٨٠)، والعكس صحيح أى من لا يتابع الشيطان لا يقارف الفحشاء ولا يقترب من المنكر وهو عين ما قالته الطاهرة قبل سنوات: «إن خلقك كريم فلا يكون للشيطان عليك سبيل».

كما أنه يقطع بأن دروس أم هند انحفرت فى ذاكرة «**سيد ولد آدم**» وأنها ظلت كامنة فيها فإذا أتيحت لها فرصة مرقت من مخبئها.

- «جاء عن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إذا خلوت سمعت نداءً أن «يا محمد» وفى رواية: أرى نوراً أى يقظة لا مناماً وأسمع صوتاً وقد حسبت أن يكون والله لهذا أمر. فقالت: كلا يا بن عم ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث، وفى رواية أن خلقك لكريم أى فلا يكون للشيطان عليك سبيل»(١٨١).

• • •

ويؤكد صاحب السيرة الشامية أيضاً ثقافة سيدة نسون قريش بالربط بين الخلق واستحالة قرب الشيطان أى أن من يجىء مسلكه حميداً وشمائله طيبة وأفعاله زكية لا يستطيع الشيطان أن يقترب منه أو يمسه بسوء جن أو غيره.

«روى البيهقى عن الزهرى قال: بلغنا أن أول ما رأى رسول الله ﷺ أن الله أراه فشق ذلك عليه ذكرها لخديجة فقالت: أبشر إن الله لا يصنع بك إلا خيراً، وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: يا خديجة إنى أرى ضوءًا وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً. قالت: إن الله تعالى لا يفعل ذلك بك، إنك تصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتصل الرحم»(١٨٢).

أورد باحث معاصر أن الضوء يأتى «المصطفى» فى نومه ولم يكشف لنا عن مصدره وسبق أن رقمنا ملاحظات على كتاباته وكيف أنها اتسمت بالخفة وعدم التثبت كما يفعل كثير من أنداده من الكتبة المحدثين وخلط هنا بين «النور الباهر» والرؤى «جمع رؤيا» التى أخذ «**راكب الأتان**» يراها كفلق الصبح قبل رؤياه «المنامية» فى المغارة وهو ما جاء على لسان التيمية بنت ابن أبى قحافة أم

عبدالله فى الحديث الذى رواه البخارى فى «باب بدء الوحى» وهو خلط غير محمود من جانبه أنتج اللبس لديه فى شأن رؤية الضوء وسماع الصوت وهل هما فى اليقظة أم فى المنام.

ولم يكتف الخربوطلى بذلك بل حدد مدة الصوت والضوء بأنها عشرة شهور تقدمت المنام الذى رآه **«صاحب الهراوة»** فى مغارة حرى والخاص بسورة العلق ولا ندرى كيف توصل الكاتب إلى هذا التحديد الدقيق وما هى أسانيده فيه، إنما ثمة ـ لمحة سطرها دون قصد ـ تحسب له لا عليه ـ هى أن كل المراحل: سماع الصوت ورؤية الضوء ثم الرؤى التى تتحقق كأنها انفجار الصباح شكلت إرهاصات لرؤيا مغارة حرى التى رآها وهو مستغرق فى نوم عميق وهى التى اهتزت فرحاً السيدة خديجة غب علمها بخبرها لأنه دشنت نجاح التجربة.

أضاف الخربوطلى أن جماعها خطوات تهيئة له بيد أنه عزاها إلى ربه وسبق أن ألمعنا أن التجربة يمارسها بشر من الناس «بنى آدم» والرب هو الذى يرعاها ويبارك خطاها ويكلأها بعنايته ويحفظها برعايته:

«طيلة العشرة شهور التى تقدمت الوحى كان يتخلل نومى نور باهر يشبه فلق الصبح وكنت حينما أبتعد عن الديار أسمع أصواتاً تنادى: يا محمد يا محمد فكنت أنظر يمنة ويسرة ومن خلف فلا أرى إلا شجيرات وصخورا فيأخذنى القلق والحيرة.

إننى ما أبغضت شيئًا بغضى للكهان والسحرة وقد خشيت أن أكون قد أصبحت على غير علم منى واحداً منهم فيكون الذى ينادينى خفياً مستوراً تابعاً من الجن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء ويساعدونهم على القيام بمهنتهم الآثمة...

أسر الرسول ﷺ بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى وأنه يخاف عبث الجن به فطمأنته الزوجة المخلصة الوفية وجعلت تحدثه بأنه الأمين وأن الجن لا يمكن أن يقترب. وإن لم يدر بخاطرها أن الله عز وجل يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم وإلى النبأ العظيم يوم الوحى الأول ويهيئه إلى البعث والرسالة»[١٨٣].

• • •

أما ابن عباس ونحن ننقله عن ابن الجوزى فيؤكد أن رؤية الضوء والنور استمرت سبع سنين ونميل بدورنا إلى صحته إذ فى الأعوام السبعة استمرت حلقات الدرس والتحفيظ والمراجعة بالإضافة إلى الاختلاط بأهل الكتاب وغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى وتخزين جماعة من الذاكرة العبقرية لتخرجه بياناً رائعاً وقت اللزوم.

وقبل أن نغادر هذه النقطة نلفت الانتباه إلى أن تحديد المدة بسبعة أعوام

يعود لقداسة هذا الرقم فى الديانتين الساميتين نقشًا عن الديانات السامية القديمة.

• • •

أما الإمام الخازن فهو يختار لها عامين قبل منام المغارة وثلاثاً بعدها قبل أن يصدع بدعوته أى أن مجموعها من الأعوام خمسة.

ونحن لا يعنينا التحديد الدقيق للمدة إنما الذى يهمنا وضعه تحت باصرة القارئ الفطن أن مرحلة الضوء والصوت مقدمة لمرحلة الرؤى «فى جمع رؤيا» وهما معا تقليد دينى راسخ لدى بنى إسرائيل وأن «الأمين المأمون» سمع بهما من أهل الكتاب الذين ماسّهم فى دكاكين مكة، وفى الأسواق الخارجية الموسمية ثم تعلم دقائقهما فى حلقات الدرس والمراجعة وأن إيحاءها كلها كثيف حتى أخبر الهندوز أنه أصبح صاحب أصوات وأضواء «هنا حتم لازم أن نذكر القارئ بأشعيا وعاموس» ثم لا يمضى إلا زمن يسير فيبلغها أنه ترقى إلى أصحاب الرؤى المدهشة مثل دانيال كما سنسطر بعد قليل:

«ويروى ابن الجوزى عن ابن عباس قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة سبعاً يرى الضوء والنور ويسمع الصوت وثمانى سنين يوحى إليه.

وقال الخازن: وهذا إن صح فيحمل على سنتين قبل النبوة فيما كان رسول الله ﷺ يراه من تباشير النبوة وثلاث سنين بعد النبوة قبل إظهار الدعوة وعشر سنين معلناً بالدعوى بمكة»(١٨٤).

• • •

يتفق المفكرون المسلمون «القدامى» فى اعتقادهم فى صدق الرؤى، وأنها تتراءى للقادم أو المنتظر أو المأمول وإن اختلف فى تفسيرها أهل الشريعة وأهل الحقيقة والفلاسفة ونحن لسنا بصدد استقصاء اختلافاتهم بل الذى يهمنا أنهم على اجتماع بضرورة ترئيها للقادمين:

«ولكن الأغلبية من المفكرين المسلمين هم الذين يعتقدون فى صدق الرؤى وعلاقتها بالوحى والنبوة والولاية، سواء أكانوا رجال شرع أم متصوفين أو حتى فلاسفة، وعلى رأسهم الكندى الذى فسر الرؤيا الصادقة بصفاء النفس وبعدها عن الأغراض التى تفسد قبول قواها، وقد شاع هذا التعبير بين الصوفية ورجال الشرع بصفة خاصة ويتفق كل من الفارابى وابن سينا وابن رشد فى الرأى القائل بأن الوحى والرؤيا يحدثان عند اتصال النفوس الناطقة بعالم علوى فوق عالمنا فيحدث لها إشراقات على حقائق الكون المنبثة فى العالم العلوى، وهذا الاتصال ممكن عن طريق المخيلة التى تقوى فى النوم إلى درجة تتمكن فيها عند بعض ذوى المواهب الروحية من الاتصال بالعقل الفعال الخالى من المادة فتأخذ عنه ما يفيض عليها من عالم الغيب»(١٨٥).

من المعلوم أن مغارة حرى التى تقع فى قُلة جبل حراء تتسم بالقداسة التى تستمدها منه إذ هو واحد من أجبل الحرم.

والحجة طرحناها فيما سلف حينما رقمنا أن الجد شيبة الحمد أو عبدالمطلب ومن حذا حذوه طفقوا يتحنثون فى مغارته فى شهر رمضان من كل عام ولولا قداسته لما اختاروه لتحنثهم.

ويخبرنا علماء الأنثروبولوجيا الدينية والاجتماع الدينى أن النوم فى الأماكن المقدسة أو التى تحظى بقدر من التقديس ينفح النائم فيما رؤى لها صلة وتقى بالمسائل التيولوجية ونذكر القارئ بواقعتين:

الأولى: رؤيا الجد شيبة الحمد أو عبدالمطلب بحفر بئر زمزم وهو نائم فى رحاب الكعبة وأنها تكررت.

الأخرى: رؤيا الإسراء والمعراج التى سوف يراها «**سيد الناس**» ففى إحدى رواياتها أنها أتته وهو نائم بجوار الكعبة.

وهذه الرؤيا الفاذة هى التى ألهمت عدداً من المبدعين منهم أبو العلاء المعرى فى «رسالة الغفران» والشاعر الإيطالى العظيم دانتى اليجيرى فى «الكوميديا الإلهية»(١٨٦).

ومن جانب آخر نتعرف فيها على تأييد لما ذهب إليه عدد من علماء النفس والفلاسفة أن الحلم تعويض للنعسان عما لاقاه من إخفاق فى بعض أيام حياته إذ إن «**راكب البغلة**» رأى الإسراء والمعراج بعد وفاة الحبيبة الطاهرة الأم الرؤوم وموت الكافل والحامى والعم عبد مناف أو أبى طالب وعقب أن صده طواغيت ثقيف بجلافة وبداوة عندما نزح إلى الطائف يدعوهم إلى ديانة الإسلام التى بدأ فى تأسيسها فى بكة.

ونضيف من جانبنا أن من بين أهداف تلك السفرة علاوة أيضًا: مقابلة الراهب عداس آخر الأحياء من أعضاء الحلقة الخارجية واستشارته أو الاتفاق معه على ما يتخذ من خطوات بعد وفاة خديجة(١٨٧).

• • •

النوم فى حمى الأماكن المقدسة لجلب رؤى لها نكهة ثيولوجية أو للتواصل مع الملأ الأعلى أو لتحسس اتجاهات السماء أو معرفة الأمور المغيبة تقليد قديم اهتدت إليه العقائد والأديان القديمة فى العديد من بلاد المعمورة.

«وبالمعروف عن حكام اسبارطة أنهم كانوا يتعمدون النوم فى معبد معين لكى يتلقوا أثناء نومهم فيه أنباء الغيب»(١٨٨).

ومما يجلب الرؤى بالإضافة إلى ما ألمعنا إليه إقدام النائم على الصيام أو على الأقل التخفف من الطعام والتجافى عن الأكلات الشهية والاقتصار على الوجبات الخشنة الجشبة:

«فى تلك الأيام أنا دانيال كنت نائمًا ثلاثة أسابيع أيام لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع أيام وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول كنت على جانب النهر العظيم هو دجلة رفعت عينى ونظرت فإذا برجل... إلخ»[١٨٩].

وهذا يكشف لنا الغطاء عن العلة فى اختيار سيدة قريش «الكعك بالزيت» وهو كما أورد أحد الشراح: طعام الرهبان ليغدو طعام «لابس الشملة» إبان دفعه للخلوة فى المغارة وهى الخطوة التالية لحقبة الرؤى بما فيها فاصلة «الصوت والضوء» أى مقدمها وإذ إن الشىء بالشىء يذكر وهو ما يطلق عليه تداعى الأفكار فلقد تعلمت ألا أمر على واقعة أو خبر أو أثر أو حدث فى السيرة المحمدية المعطار مروراً عابرًا مهما بلغ حجمه.

فالقارئ العادى من المؤكد أنه يقرأ خبر إمداد الطاهرة **لسيد بنى هاشم** بالكعك الملتوت بالزيت دون أن يشد انتباهه أو يلفت نظره أو يدير بصيرته فلا يتساءل لماذا اقتصرت سيدة نساء الدنيا على هذا الصنف الفقير من الإدام[١٩٠].

مع أنه من الميسور عليها أن توفر له الأكل الدسم.

عندما وقعت على هذه الجزئية البالغة الصغر أخذت أفكر فيها عدة مرات خاصة وقد ساعدنى الشارح الذى وصفه بأنه «طعام الرهبان» ففطنت إلى أن الذى يملأ معدته من الطعم المرىء الشهى اللذيذ لا تتراءى له فى نومته الرؤى المنشودة فى هذا المقام وهو ذات ما أدركته الطاهرة من ثقافتها الدينية ومن قراءة سير البطارقة والتراث اليهودى ـ المسيحى.

• • •

الفرقة الوحيدة فى سماء الفكر الإسلامى التى ذهبت إلى أن الأحلام ما هى إلا أضغاث وأوهام: هى المعتزلة[١٩١].

«ويرى بعض المتصوفة أن النوم يقظة واليقظة نوم، فالنفس البشرية مشغولة أثناء اليقظة بصور المحسوسات وهموم البدن وهى عندئذ نائمة لا تفهم سوى ما يأتى به الحس من أوهام وأباطيل أما فى النوم فينجلى عن بصرها الغشاء وتحلق فى سماء طليقة لا يشغلها شاغل»[١٩٢].

• • •

أما الغزالى فله وجهة نظر على قدر لا بأس به من الجرأة الفكرية فهو يذهب إلى أن الناس أنبياء بدرجات متفاوتة ونرجح أنه أدلى بهذا الرأى وهو فى الحقبة العقلانية «إن صح هذا التعبير» من حياته وقبل أن «ينجذب» فهو يعتقد الغزالى أن ما يبصره الإنسان أثناء نومه أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس ويعد الغزالى الرؤيا طوراً ضعيفاً من أطوار النبوة ومعنى هذا أن

الناس جميعاً أنبياء على درجة متفاوتة وكلما صفت النفس وتخلصت من أدرانها الدنيوية انكشف بين يديها عالم الغيب وارتفعت فى سلم النبوة والوحى»[١٩٣].

أو لعله «=الغزالى» من شدة «انجذابه» صرح بهذا المعتقد إذ من المعلوم أن فلاسفة التصوف أو المتصوفة المتفلسفين يذهبون إلى أن النبوة درجة سامية من صفاء النفس والقدرة على التغلب على شهوات البدن وكدوراته وأوهام الحس وأباطيله وبذلك كما اعتقد الغزالى أنه كلما ترقى الإنسان فى هذا السبيل ارتقى صعداً وحصل قدراً من النبوة.

وعموماً ففى أى حقبة فاه الغزالى بهذا الرأى فقد حالفته الشجاعة الفكرية فيه وربما شكل وأضرابه الدوافع التى وزّت مناؤيه إلى حرق كتبه.

● ● ●

«وذهب البعض من المسلمين إلى القول بأن النبى نفسه تلقى الوحى فى أول أمره عن طريق الرؤيا الصادقة ثم تدرج بعد ذلك فى مراتب النبوة»[١٩٤].

الذى لاشك فيه أن هذ الكاتب ثقافته الإسلامية وشلة وهذا عيب يسم الكثير من الكتبة غير الإسلاميين بل إنه يلطأ «يلصق» بأغلبية من يتناولون الإسلاميات خاصة ممن ركبوا الموجة الإسلامية مؤخراً كرامة للبترودولار، إذ إن أى مبتدئ فى فضاء العلوم الإسلامية يعلم أن **«صاحب زمزم»** أول طريقه الرؤى:

«عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.. ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه والتعبد الليالى أولات العدد»[١٩٥].

وسبق أن أوردنا أنه جاء فى صحيح البخارى فى السيرة الحلبية:

«عن عائشة رضى الله عنها أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة... إلا جاءت كفلق وفى رواية كفلق الصبح أى ضيه وإنارته.. فلا يشك فيها أحد كما لا يشك أحد فى وضوح ضياء الصبح ونوره.

وفى لفظ فكان لا يرى شيئًا فى المنام إلا كان أى وجد فى اليقظة كما رأى فالمراد بالصالحة الصادقة»[١٩٦].

ولاحظ حرص مؤلفها أو مصنفها وهو على بن برهان الدين الحلبى على شرح أو توضيح حقيقة الرؤى التى طفق **«الصفوح»** يراها وهو وسنان فهى صالحة وصادقة وهما بمعنى، وهو لا يشك فيها مثل ما أنه لا تخالج عاقلا ذا بصيرة ذرة من ريب فى وضوح ضوء الصبح ونوره، وأن ما يراه محمد وهو نعسان يراه وهو صاح.

وتعليله ما أسلفنا: مضاعفة الشحن وشدة الحفز وقوة الوز من الطاهرة والقس وعمق الشوق وعرامة التوق وكثرة التشوف من قبله فإذا كل ما يراه ولو فى سنة خاطفة أو نعسة سريعة أو نومة عجلى يراه وهو يقظان.

مما يؤسف له أن كتب سيرته التى هى أزكى ريحًا من مسك التبت لم تضرب مثلاً عن تلك الرؤى المدهشة التى تحققت فى صحوه ما خلا رؤيا شق البطن أو الصدر.

• • •

لعل ما يلفت الانتباه ويتعين اللبث عنده قليلاً وعدم المرور عليه سريعاً هو أن تلك الرؤى شديدة الوطأة على «**المبتهل**» يقول ابن كثير:

«وكان أول شيء اختصه من النبوة والكرامة رؤيا كان يراها فقص ذلك على زوجه خديجة فقالت أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً.. فلما انتهى إلى زوجه خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه فأفزعها ذلك فقامت إليه فلما دنت منه جعلت تمسح وجهه وتقول: لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم فقال: يا خديجة أرأيت الذى كنت أرى فى المنام والصوت الذى كنت أسمع فى اليقظة وأهال منه... إلخ»(١٩٧).

إن هذا الأثر غنى بالمعطيات التى تبلغ درجة مهمة من الخطر منها:

(أ) أنه دأب على قص رؤاه على الطاهرة ولا غرابة فى ذلك فهى الأم الرؤوم من جهة والهندوز الضروب من أخرى.

(ب) أن أم هند لم تستغربها أو تستهولها أو تنكرها وكيف تفعل وهى التى شحنت بطارية المخيلة التى تظهر على شاشتها تلك الرؤى.

(جـ) أنه يهال من الصوت الذى يسمعه وهو يقظان.

(د) يتغير لونه من الرؤى ويظهر جليًا على وجهه.

(هـ) أنه فور ما يحدث له شيء منه لا يجد أمامه إلا حضن بعله الحبيبة خديجة فيرتمى فيه ويلجأ إليه ويجد فيه الطمأنينة، إذن عبارة «دثرينى يا خديجة» التى صاح بها إثر الرؤيا التى عرضت له فى مغارة حرى وانتهت بتقرئته الشطر الأول من سورة العلق ليست الأولى من نوعها.

(و) إن سيدة نسون قريش فور ما يلوذ بصدرها الحنون تقوم بدور الأم الرؤوم فتهدئه وتهننه حتى يفارقه الروع ويذهب عنه الخوف ويغادره الهلع.

(ز) قرأنا فى الخبر موضع التحليل أن خديجة أفزعها ما أبصرت بوجهه من تغير فى لونه وحق لها أن تفعل لأنها تخشى أن يؤثر عليه فلا يمضى فى التجربة قدماً وبذا يذهب ما أنفقته من مال وجهد... إلخ بدداً.

(حـ) أنها لم تكتف بالطمأنة والتفريج والتسكين بل تمده بالبشرى وتقدم سندها حتى يزداد اقتناعًا أنه المأمول والمنتظر والمرتقب.

(ط) ولعل مما ضاعف فزع سيدة نساء الدنيا من تغير لونه أن التجربة آنذاك تمر بالمرحلة الأخيرة وقاربت النهاية وشارفت الوصول إلى هدفها المنشود.

● ● ●

أما بقية الأثر فيسطرها ابن كثير على الوجه الآتى:

«فإنه جبريل استعلن لى وكلمنى واقرأنى كلاماً فزعت منه ثم عاد إلىّ فأخبرنى أنى نبى هذه الأمة فأقبلت راجعًا.. فقالت خديجة: أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيراً وأشهد أنك نبى هذه الأمة الذى تنتظره اليهود. قد أخبرنى به ناصح غلامى وبحيرى الراهب وأمرنى أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»[١٩٨].

فيه أخبر «العزيز» أنه فزع من الكلام الذى أقرأه إياه ولنلاحظ أنه سماه كلاماً ولم يسمه وحياً أو قرآنًا «هناك فرق بينهما أ.هـ» لأن ثقافته الدينية حتى ذلك الحين لم تترسخ بعد.

وفيه «=الخبر» بشرته سيدة نساء قريش كلها وأقسمت وهذا له دلالته العميقة إذ يشى بوثاقة الاعتقاد لديها بأنه «المأمول والمنتظر» لا مشاحة، ثم شهدت له أنه الذى ينتظره اليهود.

من أين علمت إن لم تطلع على علوم أهل الكتاب وتقرأ الأبعاض والإصحاحات التى نقلها القس اليعسوب إلى اللسان العربى.

فى مؤخرة الحديث تقبع النصيحة أو المشهورة التى ألقاها إليها بحيرى الراهب مقدم الحلقة الخارجية وناصح غلامها أحد أعضاء وليجتها بأن تصير بعلاً لـ«**المنكور**» وأنها صدرت من عشرين سنة سابقة على الرؤيا المنامية.

وقلنا فيما سبق إن هذه المشورة شاطرت غيرها من الدوافع على إقدام الطاهرة على نكاحه ومباعلته.

● ● ●

ويؤكد المحب الطبرى ما ذهب إليه ابن كثير وعلى برهان الدين الحلبى.

«أول شىء أراه الله تعالى من النبوة: الرؤيا فى المنام فشق ذلك عليه فلما دخل على خديجة رضى الله عنها، قال: يا خديجة أرأيت ما كنت أراه فى المنام وأحدثك به استعلن وإنه جبريل عليه السلام أرسله ربه. وأخبرها بالذى رأى وسمع فقال: أبشر فوالله لا يفعل إلا خيراً، وأنا أقبل الذى أتاك من الله تعالى فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقاً»[١٩٩].

يعلل كتاب السيرة المحمدية التى هى أذكى ريحاً من بنفسج الكوفة رؤى «المبيح» بأنها تمرين لقواه البشرية لتحتمل «القول الثقيل» وأنها من تباشير الكرامة وأوائل خصائص «القادم المأمول»:

«وبدئ إلى تمام ستة أشهر بالرؤيا الصادقة الجلية فكان لا يرى رؤيا إلا

جاءت مثل فلق صبح أضاء سناه وإنما ابتدئ بالرؤيا تمريناً للقوى البشرية لئلا يفجأه الملك بصريح النبوة فلا تقوى قواه وحبب إليه الخلاء فكان يتعهد بحراء الليالى ذوات العدد فيه. إلى أن أتاه صريح الحق ووافاه وذلك فى الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر الليلة القدرية»[٢٠٠].

وإلى هذا المعنى أيضا ذهب صاحب «السيرة الشامية»:

«قال القاضى وغيره: وإنما ابتدئ رسول الله ﷺ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تتحملها القوى البشرية فبدئ بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة وصدق الرؤيا وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضوء وسماع الصوت وتسليم الحجر والشجر عليه بالنبوة حتى استشعر عظم ما يراد به واستعد ما ينتظره فلم يأته الملك إلا بأمر عنده مقدماته»[٢٠١].

وما رقمناه هو تعبير عما أسميناه «مراحل التجربة» وإن اختلف أسلوباهما فى الحديث عنها.

أما عبارة «أوائل خصائص النبوة» فهى إشارة واضحة لا تستبهم على اللقن ولا تغمض على الفطن ولا تستشكل على الذكى إلا أن هذا الدور ذاته هو ما مر به أنبياء إسرائيل الذين ذكرنا منهم على سبيل المثال: أشعيا وعاموس ودانيال.

• • •

ومن المحدثين نكتفى بما سطره عبد السلام هارون فى «التهذيب» وهو محقق ثبت ومدقق عميق.

«عن عائشة رضى الله عنها أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نوم إلا جاءت كفلق الصبح وحبب الله إليه الخلوة فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده»[٢٠٢].

ومما يعطى رأيه وزنا أنه نقله من «سيرة ابن هشام» عمدة السير التى قام بتهذيبها.

ولعلنا بما قدمنا فى هذه الفاصلة قد أوفينا هذا المقطع من هذه المرحلة ونعنى به «مقطع الرؤى» تتمة «مقطع الصوت والضوء» حقه من التمحيص والتنقير والتحليل الموضوعى.

ثم يحين الأوان لتناول المرحلة الأخيرة «من مراحل التجربة» وهى كبراها ونعنى بها «الخلوة» التى حدثت فى ختامها المسك رؤيا مغارة حرى.

• • •

إعلان نجاح التجربة العظيمة وبوقوعها حق لخديجة أن تخاطب أهل مكة بأعلى صوتها: ها هو «**القادم المأمول**» الذى طال انتظاركم له وكذا سائر عرب الجزيرة لتفاخروا به اليهود ولتنافروا به النصارى، إذ لم يعد لأى منهما فضل

عليكم وسوف يرفع بيمينه كتاباً مثل كتبهم وسترونه رائعاً معجباً.

كيف لا وهو من قريش ونشأ فى بادية بنى سعد فغدا أفصحكم وأعربكم وأبلغكم ومن ثم فإن كتابه كأنه هو سيأتى مثلاً فى الإبانة وقمة فى الطلاقة وذروة فى الإنشاء.

من الذين جاءت أسفارهم بليغة فصيحة تبعا لذلاقة لسانهم ونصاعة بيانهم: «النبى يشوع ياهو بن أموص» المشهور عند عامة ممن يقرأون «الكتاب المقدس» بأشعيا فهو عبقرية أدبية ليس هناك من فاقه فى براعة التعبير وتألق الخيال وأسلوبه قمة فى الأدب «العبرى» وهو فنان بارع فى اختيار الكلمات ومن ثم تميز سفره بجمله وتعبيراته الوصفية الدقيقة رفيعة المستوى وفى عمومه يتسم بالجمال والقوة معا ويمتلئ بالعبارات البارعة والاستعارات الجملة»(٢٠٣).

أى أن الكتاب يدور مع صاحبه القادم به فصاحة وركة تماماً، كما فى المذهب التجريبى - يدور الحكم مع العلة وجوداً وعدماً فإن وجدت العلة وجد الحكم وإذا لم تظهر اختفى أو انتفى، وباختصار إذا امتاز القادم بطلاقة القول وحلاوة المنطق جاء كتابه مثله أما إذا لم يحظ بتلك الموهبة: طرح كتاباً فاترًا ضاويًا ذاوياً وهذا ما نلمسه فى بعض أسفار العهد القديم بمنتهى الوضوح.

• • •

«عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد.. إلى آخر الحديث»(٢٠٤).

هذا الحديث يكاد يبلغ حد التواتر إذ حمله العديد من كتب الأحاديث ومصنفات السيرة المحمدية الزكية فلا حاجة بنا إلى توكيده أو زيادة توثيقه ويكفى أنه بين دفتى صحيح البخارى الذى أطبق أهل السنة والجماعة على أنه أصح كتاب بعد القرآن العظيم.

ومما لا يفوت العين الفاحصة وهى تطالعه أن لفظة «حبب» بنيت للمجهول وبحسب تعبير الإمام ابن حجر العسقلانى فى «الفتح»:

«لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك»(٢٠٥).

وعبارة صاحب الفتح «لعدم تحقق الباعث على ذلك» عميقة المعنى قوية الدلالة خاصة وأن صاحبته هى التيمية بنت ابن أبى قحافة التي كشفنا فيما سلف عن غيرتها الطاغية لسيدة نساء الأرض خديجة هندوز التجربة الماهرة المحكنة.

ونحن لا نوافق ابن حجر فيما قاله: «... وإن كان كل من عند الله أول نبي على أنه لم يكن من باعث البشر أو يكون ذلك من وحى الإلهام»(٢٠٦).

فالعسقلانى يسير فى ركاب من يرى أن التصنيع والتهيئة للقادم أو المأمول أو المنتظر لابد أن يوكل إلى قوى ما ورائية وغير منظورة.

ولو صح ما ذهب إليه لنصت عليه التيمية أم عبدالله «عائشة» ولقالت «حبب ربه إليه الخلاء» وقد وصفها شيعتها أنها من علماء الصحابة(٢٠٧).

ونرد على ابن حجر أن الخلوة أو الخلاء تم فعلاً من باعث من البشر الطاهرة المطهرة خديجة إذ لم يعرف عن«**الفرط**» حبه للخلاء قبل أن تصير هى له بعلاً.

حقاً إنه فى سنوات حياته الأولى مال إلى العزلة أو الانفراد وسبق أن أزحنا الغطاء وفرعنا الستار عن العلة.

ومن ناحية أخرى فيوجد بون شاسع وفرق واسع واختلاف كبير بين الانفراد بالنفس أو اعتزال الناس أو البعد عن البشر وبين الخلاء أو الخلوة التي تحمل معنى تيولوجياً ويفوح منها عبق دينى وتتضخم برائحة عقائدية.

● ● ●

بيد أنه من أين علمت خديجة أن الخلوة مرحلة ضرورية يتعين على القادم المنتظر أن يمر بها؟

سبق أن وثقنا مطالعتها للأبعاض والإصحاحات التى نقلها إلى اللسان العربى ابن عمها ورقة الضليع فى علوم الكتاب المقدس وتحدثنا عن علاقتها الحميمة به وما طفقت تسمعه منه من أقوال ومواعظ ودروس ومن بينها أقاصيص البطاركة الذين ذكرهم ذلك الكتاب المعجب.

نبدأ بأحد أكابرهم ومؤسس أعرق الديانات العظمى: موسى «وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلاً: هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بنى إسرائيل... إلخ»(٢٠٨).

«ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل فصعد موسى...»(٢٠٩).

« ... فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء لأنك أنت حذرتنا قائلاً أقم حدوداً للجبل وقدسه.. فقال له الرب اذهب انحدر ثم اصعد أنت وهارون معك، وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطش بهم فانحدر موسى إلى الشعب وقال لهم»(٢١٠).

فهناك يلقاه ربه على انفراد فى أعلى جبل سيناء الذى غدا مقدسًا وتحديداً تم اللقاء بين المكلم والكليم على رأس «قلة الجبل» كناية عن ذروة الخلوة أما ألفاظ الانحدار والاقتحام والصعود فهى تثبت معانى الارتفاع والعلو والذروة والقمة والقلة حيث تمت الخلوة أو الانفراد وحرم على الشعب أن يصعد إلى بقعة اللقاء وتلقى الأحكام والوصايا.

والحق أنها قطعة أدبية رائعة وإن سرت فى كثير من جوانبها الرائحة الذكية

المعطار لنصائح ووصايا حكماء مصر القديمة من أمثال: «بتاح حوتب» «محوتب» و«حردادف».

إذن فى الخلوة التي استمرت أربعين يوما وبأعلى الجبل التقى الرب موسى؛ إذ من المحال أن يقابله فى زحمة وفى سفل، ويبدو أن هذه التجربة لم تعجب الرب إذ نراه بعدها ينيب عنه رئيس الملائكة جبريل ليظهر للبطاركة والقادمين ومؤسسى الأديان ويبلغهم كلامه ونرجح أن هذا التطور يرجع إلى تحول اجتماعى طرأ على العلاقة بين الملوك وشعوبهم(٢١١).

«ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعام يوحنا المعمدان «الذى كان يكرز فى برية اليهودية» جرادًا وعسلاً برياً»(٢١٢).

وهذا المقطع صريح النص والدلالة معاً على أن يحيى أو يحنا المعمدان تعود على الخلوة فى برية اليهودية فالذى يتدثر بوبر الإبل ويقتات بالجراد والعسل البرى لابد أنه فى خلوة.

• • •

أما ابن مريم فـ«... أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس فبعدما صام أربعين نهارًا أو وأربعين ليلة جاع أخيراً»(٢١٣).

عبارات تكشف بذاتها عن أن عيسى مر بطقس أو مرحلة الخلوة، ولم يكتف ابن مريم بالخلوة الخاصة به بل أخذ يدرب تلاميذه عليها(٢١٤).

«وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردين»(٢١٥).

وسوف يرى القائل بعد قليل أن المغارة موضع خلوة «محمد» تقع فى قلة(٢١٦) جبل حراء الذى يبعد عن مكة بثلاثة فراسخ.

الأمثلة الأخيرة هى من إنجيل متىٰ الذى رجّح الباحثون الإثبات فيما أسلفنا أنه بيد النصارى الهاربين من اضطهاد شاؤول أو بولس قبل أن يحرفه ويضيف إليه ما يؤيد عقيدة التثليث التى دسها فى ديانة يسوع الناصرى فأفسدها وبالتالى فهو «الإنجيل» الذى وصل إلى القس فترجمه أو أجزاءً منه إلى اللغة العربية.

أما إنجيل مرقس فقد وصف يوحنا المعمدان أنه صوت صارخ فى البرية وأنه كان يعمد فيها(٢١٧).

ونحن لا نذهب إلى أن اليعسوب اطلع عليه إنما أتينا بهذه الفقرة لندعم خبر خلوة يحيى أو يوحنا المعمدان.

وثق هذا الإنجيل مقولة تدريب أو تمرين الناصرى ابن مريم لتلاميذه أو حوارييه على الخلوة فى الجبل العالى منفردين(٢١٨).

وبذا غدت هذه الواقعة حقيقة تاريخية ثابتة.

● ● ●

أما إنجيل لوقا فيحدثنا عن خلوة زكريا فى الهيكل وظهور ملاك الرب له واقفاً عن يمين مذبح البخور.. «فلما خرج لم يستطع أن يكلم جموع الشعب ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل فكان يومئ إليهم وبقى صامتاً»(٢١٩).

ولنلاحظ ارتباط ظهور ملاك الرب لزكريا بالخلوة، وقد جاءت هذه الأقصوصة فى القرآن المجيد فيما بعد(٢٢٠).

● ● ●

ويشير إلى خلوة مريم أم عيسى بعيداً عن أهلها فى المكان الشرقى وظهور ملاك الرب جبريل لها فى الخلوة ليهب لها الغلام الزكى الأعجوبة عيسى أو يسوع(٢٢١).

ثم حكى هذا الإنجيل خلوة ابن مريم فى البرية أربعين يوماً وعدم تناوله أى طعام إبانها وعند تمامها عضه الجوع(٢٢٢).

وفى موضع آخر جاء به:«ولما صار النهار خرج وذهب إلى موضع خلاء»(٢٢٣).

ومما هو جدير بالالتفات مجىء كلمة «خلاء» بنصها وفصها.

وهكذا يثبت بالأدلة أن الخلوة أو الخلاء تقليد أو تراث يهودى ـ نصرانى طالعناه فى العديد من المواضع فى الكتاب المقدس: كتاب اليهود والنصارى، الذى تبحر فى علومه القس ورقة وتضلع منها حتى صار بحراً فيها ووصفته كتب التراث أنه بلغ فى إتقانها درجة منيفة حتى إنه لم يوجد فى مدينة القداسة فى أيامه من يساميه فيها وأنه أعلم رجال مكة بها.

ولقد نقل الكثير من إصحاحات وأجزاء الكتاب المقدس إلى اللسان العربى والطاهرة أجادت القراءة والكتابة وطرحنا البراهين على هذه الحقيقة وإذ ربطتها آصرة وثقى بابن عمها ورقة؛ فاستوعبت ترجماته وحضرت دروسه وشروحه وتفاسيره، ومن جماعه انتهى إلى علمها أن الخلوة أو الخلاء مرحلة لازمة للقادم المأمول وتيقنت أن ملائكة الرب لا يحلو لها أن تظهر للبطارقة والأشخاص المباركين ومؤسسى الديانات إلا فيها وهذا يصل إلى حد البداهة إذ كيف يتسنى لها أن تبدو لأحدهم وهو فى جلوة!!

● ● ●

ثمة سؤال على قدر وفير من الأهمية لابد أن يرفرف فى الذهن: ما الأدلة على أن الطاهرة هندوز التجربة البالغة الروعة هى التي وزت «الرقيب» على الخلوة أو الاختلاء؟

قبل أن نجيب عليه ونقدم البراهين السواطع والمكينة الموثقة نبدأ بطرح فرض قريب التصديق موجزه أن «مرحلة الخلوة» بدأت قبل سنوات خمس من

حدوث الرؤيا المنامية التى رآها «الضياء» فى مغارة حرى وإذ إنها وقعت له وهو فى الأربعين من عمره المبروك فبالتالى يصير بدء المرحلة الأخيرة «الخلوة» وهو فى الخامسة والثلاثين، وإذ إن أهل السنة والجماعة أطبقوا على أن فارق العمر بينه وبين أم هند خمسة عشر عاما إذن عند ذياك البدء وصلت إلى الخمسين ولو أننا نصر على أن المسافة العمرية بينهما لا تقل عن العشرين عاماً وقدمنا الأدلة النقلية والعقلية المثبتة.

ومع التسليم الجدلى البحت بالفارق الأول فمن حقنا أن نتساءل: ما الذى دفع خديجة إلى مرافقته واصطحابه إلى جبل حراء كيما يؤدى طقس الاختلاء فى المغارة التى تقبع فى قلته؟

هنا نلمح قارئًا فطناً يرفع أصبعه ليستعلم: هل هذا فرض من الفروض التى ذكرتها فيما سلف، أم هو حقيقة تاريخية وما هى حججك عليها؟

والحق أنه استفهام وجيه نرد عليه بالآتى:

بل هو حقيقة تاريخية وضعتها فى حجورنا المؤلفات العوالى التى غطت السيرة المحمدية التى تزرى حلاوتها بطعم تفاح الشام.

ونظراً لأهميتها القصوى فى لحمة هذا البحث وسداه فإننا نستميح القارئ المعذرة ونحن نطيل فى الاستشهاد بها ونحن إذ نفعل نؤم «نقصد» إقناعه بها «الحقيقة التاريخية».

• • •

١. نبدأ بسيرة محمد بن إسحق التى متح منها ما جاء بعده والتى تعد من أقدم السير التى وصلت إليها «لأن سيرة الزهرى ـ كما أسلفنا ما زالت مفقودة» ـ «حتى إذا كان الشهر الآخر الذى أراد الله عز وجل ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها وذلك شهر رمضان فخرج رسول الله ﷺ كما كان يخرج لجواره وخرج معه بأهله...»(٢٢٤). ومعلوم أن أهله هى بعله سيدة نسون قريش.

٢. ونثنى بعمدة السير ونعنى سيرة ابن هشام: «حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله...»(٢٢٥).

٣. «عن محمد بن إسحق... فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبدالله بن الزبير ومن عنده من الناس: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية والتحنث: التبرر قال أبو طالب: «وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراقٍ فى حراء ونازل» فكان رسول الله ﷺ يجاور فى ذلك الشهر من كل سنة يُطعم من جاء من المساكين فإذا قضى

رسـول الله ﷺ جـواره من شـهـره ذلك كـان أول مـا يبـدأ به إذا انصـرف من جواره الكعبـة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شـاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كـان الشهـر الذى أراد الله عـز وجل فيه مـا أراد من كرامته من السنة التى بعثه وذلك فى شهر رمضان خـرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره . معه أهله»[٢٢٦].

إن تاريخ الطبـرى من أوثق مـصـادر التـاريخ الإسـلامى وتـفـسـيـره من أجل التفاسير.

٤. «عن عبيد بن عـبيد: كـان رسول الله ﷺ يجاور فى حـراء كل سنة شهـراً وكان ذلك مما تحنث به قـريش فى الجاهـلية والتـحنث التبـرر فكان يجـاور ذلك الشهـر من كل سنة يطعم المساكين فإذا قضى جوارہ من شهـره ذلك كان أول مـا يبـدأ به إذا انصـرف قبل أن يدخل بيتـه الكعبـة فيطوف بهـا سبعـاً أو مـا شـاء الله ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كـان الشهـر الذى أراد الله فيه مـا أراد من كرامـتـه وذلك الشهـر رمـضـان خـرج رسول الله ﷺ إلى حـراء كمـا كـان يخـرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيهـا برسالته ورحم العبـاد بهـا جاءه جبريل بـأمر الله تعـالى. قال رسول الله ﷺ: فجـاءنى وأنـا نـائم بنمط من ديبـاج فيه كتـاب فقـال: اقـرأ فقـرأتهـا ثم انتهى فهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى حتى بعثت خديجـة رسلها فى طلبى فبلغوا مكة حتى أتيت خديجـة فجلست إلى فـخذهـا مضيفـاً إليها فقالت: يا أبا القـاسم أين كنت فـوالله لقـد بعثت رسلى فى طلبك فـحـدثـتـهـا بـالذى رأيت فـقـالت: أبشـر يـا ابن عم واثبت فـوالـذى نفـسـى بيـده إنى لأجـو أن تكون نبـى هذه الأمة»[٢٢٧].

٥. «بعثت خديجة رسلهـا فى طلبى فبلغوا مكة ورجعـوا إليهـا وأنـا واقف مكانى ذلك.. ثم انصرف عنى وانصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة أى فى الغار فجلست إلى فخذهـا مضيفـاً إليهـا مستنداً إليهـا فقالت: يـا أبا القـاسم أين كنت فـوالله لقـد بعـث رسلى فى طلبـك فبلغـوا مكة ورجعـوا إلى أقـول، وهذا يدل على أن خديجة رضى الله عنهـا كانت معه بغار حـراء وهو الموافق لما تقدم من قوله ومعه أهله أى خديجة رضى الله عنها على ما تقدم[٢٢٨].

هنا نجـد صـاحب «السيـرة الحلبية» يؤكـد أن أم هند دأبت على مـرافـقـتـه فى ذهابه إلى المغارة واللبث معه وأن المقصود بكلمة أهله خديجة.

٦. «وحتى إذا كـان الشهـر الذى أراد الله كـرامته وذلك الشـهـر رمـضـان خـرج ﷺ إلى حراء ومعه أهله.

جاءنى وأنـا نائم بنمط من ديبـاج فيـه كتـاب فقـال: اقـرأ فقـرأتهـا ثم انتهى عنى وهببت من نومى وجعلت أصـرف وجهى عنه فى آفاق السمـاء فـلا أنظر فى

ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفاً حتى بعثت خديجة فى طلبى فبلغوا أعلى مكة».

فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا أعلى مكة[٢٢٩].

الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد الذهبى صاحب التصانيف المشهورة يذكر بجلاء لا لبس فيه ووضوح لا غموض يشوبه أن «الأمى» لا يتوجه إلى مغارة حرى إلا وسيدة قريش معه[٢٣٠].

بيد أنها تظل فى سفح وأوسط الجبل بينما يصعد إلى المغارة فى الذروة وسوف نشرحه تفصيلاً.

٧- « ... حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله به فيه من كرامته من السنة التى بعثه فيها وذلك الشهر رمضان خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله...»[٢٣١].

● ● ●

سبعة مصادر من الذرى الشامخة والقمم العالية والقلل المنيفة من كتب التراث فى السيرة المحمدية التى هى أطيب من ريح الخزامى تنص صراحة وبلا جمجمة على وجود الطاهرة المطهرة مع «أبى القاسم» وهو يتحنث أو يتحدث فى الغار الكائن أعلى جبل حراء.

ألم تصبح بعد كل ما قدمناه حقيقة تاريخة لا يمارى فيها إلا شكس ولا يعارضها إلا مناكف[٢٣٢]. ولا يشكك إلا معاند ولا يقدح فيها إلا لجوج ولا يعيبها إلا يلندد[٢٣٣].

● ● ●

بعدها نقدم أدلة إضافية على مصاحبتها له فى كل مرة بين مرات الخلوة التى تخبرنا المصادر الموثوقة أنها تتم فى شهر رمضان. وعندما رأى وهو نائم فيها ملاك الرب جبريل وأمره بقراءة الشطر الأول من سورة العلق، أو رآه لأول مرة عند باب المغارة أو فى أفق السماء على تعدد الروايات التى جاوزت الثلاثين بخصوص هذه الواقعة، انتابه الفزع من هول المفاجأة فخرج من المغارة وأبعد فى طريق الجبل واستبطأته أم هند فبعثت رسلها يبحثون عنه وهذا يقطع بأنها وحاشيتها معها يمكثون فى وسط الجبل أو فى سفحه وهذه مسألة طبيعية لأنها مثلها لا تغادر مسكنها إلا وهى محفودة[٢٣٤] محشودة[٢٣٥]. حتى وصلوا مكة، فلو أنها مقيمة فى دارها آن ذاك فكيف ترسلهم إليها؟

إن العقل والمنطق يرفضانه.

● ● ●

ولقد تنبه صاحب «السيرة الحلبية» كما سطرناه في الدليل السادس الذي

قدمناه في الفاصلة السابقة ـ إلى دالة عبارة «فبلغوا مكة» وخرج منها بالنتيجة المنطقية وهى بحسب حروفه «وهذا يدل على أن خديجة كانت معه بغار حراء وهو الموافق لما تقدم من قوله: ومعه أهله» أ.هـ.

وممن ذكر بعث أم هند رسلها فى طلبه حتى بلغوا مكة ابن سيد الناس فى عيون الأثر وقد رقمناه في الدليل الرابع.

• • •

إذن قدمنا من الأدلة الإضافية اثنين ونواصل فيما يلى باقيها:

«وأخرج ابن إسحق أنه ﷺ جاءه جبريل ﷺ بما جاءه من كرامة الله عز وجل وهو بحراء فى شهر رمضان وكان يجاور بحراء فى كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية والحنث التبرر.

قال وكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر ويطعم من جاء من المساكين فإذا قضى رسول الله جواره من الشهر كان أول ما يبدأ إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف سبعاً أو ما شاء الله تعالى من ذلك ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذى أراد فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله فيها، وذلك فى شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل ﷺ بأمر الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. قال: قلت ما اقرأ. قال: فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ. ماذا اقرأ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لمثل ما صنع قال: اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى... ما لم يعلم فقال، فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى فهببت من نومى كأنما كتبت فى قلبى كتابًا قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أو أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية إلا رأيته كذلك فمازلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا مكة ورجعوا وأنا واقف فى مكانى ذلك ثم انصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ثم رجعوا إلى، ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت: أبشر يا ابن عمى وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة. ثم ذكر معنى حديث ورقة بن نوفل بتغير بعض لفظه»[٢٣٦].

هذا الخبر مع طوله انطوى على الحقيقتين:

الأولى: أن «**الأمين المأمون**» لا يخرج إلى حراء إلا بملازمة بعله خديجة.

الأخرى: أنها وزّت رسلها يطلبونه حتى بلغوا مكة.

«حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكانى ذلك ثم انصرف عني وانصرفت عنه راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها «متلصقًا بها».. فقال: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى، فحدثتها بالذى رأيت فقالت: أبشر يا ابن عمى وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة»(٢٣٧).

وأهمية هذا الخبر أنه حديث مرفوع إلى «**المصطفى**» ذاته أى أنه هو الذى يقص الوقائع لا غيره يحكيها.

• • •

وبرهان أخير نقدمه على صحبة خديجة له إبان وجوده فى المغارة وهو حديث صحيح مشهور ورد فى العديد من كتب السنة ذات المقام المحمود والدرجة الرفيعة وعلة شهرته هو إعلام جبرائيل لـ«**الأزهر**» أن ربه يأمره أن يقرئ خديجة السلام ويبشرها ببيت فى الجنة:

«حدثنا أبواليد قال: حدثنى جدى أحمد بن محمد حدثنا عبدالجبار بن الورد المكى قال: سمعت بن أبى مليكة يقول:

جاءت خديجة إلى النبى ﷺ بحيس وهو بحراء فجاءه جبريل فقال: يا محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيساً معها والله يأمرك أن تقرئها السلام وتبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فلما أن رقيت خديجة قال النبى ﷺ: يا خديجة إن جبريل قد جاءنى والله يقرئك السلام ويبشرك ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فقالت خديجة: لله السلام ومن الله السلام وعلى الله وعلى جبريل السلام»(٢٣٨).

وقبل أن نشرع فى تحليل هذا الحديث الثر بالمعطيات نشرح للقارئ معنى كلمة «الحيس» التى جاءت فى ثناياه:

الحيس تمر ينزع نواه ويدق من أقط ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى الثريد وربما جعل معه سويق(٢٣٩).

• • •

سيدة نساء الأرض مع تعدد من حولها ممن يخدمونها من العبيد والإماء تحرص بنفسها على أن تقوم بواجباتها فترقى من وسط أو سفح الجبل حاملة إناء فيه حيس إلى المغارة فى القلة لتقدمه له.

لماذا؟ ولمَ لم تكلف واحداً من العبدان أو الجوارى به؟

لعل الجواب لا يحتاج إلى زكانة أو فطانة.

ليشعر أنها معه لا تفارقه وكيما لا يمل من الخلوة ولا يضيق بالوحدة ولا ينفر من العزلة ولا يفر إذا ما ظهر له ملك أو سمع حسيسًا أو رأى ضوءًا.

وكلمة «ترقى» تؤكد وجودها فى الحبل ولكن فى مستوى أخفض وعندما نصل إلى الفاصلة الخاصة بـ«وصف جبل حراء» سوف يدرك القارئ مدى المشقة التى طفقت سيدة نسون قريش تكابدها سواء فى الانتقال من دارها إلى الجبل أو الصعود إلى المغارة ناهيك عما يلاقيه أى شخص من متاعب عندما يفارق داره فما بالك بسيدة غنية مترفة تعيش فى بلهنية وقد جاوزت الخمسين من عمرها أو الخامسة والخمسين.

● ● ●

نأمل أن التوفيق حالفنا ونحن نضع تحت باصرة وبصيرة القارئ الأدلة الدامغة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة سواء من المعقول أو صريح المنقول على أن خديجة هى التي دفعت محمداً على ولوج مرحلة «الخلوة» لأنها من ناحية هى طقس لازم مر به من سبقه من القادمين والمنتظرين والمأمولين.

ومن ناحية أخري أنها المكان الوحيد الذى يظهر فيه ملاك الرب فيغدو إعلانا بنجاح التجربة العظمى.

قد ينبرى أحدهم فيعترض: وماذا فيه إن خديجة إذ ترافق محمداً إلى حراء فإنها تفعله من باب التسرية عن النفس أو كما تقول العامة فى مصر «تغير جواً».

وهذا يفرض علينا أن نلقى ولو نظرة عجلى على ذياك الغار لنقيم هذا الاعتراض وهل الذهاب إليه للمتعة والفسحة والترويح عن النفس أم هو عناء وشقاء وقطعة عذاب وأنه لولا الدافع الحثيث والباعث الشديد لما أقدمت عليه بل ولا فكرت فيه ولم يحمل لنا تاريخ تلك الحقبة الباهرة خبرًا ينبئ أن النسوة كن يتحنفن أو يتحنثن فيه كما فعل شيبة الحمد أو الجد عبدالمطلب ومن سار على دربه وسلك مسلكه.

«جبل حراء: وهو الذى كان يتحنث فيه رسول الله ﷺ قبل الوحى وفيه نزل عليه جبريل أول ما أوحى إليه وفيه بشره بالنبوة وبينه وبين مكة ميل ونصف، وهو جبل منفرد على طريق حنين من مكة وهو منيف صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا من موضع واحد فى صفاة ملساء.

والموضع الذى نزل فيه جبريل عليه السلام فى أعلاه من مؤخره، فبنى آدم البيت الحرام «الكعبة» من خمسة أجبل من طور سيناء وطور زينا ولبنان والجودى وبنى قواعده من حراء»(٢٤٠).

هذا وصف أحد الجغرافيين العرب الذين عنوا بـ«المسالك والممالك» أى الطرق والبلدان ويلفت النظر فى طرحه قوله عن حراء إنه: منيف وصعب المرتقى ولا سبيل للصعود إلى أعلاه إلا من موضع فرد فى صخرة ملساء أى أن ارتقاءه عملية شاقة.

وعندما زار د. محمد حسين هيكل الحجاز وعاد وكتب مصنفه «فى منزل الوحى» حرص على أن يقدم للقارئ أبعاد جبل وغار حراء وهما متميزان ونأمل أن يعيه القارئ لأننا نؤكد حقيقة تاريخية ثابتة - ولو حاول كثير من المحدثين تمييعها - هى أن الطاهرة عندما دأبت على أن تصحب **«المختار»** إلى الخلوة اقتصرت على المكوث فى الجبل بعد صعوده أما هو فيواصل الارتقاء إلى المغارة ثم نعود إلى سياقة القول:

فهيكل قاس المسافة «بالمتر» من الأرض أو السفخ إلى القمة وأفاد بأنها عشرون متراً ومثلها ما بين القمة والغار أى أن الصعود يقتضى من الصاعد عشرين متراً والارتقاء يلزمه أربعين متراً.

ولا سبيل إلى المغارة إلا بالمرور بين صخرتين متلاصقتين يمر بينهما النحيف بصعوبة أما الغار ذاته فقد حجبته الصخور عما حوله ولا يمنح لمن أراد النوم فيه إلا غفوة خشنة جافية أى الأفضل له أن يظل مستيقظًا.

«من الأرض إلى القمة عشرون متراً... وبين الغار والقمة عشرون متراً أو نحوها وهو مقدار ما بين السطح الأول والقمة وللوصول إليه «الغار» يقتضى المرور بين صخرتين تكادان تتلاصقان فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلا بمشقة وإن كان نحيفًا.

فإذا تخطاها وجد الغار فى داخل الجبل محجوبًا عن كل ما حوله بالصخور الضخمة وهو أشد من كل ما فى الجبل وحدة وعزلة وهو لا يتسع لأكثر من شخص ينام نوماً خشناً جافياً كل الجفاء»(٢٤١).

● ● ●

ويبعد الجبل عن مكة بمسافة قدرها ثلاثة أميال فى رأى كاتب آخر فحتى لو قطعت ركوباً على ناقة أو جمل فإنها لا شك تضنيه وترهقه فما بالك إذا عرفنا أنها سيدة قاربت الستين أو بالقدر المتيقن جاوزت الخمسين.

«يقع غار حراء فى جانب من جبل النور ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريبًا من مكة شمال طريق عرفة وقد اختار محمد هذا الغار الذى هيأته الطبيعة داخل حجر الصوان الأحمر ليتحنث فيه شهراً كل عام مراعياً ليلاً ونهاراً الخلوة التامة وكان يحمل معه الزاد المكون فى جوهره من الكعك»(٢٤٢).

بيد أن المتحنفين أو المتبررين أو المتحنثين ذوى الشحنات الدينية المرتفعة لا تهمهم المشقة لأن ذلك الجبل وفى ذروته المغارة يتيحان لهم الفرصة كاملة للخلوة والاعتزال والتفرد:

«اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمنًا كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة يتقربون إلى الله تعالى بالزهد والدعاء ويلتمسون عنده الخير

والحكمة وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف أو التحنث»(٢٤٣).

أطبق البحاث قدامى ومحدثون على صلاحية جبل حراء ومغارته للانقطاع فيه ومن يؤمه يعزل عن دنيا الناس كيما يتفرغ لما نذر نفسه إليه.

«غار حراء كهف صغير بأعلى حراء، وحراء جبل فى الشمال الشرقى فى مكة يبعد عنها بأقرب من ثلاثة أميال، وهذا ليس بذى زرع ولا غرس بل هو مملوء بالصخور لا عمران به ولا يأوى إليه الناس ولا يستأنسون به، ويمشى الماشى فيه طريق مد عثر لا يصل إليه إلا فى مقدار من الزمن قد يسير فى طريق غير ممهد إلى نحو الساعتين.

فإذا وصل إلى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع إلى الغار إلا فيما يقرب من الساعة وإذا ارتفع وجده موحشاً يحس فيه الداخل برهبة وهو إلى الجبل فيزداد المقبل عليه عزلة عن الناس بل عن الأرض وما فيها ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله، وقد ضيق الله ما بينهما وإذا تجاوزها ودخل الغار أحس بأنه صار معزولاً عن العالم عزلة كاملة»(٢٤٤).

ونحن نرجح أن هذا الوصف التفصيلى الذى نفحنا إياه المؤلف نتاج زيارة شخصية لجبل النور الذى شهدت قلته الرؤيا المنامية.

وابن كثير يذكر أن المغارة تشرف على الكعبة وهذا ملمح مهم إذ إنها قدس الأقداس سواء فى الحقبة السابقة على الإسلام «يسمونها الجاهلية» أو فى الإسلام ذاته:

«وحراء يقصر ويمد ويصرف ويمنع «أى من الصرف» وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أمثال منها على يسار المار إلى منى له قلة مشرفة على الكعبة منحنية والغار فى تلك الحنية وما أحسن قول رؤبة بن العجاج: فلا ورب الآمنات القطن ورب ركن من حراء منحنى»(٢٤٥).

• • •

واختيار حرى المطل على الكعبة إرث إبراهيم وأبى العرب وكبير البطارقة أمر له دلالة عميقة وهو أن «القادم المنتظر» يسير على دربه ويعظم بنيته وسوف يتضح ذلك عندما سيقرأ **«متمم مكارم الأخلاق»** على صحابته: ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ ويأمرهم وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿ **وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ (٢٤٦).

• • •

أخطأ د. على حسن الخربوطلى عندما ذكر أن «غار حراء بجبل أبى قبيس»(٢٤٧).

وهذا مثل لما ذكرناه من قبل أن غالبية المحدثين تناولت السيرة المحمدية العطرة التى هى أحلى من عسل الموصل بقدر لا تحسد عليه من العجلة

والخفة.

وكيما لا يقال إننا نتحامل على المحدثين فإننا نورد خطأ أفدح تردى فيه واحد من القدامى من النجوم الساطعة والبدور اللامعة فى سماء الفكر الإسلامى إذ ادعى أن من «**سيفه على عاتقه**» لم يأمره بالاختلاء فى المغارة أحد ولا رأى أسوة قبله فعله:

«كان رسول الله ﷺ ينفرد متقرباً إلى الله عز وجل فى غار معروف بحراء حبب إليه ﷺ لم يأمره بذلك أحد من الناس ولا رأى من يفعل ذلك فتأسى به إنما أراده الله تعالى لذلك فكان يبقى فيه ﷺ الأيام والليالى ففيه أتاه الوحى»(٢٤٨).

وكنا نأمل ألا ينزلق من هو فى قامة ابن حزم إلى هذا الغلط: أما أن أحداً لم يأمر به «**صاحب القدم**» وإنما إرادة الله تعالى له فينضوى على تحليل مجانى مرده الإحجام عن بذل أى عناء فى قراءة الأسباب الموضوعية التى تكمن وراء أى حدث تاريخى وإرجاعه إلى السماء، وعن زعمه أنه لم يتأس بأحد قبله فيه فهذا يكشف لنا عن أن ابن حزم سامحه الله لم يكلف نفسه مطالعة ما كتب عن التحنث والمتحنثين والتحنف والمتحنفين وخاصة فى شهر رمضان وعلى رأسهم عبدالمطلب جدّه وورقة وأبو أمية بن المغيرة وغيرهم... إلخ.

بل إن ذاك شكل طقسًا من الطقوس المستقرة لديهم أو سنة من سننتهم: «قال الحافظ وكانت قريش تفعله «التحنث أو التخلى أو التحنف» بغار حراء كما كانت تصوم عاشوراء.. لأن جده عبدالمطلب أول من كان يخلو فيه من قريش»(٢٤٩).

ونكتفى بهذه المصادر الخمسة التراثية ذات الدرجة الرفيعة لإثبات خطأ ابن حزم لا حباً فى التجريح ولا رغبة فى التشهير ولا وداً فى التجريس إنما لنبين أن من يقدسون ابن حزم ومن على شاكلته أو فى منزلته ويأخذون أقوالهم حجة مسلمة وآراءهم حقيقة مطلقة لا يأتيها الباطل من أى جانب، إنهم كما قلنا لهم مراراً وتكراراً بشر من البشر يخطئون وكل بنى آدم خطاء، بل إن منهم من يأتى بأغلاط فواحش ويسقط سقطات وجيعة وهم أيضاً يصيبون، فضعوهم فى مواضعهم الصحيحة وانزعوا عنهم هالات القداسات الزيوف التى تصنعونها بأيديهم ثم تضعونها على رؤوسهم، وهم أنفسهم ما ادعوا لأنفسهم عصمة ولا نعتوا ذواتهم بغير البشرية متأسين فى ذلك بـ«**الحبيب المصطفى**» الذى جاء فى حقه فى القرآن العظيم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾(٢٥٠).

فإن قصد الأندلسى ابن حزم من وراء زعمه أن ينفح «**العروة الوثقى**» منقبة هى أنه أول من سن الاعتكاف فى مغارة حراء فى شهر رمضان.. فهذا منهج فسيد:

ففى البدء هو ليس فى حاجة إلى منقبة مصطنعة إذ فى جانبه من المناقب الحقيقية الثابتة ما يفوق العد ويعجز الحصر.

وفى المختتم فإنه عندما سيكشف أن المنقبة التى أضيفت إليه مزورة ونسبت إليه كذباً ففى هذا ضرر أكيد إذ غبها سيرد المشاكس ويعلق المخاصم ويعقب المعاند أنه لولا حاجته إلى مناقب لما اضطر تبعه إلى تزييفها ونسبتها إليه.

وطالما بح صوتنا وجف حبر قلمنا فى تنبيه الكتبة المحدثين إلى مخاطر هذا المسلك المعيب.

وشبيه به الإرقال «الهرولة» إلى نسبة أى نظرية عملية أو طبية أو هندسية يعلن عنها الفرنجة، نسبتها إلى القرآن المجيد فيتمحلون آية كريمة فيه ويدعون أن النظرية كامنة فى أحشائها وبذا سبق الذكر الحكيم علماء الغرب الكفرة الملاعين بأربعة عشر قرناً فى الكشف عن هذه النظرية!!

بعد هذه التفريعة نستأنف العودة إلى سياق البحث والتنقير.

• • •

هل الغار هو الكهف أم هما أمران مختلفان.

«وهو =حراء جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى منى له قلة مشرفة على مكة «لم يقل على الكعبة» منحنية والغار نقب فيه وهو بمعنى الكهف»[٢٥١].

ويذهب مجمع اللغة العربية فى مصر إلى أن الكهف هو المغارة الواسعة فى الجبل[٢٥٢]. ويسوى الفيروز آبادى بينهما فيقول: والكهف كالمغارة والمغار والغار... والغار كالبيت فى الجبل[٢٥٣].

ونكتفى بهذا، ونتساءل: هل فى مخطط هندوز التجربة ويعسوبها أن يغدو «حبيب الله» مثل أصحاب الكهف آية عجباً؟

إن الخروج إلى البرية وهو ما يوازى الاختلاء فى المغارة طقس من أبرز طقوس الديانتين الإبراهيميتين السابقتين على الإسلام وله معنى روحى عميق والأهم أنه رمز التمحيص وشارة الامتحان ومعلم الابتلاء «... فكانت البرية «=القفر» مكان الاختبار لإسرائيل، وهى أيضاً مكان اختبار المسيحيين كما قال الرب لإسرائيل: وتتذكر كل الطريق التى فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة فى القفر لكى بذلك يعرف ما فى قلبك - تث٢/٨. ففى البرية نعرف ذواتنا ونعرف نعمة الله التى تحفظنا لكى نتعلم أن نتكل على الرب الذى لا يفشل فى معونتنا»[٢٥٤].

• • •

إن الاختلاء أو الاعتزال تجربة روحية مر بها البطارقة الأوائل وهى فى مدلولها الذى طالعناه قبيل قليل لا تخرج عن دلالة كلمات الاعتزال أو الاعتكاف

أو الاختلاء أو التحنف أو التحنث أو التبرر كما وردت فى الكتب التراثية والحديثة وهذا ما سنطرحه عنه فى الفترة المصلية «التالية».

«وكان محمد ﷺ يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان فى غار حراء وهو على مسافة بضعة أميال من «القرية» الصاخبة.. يتعبد ويصقل قلبه وينقى روحه ويتقرب من الحق جهده ويبتعد عن الباطل»(٢٥٥).

«فى سيرة ابن هشام والتحنث هو التبرر»(٢٥٦).

وأورد المحقق السرجانى فى هامش الصفحة ما يلى: «التبرر تفعل من البر والتحنث من الحنث وهو الحمل الثقيل وأما التحنف فهو من باب التبرر لأنه من الحنيفية دين إبراهيم».

«وعند صاحب السيرة الحلبية أنه الانقطاع عن الناس»(٢٥٧).

ويرى ابن كثير أنه: التعبد هكذا بإطلاق.

«ولما أراد الله تعالى رحمة العباد وكرامته بإرساله إلى العالمين حبب إليه الخلاء وكان يتحنث «يتعبد» فى غار حراء كما يصنع ذلك متعبدو ذلك الزمان كما قال أبو طالب فى قصيدته المشهورة اللامية:

«ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق ليرقى حراء ونازل»(٢٥٨).

ولصاحب «السيرة الحلبية» تأويل آخر للتحنث وهو التأله وهو قريب من التعبد ومن ثم فهو يطلق على المتحنثين وصف «المتألهين» ويضع فى مقدمتهم الجد عبدالمطلب وأن من فعل ذلك بعده تابع خطاه ومنهم اليعسوب ورقة:

«عن عبيد بن عمير رضى الله عنه كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء فى كل سنة شهراً كذلك كما تتحنث فيه قريش فى الجاهلية أى المتألهين منهم وكان أول من تحنث فيه من قريش جده ﷺ عبدالمطلب فقد قال ابن الأثير: أول من تحنث على ذلك من كان يتأله «يتعبد» كورقة بن نوفل وأبى أمية بن المغيرة»(٢٥٩).

وفى «السيرة الشامية» تفسير آخر: التحنث فهى تعنى السلب أو الاجتناب أو البعد مثل تأثم أى أعرض عن الأثام وتحوب نأى عن الحوب ويفرق بينه وبين التحنف وهو اتباع الحنيفية:

«يتحنث وفى رواية يتحنف وهو من الأفعال التى معناها السلب أى اجتناب فاعلها لمصدرها مثل تأثم وتحوب إذا اجتنب الإثم والحوب، وبالفاء يتحنف أى يتبع الحنيفية دين إبراهيم»(٢٦٠).

أما أبو ذر الخشنى وهو الشارخ لغوياً لسيرة ابن هشام فهو يعارض الأخير فيما ذهب إليه أن التحنف والتحنث متساويان فى الدلالة فإن التحنف وحده هو الذى يعنى الدخول فى الحنيفية أما التحنث فينظره خلاف ذلك إذ يدل على الخروج من الإثم أو الحنث:

«مما تحنث به قريش قد فسره ابن هشام على أنهم يريدون به الحنيفية

فـأبدلوا مـن الفـاء ثاء كـذا قـال ابن هشـام، والجـيـد فـيـه أن يكون التـحـنث هو الخـروج من الحنـث أى الإثم كـمـا يكون التـأثم الخـروج عن الإثم لأن تـفـعل قـد تستـعـمل فى الخروج عـن الشىء وفى الانسـلاخ عـنه ولا يحـتـاج فـيـه إلا الإبدال الذى ذكره ابن هشام»(٢٦١).

• • •

بعـدها نؤم شطر ضـرب آخـر من الشـراح وهم اللغـويون أصـحـاب المعـاجم والقواميس. تحنث: تعبد واعـتزل الأصنام مثل تحنف وتحنث أيضاً من كذا أى تأثم منه(٢٦٢). تحنث: إذ فـعل مـا يخـرج به من الحنث قـال ابن فـارس: التـحنث التعبد ومنه كان النبى ﷺ يتحنث فى غار حراء(٢٦٣).

- حنث الحانث نقيض بره. هو يتـحنث من القبيح يتحرج ويتـأثم. وكان رسول الله ﷺ يتحنث بحراء أى يتعبد ويتأثم وقالوا: تحنث بصلتك وبرك.

ويجوز أن تعاقب الثاء الفاء من التحنث(٢٦٤).

- تحنث: تـعـبـد الليـالـى ذوات العـدد واعـتـزل الأصنام وتحنث من كـذا تأثم منه(٢٦٥).

هؤلاء كما هو واضح لم يبعدوا كثيراً عما رمى إليه كتاب السيرة المحمدية التى تفوق رائحتها الذكية ريح عنبر الشحر(٢٦٦). بل إن أفراسهم مرجت فى ذات المرعى.

وزبدة البحث أن الخلوة فى مغارة جبل حراء، وهى إحدى العلامات الفارقة فى طريق التجربة الفاذة، تدور فى ذات الفلك الذى رسمه البطارقة الطيبون.

وقد ذكرنا بعضاً منهم على سبيل المثال منعاً للملالة. وهم يفرون إلى البرية ونعنى بالفلك مجموع الطقوس والتمرينات والرياضات والمجاهدات الروحية توصلاً إلى قوى علوية وعوالم خفية وكائنات لا مرئية واستعدادًا وتأهيلاً ليغدو الواحد منهم فم السماء والقادم المنتظر من قبلها والناطق بلسانها.

والذى لا مرية فيه أنه بعد أن تنصر اليعسوب بإجماع كل من كتب عنه من القدامى والمحدثين وقرأ الكتب وتضلع فى النصرانية وشرب منها نهلاً بعد علل وصار أعلم أهل الحجاز بها: أحاط خبراً بهذا المنسك الذى نسكه السلف من البطاريق وهم بين السُرى «السير فى أول الليل» والإسراء «السير فى آخر الليل» إذ يقطعون الطريق إعدادًا «سرعة السير» للحاق بآخر الشوط ونهاية المطاف ومحط الوصول، كيما يتحول الواحد منهم إلى شخصية قدسانية بينه وبين الأملاء العليا وشائج «محكمات القوى بعقد شديد»(٢٦٧).

وفى ليالى مكة الطويلة وفى جلسات البحث الجادة وعت الطاهرة الدرس وحفظته واستوعبته، ومن ثم أدخلته ضفيرة قوية فى نسيج التجربة الكبرى ونفذت المنسك أو الطقس بكل حنكة ودربة.

وكيما تنجح تلك الشعيرة وتطرح ثمرتها أصرت السيدة ذات العزم الصلب والإرادة التى لا تلين والشكيمة القوية على مصاحبة بعلها «الألمعى» وهو يؤديها. فهى وقد بلغت الخامسة والخمسين فى مذهب من يدعى أنها نكحته وسنها أربعون تترك دارها المليئة بالإماء والعُبدان وتنسى أنها سيدة غنية منعمة قد أفاض الله عليها من نعمه وخيراته الشىء الكبير، وتسير معه إلى الجبل والمغارة اللذين قدمنا أوصافهما من مصادر موثوق بها، ولقد حاول كثير من الكتبة المحدثين نزع هذه المنقبة عن أم هند ونفيها عنها والادعاء بكل جرأة على الحق أن **«صاحب النعلين»** دأب على الذهاب منفرداً إلى حرى وسبق أن قدمنا الأدلة على فساد هذا الزعم من واقع كتب السيرة عالية الدرجة وهذا مثال لما يزعمه أحدهم:

«كانت خديجة ترسل إليه طعامه وشرابه هناك وأحياناً تعيش معه فى الغار لمعاونته ومشاركته فيما أعده الله له والتفكير فى خالق الشمس والقمر والسموات والأرض»(٢٦٨).

وكذلك شايعه فيه آخر عهدنا فيه كما سبق أن أوضحنا مخالفته دون سند لما هو ثابت فى أمهات كتب السيرة لمجرد مصادمتها لهواه ونذكر القارئ بهجومه الضارى على الإمام التيمى لأنه كتب فى سيرته أن الطاهرة كتبت أو ركبت إلى بحيرى وهو بالشام تسأله رأيه عن رؤيا **«راكب الجمل»** المنامية فى المغارة.

هذا الكاتب هو د. حسين مؤنس: «ولهذا كانت ترافقه فى ذهابه إلى الغار فإما بقيت معه وإما عادت لتنتظر أوبته وكل ذلك كان تقديراً من الله سبحانه وتعالى لأن محمداً ﷺ إذا كان الله قد هيأه لتلقى الوحى فلابد أن يكون قد هيأ خديجة أيضاً»(٢٦٩).

لا الأبراشى ولا مؤنس بين لنا سنده فيما نخعه(٢٧٠)، إنما كالعادة جاء ادعاء كل منهما مرسلاً وعاطلاً عن السند الذى يشد أزره.

وعلاوة على البراهين القوية التى طرحناها تأكيداً لما نذهب إليه من ملازمة الهندوز له طوال مدة مكوثه بالمغارة فإننا ندع اثنين من الباحثين يردان عليهما:

أولهما: قريب العهد بهما وبنا وله مكان مرموق فى محاولة إنهاض الأمة من كبوتها ونعنى به الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بك:

«كان ﷺ يختلى فى كل سنة شهراً مع أهل بيته فى غار حراء بقرب من مكة فيتعبد الليالى ذوات العدد»(٢٧١).

وآخرهما: هو الشيخ عبدالسلام هارون وهو باحث محقق مدقق - معاصر - ذو ثقافة إسلامية ثرة اكتسبها من تحقيق بعض من أمهات ذخائر التراث الإسلامى والعربى ويحظى بتقدير هو أهله أو أهل له:

«حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذ كان الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى»[٢٧٢].

ومع تقديرنا لمؤنس والأبراشى وعدم بخسهما حقيهما فإنه لا وجه للمقارنة بينهما وبين الشيخ رفاعة الطهطاوى والشيخ عبدالسلام هارون فى فضاء العلوم الإسلامية ولو وضعنا مؤنساً والأبراشى فى كفة والطهطاوى وهارون فى أخرى لشالت كفة الأولين ولربما طارت فى الهواء.

ألم يفكر مؤنس والأبراشى فيما يحدث للتجربة الرائعة لو أن ملاك الرب جبريل أو غيره ظهر له فى منامه بالمغارة ولم يتحمل وقع الرؤيا عليه وأصابه الروع كما حدث فعلاً وواقعاً والهندوز بعيدة عنه على بعد ثلاثة أميال فى رواية أو ثلاثة فراسخ فى أخرى؟

أليس من الجائز أن تتعرض التجربة التى أنفقت فيها الكثير من المال والجهد والصحة والأعصاب... إلخ إلى الخربقة والإفساد.

نحن هنا نستعير لسان الطاهرة المطهرة أم هند ونعرض تفكيرها.

ألا يحتم العقل عليها ألا تفارقه لحظة واحدة وهى صاحبة الحجى الوفير؟

وهذا ما حدث بالفعل فعندما علمت بغيابه عن المغارة وتركه إياها، فوراً أطلقت رسلها فى طلبه فى سائر الاتجاهات حتى وصلوا قرية التقديس.

إن ما سطره هذان الكاتبان فى هذه الخصوصية قدمنا الأدلة النقلية والعقلية على فساده وعطنه وطفاسته.

• • •

إذن الثابت من جماع ما طرحنا أمام بصيرة القارئ وباصرته.

أ- أن الطاهرة هى التى وزّت «**الماحى**» على دخول آخر مراحل التجربة الفاذة وهى مرحلة «الخلاء».

ب - أنها فى كل مرة لازمته فيها ملازمة الظل لا تتركه يغيب عن عينها لحظة واحدة أو حتى طرفة عين.

جـ - أنها اختارت له هذه المرحلة لأنها من ثقافتها الدينية ذات المصادر المتعددة أدركت خطرها.

د - أنها لم تفكر مجرد تفكير فى المتاعب والمصاعب والجهود والمشاق التى سوف تتعرض لها وهى تذهب معه فى كل عام شهراً كاملاً إلى الجبل إذ نقهت أنه ثمن قليل لنجاح التجربة.

هـ - أنه فى إحدى المرات نضجت الثمرة وتمثل نضجها فى الرؤيا المنامية فى المغارة بظهور كائن علوى له فى أماكن اختلفت الروايات فى تحديدها وأشهرها

مغارة حرى.

وهنا تنفست الهندوز الصعداء فقد تكلل صبرها بالنجاح الباهر.

• • •

إن التقاء ملاك الرب جبرئيل بمحمد الذى اعتبرته خديجة ختم التصديق على فلج التجربة حملت لنا كتب السيرة المحمدية أكثر من ثلاثين رواية له كل واحدة منها بصورة مختلفة وموضع مغاير ووقت مباين ووصف مفارق أما الكائن العلوى الذى التقاه فمرة هو ملاك وأخرى شىء وثالثة جبريل مع أن اسمه لم يرد فى السور المكية بل المدنية فى هذه الخصوصية.

وهذه المسألة برمتها تحتاج إلى دراسة معمقة تحيط بها من كافة أقطارها وسائر ملابساتها وتتعمق دخائلها وتتفرس فى ملامحها الخارجية إلى آخره... نظراً لأهميتها القصوى.

بيد أن الكتبة المحدثين والخطباء والوعائظ تبع مؤسة شئون التقديس ومن خارجها لا يلوكون إلا حكاية واحدة وهى أن جبريل ظهر لـ«**المسدد**» فى مغارة حرى فى إحدى ليالى شهر رمضان التى أصبحت ليلة القدر وخير من ألف شهر، وقال له ﴿اقرأ﴾ ثم غته أو غطه ثلاث مرات وهو يقظان وفى كامل وعيه وبعد انصرافه كأنما نقشت أو كتبت فى قلبه.

حقيقة أن بعض البحاث المعاصرين لم يطاوعه ضميره العلمى ولم يفرط فى أمانة الكلمة فرقم فى مصنفه أن المسألة لا تعدو رؤيا وأنها لم تغادر نطاق الأحلام وفيما سبق أوسعنا مسألة الأحلام بحثاً ودراسة لدى الجميع.

إنما الإصرار مازال مستمراً على أن المقابلة بين القطبين تمت فى الصحوة وفى كامل الوعى، وبعض المتخذلقين من القدامى والمعاصرين عندما يستيقظ ضميره العلمى ويشرع فى عضه بل نهشه يأتى بالحيلة الخائبة التى تصادفها فى كثير من مصنفات العلوم الإسلامية وهى تكرار الحديث الذى يحارون فى تعليله تعليلاً عقلانيًا وبالمثل فإنهم يدعون أن اللقاء تم فى المنام أولاً ثم فى الصحو!!

لماذا؟ لتمرين «**سعد الخلائق**» على لقاء جبريل عندما يظهر عيانًا بياناً فلا يصيبه الهلع إذن فما رأيكم وقد حدث الرعب والفزع وارتجاف البوادر فعلاً كما أخبرتنا كتب السيرة بل أطبقت عليه؟

إذن تعليلكم هذا غير مقنع.

• • •

والذى ندريه على وجه التحقيق أنه لا يغض من قدر «**الأطيب**» أن يأتى لقاؤه بجبريل أو ملاك الرب أو الشىء... إلخ فى المنام وأنه مجرد رؤيا لأن إبراهيم أبا الأنبياء رأى مع المنام أنه يذبح ابنه(٢٧٣). ويوسف الجميل المليح الذى استأثر

بشطر الحسن وترك لسائر البشر ذكوراً وإناثاً منذ زمانه حتى الآن الشطر الآخر[٢٧٤] رأى عدة أحلام نص عليها القرآن المجيد بل يمكن أن نصفه بأنه خريت فى تفسير الرؤى والأحلام، فضلاً عن أن عدداً من أنبياء بنى إسرائيل رأى رؤى بل إن من بين هؤلاء من أخذ يصرح بأن كلام الرب الذى ينقله إلى بنى إسرائيل إنما جاءه وحيا مناميًا.

● ● ●

إذن لو درس أولئك الكتاب المعاصرون ورجال مؤسسة شئون التقديس نتفًا فى علم الأديان المقارن أو طرفاً من تاريخ الأديان لفقهوا أن بُدوّ الملاك جبرائيل لـ«البهى» وهو نعسان فى مغارة حرى أمر لا غبار عليه ولا يهبط بوصة واحدة بمقامه العالى ودرجته الرفيعة.

● ● ●

بعد هذه الفرشة السريعة التى لا محيص عنها نسرد البراهين والحجج والأدلة على أن واقعة مغارة حرى حدثت فى المنام، فهى مجرد رؤيا مثل باقى الرؤى التى رآها من قصصناهم، ونذكر القارئ بما ذهب إليه الإمام الغزالى بأن كل إنسان على درجة من النبوة لأنه يرى رؤى ولا تستطيع مؤسسات شئون التقديس سواء فى مصر المحروسة أو فى غيرها من دول أهل السنة والجماعة إلا أن تحنى هاماتها القدسانية إجلالاً لحجة الإسلام.

أولاً: المصادر أو كتب التراث:

١ـ « ... فقال رسول الله ﷺ: جاءنى ـ أى جبريل ـ وأنا نائم فقال اقرأ ...»[٢٧٥].

٢ـ « ... قال رسول الله ﷺ: فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ ...»[٢٧٦].

٣ـ «قال رسول الله ﷺ: فجاءنى وأنا نائم بنمط وهو ضرب من البسط، وفى رواية: جاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب أى كتابة فقال: اقرأ فقرأتها فانصرف عنى وهببت أى استيقظت من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتاباً»[٢٧٧].

٤ـ «وفى حديث عبيد بن عمير أنه ﷺ رأى فى منامه أيضاً جبريل ومعه نمط من ديباج فيه كتاب فقال له: اقرأ. فقال له: ما اقرأ فغته به حتى ظن رسول الله ﷺ أنه الموت ثم أرسله فقال: اقرأ. قال: ماذا اقرأ. ما قال ذلك افتداء منه أن يعود إليه بمثل ما صنع قال: اقرأ باسم ربك الذى خلق.. فقرأها رسول الله ﷺ ثم انتهى فانصرف جبريل وهب رسول الله ﷺ من نومه قال: فكأنما كتب فى قلبى كتابًا فذكر ذلك لخديجة فقالت: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً»[٢٧٨].

٥ـ «قال رسول الله ﷺ: فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ

فـقــرأتهـا ثم انتـهـى فـانصــرف وهبـبت من نومى فكأنما كـتب فى قلبى كتاباً»[٢٧٩].

٦ـ «قـال رسـول الله ﷺ: فـجـاءنى وأنا نائم فـقـال: اقـرأ. قلت: مـا أقـرأ فـغطنى حتى ظننت أنه الموت ثم كشـفه عنى فقال: اقرأ، قلت وما اقرأ فعاد لى بمثل ذلك ثم قـال: اقـرأ، قلت ومـا اقـرأ فـقـال: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ إلى قوله: ﴿مـا لم يعلم﴾، ثم انتهى فـانصـرف عنى وهببت من نومى فكأنما صور فى قلبى كتاب»[٢٨٠].

ونقتصر على الستة مصادر هذه وهى من القمم الشوامخ بين دواوين السيرة المحـمـدية العطرة التى هى أجـمـل رائحـة من نشـر القـطر ويكفى أنـه جـاء على رأسها سيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام.

آخراً: المراجع الحديثة والمعاصرة:

١ـ «وفـيـمـا هو نائم يومـا جـاءه ملك وفى يده صـحـيـفـة فـقـال له: اقـرأ. فـأجـاب مـأخـوذاً: مـا اقـرأ فـأحـسن كـأن الملك يخنقـه ثم يرسله ويقـول له: اقـرأ، قـال محـمد: مـا اقرأ فأحس كـأن الملك يخنقه كرة أخرى ثم يرسله، ويقـول: اقرأ. قـال مـحـمـد وقـد خـاف.. فـقــرأهـا فـانصــرف الملك عنه وقـد نقـشت فى قلبه»[٢٨١].

٢ـ «فأقبل عليهـا ﷺ وجلس إليها ملتصقًا بها فقالت له: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقـد بعـث رسلـى فى طلبك حتـى بلغوا أعـالـى مكة ورجعـوا... فـقـال ﷺ: جاءنى جبريل وفى يده منديل من حرير فيه كتاب فقال: اقرأ فجذبنى بشـدة حـتى احـتبس منـى النفس فظننت أنه الموت ثم أرسلنى فـقـال: اقـرأ. قلت: مـا أقـرأ فـضـمنى إليـه حـتى ظننـت أنه الموت ثم أرسلنى فـقـال: اقـرأ. قلت: مـاذا اقـرأ؟ فـقـال: ﴿اقـرأ باسم ربك...﴾ ثم انتـهى فـانصـرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى فخرجت»[٢٨٢].

٣ـ «قـال رسـول الله ﷺ: فـجـاءنى جـبـريل وأنا نـائم بنمط من ديبـاج فيـه كتـاب فقـال: اقرأ باسـم ربك.. حتـى ما لم يـعلم.. قال: فقرأتها ثم انتهى فـانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابًا»[٢٨٣].

٤ـ «حـدث ومحـمد ينفق وقته فى الغـار.. فأدركته سـنة خفيفـة من النوم.. ولكنه سـمع صـوتاً كـأنما يأتى من بعيـد.. قـال له الـصـوت: اقـرأ.. فنظر النبى فى منامه فإذا شىء يشبه اللوح قد سطرت عليه سطور لم يفقه منها شيئًا فقال فى صـوت به رجـفـة: مـا أقـرأ.. وانصـرف عنه هذا الطارق الذى ألم به فى نوم فهب من فـراشه.. فقـال: فانصـرف عنى وهببت من نومى فكأنمـا كتبت فى قلبى كتاباً...»[٢٨٤].

٥ـ «وبينما محمد نائم فى الغار ذات يوم وكان قد بلغ الأربعين من عمره فى ذلك

الوقت إذ به يسمع صوتاً يقول: اقرأ. فقال محمد: ما أنا بقارئ. فقال: اقرأ. فقال: ماذا اقرأ؟ قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق...﴾ إلى ﴿ما لم يعلم﴾ فقرأها محمد ثم هب من نومه فزعًا»[٢٨٥].

٦ـ «قال الرسول: أتانى جبريل فى غار حراء وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب يقول: اقرأ.. وهببت من نومى كأنما كتبت فى قلبى كتابًا»[٢٨٦].

إن أهمية المرجع الأخير لا تعود إلى أن مؤلفه الأول من الفرنج حتى ولو اعتنق الإسلام فكاتب هذه السطور من الذين لا يتلقون علوم دينهم من هؤلاء لأن حاجز إتقان اللسان العربى وإجادته يحول دون فهمهم للإسلام فهمًا سديداً وقد قرأت لعدد منهم تعليلات وتحليلات تبعث على الضحك لعدم معرفتهم باللغة العربية على وجهها الصحيح ولو أن هذا لا يمنعنى من تقدير ما بذلوه أو كثير منهم فى هذا المضمار خاصة تحقيق كتب التراث بيد أن هناك صدعاً يفصل بين تقديرك لأى شخص وبين صيرورته لك أستاذاً... إلخ ثم سياق الكتابة.

إنما يؤوب «أهمية المرجع» إلى أن من عربه هو الشيخ عبدالحليم محمود «يسمونه الإمام» الذى تربع فيما بعد على عرش مؤسسة شئون التقديس الرسمية فى مصر ومعه ابنه وهو أستاذ فى جامعة الأزهر ولعله نفل أن نزبر «يعنى نكتب» لو أن خبر الرؤيا المنامية مضروب[٢٨٧].

لبادر هذان الشيخان إلى الاعتراض عليه وتبيين بعده عن المصداقية.

• • •

هذه ستة مراجع «نعنى مؤلفات حديثة أو معاصرة» تؤكد أن واقعة المغارة مجرد رؤيا ولم تطاوع مصنفوها نزاهتهم الفكرة أن ينكروها كما يفعل غيرهم وهم يعدون بالعشرات ودعك من الوعاظ وأئمة المساجد وخطباء الجمعة فهؤلاء مع تقديرنا لهم لا يطرحون بحوثاً علمية أو دراسات موضوعية إنما كل همهم ينحصر فى دغدغة عواطف الجماهير والحصول على صيحات إعجابهم... إلخ.

لا نريد أن نجور على الكتبة المحدثين أو المعاصرين فهم لم ينفدروا بهذا المسلك المعيب والمنهج الخاطئ والمنحنى المعوج بل سبقهم على الدرب شيوخ من السلف نكتفى بـ:

«فقول أم المؤمنين عائشة «ولما بدئ به من الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» يقوى ما ذكره محمد ابن إسحق بن يسار عن عبيد بن عمير الليثى أن النبى ﷺ قال: فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. فقلت: ما اقرأ فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى، وذكر نحو حديث عائشة سواء فكان هذا كالتوطئة لما يأتى بعده من

اليقظة وقد جاء مصرحاً بهذا فى مغازى موسى بن عقبة عن الزهرى أنه رأى ذلك فى المنام ثم جاءه الملك فى اليقظة.

وقد قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه «دلائل النبوة»:

«حدثنا... عن علقمة بن قيس قال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحى بعد وهذا من قبل علقمة بن قيس نفسه وهو كلام حسن يؤيده ما بعده»[٢٨٨].

وواضح أن ما أتوا به لا يصل إلى مرتبة الدليل بل قرائن واهية اتسمت بالتمحل وعلاها الفتور وبدا على ملامحها الخور وظهر على قسماتها الإعياء وشابها البوخ «الانطفاء» وامتطاها البهر «شدة التعب» وركبها الإفلاس، وفندناها ولا داعى لتكراره.

• • •

وليس معناه أن واقعة مغارة حرى إذ حدثت فى المنام وليست سوى رؤيا أن «الحميد» لم يقابل ملاك الرب جبريل على الإطلاق فهذا ما لا نذهب إليه البتة ولم ولن يخطر لنا على بال إذ أن القرآن الكريم والسنة المطهرة فيهما نصوص تقطع به وأنه فى مرات نزل على هيئة الصحابى دحية الكلبى الذى نافس الفتى الحليوة يوسف فى حسنه وبهائه لدرجة أنه «الكلبى» تعود عند الخروج من داره على أن يضع نقاباً على وجهه كما تفعل المرأة الحسناء لأن نسون يثرب «ثيبات وأبكاراً» عندما يرونه سافراً يتدلهن به ويفتتن بجماله ـ بيد أن الذى لم أقف عليه: هل فعل جبرائيل مثله عندما تشكل على صورته أم لا؟ ولو أننى أرجح أنه لا حاجة له به «بالنقاب» لأن جماهير المسلمين «إناثاً وذكورًا» لم تتح لهم الفرصة أو الصلاحية لمشاهدة رسول السماء إلى الأنبياء.

ومقابلة جبرائيل لـ«الغطمطم» عقب رؤيا المغارة المنامية لا يدخل فى إطار بحثنا الذى يتوقف عند هذه الواقعة المدهشة التى أعلنت نجاح التجربة المذهلة بأن قدمت «المأمول» الذى أوشك صبر العرب أن ينفد وهم ينتظرونه.

تلك التجربة التى خططت لها الطاهرة المطهرة خديجة ثم نفذتها بمهارة يعز نظيرها وأثبتت أنها هندوز لا يشق لها غبار وأشرف عليها الشيخ الجليل والقس العالم اليعسوب ورقة بن نوفل.

ونأمل أن التوفيق حالفنا فى عرضها عرضاً موضوعيًا وتحليلها تحليلاً علمياً خاطباً عقل القارئ الحصيف الفطن قبل وجدانه ولاقياً منه القبول والاقتناع.

• • •

الهوامـش

(١) ونحن نلتمس العذر لصاحب هذا الرأى فقد طالعت ـ من بين المراجع التى قصدتها ـ واحداً ضخماً ومع ذلك فلم تتجاوز مصادره ومراجعه العشرة إلا بواحد أو اثنين ومؤلفه له اسم لامع وطبع عدة مرات ومن ثم فلا عجب أن يمتلئ بالجمل الخطابية.

(٢) الأنصار فيما بعد وهى تسمية تعبوية لا نسبية جاءت على خلف مع تقاليد العرب. أ.هـ.

(٣) أخبرتنا كتب السيرة التى هى أحلى من سكر الأهواز أن زوجات «صاحب السيف» بلغن أكثر من العشرين بخلاف ملك اليمين ولو أنه لم يدخل ببعضهن وصفصف العدد على تسع بخلاف من تهب نفسها إليه ـ فى «القاموس المحيط»: الصفصف المستوى من الأرض أ.هـ. فى حين أنه ظل مع سيدة نسون قريشا ما ينيف على ربع قرن، لم يتزوج غيرها ومكتف بها مع أنه فى ذياك الوقت فى عرامة الشباب وقمة الرجولة وعنفوان الفحولة وهذه مسألة تحتاج إلى دراسة مستفيضة من كافة النواحى وخاصة الجانب السيكولوجى أ.هـ. والدينى.

ـ فهو «محمد» قد تزوج خديجة رضى الله عنها وكانت أكبر منه بعدة سنوات وسبق أن تزوجت عتيق بن عابد بن مخزوم وأنجبت له ثم تزوجت من أبى هالة بن مالك وأنجبت له وكان رسول الله ﷺ فى الخامسة والعشرين وقيل الواحد والعشرين، أو نحو ذلك أى فى شرخ الصبا وريعان الشباب.. ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجته ما يقرب من ثمان وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين. «زوجات الرسول ﷺ وتعدد الزوجات فى الإسلام: إعدد أصلان عبدالسلام حسن، ص ١١، ط ١٩٨٧، العدد ٤١٨ من سلسلة المكتبة الثقافية الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٤) دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين لاشين وآخر، ص ١٦.

(٥) الرحمة المهداة محمد ﷺ: للشيخ محمد سيد طنطاوى، شيخ الأزهر، ص ١٩٢، الجزء الثانى، هدية مجلة الأزهر ربيع أول ١٤١٩هـ.

(٦) يوكى: يملأ وأوكى الطائف بين الصفا والمروة، ملأهما سعياً، من «كتاب الأفعال» تأليف أبى عثمان سعيد بن محمد المعافرى والسرقسطى، الجزء الرابع، القسم الأول تحقيق د. حسين محمد محمد شرف، ود. محمد مهدى علام مجمع اللغة العربية ـ الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، الاهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٧) فى صحيح اللغة لا يقال يتم الولد إلا إذ فقد أباه ومن غير الآدميين إذا ماتت أمه، انظر على سبيل المثال «كتاب الأفعال» لأبى عثمان السرقسطى، مصدر سابق.

(٨) الرسول فى رمضان: ص ص ١٦ - ١٨.

(٩) نقلاً عن المسالك والممالك: لأبى عبيد البكرى.

(١٠) سبق شرحها.

(١١) الآيتان: ٦، ٧ من سورة العلق.

(١٢) الآية الأولى من سورة التكاثر.

(١٣) الآيتان الأولى والثانية من سورة الماعون.
(١٤) الآيات ١، ٢، ٣ من سورة الهمزة.
(١٥) الآيتان الأولى والثانية من سورة المسد.
(١٦) الآيات ١١، ١٢، ١٣ من سورة المدثر وهى من أوائل سور القرآن العظيم.
(١٧) محمد رسول الله: مولاى محمد على، رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور ترجمة مصطفى فهمى وعبدالحميد جودة السحار، ص ٥٤، ١٩٧٨م، مكتبة مصر، الفجالة، مصر.
(١٨) فى المعجم الوجيز: المذرب اللسان.
(١٩) الغتمة هى العجمة والأغتم الذى لا يفصح شيئًا من «المختار من صحاح اللغة».
(٢٠) العى وقد فهفه أى كل لسان «المعجم الوجيز».
(٢١) عقد فى الكلام من «نظام الغريب فى اللغة» للوحاظلى الحميرى، مصدر سابق.
(٢٢) السيرة النبوية: للذهبى، ص ٣٢٧، مصدر سابق.
(٢٣) أعلام النبوة: لأبى الحسن الماوردى، ت ٤٥٠هـ، ص ٢١٢، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٢٤) عبقرية محمد: عباس محمود العقاد، ص ٨٢، مرجع سبق لنا ذكره.
(٢٥) والد الخمير السكير اللاعب بالطنابير يزيد.
(٢٦) خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها: تأليف عبدالمنعم محمد عمر، ص ٤٩ من الطبعة الثالثة ١٩٩٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٢٧) دلائل النبوة ومعجزات الرسول: عبدالحليم محمود وآخر، ص ٢٢٠، سابق.
(٢٨) ونحن نرى أنه «الفارق ناهز الربع قرن».
(٢٩) فى معاجم اللغة: العسيف هو الأجير.
(٣٠) تعبير شعبى مصرى معناه أنه فتى بكر لم يتزوج ولا نرى بأساً من استعارته.
(٣١) عمار هذا مولى لبنى مخزوم رهط سامق فى قريش وفيما بعد أخطأ فى حق خالد بن الوليد المخزومى فى حضور «سيد ولد آدم» فقال: أتترك هذا العبد يشتمنى.
(٣٢) فى المعجم الوسيط: المحراب: صدر البيت وأكرم موضع فيه.
(٣٣) الآية ٣٩ من سورة طه.
(٣٤) أحد الكتبة المحدثين أطلق على واعظ ونجم تليفزيون أنه ترجمان القرآن مشبهاً إياه بعبدالله بن عباس ولا ندرى كيف وصلت به الجرأة إلى هذا المدى الفلوت!!
(٣٥) تنوير المقباس تفسير ابن عباس: لصاحب القاموس الفيروز آبادى المتوفى سنة ٨١٧هـ، الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، نشرته مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر، ونحن نعلم أن هناك من يشك فى نسبة ما ورد به إلى الخبر.
(٣٦) الجامع لأحكام القرآن: المشهور بتفسير القرطبى، طبعة كتاب الشعب.
(٣٧) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: للإمام فخر الدين الرازى ٥٤٤/٦١٠هـ، المجلد العاشر، الطبعة الأولى ١٩٩٣م/١٤١٣هـ، الناشر دار الغد العربى، العباسية، مصر.
(٣٨) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: لابن جزى الكلبى، الجزء الثالث، د.ت.ن، دار الكتب العربى بيروت.
(٣٩) مجاز القرآن: لأبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى، الجزء الثانى، تعليق د. محمد فؤاد، سركيس، د.ت.ن، الناشر مكتبة الخانجى بمصر.
(٤٠) تفسير النسفى: للعلامة أبى البركات عبدالله النسفى، الجزء الثالث، د.ت.ن، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
(٤١) أنور التنزيل وأسرار التأويل: المسمى تفسير البيضاوى: تأليف الإمام ناصر الدين الشيرازى البيضاوى، د.ت.ن، دار الفكر للطباعة والنشر دون ذكر المدينة.
(٤٢) المختصر فى تفسير القرآن: مختصر تفسير الإمام الطبرى لابن صمادح التجيبى، تحقيق د.

عدنان زرزور، الطبعة الأولى ١٣٩٩/١٩٧٩م مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٤٣) تفسير الجلالين: تأليف الإمامين الحلى والسيوطى، دون تاريخ نشره عبدالفتاح عبدالحميد مراد، مكتبة الجمهورية العربية، الأزهر، القاهرة.

(٤٤) تاج التفاسير لكلام العلام الكبير: المجلد الثانى، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة القرآن والسنة، مصر.

(٤٥) التفسير الميسر: لـ د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، هامش على مصحف الأزهر، وهو بذلك حاز التوثيق الرسمى من جهتين: - الجهة التى أصدرته: الأزهر. - الذى حرره هو شيخه.

(٤٦) فى ظلال القرآن: سيد قطب، المجلد الرابع ص ٢٢٣٥، الطبعة الحادية عشرة، دار الشروق بمصر.

(٤٧) فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية: قلوظة: صنعه على هيئة القلاووظ وهو المسمار ذو السن الملولب الذى يثبت بالتدوير لا بالدق.

(٤٨) فى مختار الصحاح للرازى: بنو علات: أولاد الرجل من نسوة شتى أى إخوة غير أشقاء.

(٤٩) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٩١ - ٩٤، من المجلد الأول د.ت. الناشر: دار المعرفة ببيروت.

(٥٠) السيرة النبوية: للذهبى، ص ٦٥.

(٥١) الآية الخامسة من سورة النجم.

(٥٢) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٧٥.

(٥٣) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٠.

(٥٤) العامة فى مصر تقول: فزورة. فهى شىء والشىء يطلق على الكل بديا بالذات العلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الآية الحادية عشرة من سورة الشورى.

(٥٥) الآية ٦٠ من سورة القصص.

(٥٦) آية ١٥٤ من سورة الإسراء.

(٥٧) السيرة الحلبية: ص ٣٨١، الأول.

(٥٨) السيرة النبوية: لابن هشام، الأول، ص ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٥٩) أعلام النبوية: للماوردى، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٧.

(٦٠) السيرة الشامية: الثانى، ص ٣٠٩، لمحمد يوسف الصالحى الشامى.

(٦١) الآية الأولى من سورة عبس.

(٦٢) انظر على سبيل المثال «قصة الغار ولماذا اختلقت؟» ص ٣٣ وما بعدها وهو الفصل الثالث من كتاب «فى السيرة النبوية، القسم الأول، الوحى والقرآن والنبوية» د. هشام جعيط، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الطليعة، بيروت، لبنان.

(٦٣) خربق المحل: أفسده «المعجم الوسيط».

(٦٤) سورة الأحزاب الآية: ٢٣.

(٦٥) وكظه أى دفعه من «كتاب الأفعال» لأبى عثمان سعيد المعافرى السرقسطى، الجزء الرابع، القسم الأول، مصدر سابق.

(٦٦) المستدرك: للحاكم النيسابورى، الحديث ٤٨٤٠/٣٠، المجلد الثالث.

(٦٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٠٦.

(٦٨) دراسات فى السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ص ٧٩، مرجع سابق.

(٦٩) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للقمى النيسابورى تحقيق حمزة النشرتى وآخرين، ص ٤٢٨، المجلد الحادى عشر.

(٧٠) محمد الثائر الأعظم: فتحى رضوان، ص ص ٩٢ - ٩٣.

(٧١) حياة محمد: لهيكل، ص ١٤٦.

(٧٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية، الملكية: هـ.أ. وجب. كالمرز ترجمة د. راشد البراوى، الجزء الأول، طبعة ١٩٨٥م، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٣١٣، ٣١٤.

(٧٣) الرسول فى رمضان: الخربوطلى، ص ٢٠ وما بعدها.

(٧٤) نساء النبى: ص ٣٤، بنت الشاطئ.

(٧٥) التفسير البيانى للقرآن الكريم: الجزء الأول، ص ٤٨، د. عائشة عبدالرحمان ـ بنت الشاطئ. مكتبة الدراسات الأدبية، ٢٥ الطبعة الثانية ١٩٦٨م، دار المعارف بمصر.

(٧٦) سلام على النبى وأصحابه: مصطفى بهجت بدوى، ص ٤٩، الطبعة الأولى مايو ١٩٨٦م، العدد رقم ٤٢٥، فى سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال بمصر.

(٧٧) الرسول فى رمضان: ص ٢٠ الخربوطلى.

(٧٨) فى المعجم الوسيط: القرف: مخالطة ما يستكره.

(٧٩) محمد رسول الله: جلال مظهر، ٤٦.

(٨٠) أوائل العرب عبر العصور والحقب: طاهر جليل حبوش، الجزء الثانى، الخلافة الراشدة: هامش ص ١٠٦، د.ن بغداد، العراق.

(٨١) سيرة المصطفى ـ نظرة جديدة: تأليف هاشم معروف الحسنى، ص ١١٩، ط أولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

(٨٢) سيرة المصطفى ﷺ: لعبد الزهراء عثمان محمد، ص ١٥، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الفكر الإسلامى للثقافة والإعلام، بيروت، لبنان.

(٨٣) كلمة عربية فصيحة وتدل على ذات المعنى الذى تهدف إليه العامة فى مصر.

(٨٤) عبدالرحمن بن عوف هو أحد المبشرين العشرة أو العشرة المبشرين بالجنة والذى قام بدور بالغ البظو فى حرمان أبى الحسنين من حقه الشرعى فى الخلافة وتوليه الأموى عثمان بن عفان إياها فبدأ بتحويلها إلى ملك عضوض ثم أكمل المسيرة ابن عمه معاوية ومن جاء بعده من السفيانيين والمروانيين الأماجد!!

(٨٥) فى معاجم اللغة: الفتر ما بين السبابة والإبهام.

(٨٦) صداقها وكلفتها.

(٨٧) ما يشرى به الجارية.

(٨٨) دراسات فى السيرة وعلوم السنة: موسى شاهين لاشين وآخر، ص ٩١، سابق.

(٨٩) هذا الرقم من خصائصه إذ المسلم لا يحل له سوى أربع زوجات فى وقت واحد.

(٩٠) نحن نرجح أن الشافعى تعلم اليونانية وقرأ كتب أرسطو واستفاد منها كثيراً فى ابتداعه علم «أصول الفقه» كما أننا نذهب إلى أن أول من تكلم فيه هو الإمام الأعظم أبو حنيفة وجاء الشافعى بعده فقعده ومنهجه لأن العقل العربى ليس مؤهلاً لإبداع علم فى المنطق.

(٩١) الطبقات الكبرى: ابن السبكى الجزء الثانى ص ٢١٨، نقلا عن ترجمة فتح المبدى، «شرح مختصر الزبيدى» للشرقاوى، الجزء الأول ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م، كتاب الشعب، دار الشعب بمصر.

(٩٢) مرات عديدة نقلت إلينا كتب السنة المشرفة أن «الفضيلة» كثيرٌ ما قال لصحبه وتبعه «إنى داع فأمنوا» فيهرعون إلى التأمين على الفور لا التراخى لأن البركة فى الإذعان والتسليم والاتباع أما المبتدعون فلهم نار الحطمة وما أدراك ما هى ولذا قال «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار».

(٩٣) الخليط الذى يختلط بالناس كثيراً والجمع خلطاء من «المصباح المنير» للمقرى الفيومى.

(٩٤) تقول العامة في مصر: انظف من الصينى بعد غسيله.

(٩٥) محمد رسول الله: ص ٤٧، جلال مظهر.

(٩٦) تقول العامة فى مصر: ما يقدرش يكح.

(٩٧) اتبعنا فى هذا الترتيب ما جاء من المصحف لا الترتيب الذى تلاه «محمد» على صحابته لأنه

معضل لم يتوصل إلى ضبطه أحد لا من السلف ولا من الخلف.

(٩٨) التيسير خلاصة تفسير ابن كثير: المتوفى ٧٧٤ بقلم محمود محمد سالم، خريج الأزهر ص ٨٠٢، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، نشرته دار الشعب فى مصر.

(٩٩) التفسير الواضح: لمحمد محمود حجازى من علماء الأزهر، الجزء التاسع عشر ص ٧، الطبعة الأولى «دون تاريخ» دار الكتاب العربى بمصر.

(١٠٠) المصحف المفسر: د. حمزة عبدالله النشرتى، ص ٣٠٥، الطبعة الأولى ١٤١٩/١٩٩٩م دون ذكر الناشر.

(١٠١) كلمة عربية صحيحة سبق شرحها وأنها تنفح أو تمنح الدلالة ذاتها التى تقصدها العامة فى مصر.

(١٠٢) فى أساس البلاغة: للزمخشرى: أحلاس الشىء - الملازمون له والألفون له.

(١٠٣) فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية: مكان مرت - لا نبات فيه ورجل مرت الحاجب - ليس على حاجة شعر.

(١٠٤) سورة الزلزلة الآيتان الثالثة والرابعة.

(١٠٥) سيرة المصطفى - نشرة جديدة: لهاشم الحسنى، ص ص ٢٠ - ٢١ سابق.

(١٠٦) سبق شرحها.

(١٠٧) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الجزء الثانى، ص ٨٠، مصدر سابق.

(١٠٨) دولة يثرب - بصائر فى عام الوفود: خليل عبدالكريم، ص ٧٤، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العرب، بيروت.

(١٠٩) الأغانى: للأصفهانى، الجزء ١٥، ص ٩٥ نقلا عن «قبيلة إياد من العصر الجاهلى حتى نهاية العصر الأموى» د. محمد إحسان النص ص ٤٦، الحولية الثامنة، الرسالة السابعة والأربعون ١٤٠٧/١٤٠٨/١٩٧٨م، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت.

(١١٠) البيان والتبيين: للجاحظ، الجزء الأول، ص ٥٨، نقلاً عن «قبيلة إياد» للنص ص ٤٧، مرجع سابق.

(١١١) ما برحت الطاهرة تناديه يا أبا القاسم ولم يحدث أنها خاطبته بيا رسول الله إلا فى ما ندر أى استثناءً والاستثناء لا يقاس عليه - هذا فيما طالعناه من كتب تراثية دعك من المؤلفات الحديثة التبجيلية - ولم ترو عنه حديثا واحداً بل هو الذى نقل إليها تحيات الله والروح الأمين ذى القوة وتبشيره إياها ببيت فى الجنة أ.هـ.

(١١٢) فى السيرة النبوية: لهشام جعيط، الجزء الأول، ص١٢٠، مرجع سابق.

(١١٣) ص ١٢ من ذات المرجع.

(١١٤) سبق شرحها والعامة فى القاهرة تقول: حدوتة، أما فى صعيد مصر فتقول: حكيوة أ.هـ.

(١١٥) عدن أى أقام ومنها جنة عدن المأوى والإقامة الدائمة.

(١١٦) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول ص ١٤٠.

(١١٧) سيرة المصطفى - نظرة جديدة: لهاشم الحسنى، ص ٥٥، مرجع سبق ذكره.

(١١٨) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٤.

(١١٩) فرشت فرشا - بسطت فرشا أو كلاما من «كتاب الأفعال» لأبى عثمان السرقسطى، سابق.

(١٢٠) فتح المبدئ شرح مختصر الزبيدى: للشرقاوى، تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، ص ٩١، الجزء الثانى، طبعة ١٤١١/١٩٩٠م، كتاب الشعب، الشعب للنشر بمصر.

(١٢١) معناها أن تهرول أو تسرع وقد سبق شرحها أ.هـ.

(١٢٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨.

(١٢٣) الروض الأنف: للسهيلى، الأول، ص ٣٠٦، ط شقرون.

(١٢٤) أبو ذر الغفارى من القلة القليلة وربما النادرة من صحابة محمد الذين عاشوا حياتهم بعد انتقاله

إلى الرفيق الأعلى كما عاشوها فى حياته، أما الأغلبية العظمى فقد غيرتهم الدنيا باعتراف العدوى عمر بن الخطاب ومن أراد المزيد من العلم بهذه النقطة فعليه بكتابنا «شدو الراية بأحوال مجتمع الصحابة» بأسفاره الثلاثة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سينا للنشر بالاشتراك مع مؤسسة الانتشار العربى، بيروت.

(١٢٥) الموسوعة الإسلامية الميسرة: المجلد الأول ١٤١، ص ١٤٢، سابق.

(١٢٦) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٣.

(١٢٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٤.

(١٢٨) فى السيرة النبوية ـ ١ ـ الوحى والقرآن والنبوية: لهشام جعيط، ص ١٢٥، مرجع سابق.

(١٢٩) السيرة النبوية: للذهبى، ص ٧٠.

(١٣٠) أنساب الأشراف: للبلاذرى، الأول، ص ١١١.

(١٣١) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٤٠٣-٤٠٦.

(١٣٢) الخصائص الكبرى: للسيوطى، المجلد الأول ص ٢١٦.

(١٣٣) لابد أن الحمزة هذا شهد رقص الجوارى فى حفلة العرس وعب وتضلع من «الخمرة» حتى ثمل فقد عرف عنه تعاطيها وعندما نزح إلى يثرب نقلت كتب السيرة المحمدية العظيمة واقعة عن سكره البين إذ عقر ناقة مملوكة لابن أخيه على بن أبى طالب الذى استنجد بـ«الحبيب المصطفى» فما إن بدأ فى معاتبة عمه المخمور حتى وجه إليه كلاماً فالتا لا يجرؤ مسلم على مخاطبته به فتركه وانصرف إذ إنه ظل طوال حياته كريم الأخلاق حليماً صبوراً لم تر قريش ولا جزيرة العرب مثله فى عظم شمائله.

(١٣٤) الإغذاد: سرعة السير من كتاب «نظام الغريب فى اللغة» لعيسى الحميرى، مصدر سابق.

(١٣٥) هو فرع متدن من قريش ولو أن واحداً من بنيه يسمى عبدالله بن جدعان جمع مالاً ممدوداً من الربا والنخاسة وعرق العبدان وأفخاذ الجوارى صواحب الرايات الحمر، حاول أن يرفع من قدره دون جدوى وحتى بعد أن اغتصب هذا «العتيق» الخلافة من صاحب الحق الشرعى فيها على بن أبى طالب لم يتزحزح بنو تيم عن موقعهم الخفيض فى قريش.

(١٣٦) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول ص ٢٢١.

(١٣٧) رفعت الصداقة الكلفة بينهما: رفعت ما يتجشم من أنواع المجاملات، «المعجم الوسيط».

(١٣٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ص ٣٩٨-٤٠١، مصدر سبق ذكره.

(١٣٩) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٨٢-٨٤، المجلد الأول، د.ت الناشر دار المعرفة، لبنان.

(١٤٠) وخد: سار بخطى واسعة «أساس البلاغة» للزمخشرى.

(١٤١) أنساب الأشراف: للبلاذرى، الأول، ص ص ١٠٥، ١٠٦.

(١٤٢) السيرة النبوية: لابن كثير ذات الجزء أو المجلد وذات الصفحة.

(١٤٣) السيرة الشامية: ص ٢١٣ وما بعدها.

(١٤٤) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢١٩ السيوطى.

(١٤٥) صحيح البخارى: كتاب بدء الوحى، الحديث الثالث.

(١٤٦) الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول آى الذكر الحكيم: لحمزة النشرتى وآخرين، المجلد الأول، ص ٢٠٧، د.ت.د.ن.

(١٤٧) الخصائص الكبرى: للسيوطى، ص ٢١٥.

(١٤٨) مما هو جدير بالذكر أن لبس العباءة من قبل رجل الدين هو تقليد يهودى أخذوه عن رجال الدين فى مصر القديمة عندما لجأوا إليها هرباً من المجاعة والقحط أ.هـ.

(١٤٩) المفردات فى غريب القرآن: للراغب الأصفهانى، سابق.

(١٥٠) أساس البلاغة: للزمخشرى.

(١٥١) كتاب التعريفات: للجرجانى ٧٤٠/٨١٦، حققه إبراهيم الأبيارى، الطبعة ١٤٠٥/١٩٨٥، دار

الكتاب العربى، بيروت، لبنان.
(١٥٢) المصباح المنير: للفيومى.
(١٥٣) الأحلام بين العلم والعقيدة: د. على الوردى، ص ٣٩، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، دار كوفان، لندن.
(١٥٤) الأحلام: للدكتور توفيق الطويل، ص ٩٤ نقلا عن بحث «تحليل كتاب الأحلام» لـ د. حسن الساعاتى فى الكتاب التذكارى لتوفيق الطويل، ص ١٠٠.
(١٥٥) السيرة الحلبية: الأول، ص ٢٧٨.
(١٥٦) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ترجمة مختصرة لقاموس موريش، ص ١٩٦، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، الناشر مكتبة كنيسة الأخوة، شبرا مصر.
(١٥٧) النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ: تأليف على مبروك، ص ٩٨، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار التنور، بيروت، لبنام.
(١٥٨) نحن نحييه لأنه لم يقل عنها: الجاهلية أ.هـ.
(١٥٩) غرائب القرآن: للنيسابورى، مجلد ١١، ص ٤٢٦.
(١٦٠) فى هامش الصفحة: انظر «دلائل النبوة» لأبى نعيم حيث أورده من حديث طويل رقم ١٠٣٦/٢١٥/٢١٦، وحلاوة القفا: وسطه كما فى «المعجم الوسيط». «زهر الخمائل على الشمائل ـ أوصاف النبى ﷺ» جلال الدين السيوطى ٤١-٩١١، تحقيق مصطفى عاشور، ص ٤٧، ط ١٩٨٨، مكتبة القرآن.
(١٦١) الخصائص الكبرى: للسيوطى، المجلد الأول ص ٢١٦.
(١٦٢) الإسراء: الآية ٤٦.
(١٦٣) العنكبوت: الآية ٤٩.
(١٦٤) الأحلام: د. على الوردى، ص ٧٤، سابق.
(١٦٥) الأحلام: د. على الوردى، ص ٩٦، مرجع سابق ذكره.
(١٦٦) الأحلام: لـ د. على الوردى، مرجع سابق لنا ذكره.
(١٦٧) دانيال ٨: ٥-٢٢.
(١٦٨) النبوة ـ من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ: على مبروك، ص ٦٢، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار التنوير، بيروت، لبنان.
(١٦٩) الأحلام: لـ د. توفيق الطويل، ص ١٢٥، نقلا عن دراسة د. حسن الساعاتى «تحليل كتاب الأحلام لتوفيق الطويل» بالكتاب التذكارى د. توفيق الطويل مفكراً عربياً ورائداً للفلسفة الخلقية بحوث عنه ودراسات مهداة ـ إشراف وتصدير د. عاطف العراقى ١٩٩٥م، المجلس الأعلى للثقافة، وزارة الثقافة، مصر.
(١٧٠) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ص ١٩٦، مرجع سابق.
(١٧١)، ١٧٢ أشعيا الأول: ١٠.
(١٧٣) عاموس الأول: ٢.
(١٧٤) عاموس: الثالث،١، ٢.
(١٧٥) عاموس: السابع، ١٥.
(١٧٦) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢٢٢، للسيوطى.
(١٧٧) نحن نشك فى نسبة هذه الأوصاف إلى محمد ونرجح أنها أضيفت إلى جانب ابن عباس إبان خلافه أحفاد العباسيين ـ لأن هذا العبد الله عندما لحق «من جعلت له الأرض مسجداً» بالرفيق الأعلى بالكاد ـ العامة فى مصر نقول: يا دوبك ـ راهق الثانية عشرة من عمره فكيف يطلق «الفارق بين الحق والباطل» على حدث «حبر الأمة وترجمان القرآن».
وبعد سنوات ولاه ابن عمه الإمام على مفاتيح بيت مال الكوفة فلما سمع عنه أبو الحسن أشياء تمس الذمة طفق يحاسبه وضيق عليه الخناق فاستولى على جميع ما فيه وكنسه ورشه وهرب

بليل فى حراسة أصهاره واشترى بالمال جاريتين وضيئتين من السبايا وعدن فى الطائف ليجتمع له طيب هوائها مع جمال... أ.هـ.

(١٧٨) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ١٧٨ - ١٨١.

(١٧٩) محمد الثائر الأعظم: لفتحى رضوان، ص ١٠٤.

(١٨٠) الآية ٢١ من سورة النور.

(١٨١) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٠.

(١٨٢) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ٣٠٦، ٣٠٧ سابق.

(١٨٣) الرسول فى رمضان: على الخربوطلى، ص ص ٢٠ - ٢٤.

(١٨٤) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(١٨٥) الأحلام: للدكتور توفيق الطويل، ص ص ١٢٨ - ١٣٥، نقلاً عن دراسة د. حسن الساعاتى، مرجع سابق.

(١٨٦) من الذين اتجهوا إلى تأثر دانتى بالتراث الإسلامى وخاصة حديث الإسراء والمعراج ورسالة الغفران للمعرى وكتابات بعض المتصوفين مثل محيى الدين بن عربى: المستشرق الأسبانى ميجويل أسين بلاثيوس ولقد أيده بعض الباحثين وعارضه آخرون، ص ص ٦٠-٦١ من «الكوميديا الإلهية» النشيد الأول، الجحيم، لدانتى أليجييرى. ترجمة حسن عثمان الطبعة الأولى ١٩٥٩، دار المعارف بمصر.

(١٨٧) هنالك شبه إجماع من المؤلفين قدامى ومحدثين فى السيرة المحمدية التى هى أزكى ريحاً من المسك الأصهب على التضبيب على هذه الحادثة مع أنها فى نظرنا تتسم بقدر من الأهمية أ.هـ.

(١٨٨) الأحلام بين العلم والعقيدة: د. على الوردى، ص ٣٣، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار كوفان، لندن.

(١٨٩) دانيال: ١٠.

(١٩٠) آدم: مس الخبز بالأدام مساً رقيقاً ثم أخذت معنى اقتصر.. «المعجم موسوعة لغوية علمية فنية» القسم الأول، للشيخ عبدالله العلايلى، الطبعة الثالثة، ١٩٠٩٧، دار الجديد، بيروت، لبنان.

(١٩١) الأحلام: د. على الوردى، ص ٣٩، مرجع سبق ذكره.

(١٩٢) ذات المراجع والصفحة.

(١٩٣) ذات المراجع والصفحة.

(١٩٤) الأحلام: د. على الوردى، ص ٤٠ سابق.

(١٩٥) السمط الثمين: للمحب الطبرى، ص ٤١.

(١٩٦) إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون. الشهير بالسيرة الحلبية: لعلى بن برهان الدين الحلبى ٩٧٥ . ١٠٤٤ الجزء الأول، ص ٣٧٧، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، الناشر: مصطفى البابى الحلبى، بمصر.

(١٩٧) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ص ٤٠٧ - ٤١٠.

(١٩٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول ، ص ص ٤٠٧، ٤١٠.

(١٩٩) السمط الثمين: للمحب الطبرى، ص ٣٩، وما بعدها سابق.

(٢٠٠) مولد النبى ﷺ: للإمام السيد جعفر البرزنجى، تصحيح وضبط ومراجعة أبو الفضل الصديق الغمارى، ص ١٣ - ١٥، د.ت.ن مكتبة القاهرة الصنادقية بمصر.

(٢٠١) السيرة الشامية: الثانى، ص ٣٠٨.

(٢٠٢) تهذيب سيرة ابن هشام: الأول، لعبد السلام هارون، ص ٥٨.

(٢٠٣) دائرة المعارف الكتابية: الجزء الأول، ص ٣٠٧، مصدر سابق.

(٢٠٤) صحيح البخارى: كتاب بدء الوحى.

(٢٠٥) فتح البارى: للعسقلانى، ص ٣١ فى شرح الحديث الثالث، إصدار المطبعة السلفية، مصدر سابق.

(٢٠٦) ذات المصدر والصفحة.

(٢٠٧) يلاحظ أنه عندما انتقل «الإنسان الكامل» إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيًا لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها!!.

(٢٠٨ - ٢١٠) خروج : ١٩.

(٢١١) وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فهناك خناقة لرب السماء «حسب تعبير عامي شائع في مصر» بين المسلمين والنصارى «المسيحيين حاليا» على من يستحق لقب رئيس الملائكة أهو جبرائيل أو ميكائيل؟ ولا أدرى ما أهمية أن يحمل اللقب هذا أو ذاك!

(٢١٢) إنجيل متى: الإصحاح الثالث.

(٢١٣) إنجيل متى: الإصحاح الرابع.

(٢١٤) المسلمون يسمونهم الحواريين والمسيحيون يلقبونهم بالرسل أ.هـ.

(٢١٥) إنجيل متى: الإصحاح السابع عشر.

(٢١٦) في المختار من صحاح اللغة: القلة أعلى الجبل وقلة كل شيء أعلاه.

(٢١٧) إنجيل مرقس: الإصحاح الأول.

(٢١٨) إنجيل مرقس: الإصحاح التاسع.

(٢١٩) إنجيل لوقا: الإصحاح الأول.

(٢٢٠) الآية العاشرة من سورة مريم.

(٢٢١) الآية السادسة عشرة وما بعدها من سورة مريم.

(٢٢٢) إنجيل لوقا: الإصحاح الرابع.

(٢٢٣) نفس الإنجيل وذات الإصحاح.

(٢٢٤) السيرة النبوية: لابن إسحق، ص ٩١، المجلد الأول، من إصدارات القطاع الثقافي، بدار أخبار اليوم، مصدر سابق.

(٢٢٥) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، ص ٢٤٤، من الجزء الأول، سابق.

(٢٢٦) تاريخ الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، ص ٢٩٨ - ٣٠٢ الطبعة الرابعة ١٩٧٧، دار المعارف بمصر.

(٢٢٧) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٨٥، ٨٦، من المجلد الأول، د.ت الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢٢٨) الجزء الأول من «السيرة الحلبية» ص ٣٨٦.

(٢٢٩) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. المتوفى سنة ٧٤٨، المجلد الأول، السيرة النبوية الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار الغد العربي، مصر ص ٥٩.

(٢٣٠) العامة في مصر تقول: رجلها برجله.

(٢٣١) السيرة النبوية: لابن كثير، تحقيق د. مصطفى عبدالواحد، الجزء الأول، ص ٤٠٢، مصدر سابق.

(٢٣٢) في أساس البلاغة: للزمخشري نكف: امتنع وانقبض آنفا وحمية.

(٢٣٣) من اشتدت خصومته.

(٢٣٤) حولها الحفدة وهم الخدم والأعوان من «المصباح المنير» على الفيومي.

(٢٣٥) في «أساس البلاغة» للزمخشري: رجل محفود محضود. مجتمع عليه.

(٢٣٦) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين: للمحب الطبري، ص ص ٤٠ - ٤٣، مصدر سابق.

(٢٣٧) الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: للكلاعي، ٥٦٥ . ٦٣٤ . تحقيق مصطفى عبدالواحد، ص ٢٦٥ . الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٣٨٧، ١٩٦٨م، الناشر مكتبة الخانجي، مصر.

(٢٣٨) أخبار مكة: للأزرقي: الثاني، ص ٢٠٤.

(٢٣٩) المصباح المنير للمقرى الفيومى.
(٢٤٠) كتاب المسالك والممالك: لأبى عبيد البكرى الجزء الأول، حققه أدريان فان ليوفن وأنديه فيرى، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، بيت الحكمة، تونس.
(٢٤١) فى منزل الوحى: هيكل ، ص ٢٥٢.
(٢٤٢) محمد رسول الله: لناصر الدين آتيين دينيه وسلمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ محمود عبدالحليم وابنه الشيخ محمد، ص ص ١٠٨ - ١٠٩، ط أولى سنة ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.
(٢٤٣) الرسول فى رمضان: د. على حسن الخربوطلى، ط أولى ديسمبر ١٩٦٧، العدد ٣١١ من سلسلة «اقرأ» دار المعارف بمصر.
(٢٤٤) خاتم النبيين ﷺ: للشيخ محمد أبو زهرة، هامش ص ص ٣٠٦ - ٣٠٧، المجلد الأول.
(٢٤٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٣٨٩ وما بعدها، سابق.
(٢٤٦) البقرة: ١٤٤ - ١٥٠.
(٢٤٧) الرسول فى رمضان: لـ د. على حسن الخربوطلى، ص ٦ وما بعدها سابق.
(٢٤٨) جوامع السيرة النبوية: لابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦هـ، ص ٣٦، ط ١٩٨٢م، «أول طبعة» مكتبة التراث الإسلامى، الأزهر، القاهرة.
(٢٤٩) السيرة الشامية، الجزء الثانى، ص ٢١٦ وما بعدها سابق - سيرة ابن هشام: الأول، ص ٢٤٢، تحقيق السرجانى سابق . السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٢ سابق . الفصول فى اختصار سيرة الرسول: لابن كثير، ص ٨٣ وما بعدها، سابق . شرح السيرة النبوية برواية ابن هشام: لأبى ذر الخشنى، ٥٣٣/٦٠٤، ص ٧٥ وما بعدها سابق.
(٢٥٠) فصلت: ٦.
(٢٥١) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى: ص ص ٧٠ - ٧٤، سابق ذكره.
(٢٥٢) المعجم الوسيط: والغار - مكان منقور فى الجبل يشبه البيت.
(٢٥٣) القاموس المحيط.
(٢٥٤) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ص ٥٥، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، مرجع سابق.
(٢٥٥) فقه السيرة: لمحمد الغزالى، ص ٩٠ وما بعدها، مرجع سابق.
(٢٥٦) سيرة ابن هشام: الأول، ص ٢٤٢، ت السرجانى.
(٢٥٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٣.
(٢٥٨) الفصول فى اختصار سيرة الرسول ﷺ: لابن كثير، ص ص ٨٣ - ٨٤ - ٨٥.
(٢٥٩) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٢.
(٢٦٠) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ص ٣١٦ - ٣٢٠.
(٢٦١) شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام: لأبى ذر الخشنى ٥٣٣/٦٠٤، ص ٧٥ تصحيح بولس برونلة د.ت: دار الكتب العلمية، بيروت.
(٢٦٢) مختار الصحاح: للرازى.
(٢٦٣) المصباح المنير: للمقرى الفيومى.
(٢٦٤) أساس البلاغة: للزمخشرى.
(٢٦٥) القاموس المحيط: للفيروز آبادى.
(٢٦٦) سبق توضيحها وشرحها.
(٢٦٧) شطر استشهد به أبو عثمان كما جاء فى «كتاب الأفعال» للسرقسطى، الجزء الرابع، القسم الأول، فى باب الثلاثى الصحيح من «الواو» فعل «وشج» ص ٢٥٥، سابق.
(٢٦٨) حياة سيد المرسلين محمد ﷺ: لمحمد عطية الإبراشى، ص ص ٤٣ - ٤٤، طبعة أولى ١٩٨٠م، مكتبة مصر، القاهرة.
(٢٦٩) دراسات فى «السيرة النبوية»: د. حسين مؤنس، ص ص ٩٠ - ٩١، مرجع سابق ذكره.

(٢٧٠) فى الحديث «إن أنخع الأسماء أن يتسمى الرجل بملك الأملاك» أى أشدها إهلاكاً والعامة فى مصر تقول «فلان ينخع» أى يحكى الأهاويل التى لا أساس لها أ.هـ.

(٢٧١) نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز: لرفاعة رافع الطهطاوى، تحقيق وتعليق د. فاروق أبو زيد، الجزء الثانى، ص ١٢ - ١٤، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، دار الفكر والفن، القاهرة.

(٢٧٢) تهذيب السيرة ابن هشام: الأول، عبدالسلام هارون، ص ٥٦ سابق.

(٢٧٣) مازالت المعركة مستمرة بين تبع موسى وتبع محمد على اسم هذا الابن هل هو إسحق أم إسماعيل ورغم مرور أربعة عشر قرنا لم تصل الطائفتان فيها إلى حل.

(٢٧٤) وننتهز هذه المناسبة لنسطر أن عبدالله بن عبدالمطلب - أبا محمد - أطلق عليه القرشيون «يوسف مكة» لأنه من شدة وضاءته وقسامته أحرق قلوب نسونها ثيبات وعذارى أ.هـ.

(٢٧٥) السيرة النبوية: لابن إسحق، الأول، ص ١٩١ سابق.

(٢٧٦) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجانى، الأول ص ص ٢٢٤، ٢٤٥.

(٢٧٧) السيرة الحلبية: ص ٣٨٥.

(٢٧٨) السيرة الشامية: الثانى، ص ص ٣١١- ٣١٢.

(٢٧٩) الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء: لأبى الربيع الكلاعى، الجزء الأول، ص ٢٦٢ وما بعدها، تحقيق مصطفى عبدالواحد، الطبعة الأولى ١٣٨٧-١٩٦٨، مطبعة الخانجى، بمصر.

(٢٨٠) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ٢١٦.

(٢٨١) حياة محمد: لهيكل ص ٤٨.

(٢٨٢) قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، ص ٣٠٢، ٣٠٤.

(٢٨٣) تهذيب سيرة ابن هشام: لهارون الأول، ص ٦٠.

(٢٨٤) بحث جديد عن القرآن الكريم: لمحمد صبيح، ص ٢٠ - ٢١، الطبعة السادسة، دار الثقافة العامة بالقاهرة.

(٢٨٥) محمد رسول الله: ص ٤٨، جلال مظهر.

(٢٨٦) محمد رسول الله: ناصر الدين آتيين دينيه وسلمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ عبدالحليم محمود وابنه الشيخ محمد، ص ص ١٠٩- ١١٠، ط أولى ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.

(٢٨٧) العامة فى مصر تقول عن الشىء الزائف أو الفسيد مضروب «وهو تعبير جديد» مثل الشيك بدون رصيد أو قطعة الغيار المغشوشة أو العملة الورقية المزيفة... إلخ أ.هـ.

(٢٨٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٣٥٨ - ٣٨٨.

●●●

القرآن العظيم

الكتاب المقدس

أولاً: المصادر

١- «أخبار مكة وما جاء بها من الآثار» للأزرقى.
٢- «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» لعز الدين بن الأثير الجزرى.
٣- «أعلام النبوة» لأبى الحسن على الماوردى.
٤- «الاكتفاء فى مغازى رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء» للكلاعى.
٥- «إمتاع الأسماع بما للنبى ﷺ من الأبناء والحفدة والمتاع» للمقريزى.
٦- «إنجيل لوقا».
٧- «أنساب الأشراف» للبلاذرى.
٨- «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ناصر الدين الشيرازى البيضاوى.
٩- «تاريخ الإسلام» للذهبى.
١٠- «تاريخ الطبرى» تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم.
١١- «تاريخ اليعقوبى» لليعقوبى.
١٢- «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزى الكلبى.
١٣- «تفسير الجلالين» للحلى والسيوطى.
١٤- «تفسير النسفى» لابن بركات عبدالله النسفى.
١٥- «تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس» للفيروز آبادى.
١٦- «ثمار القلوب» لأبى منصور الثعالبى.
١٧- «الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبى» للقرطبى.
١٨- «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم الأندلسى.
١٩- «الخصائص الكبرى» للسيوطى.
٢٠- «الدرر فى اختصار المغازى والسير» لابن عبدالبر.
٢١- «الروض الأنف» للسهيلى.
٢٢- «زهر الخمائل على الشمائل - أوصاف النبى ﷺ» لجلال الدين السيوطى.
٢- «السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين» للمحب الطبرى.
٢- «السيرة الحلبية» لبرهان الدين الحلبى.

٢٥- «السيرة الشامية» للصالحى الشامى.
٢٦- «السيرة النبوية» لابن إسحق.
٢٧- «السيرة النبوية» للذهبى - تحقيق حسام الدين القدسى.
٢٨- «السيرة النبوية» لابن كثير.
٢٩- «السيرة النبوية» لابن هشام - تحقيق السرجانى.
٣٠- «شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام» لأبى ذر الخشنى.
٣١- «الطبقات الكبرى» لابن سعد.
٣٢- «الطبقات الكبرى» لابن السبكى - غير مباشر.
٣٣- «عيون الأثر» لابن سيد الناس.
٣٤- «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للقمى النيسابورى.
٣٥- «كتاب المسالك والممالك» لابن عبيد البكرى.
٣٦- «كتاب نسب قريش» لابن عبدالله بن المصعب الزبيرى.
٣٧- «مجاز القرآن» لابن عبيدة معمر بن المثنى.
٣٨- «مختصر سيرة الرسول» لمحمد عبدالوهاب مقدمة لمحمد حامد الفقى.
٣٩- «المختصر فى تفسير القرآن» أو «مختصر تفسير الطبرى» لابن صمادح التجيبى.
٤٠- «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» لفخر الدين الرازى.
٤١- «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزى.

ثانياً: كتب الأحاديث وشروحها:

١- «جمع الجوامع» أو «الجامع الكبير» لجلال الدين السيوطى.
٢- «صحيح البخارى».
٣- «صحيح مسلم».
٤- «فتح البارى شرح صحيح البخارى» لابن حجر العسقلانى.
٥- «فتح المبدى شرح مختصر الزبيرى» للشرقاوى.
٦- «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» لفؤاد عبدالباقى.
٧- «المستدرك» للحاكم النيسابورى - تحقيق مصطفى عبدالقادر.
٨- «المسند» لأحمد بن حنبل.

بخلاف العشرات من كتب الصحاح والمسانيد والجوامع والسنن والموط والمختارات والمنتقيات والمستخرجات والزوائد والمصنفات والزوائد... إلخ ا وردت بمتن الكتاب.

ثالثاً: المراجع:

١- «الأحلام» لتوفيق الطويل - غير مباشر من بحث بعنوان «تحليل ك الأحلام» بقلم د. حسن الساعاتى ص ١٠٠ من الكتاب التذكارى عن ت الطويل من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة بمصر.

٢- «الأحلام بين العلم والعقيدة» لعلى الوردى.
٣- إظهار الحق» للشيخ رحمت الله بن خليل الهندى «غير مباشر».
٤- «أوائل العرب عبر العصور والحقب» لحبوش.
٥- «تاج التفاسير لكلام العلام الكبير» لمحمد عثمان الميرغنى - الختم.
٦- «تاريخ الشعوب العربية» لجورج حورانى، ترجمة نبيل صلاح الدين.
٧- «تاريخ الصحابة والتابعين» لحمزة النشرتى وآخرين.
٨ «تاريخ القرآن» لعبد الصبور شاهين.
٩- «التفسير البيانى للقرآن الكريم» لبنت الشاطئ د. عائشة عبدالرحمن.
١٠- «التفسير الميسر» لمحمد سيد طنطاوى.
١١- «التفسير الواضح» لمحمد محمود حجازى.
١٢- «التيسير خلاصة تفسير ابن كثير» لمحمود محمد سالم.
١٣- «تهذيب سيرة ابن هشام» لعبد السلام هارون.
١٤- «حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين» للنبهانى - تحقيق حمزة النشرتى وآخرين.
١٥- «حياة الصحابيات» لحمزة النشرتى وآخرين.
١٦- «حياة سيد المرسلين» للأبراشى.
١٧- «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل.
١٨- «خاتم النبيين» لمحمد أبو زهرة.
١٩- «خديجة أم المؤمنين» لعبدالمنعم محمد عمر.
٢٠- «خلاصة السيرة النبوية وحقيقة الدعوة المحمدية» للسيد محمد.
٢١- «دائرة المعارف الكتابية» المحرر وليم وهبة.
٢٢- «الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور» غير مباشر.
٢٣- «دراسات في السيرة النبوية» لحسين مؤنس.
٢٤- «دراسات فى السيرة وعلوم السنة» لموسى شاهين وآخر.
٢٥- «الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول آى الذكر الحكيم» لحمزة النشرتى. وآخرين.
٢- «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين» لمحمد أبو شهبة.
- «دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ» لعبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف.
«دور المرأة فى خدمة الحديث فى القرون الثلاثة الأولى» لأمال قرادش بنت الحسين.
«دولة يثرب بصائر فى عام الوفود وفى أخباره» لخليل عبدالكريم.
الرحمة المهداة محمد ﷺ» لمحمد سيد طنطاوى.
الرحيق المختوم» للمبارك فورى.

٣٢ـ «الرسول فى بيته» لعبدالوهاب حمودة.
٣٣ـ «الرسول فى رمضان» لمحمد حسنى الخربوطلى.
٣٤ـ الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه» لعبدالحليم محمود.
٣٥ـ «زوجات الرسول ﷺ وتعدد الزوجات فى الإسلام» لأصلان عبدالسلام حسن.
٣٦ـ «سلام على النبى وأصحابه» لمصطفى بهجت بدوى.
٣٧ـ «سيرة المصطفى ﷺ» لعبد الزهراء عثمان محمد.
٣٨ـ «سيرة المصطفى ـ نظرة جديدة» لهاشم معروف الحسن.
٣٩ـ «السيرة النبوية» لأبى الحسن الندوى.
٤٠ـ «سيرة النبى محمد» لكارين أرمسترونج.
٤١ـ «شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ» لمحمد على الصابونى.
٤٢ـ «شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة» ثلاثة أسفار لخليل عبدالكريم.
٤٣ـ «صفوة السير» إعداد محمد حبش.
٤٤ـ «عبقرية محمد» لعباس محمود العقاد.
٤٥ـ «عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية» لحسن يوسف الأطير.
٤٦ـ «العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى» لخليل عبدالكريم.
٤٧ـ «علم الفولكلور ـ دراسة في المعتقدات الشعبية» لمحمد الجوهرى.
٤٨ـ «فقه السيرة» لمحمد الغزالى.
٤٩ـ «فى السيرة النبوية ـ الوحى والقرآن والنبوة» لهشام جعيط.
٥٠ـ «فى ظلال القرآن» لسيد قطب.
٥١ـ «فى منزل الوحى» لمحمد حسين هيكل.
٥٢ـ «قبيلة إياد من العصر الجاهلى حتى العصر الأموى» لمحمد إحسـ النص.
٥٣ـ «القديسة مريم أم المخلص» لملاك لوقا.
٥٤ـ «قصص الأنبياء» لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين.
٥٥ـ «الكوميديا الإلهية ـ النشيد الأول ـ الجحيم» لدانتى إليجيرى ـ تر. حسن عثمان، الطبعة الأولى ١٩٥٩، دار المعارف بمصر.
٥٦ـ «محمد الثائر الأعظم» لفتحى رضوان.
٥٧ـ «محمد» لتوفيق الحكيم.
٥٨ـ «محمد رسول الله» لجلال مظهر.
٥٩ـ «محمد رسول الله» لمحمد رضا.
٦٠ـ «محمد رسول الله» لمولاى محمد على.
٦١ـ «محمد رسول الله» ناصر الدين آتيين دينيه وآخر، ترجمة عب محمود وابنه محمد.

٦٢- «المسيح بين الحقائق والأوهام» لمحمد وصفى.
٦٣- «المسيحية» لأحمد شلبى «غير مباشر».
٦٤- «المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتى.
٦٥- «المصحف المفسر» لحمزة عبدالله النشرتى.
٦٦- «مع المصطفى فى عصر المبعث» لبنت الشاطئ.
٦٧- «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد على.
٦٨- «مكة والمدينة» لأحمد إبراهيم الشريف.
٦٩- «الموالد» دراسة للعادات والتقاليد البعثية فى مصر، لفاروق أحمد مصطفى.
٧٠- «موسوعة آباء الكنيسة» المحرر المسئول عادل فرج عبدالمسيح.
٧١- «موسوعة أمهات المؤمنين» لعبد الصبور شاهين وأخرى.
٧٢- «الموسوعة الإسلامية الميسرة» إشراف راشد البراوى.
٧٣- «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» للدكتورة فاطمة محجوب.
٧٤- «النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ» لعلى مبروك.
٧٥- «نساء النبى» لعائشة عبدالرحمن.
٧٦- «نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين» للخضرى.

رابعًا: المعاجم والقواميس وكتب المفردات:

١- «قاموس وبستر للعالم الجديد».
٢- «المعجم الوسيط» لمجمع اللغة العربية.
٣- «القاموس الموجز للكتاب المقدس» الطبعة الثانية ١٩٩٢م، مكتبة كنيسة الأخوة بمصر.
٤- «مفردات غريب القرآن» للراغب الأصفهانى، تحقيق محمد سيد كيلانى، طبعة ١٣٨١هـ/١٩٦١م، مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر.
٥- «لسان العرب» لابن منظور، باب أنقاب الحروف وطبائعها وخواصها، المجلد الأول، نقلاً عن كتاب «نقد العقل العربى - إشكاليات العقل العربى» لجورج طرابيشى، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار الساقى، بيروت، لبنان.
. «القاموس المحيط» للفيروز آبادى.
«المصباح المنير» للمقرى الفيومى.
«مختار الصحاح» للرازى.
«تاج العروس من جواهر القاموس» للزبيدى.
«المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية.
«المعجم الكبير» لمجمع اللغة العربية.
«تثقيف اللسان وتنقيح الجنان» لابن مكى الصقلى.
أساس البلاغة» للزمخشرى.

١٤ـ «نظام الغريب فى اللغة» لعيسى الربعى الوحاظى.
١٥ـ «المذكر والمؤنث» لأبى بكر الأنبارى.
١٦ـ «قاموس العادات والتقاليد المصرية» لأحمد أمين.
١٧ـ «تصحيح الفصيح وشرحه» لابن درستويه.
١٨ـ «المختار من صحاح اللغة» لمحمد محيى الدين عبدالحميد وآخر.
١٩ـ «إصلاح المنطق» لابن السكيت.
٢٠ـ «مختصر العين» لأبى بكر الزبيرى الأشبيلى.
٢١ـ «كتاب الأفعال» لأبى عثمان سعيد المعافرى السرقسطى.

ملحوظة تهم القارئ:

تاريخ النشر ودار النشر والمدينة التى صدر فيها الكتاب جميعها مرقوم تفصيلاً فى الهوامش.

ملحوظة أخرى:

هناك العديد من المصادر والمراجع والمعاجم... إلخ لم يتم رصدها فى هذا المثبت.

●●●